تاريخ الجزائر

تأليف
الأستاذ مجاهد مسعود

الجزء الأول

تاريخ الجزائر

تأليف
الأستاذ مجاهد مسعود

الجزء الأول

رقم الإجازة
٢٨٢/٩٤

المملكة الأردنية الهاشمية

نقابة المحامين

إجازة محاماة

ليكن معلوماً أن السيد مسعود مجاهد الجزائري من عمان ....

مجاز بتعاطي مهنة المحاماة في المحاكم النظامية في المملكة الأردنية الهاشمية

بمقتضى قانون نقابة المحامين النظاميين وسائر القوانين الأخرى المعمول.

صدرت عن مجلس نقابة المحامين النظاميين بعمان

في هذا اليوم الثامن .... من شهر آب .... سنة ١٩٦١ م.

نقيب المحامين

REPUBLIQUE ALGERIENNE

MINISTERE
DE
L'EDUCATION NATIONALE

REF. ____________

الجمهورية الجزائرية
وزارة التربية الوطنية

ALGER, le ...... الجزائر في ١٩٦٣/١/٨

رقم التسجيل ٢٢/٠٠

حضرة الاخ الاستاذ محمود مجاهد

تحية أخوية .

تسلمت رسالتكم الكريمة وسررت لنشاطكم في خدمة الجزائر وتاريخها . هذه الصفحات التي لاتزال في حاجة الى من يورقها .

وأشكركم على النسخ التي خصصتم بها وزارتنا وتنازلكم عن طبعها مساعدة لكم للوزارة في رسالتها الحسنة

لكم جزيل الشكر . وفائق الاحترام .

أخوكم

المكتبة الوطنية.

الجزائر.

الجزائر ١٩٦٦/٥/١٠

الرقم ٣٦١

حضرة الفاضل الاستاذ محمود مجاهد المحترم.

تحية طيبة.

وبعد فقد تلقينا كتابكم الكريم المؤرخ في ١٩٦٦/٢/١٢ والمتضمن طلبكم معرفة مؤلفاتكم الموجودة في المكتبة الوطنية لتتكرموا باهدائنا تتمة مجموعة هذه المؤلفات القيمة ،ونعلمكم أن الموجود لدينا من كتبكم هي :

١) الجزائر عبر الاجيال (الطبعة الثانية).
٢) تاريخ الجزائر الحرة.
٣) انهيار خطط الاستعمار الفرنسي في الجزائر.
٤) أضواء على الاستعمار الفرنسي للجزائر.

نشكركم أجزل الشكر على مجهودكم في سبيل ابراز تاريخ الجزائر ومساهمتكم الفعالة في اغناء المكتبة التاريخية العربية مما يقدم لرواد العلم والمعرفة من الاساتذة والباحثين والطلاب أجل الخدمات.

وتقبلوا فائق الاحترام.

ودمتم

المدير العام للمكتبة الوطنية.

محمود بوعياد .

وزارة العدل

الــــوزير

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

الجزائر في 16 جانفي 1971

من وزير العدل ، حافظ الأختام

إلى

السيد مسعود مجاهد

المدافع القضائي ، بالحراش .

الموضوع: طلب إذن في نشر كتاب .

المرجع : رسالتكم المؤرخة في 11جانفي 1971 .

ردا عن رسالتكم المشار اليها بالمرجع ، يشرفني أن أخبركم بأننا قد اطلعنا على مقدمة تأليفكم لكتاب " تاريخ الجزائر "

فلهذا أعلمكم أننا لا نرى مانعا في نشره ، راجيا لكم تحقيق هدفكم الذى يرمي الى التعريف بتاريخنا المجيد إذ لا سبيل لنا أن نتجاهله أو نتخلى عنه .

ولكم الشكر والسلام .

وزير العدل ، حافظ الأختام

بوعلام بن حمودة

بسم الله الرحمن الرحيم

الامانة تقضى بان نعتــرف بفضل الكثيرين من العلماء والاساتذة الذين دونوا التاريخ الاســلامى لا على أنه تاريخ ملوك فحسب ، بــل على أنــه تاريخ حضارة وثقافة • وفى طليعة هؤلاء عبد الرحمن بن خلدون ، والطبرى ، وابن خليكان ، والشيخ مبارك الميلى ، واحمد توفيق المدنى ، وطــه حسين ، وشكرى فيصل ، وكثيرون غيرهم •

ولكن من الحق ايضا ان نقول ان أى واحد من هؤلاء لم يــدع انه قال الكلمة الاخــيرة فى التاريخ ، بل ربما كان عملهم تمهيدا لاعــادة كتابة التاريخ العربى برمته • لكن مثل هذا العمل الضخم لا يمكن ان يكون عملا فرديا ، بل لا بد أن يكون عملا جمـــاعيا تتعهــده وتشرف على تنفيــذه الحكومات والمؤسسات العلميــة الــكبرى والجــامعـــات •

اهداء الكتاب

اهدى كتابى هذا لأرواح شهدائنا الأبـرار ، الذين لم ترهبهم قوة العدو ، وعدده ، وعدتـه ، وتقدموا لساحة الوغى وهم يرددون :

وانـك عبـدى يا ظلـوم وانـنى
عـلى الرغم منى أن أرى لـك سيدا

اهديه لهذه الأرواح الزكية . لأنها ضحت بكل مرتخص وغـال ، جاعلـين نصب اعينهـم اما أن يموتوا شهداء أو يعيشوا كراما .

اهـديه اليهم لأنهم كافـحوا كفـاحا بطـوليا يضاهى ـ نصا وروحا ـ كفاح أوائلهـم ، الذين اعترف لهم القاصى والدانى بأنهم عباقرة .

وأخيرا ، وليس آخـرا ، أهديه لهؤلاء الـذين فرضوا ارادتهم على الدخلاء ، وأرغموهم على أن يخرجوا من أرضهم بخزى كما دخلوا بعـار .

اهـديه اليهم لأنهم هـم صانعوا الثـورة التى اصبحت تعرف بمعجزة القرن العشرين .

كلمة المؤلف

أروع ما فى تاريخ الجزائر أنها عاشت حقبة طويلة من تاريخها سيدة البحار ٠

حاول الهولنديون والبنادقة وفرسان مالطا والجنويون والنابوليون أن يقهـروا أسطول الجزائر ، ولكنهم عجزوا وارتدوا خائبين ٠

وارسلت فرنسا أسطولا ضخما قوامه 60 سفينة تحمل 7000 جندى سنة 1661 ، فمنى بالفشل !

اقحمت الولايات المتحدة نفسها فى هذا الصراع سنة 1815 فلم تكن أحسن حظا من غـيرها ٠

وجاء الانجليز ــ سادة البحار كما يزعمون ــ فى السنة ذاتها بأسطول عظيم الى الجزائر ، وفتحوا أفواه 300 مدفع ألقت 34،000 قذيفة ، وارتدوا خائبين ٠٠٠ وأعادوا الكرة سنة 1824 فلم يظفروا بطائل ٠

هذا الموقف المشرف يؤيد أن لكل أمة تاريخا ، ولكل منها صفحات عن هــذا التاريخ مطوية ، تلجا اليها كلما دهمها أمر ٠ أو أرادت أن تضع نفسها فى الموضع الصحيـح ٠

فهى تلجا اليها فى الاولى لتستلهم من حوادث الايام العبرة والعظة الحسنــة ، ولتتبين الطريق السوى الذى تنتهجه للتغلب على ما يعترض سيرها من صعـــاب ، ولتستمد منه القوة والتصميم على بلوغ الهدف وتحقيق الغاية ٠

وتلجا اليها فى الثانية حين تفاخر الامم بعضها بعضا بالامجاد السالفة والنهضات المشرفة ، وهى اذ تفعل هذا أو ذاك انما تريد أن تلفت النظر دائما الى الماضى ٠٠٠

الماضى الذى لا تستطيع أن تعيش منعزلة عنه ، والذى لابد أن يتجدد أمام الاعين وفى القلـوب ليخطـو الافـراد دائما على ضـوء تجاربه ، وليتدبر المجاهدون والمصلحون اتجاهاتهم العامة وأهدافهم القريبة والبعيدة بنتائج أحداثه ٠

والجزائر فى مقدمة البلاد التى لها تاريخ طويل حافل بالامجاد وصفحات هـــذا التاريخ أول ما خطه الزمن فى سجل البشرية ، وأول ما دونـه فى كتاب الحضارة ، والجزائر غنية بتراثها المجيد ، وهى غنية بنهضاتها المشرقة ، وهى غنية برجالاتها الذين خلدوا أسماءهم وبلادهم على مر الزمن ٠

وان الاحداث الهامة التى شهدتها الجزائر والتطورات الخطيرة التى تمت منـــذ اليوم الاول من تشرين الثانى سنة 1954 على وجه التحديد ، لتجعل الانسان يقف طويلا يفكر فى هذه الاحداث وهذه التطورات ، ويحاول أن يزيح الستار عن الماضى لعله يجد صلة بينه وبين الحاضر الذى نعيش فيه ٠ وبين المستقبل الذى نتطلع اليه ٠

ولن يجهد المؤرخ نفسه كثيرا فالصلة واضحة فى الممهدات خلال تلك المدة الطويلة منذ ان بدأ الشعب يدرك ان له كرامة وأن له وجودا ، وعليه أن يحافظ على كرامته ، وأن يثبت وجوده وعليه أن يواجه الحقائق بنفسه ، وعليه أن يثور وأن يشق عصا الطاعة ، وأن يرفع للحكم من يتوسم فيه القوة والعدل والعطف وحب البلاد وطهارة القلب ونظافة اليد ٠

والصلة قوية بين الماضى والمستقبل فى هذا الشعور بالمجد القديم وبان الجزائر مهد الحضارة ، ومنبع الاشعاع ، وملهمة الفنون ، لابد لها من أن تعيد ذلك كلـه ، وهى اذ تصمم على تحقيق ما تصبو اليه وتهدف له ، انما تصمم عن عقيدة راسخة ، وبقوة وعزم ثابتين ، وليس من شك فى أن الوطن العربى يشاركها فى مثل هـــذا المجد القديم ، والقوة والاصالة ٠

وهذه الجزائر التى أصبحت كعبة القصاد للقاصى والدانى قبل أن تصبح عربية مسلمة دما ولحما ، كانت ميدانا لمختلف المذاهب الدينية التى كانت تقيمها وتقعدها ٠

وقد أنشأ الرومان والبيزنطيون مدنا مهمة فى افريقيا وقد زينوها بمختلف المبانى التى لا تزال خرائبها باقية وقد كان نفوذهم مع ذلك محليا فلم يتعد حـدود المدن ٠ فهم وان افتتحوا افريقيا لم يستعمروها ٠

وبفتح العرب لبلاد الامازيغ حدث تطور عجيب فيهم فاصبحوا مندمجين بالتفاعل الاجتماعي والاقتصادي مع العرب ويشعرون بأن ذاتيتهم سواء أحسوها دينية أم نسبية أو لغوية أو ثقافية ذاتية لهؤلاء الفاتحين ولم يعودوا يعرفون ذاتيتهم الا من خلال هذا الكل الجديد الذي أصبحوا جزءا منه ٠

والتاريخ شاهد على أنه لم يحدث للجزائريين مثل هذا التحول الكياني الشامل الا في ظل الفتح العربي ٠

ومعنى هذا أن فكر هذا الكل في ثقافته وحضارته انما هو للجزائر كما هو لكل جزء آخر من أجزائه ـ ومعناه أن ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن خلدون هم جزائريون بقدر ما هم فرس أو أندلسيون أو تونسيون : فهؤلاء المفكرون هم أبناء الحضارة التي تنتسب اليها الجزائر مختارة ، وانتاجهم الفلسفي والديني جاء وليد تجربة تاريخية عقلية عامة شاركت فيها الجزائر ، وان كان من الطبيعي أن تختلف مشاركتها ومشاركة الآخرين في الشكل أو الفعالية ٠

وقد اجتهدت في اختراق الحجب التي أسدلت جهلا أو عمدا على انفعال الجزائر بالتراث العربي وفعلها فيه ، فطالعتها حقائق يبرز الفكر العربي في نورها حيا في تاريخ الجزائر منذ القرن الثامن حتى يومنا هذا ٠

وقد تجلت هذه الحياة فيما نشأ في الجزائر في مختلف عهود الحكم العربي من مراكز علمية وفيمن نبغ فيها من علماء ومفكرين وحكام ٠ وبدأت تظهر الى الوجود منذ أخذت مقاومة الجزائريين العنيفة للاسلام في أول الفتح تتحول الى اندفاع أعنف في سبيله وبعد أن اعتمده الجزائريون دينهم ، فكان التبني الاندفاعي للدين وللغة المقدسة منطلق المشاركة في تراثها الروحي ٠

ومن أهم ما أنشىء من مراكز علمية مكتبة « المعصومة » التي أسسها الرستميون في الجزائر ، فحوت مجموعة نادرة من كتب «العلوم والتاريخ والرياضيات» ٠ ومدينة العلم ، التي كانت في عهد الموحدين ناديا يجتمع فيه العلماء «للمجادلة الحسنة وللتحقيق والتدقيق». ومدارس تلمسان التي تبارى في تأسيسها أمراء بني زيان وأمراء بني مرين، والكثير منها لا يزال باقيا حتى الآن ، وقد أرادها الامراء مدارس لتدريس « العلوم العقلية والدنيوية والرياضية » تكملة لما كانت تقدمه حلقات المساجد من دروس دينية

مساعدة للطلاب على أن يجدوا فى المدرسة ما لم يكن يجدونه فى المسجد من مسكن ومأكل وملبس ·

انتشرت هذه المدارس من تلمسان الى جميع الانحاء الجزائرية ، ولكن التلمسانى منها كاد يضاهى مدارس بغداد والقاهرة وقرطبة ·

وقد شهدت هذه المكتبات ، والمدن ، والمدارس ، والجوامع ، علماء جزائريين تعرض بعضهم للتوغل فى الابحاث ، والموصوعات · منهم محمد بن الوارق الذى نبغ فى علم الجغرافيا وألف كتاب « خطط المغرب » تناول فيه جغرافية افريقية الشمالية · ومنهم امام الخواج الاباضية العلامة الشيخ أبو عبد الله بن بكر النفوشى ، وابنه بوارجلان الذى الف كتبا تعتبرها الاباضية مراجع فلسفتها ومذهبها ككتاب « أصول الارضين » و « أحكام الحرب » و « الجامع » الخ ···

ومنهم الشيخ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلانى مؤلف كتاب « الدليل والبرهان » فى الكلام ومبادىء المنطق والهندسة وكتاب « العدل » فى أصول الفقه ·

ومنهم أحمد بن يحيى الذى ألف فى القانون الدستورى كتاب « الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية » ·

ومنهم المؤرخ الشاعر المشهور المقرى مؤلف « نفح الطيب » أهم مرجع لدينا عن الادب الاندلسى ·

وهناك غير هؤلاء كثيرون وضعوا مؤلفات أكثرها فى الفقه والصرف والادب ·

واستمر انتاج الجزائريين الفكرى دولا بين أهل العقل وأهل النقل الى أن حل العهد العثمانى وحل محله الجمود الفكرى وما رافقه من انتصار أهل النقل واقتصار التاليف عليهم ·

وظل الفكر العربى فى الجزائر فى « معتقله العثمانى » وفى ظهوره النقلى الى أن ظهرت أول بادرة جزائرية حديثة صادقة فى ثورة الامير عبد القادر ، فقد جمع الامير الحكمة والحكم معا ، وكانت له مشاركة قيمة فى الابحاث الدينية والتاريخية والكلامية فى بلده وفى العالم الاسلامى كله ·

وتبدو روح الامير العربية واعتزازه بالتراث الاجتماعى العربى فى رده على أحد قواد الحملة الفرنسية على الجزائر الذى رمى العرب فى عشرين سوالا وجهها الى الامير

باتهامات شتى حول موقفهم من المرأة محورها قول القائد الفرنسى للامير : « بلغنا عن العرب أن أحدهم لا يحترم زوجته ولا يحسبها الا كخادمة له ٠٠٠ » فأجاب الامير : بل المرأة خلاف ما سمعتم ، فان المرأة لها حرمة عظيمة عند العرب ، وذلك انهم يحبون النساء كثيرا ومن لازم المحبة الاحترام قال رسول الله لاصحابه : « خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلى ٠٠٠ » ٠ وأضاف لذلك استشهادات من أقوال لمعاوية وهارون الرشيد والمامون وبعض الشعراء كلها فى تكريم المرأة واحترامها ٠

وظهرت عناية الامير العظيم بالفلسفة فى محاولته شرح قول الامام الغزالى المعروف (ليس بالامكان أبـدع مما كان) ٠ فقد كان علماء الاسلام يوجهون اليه أمثال هذه الاسئلة اقرارا منهم « بأنه الامام المقدم فى العلوم ولا سيما فيما أفاض الله عليه من علـــوم القـــوم » ٠

فكان من أجمل وجوه شرحه لقول الغزالى المذكور أعلاه : « ان الآثار الكونية دلت على المعانى الالهية والحقائق الربانية والمعانى الالهية ، كما دلت على وجود ذات الاله المعبود » ٠ فما فى العالم حقيقة كونية كلية أو جزئية الا ولها حقيقة الهية كلية أو جزئية تقابلها فهى مستندها ومحتدها ٠ فالنسخة الكونية مقابلة للنسخة الالهية ٠ ولا يلزم من علم هذا علم صحة قول حجة الاسلام الغزالى رضى الله عنه « ليس فى الامكان أبدع ولا أكمل من هذا العالم » ٠ والله نفسه هو الذى أراد التقابل بين المعانى الالهية ومخلوقاته الكونية » ٠

فقول الغزالى اذن شهادة بقدرة الله على هذا الابداع المعجز ، وليس تعريضا بعجز الله عن خلق العالم على صورة أخرى كما ادعى بعض أهل الكلام ٠

وان تمسك الجزائريين بتقاليد الاسلام والالتفاف حول تعاليمه جعلت منهم شعبا يؤمن بالمبادىء الصحيحة التى تأبى الضيم ولا ترضخ للخنوع والذل وهذا ما يفسر وثبة الجزائر العارمة التى أيدها كل الشعب ٠

تقديم الكتاب

بقلم
اسعد بيوض التميمي
مدير دار الايتام الاسلامية ـ القدس

وانبثق النـور من بطحاء مكـه ، وحمله محمد صـلى الله عليه وسـلم وصحبه . وانطلقوا في ارجاء الارض يعطونها فكرا مستنيرا ، وثقافة عميقة ، وحضارة مضيئة .

وقامت دولة ، عاصمتها يثرب ، أخذت رقعتها تتسع ، وبرها يمتد ، حتى افاقت الدنيا ، فاذا هي في ظل ارحم راية وأعدل شرع .

وانكمش الشيطان على نفسه ، وانزوى الفساد في الارض ، وعرفت الدنيا طعـم السعادة ، وما عاد الانسان فيها يشقى .

وصاحب النمو السياسي ارتفاع فكري ، واصبح المفكرون بالألوف يجوبون المشرق والمغرب ، لا حواجز ولا سدود ، وكانت دمشق ، وكانت بغداد ، وكانت قرطبة ، وكانت القاهرة ، واستنارت الدنيا بنور الاسلام ، وعرفت طريقها لاول مرة في تاريخها .

ومرت القرون وتتابعت الايام ، والناس في دعـة وسعادة ، حتى اذا ركنوا الى انفسهم واجتزوا فكرهم ولم تعد فيهم العقول المبدعة ، وصاحبوا التقليد فجمد فكرهم ، واخذوا في التدهور والهبوط ، واستيقظ الغرب من سباته ، بعد ان اعطته بغداد من فكرها ، وقرطبة من علمها ، وسار في طريق الحياة ، واخذ باسباب القوة ، وعاد الصراع قويا ، وطبول الحرب تدق ، وكانت الحروب الصليبية ، وانتصر الصليبيون ، وكانت

هزيمة وكان بلاء ، ولكن بقية من فكر فى الامة لم يلحقها العفن ولم تغطه الضلالة دفعها الى الاستشهاد والى الوحدة ، فكانت جولة ، وكان انتصار ، وعاد الغرب يجر أذيال الخيبة وعار الهزيمة ، وركنا الى انفسنا مرة أخرى ، وعشش الظلام ، وخبا نور الفكر ، وانطفأ لمعان الثقافة ، وسرى فى الامة المرض ، واصابها الضعف ، وكان الغرب يرقب حتى اذا سنحت له الفرصة أعاد الكرة ، ونزل على شواطئنا ، واقتسم الديار ، ووزع الغنائم • وكانت انكلترا عدوة المسلمين الاولى وفرنسا حامية الكنيسة يتنافسان على الغنيمة ، ولحق بهم من لحق من دول أوروبا وأعوان الصليبية ، وبدأت فرنسا فى قلب المغرب ، فى الجزائر ، حربا فكرية عنيفة أرادت تغيير معالم الحياة ، وتبديل القوم ، ومسخ الفكر ، واستئصال الاسلام ، وقتل لغة القرآن •

وقاتل الجزائريون ، وصبروا وصابروا ، وكانوا ينتقلون من ثورة الى اخرى ، وفرنسا تضع القوانين ، وتسن الانظمة ، وتخرج المرسوم تلو المرسوم ، وتستعمل حقدها الصليبى وعنجهيتها القومية وكبرياءها المتغطرس •

وتمر فترة وتتوالى الليالى وتتلاحق الايام ، حتى اذا ظنت (أم الحرية) ان الامر قد استتب لها ، وان الجزائريين قد استكانوا ، وبدأوا يتذوقون فكرها الماجن ، ومدنيتها الخليعة ، وحضارتها المفلسة ، فاذا دخان من تحت الرماد ينتشر ، واذا لهيب واذا استشهاد ، واذا ثورات • وتبدأ فى الحلقة المفرغة سن للقوانين ، وتغيير للانظمة ، وفتك بالابرياء ، وقتل للاطفال ، وهتك للاعراض ، كل هذا وهى تتغنى بأناشيد الحرية ، وتعيش على أنغام من المجد ، لانها تقوم بتمدين شعب وتحضير أمة ••• ؟

وانتهت الحرب العالمية الثانية ، بعد ان قاتل الجزائريون دفاعا عن (شرف فرنسا) وكان الالمان قد دخلوا باريس يطئونها باحذيتهم الثقيلة ، ويسمعون الفرنسيين موسيقى مجدهم الضائع • وذلهم الذليل ، وتحررت فرنسا بجنود الحلفاء وابناء المستعمرات ، وهزم الالمان ، وخرجوا من باريس ، وطلب الجزائريون حقهم فى الحياة ، وقرعوا أسماع الدنيا بايد مخضبة بالدماء ، وافاق المجد الفرنسى الذليل الذى هزمته كتائب الالمان ، وفر من الميدان ، فوجد هنا معركة غير متكافئة ، وعدوا لم يحمل السلاح ، فقتل من الجزائريين عشرات الالوف بشكل جنونى جبان • وفى هذا العام تقرر خروج فرنسا من الجزائر ، وجاء عام المجد ، عام 1954 ، وقررت الحرب وقرعت طبولها ، وتسلق الاسود الجبال ، وزأر الابطال ، وارتاعت باريس ، وارجفت القلوب ،

واسقطت الحكومات ، وتبدلت الجمهوريات ، وطرد القواد ، وجيشت الجيوش ، وكثر القتل ، وبدأت العنجهية الفرنسية تخبو ، والكبرياء يـذل ، وكانت الابطال يخلفها الابطال ، وصار الاستشهاد صنعة ، والموت حرفة ، وعلمت الجزائر الدنيا كيف يؤخذ الحق ، وكيف يدفع الباطل ، وبأى ثمن تحرر الامم • فكانت معركتها فى تاريخ المسلمين مفخرة ، تضاف الى الصفحات اللامعة مـن تاريخنا ، نضيفها الى القادسية ، ونقرنها باليرموك ، ونسويها بحطين •

وطريق المسلمين للعمل لعزتهم مرسوم فى كتابهم : جهـاد بالانفس والاموال ، واستشهاد ، وتضحية ، عرفته الجزائر فتحررت ، واتبعته فنالت ، فما بالنا نريد ان نحرر فلسطين بفرقعة الخطب وحماس الاناشيد وانغام الموسيقى •

ان كل طريـق لتحرير فلسطين لا يسير على نهج اليرموك وعبـر القادسية مـارا بحطين وأوراس هو طريق مصنوع من الدجل ، ومعجون من الخيانة والخداع •

وكتابنا اليوم ، الذى نقدمه لامتنا ، فيه من تاريخنا تاريخ ، ومن آلامنا آلام ، ومن آمالنا آمال ، ولنقرأ تاريخنا ، ولناخذ منه الزاد الذى يقـوينا فى معركتنا التى نخوضها : وصراعنا مع الباطل الذى لا يلين • ومنه يعرف ان قمة المجد تنال بالتضحية وتؤخذ بالعناء ، وان الانسانية التى اشقاها فكر الغرب الآسن فى حاجة الى فـكرنا والى حضارتنا تظلها من جديد • نقف فى منتصف الطريق نشير الى درب السعادة ، وناخذ بيدها اخذ المعلم ، ننقذها من القلق الذى تعيشه ، والاضطراب الذى أفسـد عليها أمرها ، ولقد قدناها فكنا نعم القادة ، وعلمناها فكنا نعم المعلمون ، وانتشلناها من عفن الجهل وضحالة الفكر ، فهلا عدنا الى قيادتنا الفكرية نقود بها الدنيا فنصبح مبدعين لا مقلدين ، نعطى ولا ناخذ ، ونعلم ونثقف وفى مبادئنا حياة هى الحياة ، وفى رسالتنا اشباع لغرائز البشر بشكل صحيح متناسق ، تبقى للانسان انسانيته ، فلا يستقل منفردا أنانيا ، ولا تطغى عليه الجماعة فيذوب فيها ، فلا ناخذ نظمنا الاقتصادية من شرق أو غرب ، وانما نستقى من النبع الرقراق فنصل أسباب حياتنا بأسباب السماء ، وان الذى يتمعن فى تاريخ الجزائر يخرج بالنتيجة المذهلة ، وهو ان الذى ابقى للجزائر شخصيتها وحفظ عليها امرها هو هذا القران ، تتدارسه فى الكتاتيب ، وتقرؤه فى المساجد ، وتتلوه فى البوادى والجبال ، ولولاه لكان للجزائر امر آخر ، ونتيجة غير الذى نرى •

ولقد استهلت حكومة الجزائر عملها بارجاع الاذان يلعلع فوق مسجد العاصمة الذى حوله الكفر الى كنيسة ، وجعل النواقيس تدق من فـوقه تحرق للجزائريين أعصابهم ، وتذكرهم ذلهم الذى كانوا يعيشون فيه ، وانها لبادرة طيبة وخطـوة موفقة تدل على ايمان فى النفوس ، وتوثب للعمل من اجل الاسلام •

ولقد انتهى عهد الحرب وأيام الشقاء •

ومعركة السلم ان لم يغذها ايمان بالله عميق ، وارتفاع فوق الانانية مشرق ، واخذ من تاريخ الامة فى صدر الاسلام منير ، اضطرب عليها الامر ، وتلجلج الفكر ، ووخمت العاقبة ، وقى الله الامة فى الجزائر وفى سائر أجزائها العثرات ، وأوصلها الى مجدها المبتغى ، وعزها المرتقب ، وانا لواصلون باذن الله •

مقدمة الكتاب

يسعدني أن يكون كتابي هذا في متناول مواطني ليقرأوا صفحات أعرض فيها صورة من حياة البطل الجزائري الامير عبد القادر بن محيي الدين الذي كرس حياته لخدمة الانسانية وضحى بالنفس والنفيس لا في سبيل أرض الجزائر فحسب ، بل في سبيل أراضي العروبة جمعاء ٠

ان النصر قد عقد لبطلنا هذا ومشى في ركابه الخير لما كان له من قدرة في الحرب وما تيسر له من صدق الايمان وجلال الفروسية وهبة الرجولة ٠

ان المرء اذ يمعن النظر في صيرة من سيره الكثيرة تبهر نفسه بما ركب الله فيه من ايمان وما اقتدرت عليه من جهاد في سبيل العروبة والاسلام ، والغريب أن مؤرخي الفرنج اعترفوا بمكانته حيث قالوا : « لقد بلغ أمر بلاد الجزائر في عهد الامير من الامن في حالة لوسارت البكر الجميلة في صحاريها وقفارها حاملة نفائس الجواهر على رأسها ما وجدت من يسالها فضلا على من يتعرض لها بسوء » ٠

فان كان هناك كتاب لا يمتون للعرب او للعروبة بصلة يهتمون نوعا ما بما وصل اليه أبطالنا من أمجاد ، أفليس من العار علينا الا نقتفي آثارهم ونجعل نصب أعيننا ما أدوه من خدمات جلى نحو الوطن العزيز ونشيد بذكرهم ونرفعهم الى المراتب العليا من التقدير والاستحسان ؟

على أننا ان قمنا بهذا الواجب ولا اخال أن بين كتابنا من يتخلف عن هذا الواجب ، فاننا نكون قد اعترفنا بمالهم علينا من أياد بيضاء حفظها التاريخ وسجلتها العروبة وتناقلتها الناس في كل مكان ٠

أليس من العار على نشئنا أن يعرفوا عن شهداء المسيحيين أكثر مما يعرفونه عن شهدائنا العظام الذين شادوا بدمائهم تاريخ الامة العربية ورفعوا قواعد الاســلام وتقدموا الى ساحة الوغى بحزم وعزم جاعلين نصب أعينهم أنهم يذودون عن الوطن والدين حتى يشمخ الوطن وتعلو كلمة الدين .

ان كفاح الامير فى أرض الجزائر انما هو جزء لا يتجزأ من الكفاح العربى وان ما قام به الامير من نضال مرير دام سبعه عشر عاما ، ان كان يدل على شيء ، فانما يدل على أن عمر العروبة فى الجزائر لا يقل عن عمرها فى البلاد العربية الشقيقة .

والجزائر كسائر الاقطار العربية كانت عضوا فى الدولة الاسلامية الكبرى ، منذ فجرها الوضاء ، كما شاركت فى المآسى التى حلت بالدولة الاسلامية بعد ذلك فضلا عن هذه المشاركة العامة ، وقفت الجزائر درعا واقية للعروبة والاسلام ضد الموجـة الاستعمارية الصليبية التى اجتاحت أوروبا فى عصورها المظلمة .

والواقع أن عندما ورث العثمانيون الدولة الاسلامية الكبرى ، كانت الجزائر عضوا فيها ولكنها كانت العضو الممتاز ، لها أسطولها القوى الذى سيطر على البحر المتوسط سيطرة تامة حتى الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، بالرغم من أن ذلك الاسطول كان أقوى أساطيل أوروبا ، مما جعلها تجثـو على أقدام الجزائر ، وتعلن ولاءهـــا وتخطب ودها وتدفع الجزية لها اعترافا بتلك السيادة البحرية .

وبالرغم من قوة الجزائر فانها لم تستخدم تلك القوة معتدية ، أو مستعمرة بـــل للدفاع عن نفسها وعن العرب والمسلمين ومساندة لكـل مكافـح فى سبيل حريته واستقـــلاله .

خرجت أمريكا من حربها التحريرية التى تخلصت فيها من السرطان الانجليزى تبحث عمن يمد لها يده معترفا باستقلالها الوليد ، فكانت الجزائر لثقتهـا بنفسها ، وفى أسطولها أول من مدت يدها لامريكا عن قدرة ورغبة فى مساعدتها .

أما فرنسا التى تمشدق الملك شارل العاشر فى خطاب العرش فقال : « ان العمل الذى سأقوم به فهـو ترضية للشرف الفرنسى وسيكون بعون العـلى القـدير لفائدة المسيحية كلها » .

على أن ملكها هذا قد سولت له نفسه أن يتخذ من الجزائر ذريعة لاخماد الاضطرابات والفوضى التى عمت بلاده وأراد أن يلهى الشعب بهذه المغامرة التى دام عمرها 132 سنة.

ان الثورة التى رسم خطوطها الامير ، قد أينعت وتمكن الجزائريون من احراز النصر المبين ، بعد أن تمكن الوعى من ايقاظ النائمين وذلك لان شخصيتنا الجزائرية قوية ، لا يمكن باية حال أن تنسى أو يتناساها كائن على وجه الارض .

الشخصية الجزائرية

عاشت « الشخصية الجزائرية » واضحة المعالم خلال تاريخها كله منذ أن كان للعرب كيان الى ما قبل الاسلام ، حيث كان يتمثل فى الشهامة والاريحية والكرم وحماية الذمار والوفاء بالوعد والنجدة ، ونصرة المظلوم ، الى أن جاء الاسلام فأعطى هذه الملامح قوة ووضوحا ، ودفعها الى الاستمرار وأمدها بالحيوية وفى خلال هذا الزمن الطويل عبر القرون ، لم تفقد الشخصية الجزائرية ملامحها وان أصابها الضعف والذبول آنا بعد آن الا أنها كانت لا تلبث أن تستعيد قوتها الجارفة عندما يظهر فى افقها منقذ جديد يملأ روحها بالاشعاع ويدفعها لكى تستعيد ما فقدته من آلارض فاذا هى بعد قليل فى مكانها المرموق .

والحقيقة الكبرى التى نريد أن نؤكدها هنا أن شخصيتنا لم تحتمل الذل الا بقدر ما كانت تتاهب لدفعه ولكنها لم ترض عنه يوما ما ولم تنحن له قط ، وأنها تثور دائما على الظلم وتدفع بالطغاة الى الهلاك وتقاوم المعتدين .

ومهما يكن الجهاد فى سبيل الحرية والكرامة قد استنفد جزءا كبيرا من جهدنا وامكانياتنا ، فانه جعل الدعوة الى الحرية طابعا من أبرز خصائصنا وعنوان نضالنا .

وليس شك فى أن الشخصية الجزائرية لم تقبل الانصهار فى أية قوة غازية وظلت ملامحها قوية لا تتأثر ، وشخصيتنا قوية لا تتزعزع أمام الموجات العاتية التى كانت تميل عليها فى عنف وتجثم على صدرها فى جبروت .

لقد قاومت العثمانية والفرنسية كل مقدارتنا ، قاومت اللغة والتراث ، وحملت عليه فى تعصب بالغ ، وحاولت أن تجعل لغتها لغة الدواوين والقوانين والمحاكم والمدارس ، ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح ، ولم تكن له من نتيجة الا أنه دفع هذه الشخصية فى عناد واصرار لتحافظ على مقوماتها ومقدراتها .

عاشت « شخصيتنا » فى ظل العثمانيين ثلاثة قرون بل تزيد ولم تتحول قط ملامحها ، ولم تستطع تركيا أن تكرهها على هذا التحول أو تذيب شخصيتها .

والذى ينظر الى شخصيتنا ويحصى أمجادنا ومواقفنا ، يأخذه العجب عندما يرى هذه الموجة الجارفة التى قبعت من ورائها فرنسا ، من الالحاد والاباحية والاستشراق

والتبشير ، وحشد القوات فى أثواب العلماء والتجار والمدارس والمستشفيات والصحف ، يصيبها الخسران وتعلوها الخيبة وتتسم بالفشل ·

كانت الحملة ضخمة قائمة على أسس مدروسة وأساليب علمية ، تحاول أن تنقض من قيمة تاريخنا وتنقص من حاضرنا وتصورنا فى صورة الشعب المحتل الذليل على توالى العصور وتنظر الى مقدراتنا فى سخرية ، وتفند تراثنا فى تشكيك ·

ولكن قد تحطمت هذه الموجة على صخرة شخصيتنا الجزائرية الجبارة التى عاشت تستقبل مختلف الموجات والتيارات فلا تتأثر بها الا بقدر ما تريد لتضيف الى كيانها جديدا ، وقد أتاح لها هذا الطابع الاستقلالى الواضح اذابة هذه المذاهب جميعا فى بوتقتها دون أن تتحول معالمها الاصيلة ·

وتمر السنوات على « الشخصية الجزائرية » فى ظل حكم الطغاة والمستبدين والمستعمرين حتى يخيل الى المراقبين لها انها استنامت الى الذل ورضيت بالهوان واذا تتجمع بقبضتها القوية لتنزل بالعدو ضربة مذهلة ، واذا بالثورة تنفجر فيها قوية مزلزلة يدهش لها الناس ، ويعجبون لروح القوة والحيوية الكامنة فى أعماق هذه الشخصية ·

كذلك رفضت « الشخصية الجزائرية » الذل والهوان وفرضت نفسها على المستبدين وكانت عندما تجد وسيلة لتحطيمهم تسخر منهم، وتنظر اليهم فى استهانة واستخفاف·

ولقد كنا دائما من صنع أنفسنا ، ليس لمؤثر خارجى فضل علينا ، كنا ثمرة طبيعية لمجموعة من المقومات العزيزة الكريمة ، نعطى للعطاء المجرد ولا نطلب جزاءا لقاء ما نعطيه ، فينا الشهامة التى تدفعنا الى مناصرة الضعيف على الدوام ، شهامة مستمرة لمجابهة الغاصب ·

وفينا تراحم وفينا ترابط بالاهل والارض مما حفظ معه شخصيتنا من التلاشى فى غيرها برغم الجهود التى بذلت لصهرها ، وتوالى عهود الطغيان عليها ·

وكان كرمنا العربى الاصيل جزءا لا يتجزأ من صميم خلقنا ، وكانت قدرتنا الخالدة تقينا الياس وتملأ قلوبنا بالرضا ·

ظلت شخصيتنا الجزائرية طوال حياتها تتقبل الافكار والنظريات والتيارات الجديدة ثم تصوغ منها ما يتفق مع كيانها فتحوله الى طبيعتها · وهى فى هذا تخلق وتصنع ولا تستسلم · لم يتغير طابعها ولا روحها تحت تأثير الجديد والوافد ، فكانت دائما تغربل وتفحص فى يقظة دون تعصب بالصورة التى ترفض الجديد ·

لم تكن متسامحة بالصورة التى تذيبها فى مذاهب الدنيا وافكارها غير المستحسنة واهدت شخصيتنا الجزائرية الى العالم الحضارة ثم زادت فى هذه الحضارة واضافت عليها جديدا ثم ردتها الى العالم مرة أخرى ٠

تختلف شخصيتنا الجزائرية عن غيرها حتى لتكاد تتعارض معها معارضة تامة : عندنا القناعة والرضا والتمسك بالحق وعدم اذلال غيرنا ولا امتهانه ، والمنافسة فى ميادين الشرف بحيث لا نعدو الاعتدال وليس لدينا التعصب الذى ينسى الحق ، واذا قدرنا عفونا ، غير مندفعين الى العدوان والغدر الا اذا واجهنا العدوان تلقيناه بعدوان مثله وانتصرنا لحقنا ، وأدبنا البغاة علينا ٠

لقد كان العدوان علينا يدفعنا دائما الى التنادى والتجمع بالرغم من أن المستعمرين قد حاولوا ان يقتلوا فى الشخصية الجزائرية روح المقاومة ، الا أنهم لم يستطيعوا مطلقا ، وعجزت كل المحاولات النفسية والسياسية القائمة على العنف والاغراء كما عجزت كل المحاولات فى تمزيق الصورة أو سحق وحدتها ، فعاشت « الشخصية الجزائرية » وستبقى متحررة من جميع المذاهب الاجنبية ٠

وما من ريب فى أن « الشخصية الجزائرية » العربية قد حفظت الحضارة الاسلامية من الضياع والفناء وردت خصوم الحضارة من التتار والصليبيين ، وحافظت شخصيتنا العربية كذلك على تراث اليونان بل زادت فيه ٠

عرفت « الشخصية الجزائرية » حقوق الانسان قبل أوروبا ، فضيقت حدود الرق، وأعطت المرأة حق الحياة وأعلنت حرية العقيدة ، وحملت لواء حركة الفكر فى القول أو الرفض بالاقناع والدليل ٠

ولقد كان أبرز ملامح « شخصيتنا الجزائرية » فى ابان قوتها ونضجها مخاطبة العقل بدلا من العاطفة ، والشعور باننا سادة لا عبيد ، والاعتماد على المبادىء لا الاشخاص ، واليقظة التى لا تنخدع ، فلما حوربت شخصيتنا استبد ببعضنا التواكل ولكن الى أمد ، وان كان قد أوجد الاستعمار فينا طغاة ومستكينين ومستسلمين ينخدعون بالمظاهر ويبهرهم البريق الخاطف ، فكنا نفقد توازننا فى فترات الضعف ولكننا لا نقع على الارض ٠ وكنا نواجه التيارات والظروف والمحن ، ولكننا لا نستسلم لهذه التيارات لتجرفنا ٠

ومن ملامح شخصيتنا هذه المنطقة التى نعيش فيها وهى منطقة موحدة متشابهة عن ناحية المناخ والسواحل والخصب ، حتى كانت مقصد كل قوة غالبة ٠

ولقد كانت هذه المنطقة « مسرح الشخصية الجزائرية » وحدة قديمة طويلة الاجل من قبل الحضارات ، وحدة جغرافية وتاريخية ، فيها تقارب التفكير وتشابه أسلوب الحياة ، كان لنا طابعنا الخاص فى الحضارة والحياة ، ثم جاءت الديانة الاسلامية فاعطتنا هذا الطابع الروحى النقى الذى يوغل فى الجمود ولا يسرف فى المادية ويوازن بين العقل والعاطفة ٠

كانت « الشخصية الجزائرية » تعرف موقفها من الشرق والغرب دائما فلم تكن تعادى من أجل مصالح أحد ، ولم نكن تهاجم ، ولكنها كانت تدافع الى آخر طلقة وآخر رجل ، وكانت الكلمة الطيبة عندنا ولا تزال أثمن من أى شيء ، وأغلى من كل ما يملك الانســـــان ٠

كان خصومنا يقولون لنا فى ساعة الضعف : « ان الامل الوحيد لكى نكون اقوياء أن نسير فى ركاب الاقوياء ، ولكن شخصيتنا كانت ترفض هذا الرأى ولانها كانت تؤمن بأنها تملك من أسباب القوة ما يجعلها قوية بذاتها » ٠

ثبت للعالم كله باكثر من دليل أن الجزائرى لا يقل قدرة فى ركوب الاخطار وقهر العقبات عن غيره من الجنس البشرى الذى يحب الدمار ، ويسعد بالتحطيم ويثلـج صدره التسلط والعدوان ٠

على أن من أبرز « شخصيتنا » الاخلاص والايمان بالله واجتماع الرأى والارادة والسخاء فى البذل والتضحية وما من أمة تحررت من الجمود والقيود كما تحررنا ٠

ومن أوضح ملامح « شخصيتنا الجزائرية » شدة الحساسية وصفاء النفس والاصرار على الموقف الصحيح فهى لا تقبل فى مجال الوطن مساومة ولا تسامحا ولا أنصاف الحلول لا تهزها نشوة النصر ولا يستخفها غرور الفوز ، ولا تحطمها مرارة الهزيمة فتدفعها الى اليأس ، تراها دائما على استعداد لخوض المعركة من بدايتها الى نهايتها ٠ تؤمن بالنصر وسط الظلام الحالك وتسيطر على أعصابها فى أشد الاوقات قسوة تحس بالخطر الذى يهددها وهو فى طريقه اليها ٠

عرفت شخصيتنا الجزائرية بان الامة الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر أو تتراخى انها فى ذروة شعورها بالقوة تدرك أن النصر الذى حققته انما هو مرحلة على الطريق وليس هو باية حال خاتمة المطاف ٠

ولعل أبرز ملامح شخصيتنا الجزائرية فى مراحل اليقظة والتجمع هو « الامل » كانت توقظنا الاحداث فاذا بالنبض يعود الى قلوبنا ، واذا بنا نتجه الى الايجابيـة الحية ونصبح فى سباق مع الزمن فنعوض ما فات ونحقق فى سنوات قليلة ما فاتنا فى سنوات كثيرة ، وفى هذه المرحلة يكون علينا أن نبنى لنعوض الماضى ولنواجـه الحاضر ولنلحق بالمستقبل أو نسبق الزمن ٠

ولم تستسلم « الشخصية الجزائرية » قط ، بل حاربت فى سبيل المحافظة على كيانها ، حاربت كل من حاول بسط سلطانه عليها ولم تلبث أن تتغلب عليه ٠

وفى الوقت الذى ارتبطت فيه منطقتنا العربية بالمستعمرين حالت قوتها الذاتية دون ذوبانها وبقيت لها لغتها وملامحها كاملة ، وبذلك تجلت مناعتها ، وقدرتها على اذابة الشعوب فيها وافنائها فى بوتقتها ٠

كانت دعوتنا الى التوحيد باكرة ، فلما جاءت الاديان كانت المعانى الروحيـــة توازن المعالم المادية وتحول بينها وبين التميع من ناحية والتجمد من ناحية أخرى ٠

ولقد أريد للشخصية الجزائرية أن تنحرف بالنزعة الروحية الى الصوفية المتجردة عن المادة أو العصبية المستبدة بالعاطفة مما يتعارض مع التفكـير العقـلى ، ولكنها استطاعت أن تعمد للمقاومة ، وتحتفظ بمعالم نزعتها الروحية بعيدة عن الانحراف ٠

انها خصائص أصيلة فى شعبنا ، ملامح صادقة فى شخصيتنا قد حجبتها فى بعض فترات التاريخ بعض الاغراض ، ثم ما لبثت أن عادت مشرقة وضّاءة ٠

لقد كان « للشخصية الجزائرية » دائما حصيلة ضخمة من الايمان بالمثل العليا والتاريخ الطويل الحافل بالامجاد ومعالم القوة فى المقاومة الدائمة ٠

والحق أن أبرز ما تتميز به الشخصية الجزائرية اليوم معالم أربعة :

القدرة على مقاومة التميع فى التيارات الوافدة ٠

الحذر من كل ما هو غريب عن الافكار والآراء والمذاهب ٠

واليقظة الدائمة حتى لا تقع فريسة لعدوان جديد ٠

التحفز لمواجهة اللطمة التى توجه اليها من العدو بلطمة أقوى وأشد ٠

قـوة شخصيتنا الجزائرية

ولقد عرفت « شخصيتنا الجزائرية » فى تاريخها الطويل بالبطولة وانكار الذات والوفاء بالعهد فلم تكن البطولة فى تاريخنا مظهرا أو عملا مسرحيا يراد به الشهـرة أو استعراض العضلات ·

ولعل هذا هو أبرز ملامح « شخصيتنا الجزائرية » فى التاريخ ، انه صورة من العمل الموحد الجماعى الضخم السريع لشعب مندفع الى الامام ، لا يؤمن بالمظاهـر ولا يحرص أن يقف أمام الاضواء ·

وليس أدل على ذلك من أننا عندما خرجنا الى أطراف الارض بعثنا فى كل مكان روحا جديدة كنا مثلا أعلى فى المعاملة ، أحبنا كل من عرفنا لاننا لم نكن غزاة أو طامعين، بل كنا روحا جديدة يمنح النور والضياء ·

كان دورنا فى الحضارة ايجابيا قويا ، أخذنا الثقافة والعلوم فنقلناها وأضفنا اليها وأنشأنا ثقافات جديدة وفنونا من العلم والحكمة والفلسفة ·

وعندما هاجمنا الفرنجة دافعنا بعزم وقوة وسحقنا العدو ، فلما وقع قوادهم فى قبضتنا عفونا عنهم ، وعاملناهم ، بسماحة رائعة هزت أوروبا ، فسجلت برغـم التعصب رجولتنا وعفونا ·

كنا أقوياء فى الدفاع والعفو على السواء علمنا الدنيا الوفاء والبسالة معا وعرفنا بالمناعة فى كل منطقة من مناطق أرضنا ·

وعلمنا الدنيا المدنية وسبقنا الغرب اليها اذ بينما كانت شعـوب الفرنجـة والسكسون والجرمان تعيش فى الاكواخ يعتلى ملوكهم وأشرافهم قمم الصخور فى القلاع المظلمة كنا وكنا العرب فى الاندلس نشيد القصور الرائعة ونفتح أبـواب جامعاتنا فى قرطبة للعلماء والمثقفين ·

على أننا ما زلنا فى برقة ونجد وبحر العرب والفرات ولبنان والاطلس ومصر أمة مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها وماضيها الطويل الحافل بالامجاد ·

فعلى شواطئنا تحطمت كل موجة : لقد كنا رمزا للعظمة والقوة سواء فى صفحات أمجادنا أو صفحات هزائمنا ، فعندما كنا نفتح البلدان وننشر النور والحضـارة فى العالم كله كنا غاية فى التسامح والحفاظ على الكرامة والرغبة فى السلام ·

وفى مواقف هزائمنا كنا رمزا خالصا للاستشهاد والمقاومة الخالصة الجريئة التى لا تقبل الضيم ولا تستسلم للتعذيب ٠

صهرت المحن الجزائريين فما من أزمة من الازمات الضخمة التى كانت تلم بوطنهم الا واجهوها بقوة العزيمة والايمان والثبات ، وبرصيد ضخم من المقاومة المستمرة التى يبذل فيها المرء أغلى ما يلمك وهو الروح والدم ، هذه هى العبقرية الفذة للجزائريين وهذه هى ميزة شعبها الابى ٠

من هو الشعب الجزائري؟

للمستعمرين قديما وحديثا حجج تختلف باختلاف الظروف والاوضاع فى كل بلد يريدون استغلاله لمصلحتهم ، ولهم فى ذلك أساليب تختلف بينهم متفرقين ، وتتفق بينهم مجتمعين ٠

ولقد كانت حجج الفنيقيين والرومان والوندال والفرنسيين فى تبرير استعمارهم للجزائر الحرة اداء رسالة العلم والحضارة ، وهى حجة واهية جدا ، لان العلم يمكن ان ينتشر بدون استعمار كما ان البلاد التى استطاعت ان تنهض وتعمل للوقوف على قدم المساواة لم يكن نهوضها على يد الاستعمار ، بل كان بما تسنى لابنائها من الاخذ بعيدا عن الحكم الاستعمارى ، واذ تطورت الاوضاع السياسية فى العالم وفى البلاد الواقعة تحت نفوذ المستعمرين تطورت أيضا لفائدة الاستعمار واخذت لها شكلا يتسم بالصبغة الحربية ، فاستندت الى الاحتفاظ بالمراكز الحربية المهمة وهو ما يسمى بالموقع (الاستراتيجى) ، وتطور العلم وظهرت المستحدثات واتجهت الافكار الى الاستثمار فى شكل جديد ٠

ان فرنسا اليوم لا تستطيع ان تجعل حجتها لتثبيت اقدامها فى مستعمراتها نشر العلم والحضارة ، لان هذه الحجة لا يمكن ان يصدقها احد ٠ ان شعوبا كثيرة دخلت فى دور التطور ، ولم تمض عليها الا فترة قصيرة جدا حتى وصلت الى درجة من التقدم جعلها فى مصاف البلاد التى تقوم بمسؤولياتها وكانت طرق خاصة من السيطرة على البلاد التى تمكنوا الاستيلاء عليها وان وجدوا ما يصبون اليه فى عدة انحاء من المعمورة فان وضعهم فى الجزائر كان وضعا غير مركز ٠

للجزائر طابعها الخاص ، فعلى الرغم من تعاقب الغزو الاجنبى عليها قبل الاسلام ، لم تتغير طبيعة أهلها ، حتى ان الاحتلال الرومانى ــ وقد دام ستة قرون ــ لم يؤثر فى شخصيتها وفى نفسيتها

الا كما تؤثر الريح فى صفحة الماء ؛ فلم يبق من آثار روما وسلطانها الواسع فى المغرب العربى بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة ، الا تلك الصخور المنحوتة التى تصور لمن يراها مدى المحنة التى احتمل القرويون من أهل البلاد عبثها صابرين متمسكين بتراثهم وتقاليدهم وتلك الآثار التى نشاهدها هنا وهناك وهنالك فى أرض الجزائر الحرة ما هى الا دلائل على صلابة المواطن الجزائرى الذى وقف فى وجه الاعاصير الهوج ثابتا محتفظا بشخصيته ، معتزا بقوميته ، متربصا بأعداء بلاده حتى تحين الساعة الموعودة فيجتث جذورهم ويقذف بهم وراء الحدود وفعلا فقد آلت ساعة النصر واخرج من أرضه الطاهرة الغزاة ولقنهم درسا كانوا فى أشد الحاجة اليه ·

فاذا اضفنا الى ذلك تلك الاحداث التى تعاقبت منذ فجر التاريخ على القطر الجزائرى ، امكننا ان ندرك ماهية النفسية الجزائرية على حقيقتها ، وعرفنا سر تلك المقاومة التى يبديها الجزائريون فى وجه الغزاة المعتدين ذودا عن الوطن ، وحفظا لأمجادهم ، وتمسكا بتراث اجدادهم ·

اذا نظرنا لتاريخ الجزائر ولتاريخ شعب الجزائر الذى كان وما زال يعرف بالشعب العمورى ، والكنعانى والفنيقى يمكننا ان نقرر عن عقيدة وايمان فى ان سكان الجزائر الذين يطلقون عليهم اسم بربر فما هم الا عرب كغيرهم جاءوا من الجزيرة العربيــة ·

فى الزمن القديم البعيد فى القدم ؛ وفى شبه الجزيرة العربية ، كانت تعيش قبائل من العرب منذ عدة آلاف من السنين قبل الميلاد ·

ويقول مؤرخو العرب قبل الاسلام ان الهجرة الاولى من بلاد العرب حدثت عام 3500 ق·م· واتجهت الى الشمال الشرقى أى الى وادى الفرات بالعراق · ومن اختلاط السكان نشأت الحضارتان البابلية والاشورية اما الهجرة الثانية فقد حدثت عام 2500 ق·م· وهى التى اقامت الاقوام الذين نطلق عليهم اسم العاموريين والكنعانيين والفنيقيين فى سورية وسواحل البحر الابيض وكذلك فى الجزائر التى هى جزء لا يتجزأ من شمال افريقية · ويؤيد هذا القول المؤرخان العربيان الطبرى وابن خلدون فقد قررا ان الكنعانيين من القبائل العربية البائدة ·

وان تتبعنا اطوار الاحتلال الاجنبى للبلاد ندرك ان اليونان اطلقوا على طرابلس الغرب ، يوم كانت تحت سيطرتهم ، اسم (ليبيا) (لوبيا) أى بلاد البيض · وسموا ما يليها الى الجنوب (ايثيوبيا) أى بلاد السود · وكانت رومة تطلق اسم (افريقية)

على الجزء الشمالى الغربى من بلاد تونس • ثم اطلق الاسمان : اى ليبيا وافريقية ، فى ازمان مختلفة ، على الشمال الافريقى كله •

ثم لما إستولى الرومان على هذه البلاد احتفظوا بالاسماء اليونانية وزادوا عليها كلمة (البرابرة) وهى كلمة لاتينية معناها (اعجمى) ، •

ويقال ان البربر هم أهل الشمال الافريقى قبل الرومان من غير تمييز بين اجناسهم • ولا يعرف بالتأكيد من اين جاء هؤلاء البربر الى هذه البلاد ولا متى عمروها ، ولكن علماء الاجناس البشرية فندوا كل الاقوال وذكروا بانه لا يوجد فى الشمال الافريقى جنس واحد من البشر ، وانما أهلها خليط من أجناس كثيرة ، امت هذه البلاد ، يوم كانت جسرا يعبره الناس من الشرق الى الغرب بطريق مصر فطرابلس، ومن الغرب الى الشرق بطريق جبل طارق •

اما علماء طبقات الارض كان لهم رأى غير هذا وهو ان الشمال الافريقى كان فى القديم متصلا بالبلاد الاوروبية ، صلة مباشرة وكانت صلة سكان القارتين بعضهم ببعض صلة قوية متينة • وكان أهل أوروبا يكثرون من التردد على الشمال الافريقى لحسن جوه وطيب عيشه وسهولة الحياة فيه ولا غرابة ان كان سكان الشمال الافريقى من أصل أوروبى •

بيد ان علماء آخرين يزعمون أيضا ، ان البربر اجمالا لا ينتمون الى الجنس البشرى الذى عمر الجنوب الاوروبى • وهو الجنس الخليط المسمى بجنس حوض البحر الابيض المتوسط •

ففى البربر من يجرى فى عروقهم الدم الاسود ، وهم قصار سود الشعر والعيون •

وفيهم من هم ذوو اجسام طويلة هزيلة وانوف قنواء يشبهون قدماء المصريين •

وفيهم من هم ممتلئو الاجسام ذوو الوجوه والانوف العريضة •

وفيهم بيض البشرة زرق العيون مستطيلو الجمجمة يشبهون أهل الشمال الاوروبى •

وهناك أجناس اخرى خصائصها أقل وضوحا •

وكل هذه الاجناس كانت فى الشمال الافريقى منذ القديم ، وهى ما زالت محافظة ، الى حد بعيد ، على خصائصها ، على الرغم من الاختلاط الكبير الذى افنى فى هذه البلاد عشرات الاقوام منذ عرف التاريخ الى اليوم •

وفى الواقع لا يجوز لاى بلد قام فى تاريخ العالم المتمدن ، وفى تاريخ الحضارات ، بدور كالذى قامت به بلاد الجزائر ، ان يدعى انه سليل أمة واحدة وقوم معينين • وان مثل هذا الادعاء لا يزيد صاحبه شرفا ، لان ما ينطبق على الجزائر ينطبق على جميع البلاد الاخرى ، التى كانت مسرحا للحضارات العالمية فى القرن الثانى عشر بدء تاريخ هذه البلاد التى لا نعرف عنها شيئا كثيرا عندما فتحها الفنيقيون الذين لم يأتوا كغزاة، بل أتوها كتجار مرتزقين ، ونزلوا بعض شواطئها واختاروا منها المواقع المحكمة التى يستطيعون الدفاع عنها أو الفرار منها بسهولة ، وبنوا فيها مراكز تجارية وسميت (قارت حادش) أى القرية الحديثة ثم طرأ على هذا الاسم تغيير فصار قرطاجنة •

وبعد ان اقام هؤلاء التجار مراكزهم التجارية ، أخذوا يتعاملون هم واهل البلاد فياخذون منهم الصوف والجلد والعاج وريش النعام والحيوانات ويعطونهم الثياب والاوانى والخزف والخمر والسلاح •

وقد استثمر الفنيقيون اهل البلاد واستغلوهم استغلالا قاسيا وقبيحا جعلهم يكرهونهم ولم تكن لهؤلاء التجار بادىء الامر صفة دولة ، وانما كانوا يخضعون لدولة صور فلما بدأت المنافسة بين الفنيقيين الشرقيين واليونان فى حوض البحر الابيض المتوسط وانتهى الامر باستيلاء اليونان على صور ومصر وطرابلس الغرب لم تستسلم قرطاجنة للامر الواقع ، بل قاومت ونشرت نفوذها على الممتلكات الفنيقية فى الشمال الافريقى وفى البحر الابيض المتوسط واتخذت حين ذاك شكل سلطة دولية •

وقد ظل القرطاجنيون حتى القرن الخامس قبل الميلاد ، يعيشون على اسطولهم وعلى ما تحت ايديهم من شواطىء • ولم يتوغلوا فى البلاد الافريقية اذ لم يكن لهم فائدة فى التوسع وانما كانوا يريدون استثمارها وعلاوة على ذلك ان الفنيقيين قليلو العدد • وكانوا يخشون ان يحصرهم أهل البلاد فى الداخل فلا يستطيعون دفعهم ولا الخلاص منهم ••• ولا سيما انه لم يكن لديهم جيش وطنى بل كان جيشهم من اهل البلاد •

بيد انه بدا لهم بعد ذلك ، ان يثبتوا اقدامهم فى البر والبحر تبعا لسياستهم الجديدة فاستولوا على جزء من البلاد التونسية ، وموانىء كثيرة من الشاطىء الجزائرى

كما استولوا على جزيرة صقلية ، فقام الرومان ينازعونهم السلطة عليها · ثم طردوهم، ونشبت بين الفريقين ، بعد ذلك ، حروب استمرت أكثر من قرن من الزمن كانت سجالا حينا من الدهر · وامتدت سلطة الفنيقيين زمن القائد (املكار) حتى اسبانية، ثم جاء ابنه (هنيبعل) فساق جيشا على رومة ، وواقع الرومان في عقر دارهم ، وانتصر عليهم ·

ولكنه لم يحاصر رومة ذاتها ، فارتكب بذلك خطيئة حربية غيرت وجه التاريخ إذ أن الرومان رأوا ان ينقلوا ميدان القتال الى الشمال الافريقي فساقوا جيشا الى قرطاجة فاضطر القرطاجيون الى استدعاء هنيبعل لرد غارة العدو ، فلبى الدعوة ، فالتقى الجيشان في المعركة ، وكان النصر للرومان ، وتصالح الفريقان فاصبحت قرطاجة ، بمقتضى هذا الصلح ، ولاية أو شبه ولاية رومانية ، ولكن الرومان لم يقنعوا بذلك بل خشوا بأس هنيبعل فأعادوا الكرة عام 146 ق·م· وقضوا على هذا العدو المنافس ، واحرقوا قرطاجة فكانت خاتمة الفنيقيين ·

على ان الفنيقيين بعد ان سيطروا على الشمال الافريقي قرونا لم ينقرضوا منه بتاتا بل انهم طبعوه بطابعهم الخاص ، اذ نقلوا اليه عباداتهم وآلهتهم · ونشروا فيه لغتهم حتى اصبحت لغتهم اللغة الرسمية · وادخلوا الى البلاد بعض الصناعات وعلموا أهلها طرق الزراعة الفنية ، ورسموا كثيرا من المدن بطابعهم ، اذ اطلقوا عليها اسماء فنيقيـــة ·

بالرغم من ان الرومان احرقوا قرطاجة ، ولكنهم لم يعملوا على ان يضموا اليهم كل البلاد التي كان القرطاجيون يسيطرون عليها ، بل اكتفوا بضم القسم الشمالي الشرقي من البلاد التونسية الى رومة كولاية رومانية ، وتركوا دولة (موريتانية) تستعيد مكانتها كما سمحوا لدولة نوميدية ان تتوسع على حساب غيرها من جيرانها وذلك لقاء ما قدمه أميرها ـ ماسينيا ـ اليهم من معونة في حربهم مع القرطاجيين ·

وقد فضلت رومة انتهاج هذه السياسة وجعلت من هؤلاء الامراء الوطنيين حراسا امناء على امبراطوريتها · وكانت تنعتهم بالامراء العبيد ·

وكان هؤلاء الامراء العبيد ، يحفظون الامن في البلاد كما كان بقاؤهم في سلطانهم منوطا باخلاصهم لهذه السياسة التي استمرت نحو قرنين من الزمان ، امتدت من سنة 146 ق·م· الى 42 م ·

وقد بلغ هؤلاء الامراء شأوا بعيدا من السلطان حتى انهم سنوا لبنى قومهم عبادة الملك فكان الملك ملكا والها فى آن واحد • فلما هلك ماسينيسا خلفه ابنه ميسيقا فسار بسيرة والده فى اخلاصه لرومة وكان جيشه يعمل لحساب الامبراطورية الرومانية وقد ازدهرت بلاده فى عهده ازدهارا عظيما • فلما مات ارتفع شأن الفندال•

ان رومة قسمت البلاد الى ولايات ولكنها وحدت جيشها تحت قيادة عامة • وكانت تطلق على القائد العام لقب : كونت افريقية ، واتفق ان آخر أيام سلطة رومة على الشمال الافريقى كان للكونت بونيفاس قوة كقائد عام • وكان بين هذا القائد ورجال القصر خلافات فخشى بطش رومة به ، فاراد ان يعجل بزوالها باستئصال بذورها من هذه البلاد فاستعان بالفندال الذين فى اسبانية لنصرته على رومة ، واعدا اياهم باقتسام افريقية بينه وبينهم ، فتلقى جنسريك ملك الفندال وقتئذ ، هذا العرض بكل سرور • وعبر جبل طارق الى افريقية من غير ان يلقى أية مقاومة تذكر لان أكثر القواد الرومان كانوا ناقمين على الامبراطورية ووجد رجال الكنيسة الافريقية نصيرا لهم للانتقام من اتباع كنيسة رومة ، فنصروهم ، وانضم اليهم كثير من أهل البلاد المظلومين المضطهدين •

فلما رأى الفندال ذلك ، وهم آريون وسلافيون أصلا ، والعداوة متأصلة بينهم وبين رومة ، لم يروا مبررا بان يكتفوا بنصف الشمال الافريقى الذى وعدهم به (بونيفاس) ، بل اهتبلوها فرصة مستعينين بالبربر انفسهم وعمدوا الى اكتساح الشمال الافريقى •

فلما رأى بونيفاس ذلك سقط فى يده وعاد فاتفق مع رومة لقتال الغزاة • ولكن الوقت كان قد مضى وخرج الامر من يده ، ولم يعد يستطيع الوقوف فى وجه الفندال ، فودع البلاد وفر الى رومة • وكانت بذلك خاتمة الامبراطورية الرومانية فى افريقية •

بيد ان الفندال لم يستولوا على الشمال الافريقى كله فى أيام ولا فى شهور بل ظلوا سنوات متتاليات ، امتدت من سنة 330 م الى 427 م ، حتى استطاعوا الاستيلاء على القسم الذى وعدهم به بونيفاس ، اعنى حدود الاطلس الى مدينة (عنابة)•

والسبب فى ذلك ان أهل البلاد ، لما رأوا انفسهم قد تحرروا من أسر رومة ، لم يرضوا ان ينتقلوا الى ايدى الفندال سلعة رخيصة بل قاوموا الغزاة بكل قواهم ،

ليحتفظوا باستقلالهم وكرامتهم ولكنهم عجزوا عن ذلك ، وخروا صرعى تحت ضربات الفندال الصارمة ·

وبعد ان تمكن الفندال من البلاد التى فتحوها ، واطمأنوا الى طاعتها أخـذوا يستعدون للاستيلاء على باقى الامبراطورية الرومانية واستمروا تسـع سنـوات يقاتلون ، ثم اغاروا على قرطاجة فاستولوا عليها ، وأصبح بذلك الشمال الافريقى كله فى أيديهـم ·

وبعد ذلك انشئوا اسطولا عظيما تسلطوا به على أهم مراكز البحـر الابيض المتوسط · وامتدت سلطتهم من (جزر البليار) الى (كورسيكه) و (صقليـة) و (سردينة) ثم انتهزوا فرصة تضعضع رومة فى داخليتها ، فقصدوها بحرا وانزلوا جيوشهم فى مصب (التيبر) وساروا حتى استولوا عليها واستباحوها أربعة عشر يوما بلياليها · ونهبوا كل ما فيها من ذهب وفضة وتماثيل آلهة · واستاقوا معهـم سبعين ألف اسير من بينهم الامبراطورة (ايدوكسى) المشهورة وابنتاها ، وكثير من الاشراف والنبلاء ، فزوج ملك الفندال احدى الاميرتين ابنه ، وطلب منها مهـرا عظيما ، كما طلب اموالا طائلة لتسريـح باقى الاسرى · وقـد استصرخت روما بالبيزنطيين على الفندال ، فامدوها بجيوش برية واسطول بحرى بغية طرد الغزاة ، واعادة الامبراطورية الرومانية الى سابق عزها ولكن المهمة لم تنجح ·

فلما استتب الامر للفندال ، اخذوا ينظمون البلاد على أسس النظم الرومانية التى كانوا يعترفون لها بسبق المدنية ، ولم يغيروا شيئا من نظام البلاد ·

غير أنهم أساءوا معاملة رجال الكنيسة والطبقة الارستقراطية الرومانية ، فأغلقوا الكنائس الكاثوليكية أو اعطوها أصحاب المذهب الفندالى ، واعتدوا على حريـة كثير من رجال الكنيسة فنفوهم الى بلاد بعيدة ·

وقد استخدم الفندال أهل موريتانية ، الذين كانوا منذ زمن بعيد شبه مستقلين، فى الاسطول الفندالى لميلهم الى البحرية وولعهم بالقرصنة ·

واما فلاحو نوميدية ، افريقية الرومانية فقد ظلوا كما كانوا ، من قبل ، عبيدا اذلاء لاصحاب الاراضى التى يعملون فيها ، سواء اكان اصحابها من الرومان أو من الفندال الذين اقطعهم الملك بعض الاراضى ·

على ان الامبراطورية الفندالية لم تكن قائمة بالامة الفندالية ، لانه لم يكن هناك امة ، بل كل ما كان فى الشمال الافريقى جيش يتردد عدده ما بين الخمسين والثمانين الف مقاتل ، ولم يكونوا شجعانا ، ولم يكن وراءهم من يحمى ظهورهم أو يشــد عضدهم ، ولذلك فقد قامت هذه الامبراطورية بشخص ملكها ومؤسسها (جنسريك) ٠

وكان هذا الملك قد تربى فى القصر البيزنطى فى القسطنطينية وكان صديقا حميما لملك بيزنطة (جوستنيان) فاخذ الامر يتفاقم واشتدت الثورات فى وجهه من جانب الشعب الجزائرى الحر ٠

واما صفات هذا الشعب الجزائرى التى استغلها زعماء الامازيغ احسن استغلال ، فهى ــ كما يذكر المؤرخون المنصفون ــ مجموعة الصفات العسكرية اللائقة لطبيعـة البلاد ، فهم مطبوعون على الشجاعة والفروسية ويحتقرون الموت ، ولا يبالونه متى جاء ، وكانوا يمتازون بسرعة الحركة فى القتال ، فيتقدمون بخطى ثابتة ، وجــرأة نادرة ، ويضربون بسرعة خاطفة ، ويتراجعون ــ بسرعة تفوق مهارة التقدم ، فيحمون مؤخرتهم ويراقبون حركة عدوهم يمنعونه من متابعتهم للنهاية ، اذ يحاولون اثناء تراجعهم ، ان يعودوا الى الهجوم والانقضاض على العدو انقضاضا صاعقا مفاجئـا كلما وجدوا منه غفلة ، أو ضنكا أو تراخيا ، يساعدهم على ذلك معرفتهم الجيــدة لطبيعة البلاد ، وقدرتهم على استخدام الصحراء كملجأ أمين لا يستطيع العــدو ان ينافسهم فيه أو يزاحمهم عليه ٠

انهم أصحاب حرية ويعرفون ما لها من أثر فى حياة الافراد وفى حياة الجماعات ٠ فالعلاقات القائمة بين الافراد على أساس من التفاهم الحر هى التى تبقى ، لان هؤلاء الافراد اقاموها مختارين لا يتحكم احدهم فى صاحبه ، هذا ما يفسر رضاهم عن العرب الذين جاءوا بتعاليم الاسلام وهديه ٠

الفتح العـــربى

لقد كان نزول العرب أرض الجزائر فاتحة عصر جديد من نواح عديدة ، فهو يؤرخ أول العهد الذى وقعت القطيعة فيه مع الماضى ٠

لقد كان الجزائريون فى عهد البيزنطيين والرومان يخضعون لامبراطوريات عرفت بالاستبداد ، وكانوا يسامون كالانعام تؤخذ منهم خيرات بلادهم دون أن ينعموا حتى بالاحتجاج ، وكانوا يمشون حفاة عراة فوق ارض غنية جدا وهذا ما جعلهم يشكون فى نيات الجنود الذين جاءوا من جزيرة العرب بالرغم من أنهم يعلمون علم اليقـين بأن الفاتحين العرب تربطهم بهم روابط أخوة ، لان البربر هم من أصل عربى ولو حاول المغرضون أن يقولوا شيئا آخرا ٠

والتاريخ ينبئنا بان الجزائر العربية ولو كانت كتلة مستقلة بذاتها متميزة عن كتلة افريقية الشمالية وكتلة الهلال الخصيب ومصر فانها منهم وهم منها والادلة على ذلك كثـيرة ٠

فالمكانة التى كانت لمكة فى قلوب العرب فى جميع الانحاء كانت لها ميزة خاصة فى شمال افريقيا وكانت هناك فئة من الجزائريين ترى أن مجىء العرب لافريقيا انما هو غزو من أجل الاسترقاق واستنزاف خيرات البلاد ، وهذه الفئة كانت ترى من الضرورى مقاومة الفاتحين بكل ما أوتوا من حول وقوة ٠

والعجيب أن هذه الفئة التى قررت ايقاف الفتوح العربية كانت لها مراكز فى العهد الرومانى ، وبطبيعة الحـال قد اعتراها الخوف من هـؤلاء الفاتحين الذين ربمـا سيجعلون أعزتهم أذلة ٠

ومن حسن الحظ أن هذه الفئة كانت قليلة جدا وان جمهرة الشعب الجزائرى كانت له نظرة أخرى ، يحدوه التفاؤل بأن أبناء أعمامهم العرب الذين جاءوا من أم القرى لن يعاملوهم الا بالرحمة ، وانهم سيفسحون لهم المجال لينضموا لهم ، ويكونو معهم أمة تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر ·

ولقد أدرك الفاتحون ما يجيش فى صدور هؤلاء القوم الذين مرت على بلادهم موجات من الغزو ، فاعلنوا فى كل مكان أنهم يحترمون ديانة الشعوب وعرفها وعاداتها مكتفين بأخذهم فى مقابل الحماية الجزية الزهيدة التى لم تكن بجانب ما كانت تدفع الى ساداتهم السابقين من الضرائب شيئا مذكورا ·

وبالرغم من هذا كله فان افريقيا بوجه عام والجزائر بوجه خاص كانت تنظر الى الفاتحين العرب نظرة خشية وخوف ، وكانت الجزائر بدورها تعمل ما فى وسعها لرد غاراتهم بحيث يمكننا أن نقول بكل تأكيد انه لم يستقر أمر العرب بافريقيا الا بالتدريج بعد مقاومات عنيفة ·

كانت مقاومة الروم للعرب فى شمال افريقيا ضعيفة كما كانت فى غيرها ولولا مقاومة البربر لتم للعرب فتحها بسرعة ·

وقد نشا عن استبسال البربر فى مقاومة العرب ان اضطر العرب الى خوض خمس معارك هائلة استطاعوا بعدها ان يكونوا سادة الشمال الافريقى ·

على أنه قد يتساءل الكثيرون عن سبب نجاح العرب فى افريقيا واخفاق جميع من سبقهم وقتئذ ، ومن السهل أن يدركوا بأن الامم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب ، وهذا ما دعا البربر الى الانصهار فى بوتقة واحدة وربط مصيرهم بمصير الامبراطورية الاسلامية الصاعدة ·

فقيام الامبراطورية الاسلامية حادث فذ فى تاريخ الانسانية ، فقد بدأ الغزو العربى للشام والعراق سنة خمس وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح · وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ ، كانت الامبراطورية الاسلامية قد اشتملت على فارس ومصر وشمال افريقيا ، وامتدت الى حدود الهند وتاخمت الصين ، وقيام امبراطورية بهذه السرعة ، فى هذا الزمن القصير معجزة اذ ليس من حوادث التاريخ ما يشبه هذه المعجزة ·

وحسبنا أن نشير الى حروب الاسكندر والى حروب المغول ٠

امتدت حروب الاسكندر مشرقة من مقدونيا الى الهند وتناولت مصر ، وامتدت حروب المغول غربا من قلب الصين الى أوروبا ٠

لكن حروب الاسكندر وحروب المغول لم تكد تنتهى حتى تناثر عقد الامبراطورية التى أقامت سلطانها ، وعادت الدول التى فتحها الغزاة الى نظامها الاول ٠

أما الامبراطورية الاسلامية التى مدت لواءها فى هذا الزمن القصير على هذا الجانب الكبير من العالم فقد استقرت قرونا امتدت فى اثنائها الى الاندلس ، وانتشرت فى الهند وأظلت جانبا من الصين ، وهى الى ذلك قد أقامت حضارة سادت شؤون العالم كل هذه القرون فلما آن للامبراطورية الاسلامية أن تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها ٠

هذه هى المعجزة حقا وقد حاول كثيرون تأويلها والتماس أسبابها ، ولما يبلغوا من ذلك غاية يطمئن الباحث المنصف اليها كل الاطمئنان ، فاذا صح أن كانت عبقرية الاسكندر الحزبية سبب فتوحه العظيمة ، وأن تنسب فتوح جانكيزخان ونابليون الى مثل هذه العبقرية فمن العسير جدا أن ينسب قيام الامبراطورية الاسلامية الى مثل ذلك وان ظهر فى قادة العرب عظماء ٠

واذا جاز لنا أن نقرن اسم قائد نابغة ، كخالد بن الوليد الى أسماء الاسكندر وجانكيزخان ونابليون ، فيجب الا ننسى أن هؤلاء بلغت بهم عبقريتهم أن أصبحوا ملوكا وأن صار اليهم وحدهم الامر كله ٠٠٠ على حين بقى خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص من قواد المسلمين تحت سلطان الخلفاء أمراء المؤمنين ٠٠٠ بل لقد عزل عمر بن الخطاب خالدا بن الوليد ، وكان من أسباب عزله أياه أنه خشى أن يظن الناس بأن المسلمين لا ينتصرون الا بخالد ، وليس خالد فى رأى عمر الا رجلا من المسلمين شانه شان غيره من القواد ، وانما النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ٠

لابد اذن أن نلتمس لقيام الامبراطورية الاسلامية ولاستقرارها سببا غير السبب الذى أقام امبراطورية الاسكندر وغير الاسكندر من عباقرة الحرب ، وأن نلتمس ذلك عن طريق التحليل الاجتماعى لحياة العصر الذى قامت الامبراطورية الاسلامية فيه ، من دون أن تهب عليها ريح الفناء التى هبت على امبراطورية الاسكندر وعلى امبراطورية المغـــول ٠

ظلت الامبراطورية الاسلامية قائمة قوية ما دام المسلمون يجعلون نصب أعينهم أن العدل أساس الملك ، وظلت كذلك قائمة فى جميع البلاد التى جمع شملها الاسلام، ومن بين ذلك افريقيا لان القواد الذين اسند اليهم شرف الفتح كموسى بن نصير وعقبة بن نافع وغيرهما كانوا ينفذون الوصية الى اوصى بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول جيش اسلامى خرج من الجزيرة العربية حيث بيت الروم عدوانهم .

« لا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرا الا للمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

على أننا نجد فى ثنايا هذه الوصية الخالدة روح الاسلام التى تنفر من العدوان والتخريب وسفك الدماء ، وتفرض العدل والرحمة ورعاية الحرمات .

واذا عاهد المسلمون أعداءهم عهدا فهم مسؤولون عن الوفاء به مهما كلفهم .

وليس شك فى أن هذه الوصية تعد من أروع ما أسفرت عنه تعاليم القيادة وتوجيهات القادة العظام ، قال الخليفة الاول لقائد من قواد المسلمين :

« اذا سرت فلا تضيق على نفسك . ولا على أصحابك فى سيرك ، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الامر ، واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم والجور ، فانه لا يفلح قوم ظلموا » . ثم تلا قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

« واذا انتصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ، ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول ، ولا تغدروا اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا اذا صالحتم » .

كان أبو عبيدة قائدا عاما وقائدا عاديا ، لا يفتنه المنصب ولا تهزه المسميات ، كان رجلا يعمل بقلبه وفكره وايمانه وتضحياته فلا ينظر الى الدنيا ولا يعمل لها ، لم يكن قائدا محترفا ، ولا صاحب مآرب ، ولم يكن من قادة أيام السلم ولا أبطال الحرب على الورق ، وانما كان جنديا بسيطا مؤمنا بهدفه راغبا فى نصرة دينه ووطنه ، ولهذا لم يختلف عليه الامر حين كان قائدا لخالد ، وحين كان خالد قائدا له ، فلما تم له فتح الشام نظم أمورها وحمى حدودها وأشاع فيها العدل والسلام .

ولما دخل عمر بن الخطاب بيت أبي عبيدة لم يجد فيه الا درعه وترسه وكسرات من الخبز ، فبكى عمر وقال : « لقد غيرتنا الدنيا جميعا الا أبا عبيدة » .

موقفان فيهما غنى عن الكثير من أمثالهما فى حياة هذا الجندى الكبير والعربى العظيم ، ينمان عن ايمانه وأمانته ، ويكشفان عن قوة عزيمته وعظمة نفسه وعلو همته.

فى الموقف الاول نراه قائدا لجيوش المسلمين فى الشام على عهد الخليفة الصديق وقد طالت الوقفة عند اليرموك ، فقرر أبو بكر أن يقوم بعمل حاسم ضد الروم فقال :

« والله لانسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » وبعث خالدا من العراق الى الشام أميرا على مجموعة من الجيوش العربية فصدع أبو عبيدة للامر ، وتقبله بالرضا ، وحارب تحت امرة خالد وقال : « انه غير مفتون بالدنيا » .

وفى الموقف الآخر نرى أن أبا عبيدة أحد قواد خالد ، يتلقى أمرا بتعيينه قائدا عاما ، فيخفى أبو عبيدة الخبر ، ويذهب الى مكانه خلف خالد حتى تم فتح الشام ، وقد سئل عن عدم أخذه بلواء القيادة فورا فقال : « ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمـــل » .

كان أبو عبيدة يحارب عن عقيدة فهو لم يسع قط الى مغنم شخصى ، ولم يفكر فى أن تكون له قيادة أو رياسة بل كان تفكيره وجهاده وعمله كله لله ، ولنصرة دين الله فاما أن ينتصر واما أن يلقى ربه شهيدا ، وهذا هو سر بطولة المسلمين الاوائل ، ولهذا كانوا يندفعون فى القتال بلا رهبة ولا خوف .

على أن ما لقيه الفاتحون من مقاومة انما كان لاسباب ثلاثة :

1 ــ ان البربر الذين كانوا يدينون بالمجوسية ثم النصرانية رأوا من الصعب عليهم أن يتخلوا بسهولة عن الاديان التى الفوها والفتهم .

2 ــ انهم كانوا يخافون كل دخيل ، وظنوا أن العرب لا يختلفون عن الغزاة الاولين وانهم جاءوا بنية الاستيلاء على أراضيهم والتمتع بخيراتها بالرغم من حسن نيتهـــم بالنسبة لما سمعوه ورأوه من العرب .

3 ــ ان الخلافات التى نشأت بين العرب فى المشرق بين الامويين والعباسيـين والشيعة كان لها أثرها بحيث ان البربر انقسموا : فمنهم من أيد هذا ، ومنهم من أيد ذلك ، وأصبحوا يميلون لسياسة الانقسامات التى شاعت فيما بينهم فى عهود الرومان والفندال .

وبالرغم من هذا كله فانهم كفوا عن المقاومة لما رأوا أن المقاومة لا تجدى نفعا · والواقع أن العرب حينما فكروا فى فتح افريقيا ، كان البربر يدينون بالنصرانية ويخلصون لها ، ويعملون ما فى استطاعتهم لكى تكون الكلمة العليا لها دون غيرها ، وهذا ما دعا عمر بن الخطاب الى ان يشق الفاتحون طريقهم لافريقيا بعد أن يدين المصريون بالاسلام · وفعلا توجه الفاتحون الى مصر فخضعت لدينهم ، وبعد ما دانت مصر كان من الضرورى أن تتوسع الفتوح وأن تشمل افريقية بقيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه ، والذى دخل برقة سنة 22 هجرية ، فلم يجد مقاومة تذكر فاتفق مع أهلها على دفع الجزية له فدفعوها دون تراخ فتركهم وشانهم وتوجه رأسا الى طرابلس الغرب ·

والجدير بالذكر أن شعب برقة كان شعبا مسالما أجهد نفسه على أن يكون الفتح فتحا لا تراق فيه دماء ، فوافق قائد الجيوش العربية عمرو بن العاص على ذلك وخرج من برقة قرير العين لانه لم يجد معارضة فى فتوحه الاولى ، أما فى طرابلس الغرب فقد اختلط الحابل بالنابل واضطرت الجيوش العربية أن تبقى محاصرة لها ،ولم يتمكن عمرو من الاستيلاء عليها الا بعد جهد جهيد ووقت طويل ·

غير أنه بعد فتحها وخضوعها له تبين لسكان طرابلس الغرب أنهم أساءوا للقائد العربى فاستسمحوه فعفا عنهم ، وسند مقاليد أمورهم لاناس منهم اختاروهم بمحض ارادتهم بعد ما تبين لهم جميعا أن الجيوش العربية لم تات لكى تستعمر وتستعبد ، وانما جاءت لنشر الهداية على شرط الا يكون ذلك بالاكراه ، فمن قرر أن يبقى على دينه فليدفع الجزية وهى الضمان لهم بحيث يكونون فى رعاية الحكومة الاسلامية لتحميهم من كل الغوائل ·

وأكثر من ذلك فانها لا تكلفهم التجنيد ، وبقيت برقة وطرابلس خاضعتين لمصر وحاكمها عمرو بن العاص الى أن توفى عن ولاية مصر ، وولى بدله عبد الله بن أبى السرح العامرى والذى قام بفتح افريقيا بعد تجهيزه جيشه الكبير · على أن البربر قد ندموا على خضوعهم للفاتحين العرب ففكروا فى أن يدافعوا عن أراضيهم حيث ان الروم قد انقضى أمرهم بالرغم مما كان لهم من البأس والقوة ، وان الفاتحين العرب ليس لهم القوة التى كانت للروم وان عهدهم بالفتوح قريب ، وان من السهل على البربر أن يردوهم على اعقابهم وتبقى أرض البربر للبربر ·

ولقد أجهد حاكمهم القائد جرجير نفسه وجمع من الجنود ما يمكنه ، ولكن بالرغم من هذا العدد والعدة التى جمعها جرجير فقد باء بالفشل الذريع ، وهزمته الجيوش العربية التى كانت تقاتل باخلاص وايمان ، حتى تنال الشهادة ·

ولم يكتف الفاتحون بأن يدمروا جيشه ويستولوا على اسلحته التى جاء بها بل قرروا مطاردته الى مقر حكمه المعروف بـ « اسبيطلة » فدخلوها عنوة وزلزلوا الثرى تحت أقدامه وقتلوه شر قتلة ، لانه كان معتزا بنفسه وكان يقول للناس : انه سينتقم لسكان برقة وطرابلس ويفرق جيوش المسلمين ، ولن يسمح للدين الاسلامى أن يكون له شأن فى افريقيا ، ولكن الله نفل للمسلمين ملكه وصــو لجانه وأمواله وخاصته وحريمه ، وتزوج عبد الله بن الزبير ابنته التى علق زواجها بمن يقتل القائد العربى ·

وبطبيعة الحال فان البربر المجاورين للقائد جرجير رأوا أن يقاوموا الفاتحــين العرب انتقاما لقائدهم الذى قتل ، فبدأوا حروبا طاحنة ، لكن الغلبة قد حلت بهم ، وكان النصر للعرب ·

وفى أثناء هذه المعارك أسر زمار بن صقلاد جد بن خزر ، وكان وقتئذ أميرا عــلى مغراوى وزناتة ، فارسله القائد العربى الى عثمان كأسير حرب ، وهناك خيره أمير المؤمنين بين الفدية وبين الاسلام ، فاختار الاسلام فقبله منه وأكرمه وأسند اليــــه الامارة على قومه ، فاثر ذلك فيه وفى جميع البرابرة فاصبحوا ينظرون الى الاسلام نظرة اعجاب ، ويصفون القادة العرب بالرحماء ·

وبعد أن من الله على المسلمين بالنصر المبين فى هذه المعركة طلب قائد الروم الذى كان يتصرف فى هذه البلاد أن يقبل المسلمون تركها على أن يتسلم قائد الفتوح ثلثمائة قنطار ذهب ، فطلب منه أن ينتظر حتى يعرض الامر على امير المؤمنين ، وأنه سيخبره بالــــرد ·

ولقد جاء رد أمير المؤمنين بقبول الفدية فوافق عبد الله بن سعيد بن أبى السرح ، وخرج من أرض الروم مرفوع الرأس موفور الكرامة ·

وفى الوقت الذى اتفق فيه الفاتح العربى مع الروم ، كانت الخلافات العربية تطل برأسها ، اذ كان الخليفة فى حاجة الى هذا الجيش ·

على أنه فى سنة 45 هجرية كلف معاوية بن أبى سفيان ابن خديج السكونى أن يفتح افريقيا ويستعد لذلك استعدادا كاملا ، وكان مع القائد المذكور عبد الله بن عمر

ابن الخطاب وعبد الله بن الزبير زوج ابنة الملك جرجير وعبد الملك بن مروان ، فكلف هذا الاخير التوجه راسا الى جالولا ففتحها ، وارسل جيشا فى البحر فى مائتى مركب الى جزيرة صقلية ففتحها وغنم أموالا كثيرة ومؤنا لا تحصى وحيوانات كثيرة العدد ، كما كلف رويفع بن ثابت الانصارى التوجه الى جربة فدخلها ٠

ان هذه الانتصارات فى أنحاء كثيرة من البلاد التى كانت خاضعة لسلطان الروم قد أثرت فى حاكم الروم بالقسطنطينية ، وأدخلت على قلبه الرعب فأصبح ينتظر بين آونة وأخرى زوال ملكه ٠ وقد كان مخيرا بين أمرين : اما أن يرضى بما قدر له ، وأن يترك الفاتحين يدخلون فى أراضيه ، واما أن يرد العدوان بالعدوان ، وفعلا لـــم ير بدا من أن ينحاز للرأى الاخير ، وهو المقاومة بعنف وقوة ، لان مصيره أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانهيار ٠٠٠ فاستغاث بالبربر من كافة الاطراف كما بعث بجيش كبير من القسطنطينية ٠ وتقابل الفريقان فى معركة حامية الوطيس ، وكان العتـاد الذى جاء به الروم كثيرا ومتنوعا ، غير أن سلاح الايمان كان أقوى وثبات المسلمين كان أشـد ، فكانت النتيجة الحتميه لهذه المعركة وخيمة على الـروم ٠ أمـا بالنسبة للفاتحين العرب فكانت فتحا مبينا نركزت به العقيدة الاسلامية فى هذا البـلد الذى كان يدين بالنصرانية ٠

ولقد رأى حاكم مصر ان يستبدل بالقائد بن خديج القائد عقبة بن نافع ، ليقود الجيوش العربية فى افريقيا متمنيا له النصر ، وذلك سنة 47 هجرية ، فدخل عقبـة ابن نافع بجيوشه الظافرة القيروان ، وشتت شمل الروم بعد معارك دامية ، فــلم يسع الروم الا أن يدخلوا الابراج ويتحصنوا بأسوارها ، وبقى البربر فى ضواحيها لا صلة بينهم وبين قادة الروم حيث ان الجيوش الاسلامية حالت بينهما ، وخير البربر بين أمرين الجزية أو الاسلام فدخلوا فى دين الله أفواجا وأصبحوا من دعائمه وأنصاره .

وبدلا من أن يفسح المجال لعقبة بن نافع ليسير فى أرض افريقيا فينتصر عليها الواحدة تلـو الاخرى ، اذ بمعاوية يقصيه عن القيـادة لاسباب لا يعلمها الا اللـــه والراسخون فى العلم ويسند قيادة جيوش المسلمين فى افريقيا الى غيره ، وان كنا لا نقدح فى كفاءتهم أو دينهم ، ولكن اذا قارنا بينهم وبين عبقرية هذا القائد الذى يشبه كثيرا سيف الله فى أرضه خالد بن الوليد نجد فرقا كبيرا ٠

على أن تغير القيادة على هذا الوجه أدى الى تقهقر الفتوح نوعا ما ٠

فالجزائريون يعرفون عقبة بن نافع ويعرفون شجاعته ، ويعرفون كيف كان قويا في معالجة جميع المشكلات ، وكان الجزائريون اذا سمعوا به حل بمكان لا يسعهم الا أن يوجهوا له وفدا للاتفاق معه على التسليم دون اراقة دماء ، وكان يجيبهم عن ذلك بقوله ... سنكون عند حسن ظنكم بنا وسترون الخير كل الخير من الجيش الاسلامى الذى جاء يبشر بمبادىء انسانية .

ان التاريخ قد سجل له صفحاته الخالدة أنه عندما بلغ شاطىء المحيط واقتحم الماء بقوائم فرسه كان يقول : « اللهم رب محمد لولا انى أعلم وراء البحر يابسة لاقتحمت بفرسى هذا الهول المائج ، لانشر اسمك العظيم فى أقصى بقاع الارض » .

وصدق عقبة فلو كان عقبة يعلم وقتئذ ان وراء المحيط الاطلسى أرضا أخرى لركب اليها ظهر الماء حتى يبلغ أمريكا ولكنه لم يكن يعلم ، اذ كانت مـراكش ، أو ساحلها الغربى بتعبير أدق ، هى آخر الدنيا يومئذ فى الجغرافية القديمة ، عند العرب وغـير العرب على السواء .

وبينما كانت المعارك تدور رحاها فى افريقيا بوجه عام وفى تونس بوجه خاص وفى الجـزائر بوجه أخص ، اذ بالاخبـار تنتشر من مكـان الى مكـان بـأن معاوية بن أبى سفيان قد لقى وجه ربه واحتار القواد الذين يواجهون المقاومة العنيفة فى افريقيا كيف يكون مصير الفتوح .

هل يمضى الخليفة اليزيد بن معاوية الذى بويع بالخلافة مدة حياة أبيه فى الفتوح العربية ، ويتممها اقتداء بابيه وبالخلفاء الراشدين الذين قرروها ، أم يكتفى بمـا أحرز أبوه من انتصارات خوفا من الحسين بن على الذى سيطالب بالخلافة ويحدث لـه قلاقل لا أول لها ولا آخر .

وقد أطبق على الجميع صمت رهيب ، وفرح النصارى بمـوت معاوية ، وحدثتهم أنفسهم أن معاوية الذى يعتبر بجدارة داهية من دهاة العرب لن يقتفى اثره ابنه ، ولن يحقق انجازاته وسيكتفى بأن يولى همه لصد الهجمات التى ستاتيه من المشرق العربى ، من مكة ، والمدينة والعراق ، غير أن يزيد مضى يجاهد فى سبيل الله بقوة وحزم ويسند قيادة الجيش لرجال عاهدوا الله على أن يعيشوا كرماء أو يموتوا شهداء .

وبهذه الروح التى امتاز بها اليزيد تمكن العرب من أن يفرضوا حضارتهم ودينهم ويكونوا قادة افريقية ومنتشلوها من الجهل والنصرانية .

ولقد كان انتصار معاوية واليزيد يرجع قبل كل شيء الى قــادة الجيوش العربية الذين لم يدخروا وسعا من اجل متابعة الفتوح الى آخر قطرة من دمائهم ٠

وقرر هؤلاء الفاتحون أن يعملوا ما فى امكانهم لمتابعة هذه الفتوح ٠

ان الجزائريين مدينون لمعاوية ولابنه اليزيد على ما قدماه من تضحيات من أجل أن يسترد هذا الوطن أصالته ٠

ان تصميم الحكام على بسط نفوذهم على هذا الوطن ، وتجاوب قادة الجيش معهم ، فتح الباب للفاتحين العرب على ان يسيروا قدما الى الامام فى متابعة هذه الفتـــوح ولو كلفهم ما كلفهم ٠

فهنيئا للعرب بهذا الانتصار ؛ وهنيئا للجزائريين باندماجهم فى بوتقة واحدة مع اخوانهم الذين قد انفصلوا عنهم منذ أمد بعيد ٠

اكرم بهؤلاء القادة الذين فتحوا الباب على مصراعيه للخليفة اليزيد ليتمم المسيرة ٠

متابعة الفتوح

لقد جاء يزيد الى الحكم على أساس أن يتابع الفتوح ، فكانت أول خطوة اتخذها هو أن غير القيادة رأسا على عقب فعين عقبة بن نافع على جيش المسلمين ، وكان ذلك فى سنة 62 هـ ، ولقد اختار يزيد عقبة بن نافع لامرين :

أولهما : ان عقبة بن نافع من رجالات العرب الذين سبق لهم أن دخلوا افريقية ، بل كان أول قائد عربى اقتحم الشدائد ليدعو لدين الله ولم يخف من شجاعة البربر ولم يرهبه بطشهم بل قاوم بعزم وحزم لعلمه أن جهاده كان الغرض منه أن تـــزول النصرانية من افريقية الى الابد وأن يطهر هذه الارض من رجس النصارى الذين كانوا يفرضون اعتقاداتهم بالسيف كما كانوا ينزعون الاراضى بالقوة والعنف .

ولما دخل عقبة كفاتح خطب فى الناس قائلا لهم : لم نجىء الى هنا من أجـــل أن نبعدكم عن دينكم أو ناخذ منكم أراضيكم وانما جئنا من أجل أن نعرض عليكم ديننـــا فان قبلتموه فلكم ما لنا وعليكم ما علينا وان تماديتم على متابعة اعتقادكم فاننا نعاملكم معاملة أهل الذمة .

ثانيهما : انه من القواد الذين يمكن للخليفة أن يعتمد عليهم لذكائهم وســـداد آرائهم وشجاعتهم ولانتصاراتهم فى المعارك التى سبق أن خاضوها .

ولقد شاءت الاقدار أن تكون أول معركة لعقبة بن نافع بعد رجوعــه الى افريقية تكون مع كسيلة الذى اسلم على يد أبى المهاجر ، ثم ارتد فاعتقله أبو المهاجر وأصبح مصاحبا له مقربا اليه ولما جاء عقبة جاهر من جديد بالعداوة للعرب ووقف فى صــف الاعداء فوقع أسيرا وتدخل أبو المهاجر من أجل اطلاق سراحه فرفض طلبــه واعتقل مرة أخرى .

ورأى عقبة بن نافع انه من الضرورى أن يتابع الفتوح فزحف الى المغرب ، وانتصر في المعارك . التى خاضها وفتح حصون الروم وبقيت ملوك البربر بالزاب تناهض جيوش العرب فانتصر عقبة عليها ودخل الحصون عنوة ، ثم توجه الى المغرب الاقصى فدانت له قبائل غمارة واعانته على المشاغبين فأحرز نصرا مبينا ولم يبق له الا صنهاجة فتوجه اليها مع البربر الذين اعتنقوا الاسلام وخاصة أن قبائل صنهاجة كانت تدين بالمجوسية فاثخن فيهم وبدد شملهم وشتت جمعهم ورجع الى القيروان .

وكان قد سمع لجيوشه الظافرة أن تعود من حيث أتت ولم يبق معه الا فئة قليلة ، وكسيلة الاسير ، فتآمر كسيلة مع قومه واخبرهم بأن عقبة بن نافع لم يبق معه الا فئة قليلة من جنوده وأن هذا العدد القليل لا يمكن أن يصمد لجيوش بربرية اذا وافقت أن تنتقم لمولاهم ، فوافقوه على ذلك واخبروه بأنهم سينتهزون فرصة مرور عقبة بن نافع على ديارهم ليقاتلوه .

وفعلا فقد نفذت المؤامرة والتقى عقبة وفئة قليلة من الجنود المصاحبين له مع كسيلة واتباعه ، وكانت المعركة تدور بين عدد قليل من المسلمين وجيش قوى من البربر فانتصر هؤلاء على المسلمين واستشهد جل الصحابة كما استشهد معهم عقبة بن نافع ودفن بمسجده المعروف باسم : سيدى عقبة هذا البلد الذى لا يبعد عن بسكرة الا بنحو ثلاثين كيلومترا .

أما من لم يستشهد فى هذه المعركة فقد أخذ أسيرا كمحمد بن اوس ويزيد بن خلف العدسى وبقيا أسيرين لكسيلة الى ان فداهما حاكم قفصة زهير بن ابى قيس .

وتمكن كسيلة بعد هذه الردة وهذا المكر السىء أن يجمع جميع البربر فيتفق مع الروم ويتوج نفسه ملكا على افريقية حيث أن الفاتحين تقهقروا الى برقة اثر ما لحق بهم من الهزائم .

وفى سنة 67 هـ انتقلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان فجهز جيشا كثيفا للانتقام من كسيلة والاخذ بالثار من الخديعة التى دبرها للقضاء على جيش العرب وكانت نتيجتها ان قتل عقبة بن نافع البطل العربى وفئة من الصحابة الابرار،وكانت المعركة التى دارت بين الفاتحين والجيش البربرى من اهم المعارك لان الخليفة استعد لها استعدادا كاملا لعلمه بانها ستكون معركة فاصلة ومن حسن الحظ أن الجيش العربى قد أحرز نصرا مبينا واصابت البربر الهزيمة الساحقة ومات من جنودهم ما لا يحصى عدده وتبين لهم أن

العرب قرروا أن تكون افريقية لهم ، وانهم لن يتزحزحوا عن هذه الرغبة الملحة ولم يبق للبربر الا أن يندمجوا في الاسرة العربية لانها أتت تحمل معها المبادىء السامية ٠

ولقد بلغ صاحب القسنطينية ان المسلمين كبدوا جيش كسيلة الخسائر الفادحة فتاثر لذلك وايقن ان دولة الروم قد دالت وانه اذا أراد أن يسترد مركزه فعليه أن يثار لكسيلة الذى كان من اتباعه فوجه اسطولا بحريا الى سواحل برقة فتعرض لـه القائد العربي وقضى عليه ولكنه استشهد بعد ٠

ولم ير خليفة المسلمين بدا من أن يتم فتح افريقية فكلف بذلك حسان بن نعمان عامل مصر وأمده بجيش كبير فتوجه حسان سنة 79 هـ ـ الى افريقية ، فكـان أول عمل قـام بـه استرجاع قرطاجنة والقضاء المبـرم على الـروم والفرنج الذين كـانوا يحاربون تحت امارة الروم ٠

على أن الامر قد استتب لحسان بن نعمان في افريقية وفكر بعـدئذ ان يتوجه الى صقلية والى الاندلس فاستعد لذلك ومضى جيشه من نصر الى نصر ٠

وعندما كان يقوم بأخذ البلاد البربرية الواحدة تلو الاخرى من أيدى فلول الرومان ومن قواد البربر الذين كان مصيرهم مرتبطا بمصير هؤلاء الروم بلغه أن امرأة بربرية تدعى الكاهنة داهية بنت ماريا قد حدثتها نفسها بأن تقود المعركة ضد العرب وأقسمت بانه لا يمكن أن تثبت أقدام الفاتحين فوق الاراضى البربرية وأن فى استطاعتها أن تنتصر عليهم أخذا بثار البربر الذين قتلوا فاستعد حينئذ القائد العربى للكفاح ٠

ومن الجدير بالذكر أن الكاهنة اتخذت معسكرا لها ولقادة جيوشها بجبال الاوراس (لوراس) المعقل المشهور الذى قام بادوار ذات أهمية فى المعارك التى خاضها البرابرة ضد الدخلاء من قرطاجيين ورومان وفندال وروم ، ولما كانت الكاهنة فى حاجة ماسة لجمع القبائل البربرية للقيام باعمال الملك فقد استعملت كل ما لديها من دهاء لتضم اليها (بنويفرن) الاشداء وزناتة وبعبارة أوضـح جمعت البرابر الذين لـم يعتنقوا الاسلام عن عقيدة وبقوا مذبذبين ٠

وكانت المعركة التى شهرتها الكاهنة معركة دون فيها المؤرخون كتبا كثيرة وبقيت هذه المعركة عدة ايام وفى آخر المطاف انتصرت الكاهنة على حسان بن نعمان وشتت شمله ورجع مع فلوله الى برقة ينتظر من الخليفة المدد الكافى لمراجعة الكاهنة لخوض معركة أخرى معها وذكر القائد حسان فى الكتاب الذى بعثه للخليفة أن انتصار الكاهنة لا يعد انتصارا لانها استعدت لهذه المعركة وجمعت لها القوة الكافية وان البربر

أدرى من العرب بارضهم وان فى استطاعة الفاتحين أن يتغلبوا عليهم بشرط أن يكون عدد الجيوش موفورا فقدر الخليفة موقف عامله وأمده باكثر مما طلبه ذاكرا له أن الاسلام فى خطر ويجب عليه ألا يرجع من هنالك حتى يقضى على الكاهنة ويبدد شملها ويرفع راية الاسلام فى هذه الاراضى التى دنستها المجوسية .

وفى 84 هـ جمع حسان قواده وخاطب فى جيشه بقوله انكم ذاهبون الى الارض التى رواها شهداؤنا من الصحابة والمسلمين بدمائهم الزكية وانه من العار علينا الا نثار لهم . فتجاوب رؤساء الجيش معه ووعدوه بانهم لن يدخروا وسعا لكسب هذه المعركة وتوجهوا راسا الى معقل الكاهنة وأنذروها بان المعارك القادمة ستكون معارك تأكل الاخضر واليابس وأن فى استطاعتها أن تتجنب هذا الخطر الداهم على شرط أن تأتى الى القائد وتستسلم وبعد ان تسلم نفسها فلها ان تختار ، اما ان تدخل فى الاسلام او ترضى بدفع الجزية تطبيقا للشريعة الاسلامية .

ولما وصل اليها رسول القائد العربى هزأت به وأرعدت وأبرقت وقالت له : ان ملكة البربر لها من العدة والعدد ما يكفى أن ياتى على آخر جندى عربى وأن يجعل من جبال اوراس مقبرة لهم وأن الاحسن له أن يرجع من حيث أتى ان أراد السلام وانها مستعدة لعقد صلح مع العرب على اساس ان يبقوا ببرقة وما يليها .

ولما رجع الرسول للقائد العربى وسلمه الرسالة أيقن ان العجب والغرور تملكاها وانها خائفة من المعركة غير أن ما جاء فى رسالتها انما هو اعتداد بالنفس . وبعد أن أرسلت الكتاب الى القائد العربى رأت من الحكمة ان تحرق جميع الاشجار وخاصة أن الاشجار كانت وقتئذ كثيرة ، وكان الراكب يسير من طرابلس الى طنجة فى عمارة متصلة وظل ممدود وما فعلت هذا الا لاعتقادها أن الفاتحين العرب جاءوا من أجل خيرات البلاد وأنها ان نفذت خطتها هذه تصبح الارض جرداء وتقل الخيرات فيرجع العرب الى بلادهم .

غير أن فكرة احراق الاشجار لم يوافق عليها البربر لانها كانت سبب قطع أرزاقهم غير انهم أكرهوا على ذلك واشتعلت النار فى افريقية من طنجة الى السلوم . ولكن الخطة الشيطانية التى جادت به قريحة ملكة البربر لم يكن لها الاثر فيما قرره العرب من اخماد فتنة البربر والقضاء على الكاهنة .

وما أن أطل جيش العرب على معقل الكاهنة حتى انضم اليه عدد كثير من البربر الذين اعتنقوا الاسلام عن طيب نفس وندموا على انقيادهم لامرأة أعماها الغرور والطيش

ولم يبق مع الكاهنة الا قومها الذين يعرفون بقبيلة (جراوة) وان كان عددهم كبيرا الا أنهم لم يصمدوا لجيش عربي مزود بايمان راسخ وعقيدة ثابتة هذا الجيش الـذي انضم اليه كأنصار عدد لا يستهان به من الـذين كانوا بالامس يكيدون للعرب كيدا وقادت الكاهنة المعركة بالرغم من علمها بانها معركة خاسرة واستماتت في الكفاح ولم تلـق السلاح الا بعد أن غلبت على أمرها وأصابتها ضربة قصمت ظهرها وأتت عـلى انفاسها جزاء طيشها وغرورها ٠

وبعد انتهاء هذه المعركة فـرح العرب لهذا الانتصار وجاء الذين كانوا بالامس يقاتلون في صف الكاهنة يطلبون العفو فعفا عنهم القائد العربي وأمن سلامتهم وطلب منهم اما أن يعتنقوا الاسلام ويدخلوا في دين الله واما أن يدفعوا الجـزية ويصبحوا ككل ذمي في حمى المسلمين فاجابوا كلهم بأن الله سيغفر لهم ما اقترفوا من الذنوب وأنهم سيكونون من جنود الله ورسوله وسيعملون ما في وسعهم من أجل اعلاء كلمة الله التي شاءت لها الاقدار أن تكون خاضعة لخليفة المسلمين ٠

كانت قبيلة (جراوة) التي كانت تنتسب اليها الكاهنة خائفة من انتقام المسلمين لانها أيدت الكاهنة في جميع المعارك التي خاضتها ضد المسلمين ولكن القائد العربي تنبه لذلك وأدرك الامر قبل فوات الاوان وخطب في الناس قائلا :

اننا كنا بالامس أعداء واليوم أصبحنا بفضل الله اخوة لكم مالنا وعليكم ما علينا واننا قادمون على خوض معارك طاحنة ضد المعتدين الدخلاء أرجوكم أن تنسوا الضغائن التي كانت في صدوركم نحونا ، أما نحن والذي نفس محمد بيده فاننا لا نضمر لكـم شرا وسنجتهد بأن نكون عند حسن ظنكم بنا ٠ وأكبر دليل على حسن نيتنا نحـوكم أننا ندع لكم الفرصة لتعينوا من يكون المسؤول عنكم ٠ فشكره البربر على هذا الاتجاه وأجاب أحدهم مخاطبا القائد العربي : لا ينفع الحذر اذا كان القضاء يسابقه ، وان خوفنا منكم في السابق كان مرده الى ما لقينا من التنكيل والتعذيب من الغزاة الذين دخلـوا افريقية بنية استيصال الشعب الجزائري والآن تبين لنا الحق وأدركنا ان ما جئتم بـه عديم الشبه بما جاء به غيركم واننا ان شاء الله سنضع انفسنا تحت تصرفكم لتقودونا الى أية معركة من أجل الاسلام والمسلمين ٠

وبعد أن أتم خطابه ووافق عليه الحاضرون عرض عليهم أن يسند الامر فيهم لاكبر أبناء الكاهنة ففرحوا لذلك كثيرا وعدوا هذا التعيين فضلا من القائد العربي ٠

لقد كانت هذه المعركة التى خاضها المسلمون ضد الكاهنة والمعركة التى خاضوها ضد كسيلة معركتين فاصلتين بين الحق والباطل معركتين أظهر فيها الفاتحون من الجرأة والاقدام ما أثر فى البربر وجعلهم ينضمون الى العرب انضماما كليا ولم يبق للمسلمين حينئذ الا أن يوسعوا فتوحهم وأن يوجهوا انظارهم الى أقطار أخرى عاث فيها النصارى الفساد وسلبوا الاموال ٠

ولما كان الخليفة عبد الملك بن مروان الذى كان السبب الرئيسى فى توجيه الفتوح فى افريقية قد توفى تاركا الخلافة لولده المليك بن عبد الملك ظن العرب أن موجة الفتوح قد يتقلص ظلها وأن الخليفة الجديد ربما يكتفى بمعالجة أموره الداخلية ويجمد الفتوح الى ما بعد ٠

غير ان هذه الآراء كانت خاطئة فقد تبين لمن كان يظن هذا الظن أن الخليفة الجديد لا يقل جرأة عن والده ، وكان أول ما قام به هذا الخليفة أن أسند القيادة العامة فى افريقية الى أكبر قائد عام وهو موسى بن نصير الذى قاد المعارك ضد الاعداء ٠

كان هذا القائد من ذوى الخبرة التامة فاراد أن يتخذ الاجراءات الكافية لاستتاب الامن فى افريقية قبل أن يقدم على معارك أخرى فكانت أول معركة قام بها هو أن قضى على الخلافات التى كادت تستفحل فى المغرب وقتئذ فانار الطريق للمسلمين وأصبح المغرب يدا واحدة لا يهمه الا الاسلام والمسلمون ٠

وكان بعض أفراد البربر فى المغرب حينئذ ما زالوا متشبثين بافكارهم القديمة فوقعت بينهم وبينه معارك كثيرة كان النصر حليفه وأدوا له الطاعة وقرروا أن يكونوا مع المسلمين لا عليهم ، وبعد استتاب الامن ورجوع المياه لمجاريها رأى من الحكمة الا يترك الولاية لاحد من البربر مخافة أن تتكرر مأساة كسيلة فأسند الولاية الى طارق بن زياد على طنجة وجهزه بسبعة وعشرين الفا من المسلمين العرب الاولين ٠

واذ أقول سبعة وعشرين الفا أريد أن أقول : انها مائتان وسبعون ألفا لان التاريخ اثبت فى سجله على أن الجندى العربى يقدر بعشرة لما ركب الله فى الجنود العرب من عقيدة الايمان ولان الواحد منهم حين يتقدم للمعركة لا يفكر فى النكوص والشىء الذى كان ينشده الموت أو الاستشهاد ٠

وحينما رتب جيوشه جاءته جماعة من البربر الذين حسن اسلامهم ، وقالوا له : يا سيادة القائد اننا دخلنا الاسلام بنية مساندتكم وأن الفرصة مواتية لنا لنقوم بواجبنا من أجل اعلاء كلمة الاسلام ولهذا نطلب منكم أن تسمحوا لعدد منا ان ينضم لجيوشكم • فرحب القائد بهذه الفكرة وعدها منة من الله لان الاسلام أصبح قويا وطلب منهم اثنى عشر ألف رجل وأوصلهم باخوانهم العرب خيرا وذكر لهم أنهم يعرفون طبيعة البلاد وأدرى بها ، ولنمض قدما الى الامام بقلوب ملؤها الاخلاص •

وبعد أن أصبح فى متناول يد القائد العبقرى موسى بن نصير هذا الجيش فكر فى تعليم الناس دينهم وكلف المسلمين أن يعملوا ما فى وسعهم من أجل ازالة الشك من أذهان المرتدين فازدهرت البلاد واصبح القرآن يتلى فى جميع البيوت •

ويقول بعض المؤرخين : ان الاسلام تركز تماما بعد ما جاء موسى بن نصير • ومن الملاحظ أن افريقية مدينة لموسى بن نصير لانه تمكن فى فترة قصيرة أن يتجاوب مع المواطنين وأن يشعرهم بالاستقرار ويدلهم على تجارة تغنيهم وهو التمسك بمبادىء الاسلام وتعاليمه •

ومن وقتئذ لم نسمع أن البربر ارتدوا أو نبذوا الاسلام على حساب عاداتهم لانه سبق لهم ان اعتنقوا ديانات أخرى ثم ارتدوا حتى بلغت ردتهم اثنى عشرة مرة • ان هذه الردة المتكررة كانت قبل الاسلام ، أما الذين شرح الله صدورهم للاسلام واعتنقوه فقد أصبحوا يدينون به ولم يفكروا فى تركه لانه جاء متمشيا مع العقل والمنطق •

ويقرر بعض المؤرخين : أن ما أحرزه موسى بن نصير لم يسبق لغيره من القواد المسلمين أن أحرزه حيث انه لما أتم معاركه بالاندلس جمع الفىء وذهب به الى خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك ولما رآه الخليفة دهش لذلك وشكره على صنعه وما قدمه للمسلمين وكان الفىء كما ذكره الصفدى فى تاريخه :

1 ــ ثمانية وسبعين تاجا مكللة بالدر والياقوت وكلها تيجان ملوك الاندلس •

2 ــ مائة وثلاثين عجلة مشحونة بالذهب والفضة واللؤلؤ •

وكان من أبناء الملوك ثمانون ألفا وثلاثون ألفا من الرقيق •

ولما تسلم صاحب الخزانة ما أفاء الله به على المسلمين من أموال أعدائهم قال لجلسائه فلمثل هذه فليعمل العاملون •

وطلب من موسى بن نصير أن يعين من يستخلفه في الاندلس وفي افريقية فاستخلف ولده عبد الله على افريقية وولده عبد العزيز على الاندلس وبقيا يعملان الى أن أسندت الخلافة الى سليمان بن عبد الملك فكان أول عمل قام به هذا الخليفة هو عزل عبد الله بن موسى بن نصير عن افريقية وعبد العزيز عن الاندلس واسناد ولا يتهما الى محمد بن يزيد مولى قريش وقد وقع هذا العزل وهذا التعيين سنة 66 هـ ٠

ولقد أصابت الامور بعد ذلك فوضى في الشرق فعين عمر بن عبد العزيز ، ثم جاء يزيد بن عبد الملك وأصبح كل خليفة يعين من جديد ينزع الوالي القديم من الولاية ليسندها الى غيره مما كان سببا في ايجاد خلافات في افريقية ، وعدم استتباب الامن والاستقرار ٠ وكانت هذه الخلافات سببا في انتفاض البربر وخروجهم عن طاعة الولاة وخاصة أن الولاة اصبحوا يفكرون في أشياء أخرى وهي شق عصا الطاعة عن الخلفاء الذين اسندوا اليهم أعمال الولاية ٠

وعلى كل فان الامن الذى كان قائما في أول الفتوح زال تماما من أرض افريقية وأصبح البربر مختلفين أيضا : فمنهم من يؤيد هذا ومنهم من يعارض ذلك على حساب ما تقتضي مصلحتهم وبالرغم من هذه الخلافات فان جمهرة البربر ظلوا على ما هم عليه من التمسك بالدين الاسلامي ، ولم يفكروا الا في شيء واحد هو أن ينضموا لمن يشكل حكومة ، وقد كثرت الحكومات وأصبح كل اقليم لا يعترف الا بالملوك الذين يكونون من اقليمهم فكان ذلك في الحقيقة تجزئة للمغرب العربي الذى كان وحدة لا يغلبها غلاب .

وفي الوقت الذى كان الجزائريون يظنون بأن موسى بن نصير سيعهد اليه بولاية الاندلس لنضاله بدون توان واحرازه الانتصار الرائع غير المنتظر ، اذ بالاخبار تاتي معلنة أن سليمان خليفة الوليد صب جام نقمته عليه وأراه من العذاب أنواعا وألوانا وأنزله الى أحط دركات المذلة فأقامه في الشمس يوما كاملا في نهار صائف حتى خر مغشيا عليه ، ثم جرده من سلطته وصادر أمواله فكان آخر ما سمع عن هذا القائد الكبير فاتح افريقية والاندلس أنه شوهد في شيخوخته يستعطي في قرية نائية في وادى القرى من أعمال الحجاز ٠

ولقد استاء الجزائريون استياء كبيرا من المعاملة غير الحسنة التي لقيها موسى ابن نصير من خليفة الوليد وكان هذا الخليفة نسي او تناسى ما قام به هذا القائد منمعجزات حتى استولى المسلمون بفضل هذا البطل على الاندلس وأزالوا الحواجز وكسروا السدود

التى كانت تعترض طرقهم وزحفوا على أعداء الاسلام والمسلمين بحيث كان زحفهم فى بلد الاسبان أشبه بالنـزهة ·

نسى سليمان خليفة الوليد كيف انتصر موسى بن نصير وجنوده الذين كان معظمهم من البربر على عاصمة الاسبان (طليطلة) و (أرجونة) التى سلم أهلها دون قتال خوفا من هذا العملاق ·

نسى او تناسى سليمان خليفة الوليد المعارك الدامية التى خاضها الجيش البربرى من اجل الاستيلاء على قرطبة ، وبالرغم من المقاومة الشديدة فقد أخضعها لارادته ، وكانت خسائر العدو فادحة ، أما خسائره فكانت قليلة ·

ان الذى لم يتذكره سليمان خليفة الوليد بأن موسى بن نصير وطارق بن زياد قد جعلا من قرطبة الاسبانية عاصمة للمسلمين ، وقد قادت العالم قرونا وقرونا · ومن الانصاف ان نذكر ان سليمان بن الوليد قد شوه معالم التاريخ العربى حيث انه تنكر لاعمال موسى بن نصير وطارق بن زياد،ومن يجهل الذى دخل الاندلس فى ربيع سنة 711 على رأس حملة قليلة العدد للغزو وتمكن بفضل ما أوتى من بأس أن يحتلها فى صيف السنة نفسها ويصبح سيدها الآمر المطاع ·

ولئن تجرأ سليمان بن الوليد على طارق الذى قضى فى بضعة أشهر على مملكة اسبانيا باسرها فان التاريخ لم ولن يرحمه وقد سجل اسمه فى قائمة الذين قتلتهم الانانية فأساءوا لمن احسن للعرب والمسلمين بعدم الاعتراف بجميل موسى بن نصير وطارق بن زياد وان ركب رأسه خليفة الوليد واغفل طارق فان جميع المخلصين يعلمون بان طارقا جاهد فى سبيل رفعة الاسلام جهادا مستميتا فأحرق السفن التى حملت الجنود وقال مخاطبا لهم : « أين المفر ؟ العدو أمامكم والبحر وراءكم ! » ·

على أن سليمان بن الوليد لم يقف عند هذا الحد من الجور والظلم بل تعداه الى ما هو أشنع منه وهو أنه قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أمير اشبيلية الذى تزوج ارملة (لودريج) القائد الاسبانى الذى انهزم شر هزيمة أمام موسى بن نصير بدعوى أنه دخل النصرانية بايعاز من زوجته النصرانية ·

ولقد قتل سليمان بن الوليد الامير بن عبد العزيز موسى دون أن يحاكمه ، وكان الحافز الذى دعاه الى قتله انما هو التشفى من أبيه موسى بن نصير الذى بنى للعرب مجدا فى الاندلس لن يزول مدى الاجيال ·

ان اكبر حجة وأسطع دليل على أن قتل الامير عبد العزيز بن موسى هو الخوف من موسى بن نصير ربما يدعى الخلافة ، وقد أقام يوم قتله احتفالا ودعى لذلك الاعيان ، وكان ابن نصير فى مقدمتهم ليريهم رأس الامير ٠

ان جناية كهذه من خليفة الوليد اصابت العرب فى الصميم ٠

على أن هذه الافعال أدت الى أمور لا تحمد عقباها حيث أن العرب توقفت فتوحهم فى سنة 722 حينما تمكن شارل مارتل من الانتصار على عبد الرحمن الغافقى وأتيحت الفرصة للاساطيل الغربية أن نفتخر بهذا الانتصار الذى كان ضربة قاصمة للعرب ٠

وبعد احراز شارل مارتيل الفوز فى هذه المعركة تضارب العرب وخمدت نارهم ولم يردوا العدوان بعدوان أقوى منه واصبحوا مضغة سائغة للاسبان ٠ ونتيجة لهذا التخاذل أطلت الخلافات برأسها بين عرب الشمال ويعرفون بالمضرية بسلالات مصر ، وربيعة من قبائل معدويين عرب الجنوب اليمنية ٠

ومما يزيد الطين بلة والطنبور نغمة برزت للوجود خلافات بين الشيعة والسنة وكانت سببا فى اشتعال نار الثورة البربرية من سنة (724 ـ 742) ٠

ان الخليفة هشام بن عبد الملك أوقفها عند حدها ، فبعث جيشا قوامه 27 الف جندى من اهل الشام ظنا منه انه يتمكن من اتاحة الفرصة للجيوش العربية ان تنتقم من الاسبان ، الا ان الداء الذى كان سببه الخليفة سليمان بن عبد الملك قد كان له النتيجة الحتمية وهو خروج العرب من الاندلس بعد ان اقاموا فيها ثمانية قرون ٠

ان سليمان وأمثاله قد بدأوا فى الشرق خلافاتهم البيزنطينية الا أنها تسربت الى المغرب العربى وقضت على الفتوح العربية ، ومع هذا ان المغرب العربى لم تؤثر فيه الخلافات التى بلغت أشدها فى الشرق وبقى محافظا على عروبته متمسكا بدينه ٠

واذ أقول المغرب العربى انما أعنى ليبيا وتونس والمغرب والجزائر ، هذا البلد الذى يعتبر قلب العروبة فى مغربنا،هذا البلد الذى أطلقت أوروبا على البحر المتوسط اسم الجزائر ، لما كان لها من المكانة فيه ، ولانها تمكنت أن ترسى قواعد حكومتها على أسس متينة ومتينة جدا ٠٠٠

تفاعل العرب مع الأساريغ

والحق أن العرب الاشداء الذين لبوا دعوة محمد استطاعوا أن يقيموا فى أقل من قرنين دولة بلغت ما بلغته دولة الرومان من العظمة والاتساع ، وكانت أكثر دول الارض هيبة وتمدنا .

علم الفلك عند العباسيين

علم الفلك هو أول من ما اعتنى العرب بـه فى بغداد ولم يدرس العرب وحدهم مسائله بل سار على طريقهم أيضا وارثوهم والدليل مرصد بغداد الذى دام زمن ازدهاره سبعة قرون 750 م ـ 1450 م .

كانت بغداد مركزا مهما لمباحث علم الفلك ولكنها لم تكن المركز الوحيد لهذه المباحث ، فالمراصد التى كانت قائمة فى البلاد الممتدة من آسيا الوسطى الى سواحل البحر المحيط الاطلسى كثيرة ولا سيما فى دمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة .

وأهم تلك المراصد ما كان منها فى بغداد والقاهرة والاندلس .

لقد نشط العرب منذ استقرار خلفاء بنى العباس ببغداد التى أقاموها سنة 762 م ان فترجمو الى لغتهم بنشاط عظيم ما ألفه أوقليوس وأرخميدس وبطليموس وغيرهم من علماء اليونان فى علم الفلك والرياضيات وقد استدعى أولئك الخلفاء الى بلاطهم العلماء الذين اشتهروا فى هذه العلوم .

الجـزائر ملتقى الحضـارات

تعد الجزائر بموقعها الجغرافى الممتاز على البحر الابيض المتوسط ملتقى حضارات الامم المختلفة ، فقد تعاقبت عليها فى مختلف العصور الحضارة المصرية التى أسسها الفراعنة ، ومما يدل على أن سكان الجزائر القدامى كانوا على صلة بالفراعنة رسم أثري لاحد المصريين اكتشف أخيرا بالجزائر ·

الحضارة الفنيقية هى التى فى عهدها أسست مدينة قرطاجة الشهيرة التى ناطحت روما وطاولتها على الساحل الشمالى الشرقى من تونس كما أسست فى عهدها مدن أخرى على سواحل القطر الجزائرى ، كعنابة ، وبجاية ، وجيجل ، وتنس ·

والحضارة الرومانية هى التى عممت شواطىء البحر الابيض المتوسط بصفة قاسية قابلها الاهالى فى الجزائر بمقاومة شديدة ، وذلك لان الرومان لم يكادوا يوطدون أقدامهم فى هذه المنطقة حتى كشفوا عن نواياهم السيئة وعزمهم على استعمار بلادهم والتحكم الجائر فى أهلها وممتلكاتها ·

ثم حضارة جماعات الوندال التى جاءت بعد احتلال الرومان واستشراء فسادهم ·

ثم حضارة البيزنطيين الذين استعمروا البلاد أكثر من قرن وكانوا خلاله مع الاهالى فى صراع عنيف لم تهدأ عاصفته طيلة هذه المدة · بحيث يمكننا أن نقول بأن للفتوح العربية طابعا خاصا لا تجد مثله فى فتوح الامم الاخرى وذلك أن العرب أنشاوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت افعالها وتمكنوا لحسن سياستهم من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وثقافتهم ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالهنود الذين رضوا أيضا بمعتقدات العرب وعاداتهم ·

والطريف هو أن النفوذ العربى بقى على ما هو فيه فى البلاد التى قد كان فتحها العرب بالرغم من أن سيادة العرب نزعت منها ·

وجدير بالذكر أن جور الغزاة من رومان وبيزنطيين وفندال قد أقلق مضاجع الشعوب المغلوبة على أمرها بحيث أصبحت تنتهز الفرص لكسر القيود ورأت من الاصلح لها أن ترتمى بين أحضان العرب لتتخلص من الرق والاستعباد ، وكانت بعبارة أوضح مستعدة لاستقبال العرب الفاتحين الذين كانوا يأملون العدل منهم ·

وقد عرف الخلفاء الراشدون كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على الاسلام وعرفوا كيف يجعلون حسن السياسة رائدا لهم ٠

وقد ابتعد العرب الفاتحون لمزاعم الكثيرين عن أعمال السيف فيمن لم يسلم وأعلنوا فى كل مكان أنهم يحترمون ديانة الشعوب وعرفها وعاداتها مكتفين بأخذهم فى مقابل الحماية الجزية الزهيدة التى لم تكن بجانب ما كانت تدفعه الى سادتها السابقين فى الضرائب شيئا مذكورا ٠

وبالرغم من هذا كله فان افريقيا بوجه عام والجزائر بوجه خاص ، كانت تنظر الى الفاتحين العرب نظرة خشية وخوف ، وكانت الجزائر تعمل ما فى وسعها لرد غاراتهم بحيث يمكننا ان نقول بكل تأكيد أنه لم يستقر أمر العرب بافريقيا الا بالتدريج ولم يتوان البربر عن مقاتلة العرب وقد استردوا استقلالهم غير مرة ٠

فكانت مقاومة الروم للعرب فى شمالى افريقية ضعيفة كما كانت فى غيرها ولولا مساندة البربر لروما لتم للعرب فتحها بسرعة ٠

وقد نشأ عن استبسال البربر فى مقاومة العرب أن اضطر العرب الى خوض خمس معارك هائلة ثم استطاعوا أن يكونوا سادة الشمال الافريقى ٠

يتساءل الكثيرون عن سبب نجاح العرب فى افريقية واخفاق جميع من سبقهم وقتئذ والجواب عن ذلك فى غاية السهولة هو ان الامم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب وهذا ما دعا البربر الى الانصهار فى بوتقة واحدة وربط مصيرهم بمصير الامبراطورية الاسلامية الصاعدة ٠

فقيام الامبراطورية الاسلامية حادث فذ فى تاريخ الانسانية فقد بدأ الغزو العربى للشام والعراق سنة خمس وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح ٠ وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ ، كانت الامبراطورية الاسلامية قد اشتملت على فارس ومصر وشمال افريقيا وامتدت الى حدود الهند وتاخمت الصين ٠ وقيام امبراطورية بهذه السرعة ، فى هذا الزمن القصير ، معجزة لذاته ٠ لكن من حوادث التاريخ ما يشبه هذه المعجزة ٠٠٠

وحسبنا أن نشير الى حروب الاسكندر والى حروب المغول ٠٠٠ امتدت حروب الاسكندر مشرقة من مكدونيا الى الهند وتناولت مصر ٠ وامتدت حروب المغول غربا من

قلب الصين الى أوروبا · لكن حروب الاسكندر وحروب المغول ، لم تكد تنتهى حتى تناثر عقد الامبراطورية ، وعادت الدول التى نظمها الغزاة الى نظامها الاول ···

أما الامبراطورية الاسلامية التى مدت لواءها فى هذا الزمن القصير على هذا الجانب الكبير من العـــالم ، فقد استقرت قرونا امتدت أثناءها الى الاندلس ، وانتشرت فى الهند ، وأظلت جانبا من الصين · وهى الى ذلك ، قد أقامت حضارة سادت شــؤون العالم كل هذه القرون ، فلما آن للامبراطورية الاسلامية أن تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها وهى اليوم تبعث من جديد ·

هذه هى المعجزة حقا وقد حاول كثيرون تأويلها والتماس أسبابها ، ولما يبلغوا من ذلك غاية يطمئن الباحث المنصف اليها كل الاطمئنان · فاذا صــح ان كانت عبقرية الاسكندر الحربية سبب فتوحاته العظيمة ، وأن تنسب فتوح جانكيز خان ونابليون الى مثل هذه العبقرية ، فمن العسير أن ينسب قيــــام الامبراطورية الاسلامية الى عبقرية حربية من هذا القبيل ·

النصر من عند الله

واذا جاز لنا أن نقرن اسم قائد نابغة ، كخالد بن الولـيد ، الى أسماء الاسكندر وجانكيز خان ونابليون ، فيجب ألا ننسى أن هؤلاء بلغت بهم عبقريتهم أن أصبحـوا ملوكا وان صار اليهم وحدهم الآمر كله ··· على حين بقى خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ، وغيرهما من قواد المسلمين تحت سلطان الخلفاء أمراء المؤمنين ··· بل لقد عزل عمر بن الخطاب خالدابن الوليد ، وكان من أسباب عزله اياه أنه خشى أن يظن الناس أن المسلمين لا ينتصرون الا بخالد ، وليس خالد فى رأى عمر الا رجلا مـن المسلمين شانه شأن غيره من القواد · وانما النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ·

لابد اذن أن نلتمس لقيام الامبراطورية الاسلامية ولاستقرارها سببا غير السبب الذى أقام أمبراطورية الاسكندر وغير الاسكندر من عباقرة الحرب ··· وأن نلتمس هذا السبب ـ عن طريق التحليل الاجتماعى لحيــاة العصر الذى قامت الامبراطورية الاسلامية فيه ، من دون أن تهب عليها ريح الفناء التى هبت على امبراطورية الاسكندر وعلى امبراطورية المغول ؟

ولقد ظلت الامبراطورية الاسلامية قائمة قوية ما دام المسلمون يجعلون نصـب أعينهم أن العدل أساس الملك ·

ولقد ظلت الامبراطورية الاسلامية قائمة فى جميع البلاد ومن ضمن ذلك افريقيا لان القواد الذين أسند اليهم شرف الفتح كموسى بن نصير وعقبة بن نافع وغيرهم كانوا ينفذون نصا بنص الوصية التى أوصى بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول جيش اسلامى خرج من الجزيرة العربية حين بيت الروم عدوانهم (لا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرا الا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) ، وانك لتجد فى ثنايا هذه الوصية الخالدة روح الاسلام التى تنفر من العدوان والتحريف وسفك الدماء ، والتى تفرض العدل والرحمة ورعاية الحرمات . واذا عاهد المسلمون أعداءهم عهدا فهم مسؤولون عن الوفاء به مهما كلفهم .

بهذه الروح العالية فتح عمرو بن العاص مصر ثم سار الى برقة فى ليبيا فصالحه أهلها على الجزية ثم سار بعدها الى طرابلس فحاصرها شهرا ثم افتتحها بعد هزيمة منكرة الحقها بالروم وأراد التقدم لفتح افريقية فاستأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك فنهاه عنه فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل الى افريقية ولم يعتنق أحد من البربر الاسلام حتى ذلك العهد .

ولما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى عليها عبد الله بن أبى السرح العامرى وأمره بغزو افريقية فسار اليها فى عشرة آلاف فصالح أهلها على أموال ان يؤديه ولم يقدر بن أبى السرح على التوغل فى افريقية لكثرة أهلها فعاد الى مصر وفى نفسه العودة لفتح افريقية .

عاد ابن أبى السرح الصحابى الجليل من افريقية بعد أن صالحه أهلها على مال يؤدونه بعد أن رأى قلة عدد الجيش بالقياس الى كثرة عدد سكان افريقية فقد كان جيشه يتألف من عشرة آلاف مقاتل بين فارس وراجل ولكن عودته هذه لم تكن عودة نهائية بل ان فكرة العودة اليها لم تبرح نفسه وظلت تلح عليه . فاستأذن عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى فتح افريقية وطلب منه المدد ، فوافق عثمان على ذلك بعد أن استشار الصحابة .

ومن ثم جهز جيشا من المدينة المنورة فيه عدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ابن عثمان وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين

وابن الزبير وكان على رأس الجيش صاحب الفكرة عبد الله بن أبى السرح وذلك سنة ستة وعشرين للهجرة ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا جميعا الى طرابلس ٠

وكان الروم أصحاب الكلمة العليا فى افريقية أيام الامبراطور الرومانى هرقل ، وقد جعل هرقل رجلا يدعى جرجير ، ملكا على البلاد المترامية الاطراف ما بين طرابلس وطنجة يحكمها باسم هرقل ويحمل اليه خراجها ٠

ولما بلغ الزحف الاسلامى لجرجير هذا جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقى جيش المسلمين على بعد مسيرة يوم وليلة من سبيطلة ٠ وهى المدينة التى بناها الرومان واتخذها جرجير عاصمة له ٠

ولما التقى الجمعان بدأت المعركه بينهما ودعا المسلمون جرجير الى الاسلام أو الجزية فرفض واستكبر ثم ان جرجير أمر مناديا بأن ينادى (من يقتل ابن السرح فله مائة الف دينار ويتزوج ابنة جرجير) ٠

فلما علم عبد الله بن أبى السرح بن سعد بذلك خاف وتأخر عن شهود القتال فسأل عبد الله بن الزبير عن أبى السرح لم لا يراه فى صفوف المسلمين فى المعركة فذكر له المسلمون قصة المنادى فاقترح عبد الله بن الزبير على عبد الله بن أبى السرح بأن يطلق مناديا يقول : (من قتل القائد جرجير ، فله مائة الف دينار ويتزوج ابنته ويكون واليا على بلاده) ٠ وكان من نتيجة ذلك أن اشتد خوف جرجير ٠

ثم أشار عبد الله بن الزبير على عبد الله بن سعد بن أبى السرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للقتال ثم يقاتل الروم بما يبقى من الجيش الى أن يلحق التعب والجد بالروم وعندئذ يهجم المتأهبون من جنود المسلمين على الروم بعد أن يكون قد أضناهم التعب ٠

وفى اليوم الثانى نفذ عبد الله بن أبى السرح ما اشار به ابن الزبير وبذلك تم النصر للمسلمين وانهزم الروم شر هزيمة وقتل كثير منهم كما أن عبد الله بن الزبير قتل جرجير ملك الروم وتزوج ابن الزبير ابنة جرجير ٠

ثم تقدم عبد الله بن أبى السرح نحو عاصمة الروم سبيطلة وغنم المسلمون غنائم كثيرة ٠

وبعد سقوط سبيطلة وجه ابن أبى السرح الى حصن الاجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره المسلمون ولم يطل به الامر حتى استسلم ، وفر الفرنجة ومن معهم من الروم بعد أن ذاقوا الهزيمة المرة الى حصون افريقية ، ولكن المسلمين مضوا فى فتوحاتهم مما اضطر الفرنجة والبربر أن يطلبوا الصلح مقابل أن يدفعوا للمسلمين ثلثمائة قنطار من الذهب وعلى أن يرحل العرب والمسلمون عن بلادهم ووافق المسلمون على ذلك وارتحلوا الى الشرق بعد أن قضوا سنة وثلاثة شهر فى افريقية .

وبعث هرقل الى افريقية بطريقا ليأخذ منهم ثلثمائة قنطار من الذهب كتلك التى دفعوها للمسلمين ولكنهم رفضوا وقالوا : ان على هرقل أن يعاوننا بعد مقتل جرجير واسمه (جناها) أو (هياها) على اختلاف فى روايات المؤرخين ، ففر هذا الى المشرق حتى بلغ بلاد الشام وكانت الخلافة قد انتقلت الى الامويين .

فأرسل معاوية بن ابى سفيان بن حديج على رأس جيش جرار وذلك سنة خمس واربعين هجرية وعلى كل فيمكننا أن نقول أن أول من خطا على أرض هذه البلاد من الفاتحين العرب ، هو عقبة بن نافع الفهرى ، فاظل الاقطار الثلاثة برايته حتى بلغ شاطىء المحيط فاقتحم الماء بقوائم فرسه وهو يقول : (اللهم رب محمد ، لولا أنى لا أعلم وراء البحر يابسة لاقتحمت بفرسى هذا الهول المائج ، لانشر اسمك العظيم فى أقصى بقاع الارض !) .

وصدق عقبة فلو كان يعلم وقتئذ أن وراء المحيط الاطلسى أرضا أخرى لركب اليها ظهر الماء حتى يبلغ أمريكا ... ولكنه لم يكن يعلم ؛ اذ كانت مراكش ، أو ساحلها الغربى بتعبير أدق هى آخر الدنيا يومئذ فى الجغرافية القديمة ، عند العرب وغير العرب على السواء .

وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ــ فى تونس ــ وجعلها عاصمة الشمال الافريقى الجديدة ، فهى مقر الحكم وكرسى الامارة ومصدر السلطة فى أقطار المغرب الثلاثه ، باسم الخليفة العربى فى دمشق .

ولكن أقطار المغرب الثلاثه ، على اختلاف الحكومات وتوالى القرون ظلت محتفظة بخصائصها ومقومات شخصيتها القومية ، بل ظل كل قطر منها محتفظا بخصائصه ومقوماته وحدوده وذاتيته المستقلة ، وان جمعتهم على البعد قومية واحدة ، هى القومية العربية الاسلامية .

وكان أول الشر بين مسلمي الشمال الافريقي الوحشة الاسبانية حين حدثت المأساة الاندلسية وجلا المسلمون عن آخر معاقلهم في غرناطة ، فهاجر منهم من هاجر الى أقطار المغرب وهو يحمل مفتاح داره هناك في شمال البحر ، على أمل العودة اليها في يوم قريب ٠

وكانت أنباء المظالم التي تصبها اسبانيا على رؤوس اخوانهم الذين أقاموا في الاندلس راضين ، أو حيل بينهم وبين الرحيل منها ، تقع موقعا شديدا من نفوس المغاربة والاندلسيين المغتربين ، اذ يرون اخوانا لهم هناك يلقون من ألوان العذاب ما لا يطيقه بشر ولا يقره ضمير انساني ، فبذرت تلك المظالم الوحشية بذور عداوة شديدة بين مسلمي الشمال الافريقي والصليبيين الاوروبيين ٠

وزادت هذه العداوة شدة وحدة ، تلك النذر المتوالية التي كانت تتوعد بها الصليبية العرب والمسلمين في ذلك الزمان ، والحملات الباغية التي كانت توجهها في البحر والبر الى بلادهم ، والصيحات المنكرة التي كان يجهز بها الزعماء والسوقة ورجال الكنيسة على السواء ، فنشأت بذلك حالة من التوجس ، ومن التربص ، بين الصليبيين وعرب الشمال الافريقي ٠

على أن الافارقة مع ذلك لم يحاولوا عدوانا ولا بغيا ولا انتقاما وانما آثروا ان يقفوا موقف الدفاع والمقاومة السلبية وهيأ لهم موقعهم البحري الممتاز أن يفرضوا سيادتهم على غربي البحر المتوسط ، من مضيق جبل طارق الى آخر حدود تونس فسيطر أسطولهم على مداخل البحر ومخارجه ، ولم يسمح أن تمر سفن صليبية الا أن يؤذن لها ، بعد أن تدفع اتاوة مفروضة ٠

وهذا ما يبرهن على أن الجزائر كانت ذات صلة متينة مع بغداد في عهد الخلافة ، عهد العرفان والمعرفة حيث كان حب العرب للعلم عظيما ، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقا لاجتذاب العلماء ورجال الفن الا سلكوها ٠

وقد أشهر الحرب أحد أولئك الخلفاء العرب على قيصر الروم ليأذن لاحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد وكان العلماء ورجال الفن والادباء من جميع الملل والنحل يتقاطرون على بغداد التي كانت مركز الثقافة العالمية وكان المأمون بن هارون الرشيد يعد العلماء ممن اختارهم الله لتنوير البصائر وهداية الناس الى الصراط المستقيم ويرى ان الناس لولا العلماء لعادوا الى الجاهلية الاولى ٠

كان أولئك يحيطون بالخلفاء من كل جانب ، وكان قصر الخلفاء لذلك سيد قصور العالم وانضرها • وتتجلى لنا ابهة بغداد بالقول الآتي الذى وصف به المؤرخ العربى أبو الفداء استقبال احد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم فى سنة 305 هـ •

قال أبو الفداء :

« قدم رسل ملك الروم الى بغداد فلما استحضروا عبئت لهم العساكر وصفت الـدار بالاسلحة وأنواع الزينة وكان العساكر المصطفون حينئذ مائة ألف وستين ألفا ما بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان ذوو الزينة الحجرية والمناطق المحلاة ووقف الخدم الخصيان كذلك ، وكانوا سبعة آلاف : أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أسود ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائة والقيت المراكب والزوارق فى دجلة بأعظم زينة وزينت دار الخلافة فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثمانين ألف ستر منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة من الديباج المذهب وكانت البسط اثنتين وعشرين الفا ، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع وكان فى جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصنا وعلى الاغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة وكذلك أوراق الشجرة من الذهب والفضة والاغصان تتمايل بحركات موضوعية والطيور تصفر بحركات مرتبـة • وشاهد السفـير مـن العظمة ما يطول شرحه وأحضروا بين يدى المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم الى الخليفة ويرد الجواب عن الخليفـــة •

دور الاساطيل الاسلامية
فى البحر الابيض المتوسط

كانت مياه البحر الابيض المتوسط منذ القرن الاول للهجرة ، مسرحا لجولات الاساطيل الاسلامية ، ولكن المسلمين لم يتمرسوا بالغزوات والمعارك البحرية الا بعد قرنين أو ثـلاثة حينما نشـأت الاساطيـل الكبـرى فى مصر وافريقيـا والاندلس ، فعندئذ بدأت قوة المسلمين البحرية فى أوجها ، وأخذت الاساطيل الاسلامية تجوس مياه البحر الابيض شرقه وغربه ، ولم يكن جهاد المسلمين فى البحر مقصورا عـلى أعمال الحملات الرسمية ، ولكن نشأت الى جانب ذلك نزعة المغامرة الخاصة والجهاد المستقـل .

كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال القرصنة توجد منذ أقدم العصـور الى جانب نشاط الاساطيل الرسمية ، وكان معظم المغامرين فى البداية ، من أبناء الامم التى غزت البحر فى عصور متقدمة مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة ، ولكن المغامرين أو المجاهدين المسلمين ظهروا فى الوقت نفسه فى البحر الابيض المتوسط ، وأخذوا يزعجون بنشاطهم شواطىء الدول النصرانية ، فكانت لهم غزوات ناجحة ولا سيما فى المياه الايطالية وجزيرتى كورسيكا وسردنيا وشواطىء فرنسا الجنوبية ، وكان من أشهر أعمالهم غزو مدينة روما ونهب كنائسها فى سنـة 846 م وكان المغامرون أو القراصنة المسلمون فى تلك العصور تحدوهم ، فوق رغبة الكسـب المادى ، عاطفة الجهاد ، ومن ثم كان نشاطهم موجها الى الشواطىء والثغور النصرانية.

وفى أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات فى البحر المتوسط ، واستمر القراصنة النصارى عصورا وكانت المغانم الوفيرة من الاتجار فى الرقيق ، تذكى عزمهم وتدفع اليهم بسيل من المغامرين من سائر الامم . ولما ظهرت الاساطيل الكبرى منذ القرن

الرابع عشر ضعف أمر هؤلاء المغامرين ، واقتصرت مغامراتهم على أعمال القرصنة الصغرى ، ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ولكنهم لم يظهروا فى هذا الميدان الا منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وذلك حينما ضعف أمر الاندلس ، والدول المغربية ، واضطربت العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب ، والدول النصرانية ، وكانت هذه المرحلة من نشاط البحارة المسلمين تتسم فى البداية بطابع الكسب الشخصى .

ولما سقطت القسطنطينية فى يد الاتراك العثمانيين (1453 م) واشتد ساعد البحرية التركية فى البحر الابيض ، زاد نشاط المغامرين المسلمين فى البحر ، وكان سقوط غرناطة آخر القواعد الاندلسية فى يد الاسبان فى سنة 1492 م ، اضطهاد الاسبان لبقايا الامة الاندلسية المغلوبة ايذانا بتطور المغامرات البحرية ، ونزول الاندلسيين والموريسيكيين المنفيين الى ميدانها ، واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والانتقام القومى والدينى ، لما نزل بالامة الاندلسية الشهيدة من ضروب العسف والارهاق .

ولما بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية منذ أوائل القرن السادس عشر أعنى عقب استيلاء الاسبان على غرناطة واكراههم المسلمين على التنصير ، ففى ذلك الحين غادر الاندلس آلاف من الاندلسيين المجاهدين الذين آنفوا الذلة والاضطهاد، وعبروا البحر الى عدوة المغرب ، واستقروا فى بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر وبجاية ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد فى سبيل الله والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم وظلموا أمتهم ، وكان البحر يهىء لهم هذه القرصنة التى لم تهيئها الحرب البرية ، وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ، وثغورها ومراسيها ، وخلجانها الكثيرة التى تحميها الصخور العالية أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقرصان المغيرين ، وكانت مياه الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والاقلاع وكانت غاراتهم على الشواطىء الاسبانية ولا سيما فى المياه الجنوبية تتجدد بلا انقطاع ، وتنجح فى معظم الاحيان فى تحقيق غاياتها ، وكان حكام الثغور المغربية من تونس الى وهران يشجعون هذه الغارات ويسمحون للمجاهدين بالرسو والتموين فى ثغورهم نظير تقديم العشر من الغنائم والاسرى .

ولقد ظهر فى هذا الوقت بالذات عنصر جديد ، أذكى موجة الغارات البحرية فى هذه المياه : ذلك البحارة الاتراك أخذوا يندفعون نحو غرب البحر الابيض ، فى

طلب المغامرة والكسب وبرز منهم الاخص الاخوان الشهيدان عروج وخير الدين ، ويعرف كلاهما فى الرواية الاوروبيه « باربا روسا » أو « صاحب اللحية الحمراء » .

ان الاسبان الذين قضوا على آخر معقل من معاقل المسلمين فى الاندلس سولت لهم أنفسهم أن يستولوا على افريقيا بزعم قولهم انها كانت نصرانية ولابد أن تعود الى سابق عهدها .

وفى الوقت نفسه بدأ العثمانيون يفرضون ارادتهم على المملكة البيزنطية وعلى أوروبا عامة ووجهوا نظرهم لافريقيا ، وفكروا بدورهم فى المغرب العربى المعروف بافريقيا واستولوا على ليبيا وعلى تونس والجزائر .

واستيلاء الاتراك على المغرب العربى بوجه عام وبوجه خاص على الجزائر ، وان كان يحمل فى طياته الشر كله قد قضى من الوجهة الاسلامية على مطامع الاسبان الذين تزعموا الحركة الصليبية وكان الفضل فى ذلك يرجع للاخوين خير الدين وعروج ، ولا أكون مبالغا ان قلت اننا خضنا مع الصليبيين حربا لا هوادة فيها، اشتملت هذه الحرب على معركتين فاصلتين :

المعركة الاولى كانت فى المشرق العربى من مصر الى العراق بقيادة صلاح الدين الايوبى وقد من الله عليه بالنصر المبين ، وقضى على المطامع النصرانية ، وقد بقيت هذه الاراضى المقدسة مدة طويلة تحت امارة المسلمين ، وقد انتزعت من المسلمين وسلمت الى اليهود وستعود لعهدها ولن يسكت العرب والمسلمون ما بقى فيهم عرق ينبض . وهذا الانتصار خول لهم أن يقفوا حجرة عثرة فى طريق اسبانيا التى مدت يدها الى اجزاء من المغرب العربى ومن ضمنها الجزائر .

أما المعركة الاخرى فقد كانت فى المغرب العربى بادارة تعطى الاوامر من الجزائر بالذات بقيادة الاخوين خير الدين وعروج .

ان أول من أنس فى نفسه القوة على مجابهة الاسبان هو عروج بن يعقوب من قرية اجى أباد ، وقد انتقل الى جزيرة متلين المعروفة بالمدلى ، وانخرط فى الجندية فى عهد السلطان الغازى محمد خان وبعدماكان نوتيا فى مراكب الجزيرة ، اتخذ لنفسه قرصانا واهتم بغزو ثغور الفرنج حتى لا يدع لهم فرصة بأن يستولوا على الموانىء الاسلامية .

وكانت نيته حسنة ، اذ كان يعمل من أجل الاسلام والمسلمين ولذلك فقد رزق التوفيق ، فيما أقدم عليه ، وكان يعينه فى أعماله أخوه الياس ، وشاءت الاقدار ان تعاكسه الظروف فيقع أسيرا فى أحدى الغزوات التى شنها على الفرنج ويقتل أخوه اليـاس .

ولو لم يكتب الله النصر للمسلمين لكان قتل بعد أسره وترك الغزو للاسبان ليستولوا على جميع افريقيا ويحولوها مسيحية كما كانت قبل الفتح الاسلامى ، ولكن سبق فى علمه أن تبقى هذه الارض الطيبة مسلمة ، فتمكن عروج من أن يفر من الاسر ، وان يرجع لبـلاده ليضع خبرته تحت أمـر الامـير نورقد نده ابن السلطان الغازى بايزيد خان فاتخذه الامير مستشارا له .

كانت مراكب الامير موفقه لانها ما تقدمت لبلدة من بلاد العدو الا فتحتها ولا صادفت مركبا من مراكب العدو الا غنمته ، وبقى على هذا الحال الرأس المفكر لمراكب الدولة ، واليد الحديدية لها ، الى أن توفى السلطان الغازى بايزيد ، وتولى الملك ولده سليـم وذلك سنة 918 هـ . حينئذ انفصل عروج عن ادارة المراكب واستاذن فى أن يقوم بالقرصنة ، فاذن له بذلك وتوجه رأسا الى ميناء جربة التابع الآن لجمهورية تونس وأقلع غازيا ساحل الفرنج فغنم الشىء الكثير ، ورجع بما يثقل حمله من أسلاب العدو وتوجه الى تونس ، وكانت أول بادرة صدرت منه أن سلم هذه المكاسب لسلطـان تونس وقتئذ محمد بن حسن الحفصى كهدية فقبلها منه وشكره ، واستأذنه فى الاقامة بتونس فرضى بذلك على شرط أن يدفع خمس ما يقع فى يده من الغنائم ، فرضى بذلك الرضا التام وتوجه الى جربة فوجد بها أخاه خير الدين وانضم اليه واصبحا ، يحترفان القرصنة بنظام ، وكان أول شىء قام به الاخوان هو محاولة اخلاء مرسى بجاية من أيدى الاسبان ، فلم ينجحا ودافع الاسبان عنه غير أنهما وجدا فى الطـريق مركبين لاسبانيا فاخذاهما ورجعا الى تونس .

لقد اعتادت اسبانيا أن تقتل المسلمين دون ما شفقة الا اذا تنصروا ، وكثـيرا ما كانت تقتل حتى الذين يعتنقون النصرانية بدعوى أنهم غير مخلصين ، ومع هـذا مرت فترة أتاحت الفرصة لمن يريد أن يهاجر خارج الاندلس ان يفر من بطش الاسبان .

ورأى عروج أنه من الاصلح أن ينتشل هؤلاء المغلوبين على أمرهم مـن الطغاة الاسبان فجهز لاخيه أسطولا بحريا ليخرج هؤلاء المهاجرين من اسبانيا ويأتى بهم الى المغرب ودام هذا العمل ثلاثة أشهر متوالية ، وصادف انتهاء مدة العمل شفاء عروج

من الجراح التى كان يشكو منها أثر أسره ، فضم المراكب التى أنشاها لمراكب أخيه وقررا تخليص بلدة جيجل وميناءها من أيدى سكان جنوة الايطاليين مع العلم أن الايطاليين كانوا قد استولوا عليها يوم أن ضعف أمر المسلمين ، وقد شن الاخوان خير الدين وعروج حربا شعواء على المحتلين الايطاليين ، فكسرا شوكتهم وأفنياهم جميعا واستوليا على بلدة جيجل .

ولقد سمع بهذه المعركة الصليبيون فازدادوا غما على غم واصبحوا ينظرون الى الاخوين نظرة أعداء ، الداء ، أما الاندلسيون الذين ضاعت منهم الى حين أراضيهم الطيبة فاستبشروا خيرا ، وان أكثر من فرح بنتيجة هذه المعركة هو حاكم الجزائر سالم بن التومى اذ بعث الى عروج يشكره على ما أسداه من أعمال جليلة للاسلام والمسلمين وطلب منه فى الوقت نفسه أن يتنازل فيسعى لتخليص قلعة « بتيون » الجزائرية التى استولى عليها الاسبان منذ مدة ، وقرروا أن يجعلوها قاعدة لغزوهم الموانىء الجزائرية كلها والوطن الجزائرى بأكمله ، فبعث خير الدين رسوله الى حاكم الجزائر يشكره على تهنئته ، ويخبره بأنه مستعد لان يعمل قصارى جهده لاخلاء قلعة بتيون الجزائرية من أيدى الاسبان ، ويطلب منه مهلة للقيام بالتعبئة العامة ، فأجابه حاكم الجزائر بأنه ينتظر بفارغ الصبر هذه الفرصة لتطهير الجزائر من رجس هؤلاء الطغاة .

وبعد مضى مدة لا تزيد على شهر تمكن عروج وأخوه من أن يجمعا عددا كبيرا من المراكب وأن يبحرا من جيجل قاصدين الجزائر وفى طريقهما استوليا على ميناء شرشال وجاءا الى الجزائر فاستقبلهما حاكم الجزائر وأعيان البلاد ، وبقيا فى ضيافتهم عشرين يوما لدرس الخطة التى تمكنهما من الهجوم على العدو ، وبعد أن حددا وقت الهجوم المفاجىء ، توجها الى القلعة واستوليا عليها عنوة ، وأخذا جميع ما بها من مراكب وقتلا جميع الجنود الاسبان ، ووضعا أيديهما على كل ما كان بالقلعة من أموال ، وبدلا من أن يشكرهما حاكم الجزائر سالم بن التومى على انتصارهما ظن بهما سوءا مما أدى الى قتله لانه لا يفكر الا فى شىء واحد وهو الوظيفة .

وبطبيعة الحال فان المسيحيين بلغ بهم السخط مبلغه ، حيث أن الموانىء التى كانت تخضع لهم ، أصبحت تضيع منهم الواحد بعد الآخر ، أما المسلمون فى المشرق والمغرب فقد هللوا وكبروا لهذا الحادث ، ومنهم السلطان الغازى سليم الذى كان فى ذلك الوقت فى مصر وبعث الى عروج بهدية قيمة وولاه على الجزائر .

معركة عروج وخير الدين ضد عميل اسبانيا حمو قائد تلمسان

وفي الوقت الذى دانت فيه قلعة « بتيون » الجزائرية للاخوين خير الدين وعروج خر قائد تلمسان الى اسبانيا خوفا من سطو عروج وأخيه ، واستنجد بالاسبان ، فجهزوا له أسطولا بحريا لمساعدته على أن ينتقم للاسبان من الاخوين خير الدين وعروج ، وخرج من أسبانيا موقنا بان النصر سيكون حليفه ، وأنه سيؤدى خدمـــة لاسياده الاسبان ، فيقضى على الاخوين فقصد الى « حسين داى » وهو موضع قريب من الجزائر ، وتقابل الفريقان ، فريق حمو والاسبان من جهة وفريق الاخوين من جهة أخرى ، وكانت معركة حامية ، انهزم فيها حمو حاكم تلمسان والاسبان ، وتركوا قتلاهم ، وكان هذا الانتصار فاتحة خير للجزائر وتوافدت على الاخوين الوفود من كل جهـــة يشكرانهما على عملهما هذا ودانت لهما القبائل المجاورة مما زادهما قوة على قوة ٠

وبدلا من أن حاكم تلمسان يستنجد بعروج وأخيه قرر دون سبب أن يفاجئهما بالعدوان وأن يستعين عليهما بالصليبيين ، فكان لزاما أن يعاملاه بالمثل ، وأن يزيحاه عن الحكم حتى يترك تلمسان للجزائريين الاوفياء من بنى تلمسان الذين يعتمدون على أنفسهم بدلا من أن يعتمدوا على الصليبيين أعدائهم ٠

ولقد توجه الاخوان الى تلمسان من أجل تطهيرها من حاكمها الخائن وفى طريقهما استوليا على ميناء « تنس » وبعثا الى حمو ليترك تلمسان مفتوحة فكان رده أنه لا يسلم وأنه مستعد لان يقاتل حتى آخر نقطة من دمه ، فأجابه الاخوان أنه ليتحمل وزر هذا الامر وأنه هو البادىء فى الاعتداء ، والمعتدى لابد أن يجازى وفاجآه ودارت بـين الفريقين معركة كانت عاقبتها وخيمة على حمو وجنوده على أنه انسحب من المعركـة وتوجه الى اسبانيا واستنجد بملكها للمرة الثانية ٠

وبعد استيلاء عروج على تلمسان قرر أن يستدعى التلمسانيين ويشرح لهم الداعى لمجيئه الى هنا ، فاخبرهم بانه لم يات مهاجما ، وأن الدين يامره بان يضع امكانياته لاعانة اخوانه المسلمين وانه لا يفكر فى أن يكون الحاكم عليهم بالرغم من أن السلطان العثمانى قد ولاه ، وطلب منهم أن يعينوا من يتولى أمرهم ، فاشاروا عليه بان يسند الولاية لاخ حمو المسعود لما اشتهر به من المحامد ومكارم الاخلاق فوافقهم على ذلـك واسندت الولاية الى أخ حمو المسعود ، وتوجه عروج الى بقية البلاد الجزائرية ليجند البلاد والموانىء التى كانت خاضعة للاسبان ٠

وقد رأى حمو أن تولية أخيه نعد تولية مؤقتة ، وأن فى استطاعة أخيه أن يتنازل له عنها لهذا طلب من الاسبان أن يجهزوا له جيشا آخر للقيام باخلاء تلمسان من عروج وأخيه ، كما طلب منهم أن يسمحوا لحاكم وهران ، المركيز غومارث أن ينضم اليه بما لديه من القوى ، فوافق ملك اسبانيا على ذلك وبخاصة أن عروج أخرجه من قلعة بتيون بالجزائر وأخرجوه من تلمسان التى كانت اسبانية لحما ودما ، وكان يحكمها صوريا حمو ، وانه أن لم يؤيد حمو فان اسبانيا ستخرج من وهران التى كانت تحت تصرفها منذ مدة ، واستعد حمو وملك اسبانيا ، وحاكم وهران الاسبانى ليشنوا غارة على عروج فبلغ عروج هذه المؤامرة فتوجه الى تلمسان ، فدخل قلعتها وقضى على أقارب حمو كلهم لانهم تآمروا عليه ، وتحصن عروج بسور تلمسان قبل أن يشرح للتلمسانيين ما أقدم عليه حمو من الاستنجاد بالعدو .

ثم حضر حاكم وهران بقوته وحاصر « عروج » وبقى محاصرا له ستة وعشرين يوما بأكملها ولم يهاجم الاسبان لان ما كان عنده من الاسلحة ومن الجند غير كاف وقرر أن يخرج ، وفعلا خرج مع اتباعه من القلعة وأخذ معه أمواله فاتبعته الجنود الى مكان يعرف بالوادى المالح قرب نهر شلف بالرغم من أن عدد جنوده كان قليلا ، فقد جابههم ولكنه قتل ، اذ كانت القوات غير متكافئة واستولى حاكم وهران على أمواله وقضى على جميع جنوده ، وكان لهذه المعركة صدى فى الاوساط الصليبية والاسلامية معا : فالصليبيون فرحوا كثيرا لموت هذا العدو الذى تمكن من أن يصب عليهم جام نقمته أما المسلمون فقد تحسروا لهذه الخسارة ، وكتبوا لاخيه خير الدين أن يتلقى هذه الصدمة الكبرى بصدر رحب ، وأن يعمل ما فى وسعه من أجل اعلاء كلمة الله فى افريقيا ، غير أن خير الدين لم يتحمل هذه الضربة القاسمة وفكر فى أن يترك الجزائر وأن يهتم بالقرصنة حتى ينتقم لاخيه من الاسبان ، ولما عقد العزم على ذلك وتهيأ للسفر من أجل اتخاذ الاجراءات للسطو على المراكب الصليبية جاءه رسول من السلطان الغازى سليم يعلنه بأن نجدة كبيرة من المراكب جاءت لتشد أزره ، فتمكن خير الدين بذلك من أن تكون له قوة بحرية كبيرة ، وأصبح لا يفكر فى شىء الا أن يثار لاخيه من أعدائه .

كان عروج يدعى بربروس الاول ، وعندما توفى اسند لاخيه خير الدين لقب بربروس الثانى فاستدعى رجاله ، ليتهيأوا لخوض المعارك ضد الاسبان وضد

الصليبيين وبينما هو يعمل من أجل اخراج هذه الفكرة من حيز القول الى حيز العمل اذ جاءه رسول من ملك اسبانيا يأمره بالتخلي عن الجزائر لانها كانت تحت تصرف الاسبان ، ويستطيع الاسبانيون أن يخرجوها من أيدى العثمانيين وخير ملك اسبانيا خير الدين بين أمرين :

الاول : أن يسلمها دون قتال •

الثاني : وأما أن يستعد للقتال •

وذكر له بانــه يجب الا ينسى أن الاسبان لم يخذلوا فى معركة وانهم قتلــوا أخويه الياس وعروج وان تمـادى فيما هـو عليه وركب رأسه فان عاقبته ستكون كعاقبة أخويه •

فأجاب خير الدين : « سترى غدا ، وان غدا ليس ببعيد ، أن جنودك ستتطايـر أشلاؤهم وان مراكبك ستغرق وان قوادك سيرجعون اليك مكللين بعار الهزيمة •

عـــند ذلك طاش عقل الملك من هذا الجواب الحاسم وطار لبه وجهز كل ما عنده من قوة وحضر الى الجزائر وخيم بوادى الحراش على مسافة تقرب عـــشر كيلومترات من الجزائر وخرج له خير الدين ومعه حزم وعزم وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى : « **ان تنصروا اللـه ينصركـم ويثبـت أقـدامكم** » ، وتقـدم للميدان ومعـه رجاله وقال لهم : « ان المسلمين فى المشرق وفى المغرب يدعون لكم بالتوفيق لان انتصاركم انتصار لهم وأن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع شـأن المسلمين وشان الاسلام » •

فصاحوا كلهم بالله أكبر وهاجموا الاسبان فابادوهم عن آخرهم •

ومن حسن الصدف انه بينما كانت المعركة قائمة قامت زوبعة فى البحر فشتتت شمل المراكب الاسبانية وغرق أكثرها ولم يرجع من الاسبان الا القليل •

لقد استبشر المسلمون بهذه النتيجة، وقرت عين خير الدين لانه انتقم لاخويه من هؤلاء الانذال وطارت البشائر الى الدولة العليا فخلعت عليه هدية سنية وولته امارة الجزائر بدلا من أخيه عروج المتوفى •

ومن العجيب أن أمراء بنى زيان بتلمسان تاثروا من هذا الانتصار كما تاثر أمراء بنى حفص فى تونس ، وتحققوا أن البلاد خرجت من أيديهم ، وأن خير الدين سيتولى أمرها وينزع منهم الملك ، فاتفقوا على أن يدبروا له مؤامرة حتى يتخلصوا منه ، وقد اتفق

بنو زيان التلمسانيون والحفصيون التونسيون على أن يبحثوا على من يعينهم على القيام بهذه المؤامرة وأجمعوا كلمتهم على أن يسندوها الى أحمد بن القاضي الصنهاجي الذى اسند اليه خير الدين الولاية على الجبال الموالية للجزائر ، فوعدهم بذلك طالبا منهم أن ينتظروا الفرصة للقيام بهذا الامر .

سبق لنا أن ذكرنا أن «عروج» لما خرج من تلمسان قتل ، وأن حاكم تلمسان السابق رجع للحكم ، وبما أن هذا الحاكم مخلب قط للاسبان ، وبما أن الاسبان قد أعانوه المرة تلو الاخرى ، فمن باب الاعتراف بالجميل قرر أن يأتي الى الجزائر مع جيش جرار ليقصى خير الدين عن الجزائر ويقدمها لقمة سائغة للاسبان وطلب من حاكم وهران الاسبانى أن يعينه كما أعانه سالفا ، فنكث هذا الحليف وترك حاكم تلمسان وشانه .

ولما التقى الجيشان كان النصر في جانب خير الدين ورجع حمو كعادته بخفى حنين تاركا قتلاه وأمواله فى أيدى جنود خير الدين .

وقبل أن يقوم حمو بهذا الهجوم على خير الدين طلب من أخيه مسعود الذى استخلفه عروج على تلمسان أن يلحق به فلم يلب طلبه ، وانضم الى خير الدين ورضى بان يكون حاكما على تلمسان على شروط ، وترك لخير الدين الحرية التامة فى وضع هذه الشروط ، فوافقه خير الدين على ذلك واشترط عليه شرطا واحدا : أن تكون خطبة الجمعة للسلطان ، وأمده بالجيش والذخيرة وأوعز لرؤساء البربر بمساعدته والانقياد لأوامره ، فزحف مسعود بجنوده الى تلمسان فدخلها وفر أخوه حمو واستقر الامر تماما لمسعود فى تلمسان كحاكم من طرف خير الدين والى الجزائر .

ولقد اتخذ والى تلمسان المذكور ذهاب خير الدين الى الجزائر عذرا ليعصى أمره وليستبد بالرأى ، فبعث اليه خير الدين قائلا له :

انك ستندم على ما فعلت والاحسن لك أن تتوب الى رشدك قبل فوات الاوان .

وبدلا من ان يرد على خطاب صاحب نعمته ردا حسنا ، جاهره بالعداوة وأفهمه انه لا يخافه ولا يخاف باسه ، وأنه ينتظر بفارغ الصبر الفرصة التى يمكنه فيها أن تخوض جنوده معارك ضد جنود خير الدين ، فارسل خير الدين اليه ردا يدعوه فيه بان ينتظر الساعة التى يذيقه فيها النكال .

وفعلا توجه خير الدين برا وبحرا الى مستغانم فدخلها من غير مقاومة وجاء حمو حاكم تلمسان السابق وطلب منه ان يعفو عنه فعفا عنه وبقى معه ، وتمكن خير الدين

من ان ينتصر على جنـود مسعود وان يخرجـه من قلعة بنى راشد التابعة له الحـامية باسرها وأن تلتحق بتلمسان .

وتمكن حمو من أن ينال رضا خير الدين وأن يقلده الامارة على تلمسان فجهز له جيشا وتوجه حمو ودارت بينه وبـين اخيه مسعـود معركة كبـيرة انتصر فيها حمو على أخيه مسعـود ، وبقى حمو حاكمـا على تلمسـان .

ولما رأى أحمد بن القاضى الصنهاجى أن خير الدين أصبح له ما يلهيه عن الجزائر نفذ المؤامرة التى اتفق فيها مع الحفصيين وزناتة ، فانفصل عن خير الدين انفصالا تاما ودعا الناس لبيعته بعدما أمده حاكم تونس بالاموال والرجال ورجع خير الدين من تلمسان بقصد افهام ابن القاضى أن ما أتاه يعد جرما فلم يعره أذنا مصغية ودارت بينه وبين خير الدين معارك انتصر فيها ابن القاضى على خير الدين .

وبعد مضى أربعة أشهر من هذه المعركة تاب ابن القاضى وطلب الصفح عما بدر منه فصفح عنه خير الدين ، ثم نقض العهد مرة أخرى وشهر الحرب على خير الدين فعقـد حينئذ خير الدين لواء الجيش الى قاره حسن على وطلب منه أن يقضى على هذا المنافق . فتقابل الجيشان وانسلخت القبائل عن مسعود وتمكن قائد خير الدين من تأبيده .

ومما زاد الطين بلة والطنبور نغمة ، أن هذا القائد قد حدثته نفسه بأن يخون خير الدين ، ولما سمع بذلك خير الدين جمع الخائنين وقتلهم شر قتلة .

على أنه بعد هذه الاعمال وهذا التفانى فى خدمة الجزائريين وبعد أن رأى خير الدين أن من يقربه اليه ينقلب عنه ويسعى فى حتفه ، وظهر له أن يتـرك ولاية الجـزائر وشأنها وأن يهتم بالقرصنة ، وخرج من الجزائر بمراكبه ، واستعمل مهارته وخبرته فى القرصنة أكثر من ثلاث سنوات جاعلا همه غزو المراكب الافرنجية .

ولقد حدث أن بعث أحد قواده لغزو المـوانىء الفرنجية والتجأته الرياح الى أن يذهب الى ميناء الجزائر لتقيه الرياح فمنعه ابن القاضى صنيعه خير الدين الذى أصبح حاكما للجزائر بعدما تركها ولما بلغه هذا الخبر المفجع ، وهذه الاهانة من ابن القاضى قرر أن يرجع الى الجزائر وأن يتولى الامارة واستدعى انصاره وحاصر مدينة الجزائر وكلف خير الدين من يقتل ابن القاضى فقتله ، وفتحت له أبواب الجزائر على مصراعيها ورجع لولايته واتفق معه حاكم تلمسان وأبقاه على الامارة أما قائده المتنكر قارة حسن على الذى ذهب الى شرشال فقد بعث اليه من يقتله فقتل وفرح الناس برجوع خير الدين

لان خروجه من الجزائر وتخليه عن الولاية كان بالنسبة للمسلمين كارثة خطيرة من قبل الصليبيين ٠

ولقد طلب من أهل الجزائر أن يطهر من رجس الاسبان جزيرة صغيرة كانت تخضع لهم ، وفى الوقت الذى توجه للاستيلاء على هذه الجزيرة بعث ملك اسبانيا بثمانية مراكب مشحونة بالجنود والذخيرة مددا للحامية ، وقبل أن تصل هذه المراكب الى الجزيرة تعرض لها قائد أسطول خير الدين وظفر بها وساقها بما فيها الى المرسى ثم اقتحم الجزيرة واشحن في الحامية فتلى وأسرى ٠

وما ان بلغ الملك خبر استيلاء خير الدين على هذه الجزيرة حتى جهـــز أساطيله وجنوده وأسند قيادة الاساطيل للقائد « أندريا » المشهور وتواطأ الفرنسيون والاسبان فقدم ملك فرنسا لملك اسبانيا عشرين مركبا من أجل الاطاحة بخير الدين ، وعندما أخبر خير الدين بان الاسبان اتفقوا مع الفرنسيين وانهم فى طريقهم اليه بأسطـول ضخم جهز خير الدين نفسه وسار فى البحر مترصدا «اندريا» قائد الاسطول الاسبانى ٠ غير ان عدم ملاقاته للاسطول الاسبانى لم يمنعـه أن يمـر على الثغـور الافرنجيـــة والفرنسية فغزاها وظفر بعدة مراكب لاسبانيا وفرنسا ٠

كان السلطان الغازى سليم يتتبع أخباره ويرسل التهنئة اثر الهنئة كلما انتصر على الصليبيين ، وأخيرا قرر السلطان أن يستدعيه الى استانبول وأن يكلف مـــن يخلفـــه وتوجه خير الدين فى أربعين مركبا ومر على سواحل ايطاليا وسردينا فعاث فيها فسادا ، واظهر للفرنج انهم لن يفلتوا من قبضته ، ودخل عاصمة السلطان وسلم للخزينة جميع ما استولى عليه من الفرنج فشكره السلطان وقلده وزارة الحربية ٠

ولم ينس عداوته « لاندريا » وأصبح يترصد له كلما بلغه أنه فى مكان يرسل اليه قواده لينقضوا عليه تماما ، حتى ان البحر الابيض المتوسط أصبح يعرف ببحر خير الدين ، وذهب قائده لجزائر موره الاسبانية ففتحها ، ثم استولى على بنزرت ثم مـــر عينه لاخذ تونس فخافه التونسيون وطلب حاكم تونس من سلطان القيروان أن يمده بالرجال فخذله ، وبعث حاكم تونس الى ملك اسبانيا فأمده بالرجال والمال وطلـب ملك اسبانيا من البابا بروما أن يستنهض همم الفرنج لمساعدته ، فبعث البابا لكل الصليبيين حتى يكونوا مع ملك اسبانيا فيما قرر القيام به من الاطاحة بخير الدين فاستجاب له كلهم ودارت بين الفريقين المعارك ، وكاد الانتصار يكون للاسبان وبخاصة أنه كان بالقلعة ما يقرب من خمسة وعشرين ألفا من الفرنج ، ولما اهتم الناس بالمعركة

تمكن هؤلاء الاسرى من أن يخرجوا وأن ينضموا الى الاسبان ، وبالفعل كانت القوة المتقابلة غير متكافئة فانتصر الاسبان على المسلمين وفر خير الدين من تونس الى « عنابة » ومنها الى الجزائر واستولت جيوش الفرنج على تونس واستباحوها ثلاثة أيام وقتلوا ستين الفا من المسلمين ·

كان الجزاء الذى ينتظره حاكم تونس من اسبانيا هو أن فرضت عليه ضريبة يدفعها كل سنة ، وأن تكون الحرية التامة للفرنج فى الاقامة فى تونس وأن لهم الاديرة والكنائس فرضى بذلك الرضاء التام وأصبحت تونس التى كانت تدين للحكومة الحفصية تدفع الفدية للاسبان ، فقتله شعبه لانه ارتكب جناية بفتح أبواب تونس للاسبان ·

أما خير الدين فقد نجا باعجوبة من المعركة وتوجه رأسا الى ثغور اسبانيا فاستولى على ما بها من مراكب ومر على اسبانيا فدمرها تدميرا وأصلاها نارا حامية ، ولم ينقطع على غزو الثغور الافرنجية الى أن استدعاه السلطان الغازى سليمان واستخلف عنه حسين أغا ، وقلده السلطان وزارة الحرب ، ومات بعد مدة قرير العين ·

ولما كان « حسن أغا » من الرجال الثقات فقد أسندت له ولاية الجزائر بتوصية خير الدين واسندت قيادة البحر فى الجزائر لحسن بن خير الدين ، وكان حسن نسخة من أبيه حيث تمكن فى مدة قصيرة من أن يلقن الفرنج بصفة عامة والاسبان بصفة خاصة دروسا قاسية تفوق الدروس التى تلقوها من أبيه خير الدين وعمه عروج ·

كان أول ما قام به غزو جبل طارق وجاء بجميع الاموال التى به والمراكب التى كانت راسية بمينائه فاهتم الفرنج بهذا الامر واتفقوا أن يجمعوا قواهم للقضاء عليه · فجهز ملك اسبانيا كعادته خمسمائة مركب وشحنها بالجنود والعتاد ، وسار بها الى الجزائر ، ونزل قرب الجزائر فى مكان يدعى « وادى الحراش » وأنزل جيوشه بالبر ولم يبق بالمراكب الا من يحرسونها وعسكر جنوده بالقرب من « سيدى يعقوب » وكتب الى حسن أغا حاكم الجزائر ما يلى :

« أنا ملك اسبانيا الذى استولى على تونس وأخرج منها خير الدين ، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك » ·

فاجابــه حسن آغا :

« ان اسبانيا غزت الجزائر فى عهد عروج مرة وفى عهد خير الدين مرة ولم تحصل على طائل بل انتهبت أموالها ، وفنيت جنودها وستحصل المرة الثالثة كذلك ان شاء الله » ٠

وفى اليوم الثانى من هذه المراسلة ، نزلت أمطار كثيرة ، فالقت ما يزيد على مركب الى البر فهجم عليها العرب واخذوا ما بها من مؤن وأسلحة وقتلوا حراسها وفاجأ القائد « حسن آغا » الجنود الذين نزلوا بوادى الحراش فقضى عليهم جميعا ، ولم ينج منها الا كارلوس وعدة مراكب تعد على الاصابع ٠

ولما وصل الى بلاده رمى بتاجه الى الارض واقسم الا يضعه على رأسه الا بعــد استيلائه على الجزائر ، ولكن قسمه ذهــب أدراج الرياح ، فكل محاولاته للدنو مــن مرسى الجزائر كانت تسبب له الخسائر ٠

ثم جاءت فرنسا بعد ذلك الى الجزائر واستولت عليها الى حين حيث ان حاكــم الجزائر سنة 1830 لم تكن له مروءة حسن بن خير الدين ولو كان حسن ما أمكن الفرنج من استيلائهم على الجزائر التى دافعت بضراوة عن الاسلام والمسلمين ٠

ويمكننا ان نستنتج من دحر الاسبان عن الجزائر بفضل حسن بن خير الديــن ومن استيلاء الفرنسيين على الجزائر ، ان سبب ذلك تهاون حاكم الجزائر وقتئذ وعجزه عن مجابهة الاحداث ، وأن الاتراك فيهم من له همة عالية ويعمل من أجل الاســلام كالاخوة عروج وخير الدين وفيهم من يعمل لاجل منفعته الخاصة ولا يهمه شيء ، وعلى كل ففيهم نزعة عنصرية ضد العرب والعروبة وأنهم استخدموا كل ما يملكون من قوة للاطاحة بالمسلمين لان جلهم على صلة بالعروبة ٠

ومن درس التاريخ العثمانى يخرج بنتيجة واحدة هى أن استيلاء الاتراك على البلاد العربية كان استعمارا ، وأن أحرار العــرب كانوا يساقون كالانعام للمجازر ، وأن كل حركة كانت تقاوم بشدة وعنف ونسى الاتراك أن الاسلام حسن اليهم وســوى بينهم وبين اخوانهم العرب فلا فرق فى المعاملات بين مسلم وآخر ، وأن من كانت فيه الكفاية فى عهد الخلفاء الراشدين وفى العهدين الاموى والعباسى كانت تسند اليه الوظيفة ، بحيث أن الاتراك كانوا من الذين كلفوا مهام كبيرة، أما الاتراك فلما أصبحت مقاليد الحكم بأيديهم عاملوا العرب معاملة لا تليق بمقامهم وكانوا لا يثقون بهم بتاتا ٠

ومن العجب أن العرب عاطفيون لا يكنون لجميع المسلمين الا الخير ، لانهم شركاء فى هذا الدين القويم الذى بزغ من مكة وأنار العالم الاسلامى بهديه ٠

وكثير من المسلمين ان لم أقل كلهم يبادلون العرب حبا بحب ما عدا الاتراك فانهم يحملون للعرب وللعروبة الحقد الدفين ، وان الاضطهادات التى رآها أحرار العرب لاكبر دليل على نيات الاتراك غير الحسنة ازاء العرب ٠

كان العرب يعلمون أن الاتراك سيعاملونهم بالقسوة والعنف ، غير أنهم فضلوا هذه المعاملة بدل أن يتنصروا ، ولهذا رحبوا الى حين بالاستعمار التركى حتى يتمكنوا من زحزحته من على ظهورهم ٠

ان الاستعمار كله شرور ، غير أن بعض الشر أهون من بعض ، فقد جاء الاتراك على هيئة منقذين ، فاذا بهم استحوذوا على الجزائر وقرروا أن يجعلوا منها أرضا تركية وان يصبغوها بالصبغة التركية ، وأن يقضوا على لغتها ولكنهم لم ينجحوا لانهم جاءوا يحدوهم سوء النية ٠

مقاومة الشعب الجزائرى للأتراك

ان ما قام به الاتراك ليس القصد منه اخضاع التجينى أو شخصية أخرى من الجزائريين انما المراد به اسقاط صوت الحق واقامة حكم ديكتاتورى لا يعرف الا البطش .

لقد أساء الاتراك من حيث لا يشعرون ، وحطموا أنفسهم فى المشرق والمغرب فدالت حكومتهم التى كانت قوية لاقصى حد ، وأساءوا للجزائريين حيث أذلوهم ، وهذا السبب الذى حاولت من أجله فرنسا أن تجىء للجزائر غازية وكيف لا تفكر فرنسا فى ذلك حيث أن الاسباب كانت مهيأة لهذا الغزو .

أما نحن العرب فيمكننا أن نقول : كانت نكبة « العثمانيين » بالنسبة لنا نكبة كبيرة مهدت للتآمر علينا لتجعل من أرضنا فريسة للفرنسيين .

ولئن تمكن الاتراك من طمس معالم تاريخنا ، وسنحت الفرصة للاسبان أن يحتلوا موانينا فى آخر القرن الثامن عشر ، وللفرنسيين أن يمتلكوا أراضينا انما مرد ذلك لمعاملة الاتراك لنا .

الا أن القطر الجزائر لم يرض عن هؤلاء وأولئك وتمكن الشعب الجزائرى من أن يشمر عن ساعد الجد ، ويكيل للجميع الضربات المتتالية ليعلمهم من الشعب الجزائرى الذى لا يرضى بالخضوع لسلطان ، ولا يرضخ لقوة مهما كانت .

ولقد حدثنا التاريخ أن الاتراك أعداء الجزائر والجزائريين ، فما ان استولوا على الحكم حتى كانوا لا يفكرون الا فى شىء واحد هو التمتع بخيرات الجزائر دون التفات للوطنيين والدليل على ذلك : أنه سبق للاخوين عروج وخير الدين أن يغزوا بلاد

الفرنج بوجه عام والبلاد الاسبانيه والفرنسية بوجه خاص ، وكانت المنفعة التى حصل عليها الاخوان لهما فقط ، وليس للجزائريين أى حق فى هذه المكاسب .

وزيادة على ذلك فكان الحكام الجزائريون الذين هم من أصل تركى يعقدون الصلح اثر الصلح مع الفرنسيين لصلتهم المتينة مع محمد على حاكم مصر وأولاده من بعده ، وأن الهدنات التى يعقدها هؤلاء الحكام الاتراك قد تبخرت وأصبحت غـــير ذات موضوع . وحجة على ذلك : أن الصلح الذى عقده السلطان الغازى سليمان سنة 1525 م، باسم السلطات الجزائرية على أن يكون لفرنسا الحرية التامة فى أن تجوب فى البحر الابيض المتوسط ، لم يكن له أثر تماما بحيث أن الشعب الجزائرى بعد سبع سنوات من هذا الاتفاق دك الثغور الفرنسية تخريبا لم يكن له مثيل فى تاريخ الحروب

غير أن من أفهم الاتراك بانهم غرباء ، وأن استعمارهم ربما يعمر القرن أو القرنين الا أنه فى آخر المطاف سيقضى عليه ، هو العالم أحمد بن الشريف الذى درس العلم على يد السيد محيى الدين والد عبد القادر ، ثم توجه الى المغرب الاقصى ، وأخـــذ العلم عن الشيخ الدرقاوى ، وقد قام بأعمال يشكر عليها الا أنه تخطى حدود اللياقة وادعى أنه المهدى المنتظر ، ووجد وقتئذ من يصدقه ويناصره ، وبدلا من أن يعمل من أجل اقصاء الاتراك الا أنه انحرف وأصبح عنيفا ، فاستلب الانفس والاموال وخرب العمران ، وأصبح له من الشأن ما أرغم حاكم وهران « على باشا » أن يقاومه ، والتقى الفريقان باغريس قرب مليانة ، فانتصر أحمد الشريف على حاكم وهران وخذل جيوشه وبـــددها .

ولما سمع حاكم الجزائر بالهزيمة النكراء التى لحقت بنائبه فى وهران والخسائر الجسيمة التى تكبدتها جنود الاتراك ، جهز مستشاره على آغا جيشا قويا وحملـه على مراكب كثيرة غير أن حاكم الجزائر لم تكن له القوة لان يذهب رأسا الى الاماكن التى تحصن فيها أحمد بن الشريف ، فارغم على أن يذهب عن طريق البرتغال ولما وصلت جنود حاكم الجزائر الى وادى الشلف تعرض لها الجزائريون ومنعوها من أن تـــرد المياه ، ولم يتمكن الجيش من القرب من الماء ومن المرور الا بعد أن دفعوا الاتاوات ، وقد قال أحد المؤرخين الفرنج : « ان الحاكم التركى يعامل هذه المعاملة التى تـــدل دلالة واضحة على أن السلطات التركية كانت سلطات رمزية، وأن أوامر حكامها لا تنفذ، حيث لم يسمح لهم بالمرور الا بعد ما قبض سكان الشلف ما فرضوه من اتوات على القائد التركى .

ان المعركة التى خاضها مستشار حاكم الجزائر لم تكن طبعا فى صالحه لان الجنود لا يمكنهم أن ينتصروا فى المعركة اذا كان هناك طابور خامس يعرقل حركتهم ، وبالفعل فان القبائل كانت فى الظاهر تساند الاتراك وفى الباطن تنسلخ من المعركة لتنضم للثائر أحمد بن الشريف ، وهذا ما أرغم القائد التركى أن يرجع خائبا ، بحيث أن الاتراك خسروا فى فترة وجيزة معركتين اثنتين ، وقد عجز الحاكم التركى أن يجد حلا لهذه القضية وبقيت ولاية وهران محاصرة ، وتمكن أحمد بن الشريف من أن يمن على وهران بأن فك حصارها وتنادى الناس من كل ناحية وصوب ، ودانوا له بالطاعة وبقى صاحب الامر والنهى فيها مدة طويلة ٠

وفى سنة 1226 هجرية قال حاكم الجزائر : « ان الوضع لا يمكن أن يبقى على هذه الحالة ومن العار أن يكون فى البلد الواحد حكومتان ، فجهز الجيوش وأسند ولايتها الى معتمده محمد باى وأسند اليه ولاية وهران ، فجهز أسطولا ضخما من شرشال ، وكان أول ما قام به هو أن اعتقل الحاكم التركى السابق مصطفى باى وأشخصه الى الجزائر وبعث منشورا الى القبائل المتاخمة لوهران بأنه أصبح حاكما لها، وطلب منهم أن يعينوه على استتاب الامر والخروج من الفوضى التى سببها أحمد ابن الشريف ووزع فيهم الاموال وتودد اليهم كما هى عادة الاتراك ، فانقاد اليه ضعفاء العقول وانخرطوا فى جيشه وتقدم بهم علاوة على ما أتى به من الجند ، وهاجم أحمد ابن الشريف بهذه القوة الجبارة فلم يتمكن من الصمود ، وأرغم على أن يذهب الى تلمسان عن طريق جبل « بنى يزان سان » من المغرب الاقصى وبقى هنالك الى أن توفى ناقما على الجزائريين الذين خذلوه بعد ما أيدوه » ٠

ولما خرج من الجزائر ندم الكثيرون على عدم مساندته ، لانه كان فى امكانه أن يتغلب على الاتراك الذين عاثوا فى الارض فسادا ، وأصبحوا لا يفكرون الا فى سلب الاموال والتعدى على المخلوقات مما أدى الى الفوضى وعدم الاستقرار ٠

وعندما استقر به المقام فى المغرب الاقصى ، بعث اليه بعض الجزائريين بأن يرجع على أن يتزعم الكفاح فأجابهم : « الصيف ضعيت اللبن » ، وأنه لا يمكنه الآن أن يقوم بشىء من هذا القبيل ، ولعل الله يمن على الجزائريين برجال أكفاء يمكنهم أن يحرروا الوطن من الاستعمار العثمانى ٠

وبعد موته حاول أبناؤه الرجوع الى الجزائر فكتبوا الى والد الامير فشفع لهم عند الحكومة الجزائرية فلم تر مانعا من أن تسمح لهم بالرجوع . وحينما رجع أولاد أحمد ابن الشريف الى بلادهم واستقروا هنالك ذهب محيي الدين والد الامير ليشكر حاكم وهران على هذه المكرمة فاكرم نزله وعظم وفادته ، ولما خرج من عنده قال باى وهران لجلسائه : « اننا لا نخشى من ابن الشريف وأمثاله وانما نخشى هذا مشيرا الى محيى الديـن » .

ان ادعاء الحاكم التركى كان ادعاء فى غير محله لان خاصته على بينة من قيمة هذا الرجل ويعلمون أنه شخصية فذة فى تاريخ الرجال شخصية حكيم مصلح ، ناهض الاستعمار التركى ، وقاوم المستعمرين فى كل مكان ، فهابه الملوك ، وخشى سطوته الطغاة المتعسفون ، فنفوه وأذوه وأبعدوه الا أنه كان دائما المنتصر عليهم .

ذلكم هو محيى الدين ، الرجل الذى ما هادن ، ولا خاف ، ولا تراجع .

ذلكم هو محيى الدين الذى قيل عنه أنه صوت الحرية المدوى ، وشعلة التجدد والتحرر والانطلاق .

هذا ما سول للعثمانيين أن يكيدوا له مخافة أن يقضى عليهم ، ويدعى لنفسه الامارة لما كان يتمتع به من احترام واجلال من قبيلته وجميع سكان ايالة وهران للصلة التى تربط بينه وبين الدوحة النبوية .

على أنه فى سنة 1821 توجست السلطة التركية خيفة من تقدير الشعب للامـير محيى الدين والتفافهم حوله فوضعته تحت الاقامة الجبرية بوهران لان المتحمسين لافكاره قد بلغ بهم الامر أن عدوه زعيمهم الشعبى الفذ القادر على مجابهة الاتراك وانتشال البلاد من حكمهم الجائر .

وفى وهران تهيات له الفرصة كى يكرع من مناهل العلم ويجالس كبار العلماء .

والواقع أنه كان مشغوفا بالنظر فى الشؤون السياسية وقد قاده هذا الى التأكد من وجوب السعى لتخليص البلاد من السلطة التركية المتمثلة فى شخص الداى وكبار أعـــوانه .

وفى سنة 1825 سمحت السلطات التركية لمحيى الدين بأداء فريضة الحج فاختار الشاب عبد القادر لمصاحبته بالرغم من أن له ثلاثة أبناء آخرين أكبر سنا منه .

وفى الطريق الى الحج مر الامير محيى الدين وابنه عبد القادر بالبلاد التونسية حيث استقبلا من العلماء والشعب أحسن استقبال ٠

وزار الاميران مصر والعراق وسوريا ٠ وبعد أداء فريضة الحج عرجا مرة ثانية على تونس الا أنه لم يعد الى وطنه الا فى سنة 1828 عندما كانت فرنسا منهمكة فى الاستعداد للاعتداء على الجزائر ٠

وبعد أن حددت السلطة التركية اقامة هذا البطل أرغمت على أن تهادنه ظنا منها أن ذلك يجديها نفعا ، ولكن تصميم الجزائريين فى جميع الانحاء على اقصاء الاتراك أصبح حديث الرائح والغادى ، وحينما خفت صوت الاستقلال نوعا ما فى وهران ، اذ بصوت أقوى يجلجل فى أرجاء قسنطينة يطالب بأن يثوبوا الى رشدهم وأن يغيروا سياستهم وأن يعطوا لكل ذى حق حقه ، والا فانهم يقاومون بشدة وعنف ، وكان رد فعل حكام الاتراك أن ضيقوا على الشعب الجزائرى فنهض حينئذ رجل يؤمن بقضية بلاده يدعى ابن الاحرش هذا الرجل الذى سبق له أن انضم للجيش المصرى وقاوم معه وبمعيته عدد كبير من المغاربة جيوش نابليون بونابرت التى جاءت لغزو مصر ٠

وبطبيعة الحال فانه بعد الهدنة بين المصريين والفرنسيين رجع الى بلاده ، ومر بتونس ، فوجد هنالك من حكام تونس حفاوة تامة ، وبما أنه أصبح يعد من رجالات المغرب الذين يؤمنون بأن بلادهم ملك لهم ، وبأن الغرباء مهما طالت اقامتهم فانهم راحلون لا محالة طلب منه حاكم تونس حمودة باى بأن يثور على حاكم قسنطينة الذى يمثل حكومة الجزائر فرضى بذلك وبخاصة أنه ما رجع من مصر الا بقصد القيام بعمل ثورى من أجل اخراج الاتراك من أرض آبائه وأجداده ٠

ومن الملاحظ أن حاكم تونس أشار على ابن الاحرش بأن يقود الثورة للتنكيل بحكام قسنطينة لما كان بينهما من عداوات دفينة ، وقبل ابن الاحرش القيام بالثورة جاهلا ما بين الحاكمين عن تونس وقسنطينة ، واشترط على الحاكم التونسى أن يمده بما يعوزه لضرب حاكم قسنطينة فوافقه على ذلك، وأمده بالمؤن والاسلحة والرجال ، وتمكن ابن الاحرش من أن يجهز الجيوش من الاماكن التى يمر بها لما كان له من السمعة الحسنة ، ولما كان لاهل البلاد من رغبة ملحة فى ارغام حاكم قسنطينة على تركها لمن يحكمها من أبنائها ٠

ولقد توجه بجيش قوى الى قسنطينة ودارت بينهما معارك حامية الوطيس أسفرت عن انتصار ابن الاحرش وانهزام حاكم قسنطينة وفراره الى تونس مع أهله وأولاده لانه كان يجهل بأن حاكم تونس هو الذى دبر له المكيدة واقصاه عن الحكم وعاش ذليلا فى تونس ، أما خزينة المال والاسلحة والمؤن التى كانت بدار الملك بقسنطينة فقد استحوذ عليها ابن الاحرش ونصب نفسه أميرا عليها وجاءه القوم فبايعوه •

ان هزيمة حاكم قسنطينة الذى هو خليفة للحاكم العام قد أثرت فى الحاكم العام كما اخبر بذلك الحكومة التركية التى اشارت عليه بأن يسند الولاية عن قسنطينة لاحد الاتراك ويكلفه بمهاجمة ابن الاحرش بكل قوة ممكنة ، وفعلا فقد استجاب الحاكم لهذا الامر وعين عثمان باى بن محمد باى وجاء هذا الاخير الى قسنطينة وباشر فعـلا وظيفته وبعث الى القبائل التى أصبحت لا تعرف حاكما عنها الا ابن الاحرش فهددها وخوفها ، وانذرها بان عاقبة الذين قدموا فروض الطاعة لابن الاحرش تكون وخيمة ، وأخذ يتهيأ للحرب ، وخيم بقوته التى أتته من الجزائر واتخذ مقرا له سطح المنصورة الذى يبعد عن قسنطينة بكيلو مترات ، وبعد أن استعد للقتال جاءته قبائل كانت لا تدين بالولاء لابن الاحرش فانضمت الى جنده ، واتخذ ابن الاحرش الاجراءات اللازمة لمجابهة هذا العدو وعسكر فى وادى الزهور البعيدعن سطح المنصور بخمسة عشر كيلومترات ، وكان أول عمل قام به ابن الاحرش أن أمر قائد جيشه بأن يسد النهر ثم أطلقه أول الليل ، وما ان طلع الفجر الا والماء قد عم السهل ، وبهذه الحيلة البديعة تمكن من أن يهزم جيش الباى الجديد ويستولى على جميع المؤن والذخائر التى كانت مع هؤلاء الجنود ، وأن يقتل الباى ويجرده من جميع النفائس والاموال الـتى كانت معه ، كما تمكن جنوده من أن يأخذوا لانفسهم من أسلاب جنود حاكم قسنطينة الجديد غنائم كثيرة •

ولقد بلغ هذا الامر للحاكم العام التركى فى الجزائر فاحتار فى أمره وجاءته فكرة شيطانية وهى ان يسند امارة قسنطينة لمن له صلة بالقبائل فاهتدى الى أن يعـين « قائد الحشنة » واليا عليها لان له صلة مع سكان قسنطينة فتولى هذا القائد أيالـة قسنطينة ولم يبدأ بمقاتلة ابن الاحرش الا بعد مدة حيث انه اتصل بالقبائل واغدق عليهم الاموال ، وذكر لها أن ولاية ابن الاحرش لا يمكنها أن تاتى بفائدة ، وبخاصة انه أنانى ولا يفكر الا فى الحكم ، وحينما يستقر له الامر فسيضرب بيد من حديد جميع الذين أيدوه لانه لا يريد أن يكون معه فى الحكم من يتعرض لمطامعه •

على أن ما زعمه قائد الحشنة من الاطاحة بابن الاحرش ، قد بلغه فلم يعبأ به وسخر منه وحاول أن يفند أقوال حاكم قسنطينة الجديد ، ويعارض دسائسه ، غير أن القبائل أصبحت تميل لقائد الحشنة وتتنصل عن ابن الاحرش شيئا فشيئا مما أدى الى تزعزع مركزه وبالرغم من ذلك فقد أجهد نفسه بأن يخوض المعركة بالعدد القليل من الجنود الذين بقوا معه ، ودارت بين الفريقين معركة كانت نتيجتها ان فشل ابن الاحرش وغلب على أمره وأخذ قائد الحشنة جميع ما كان لديه من عتاد ولم ينج ابن الاحرش من الموت الا باعجوبة ، وذهب الى الجهة الغربية من ايالة وهران وبقى مدة هنالك ثم دس لـه السم فمات ٠

وبقيت قسنطينة فى أيدى الاتراك يتوارثونها واحدا بعد واحد وكان آخر من حكمها أحمد باى الذى قاوم الفرنسيين حتى سنة 1837 ، ثم غلب على أمره وأصبح يعيش مما تقدمه لـه فرنسا فى عاصمة الجزائر حتى وافتـه المنية ، ودفـن بضريح الوالى الصالح سيدى عبد الرحمان الثعالبى ٠

ولقد فرح الحاكم العام فى الجزائر لهذا الانتصار وأيقن أن هذا الوضع أصبح وضعا سليما بالنسبة للاتراك وأن الجزائريين لن يثوروا مرة أخرى فقرروا أن يكون لهم طابور خامس فى الجزائر وهم اليهود وأصبحوا لهم سبل العيش ويمدونهم بالاموال ويفسحون لهم المجال فى التجارة حيث أن اليهود صاروا أغنياء البلد ، وسنحت لهم الفرصة بان يستولوا على تجارة الحبوب ويوردوها لفرنسا ويستولوا على تجـارة الحيوانات ويوردوها الى اسبانيا وينشئوا مراكز تجارية لها أهميتها مع ايطاليا ولكن أهل البلد ، قد تذمروا من هذه السياسة الرعناء وطلبوا من الحاكم العام أن يغيرها فلم يستجب لهم بل أجاب بانه يثق فى اليهود ولا يثق بتاتا فى الجزائريين ٠

ولما بلغ ذلك الجزائريين قاموا على بكرة أبيهم ليحطموا اليهود وعينوا يحيى آغا لحركة انتقامية من اليهود فدخل يحيى آغا على كبير اليهود الذى كان يتردد كثيرا على الحاكم العام التركى فقتله فى منزله وتنادى الجزائريون فقاموا ثانى يوم وعقـدوا مجلسا واتفقوا على أن يعملوا ما فى وسعهم من أجل استئصال اليهود ونهب أموالهم، وذهبوا الى الحى اليهودى فقتلوا كل ما يمكن قتله ، وأخذوا أموالهم ، وجمعوا أشلاءهم خارج البلد وأضرموها نارا ٠

وحينما طرق مسمع الباشا هذه المذبحة ثار وتوعد وقرر أن ينتقم وأمر أن يساق الى السجن كل من شارك فى قتل اليهود وأن يصلب منهم كل يوم عشرة ٠

غير أن عدد المشتبه فيهم كان قليلا بالنسبة للذين شاركوا فى قتل اليهود بحيث أن من صلب لا يوازى 2 فى المائة من الذين قاموا بابادة اليهود ، وعلى كل فان الشعب لم يسكت عن الاجراءات التى اتخذها الباشا ضد أعداء اليهود ، فقتل بدوره لانه ناصر اليهود بحجة أنهم مخلصون له ، وعلى كل فقد لقى حتفه جزاء لما كان يضمره من شر للجزائريين ٠

ان قتل الحاكم العام فى الجزائر فسرته الحكومة التركية تفاسير متعددة ، غير أن الجزائريين فسروه تفسيرا حكيما وهو أن الاتراك مهما حكموا لن يكتب لهم البقاء فى الجزائر وأن اليهود مهما أخذوا من أموال الجزائريين بالطرق المعروفة فانهم سيلحقون بالاتراك ويكون لهم نفس المصير ٠

ولقد تمكن اليهود من أن ينتقموا لقتلاهم وأن تعوضهم الدولة التركية على ما سلب منهم من أموال ، وقرروا أن يزيدوا على هذه الاموال أموالا أخرى وساروا يديرون جميع انواع التجارة وبقوا على هــذه الحالة الى ان جاءت فرنسا وتمكنوا بفضل وزيــر الحرب اليهودى كريمو سنة 1871 بان يحصلوا على الجنسية الفرنسية الا أن الجزائريين لم ينسوا عداوة اليهود ٠

وفى سنة 1934 قام الجزائريون فى قسنطينة نفسها وكرروا المذبحة ضد اليهود فقتلوا عددا كبيرا منهم ، وجاءت ثورة نوفمبر سنة 1954 فاجلى القسنطينيون كــل اليهود الصهاينة عن بلادهم لسبب واحد وهو أنهم يضمرون للعرب العداوة التى لا تقاس بعداوة ٠

ولنرجع لمقاومة الشعب الجزائرى للاتراك حلفاء اليهود فى الجزائر وفى غـــير الجزائر فنقول : ان فشل أحمد بن الشريف وابن الاحرش فى كل من وهران وقسنطينة لم يؤثر أصلا فى الحركة التحررية ضد الاتراك ، وان مساندة الاتراك لليهود زادت الامر سوءا على سوء حتى شاع فى البلاد أن الجزائريين سيقتلون كل الاتراك وكــل اليهود فى يوم سيحدد من بعد ، وبلغ ذلك الاتراك واليهود فاصبحوا ينتظرون بين آونة وأخرى ساعة الصفر التى ينقادون فيها الى المذابح كالانعام ٠

ونظرا لما كان يسود العالم من حركات تحررية ، فكر الجزائريون فى القيام بخطة حكيمة تشمل جميع البلاد الجزائرية من اقصاها الى اقصاها ، وبدات المشاورات بين رؤساء القبائل واذا بالسيد محمد التيجيني يشهر السلاح ضد الاتراك .

قام بحركة تحررية فى المغرب من اجل اتاحة الفرصة لمواطنيه ان يكونوا أحرارا والا تهضم حقوقهم ، وكان والده السيد أحمد التيجيني زاهدا عابدا صاحب طريقة تدعى بالطريقة التيجينية وكان له مريدون واتباع ، ولما ذاع صيته وشاع ذكره خافت منه الحكومة التركية وخاف هو من غوائلها وانتقامها فانتقل باهله وأولاده الى فاس بالمغرب الاقصى ضيفا على سلطانها سليمان العلوى .

ولقد ساعدت الظروف أحمد التيجيني على أن تتوسع طريقته بالمغرب الاقصى وأن يكون له مؤيدون ، ولما توفى اتفق أولاده على أن يرجعوا لوطنهم وأن بقاءهم بالمغرب الاقصى لا يمكن أن يطول فرجعوا وأسندوا مهام الطريقة الى الابن الاكبر محمد ، فقوبل هو وجميع العائلة بالترحاب من قبل أشياعهم بعين ماض فى الجنوب الشرقى من ايالة وهران .

وقام محمد بنشاط ايجابى بعد عودته من المغرب الاقصى والتف حوله العدد الكثير من القبائل المتاخمة لعين ماض مما جعل حاكم وهران التركى يكتب ضده التقارير بانه يناهض الحكم التركى ، وأنه لابد من تحديد اقامته ، أو اعتقاله بدعوى أنه يريد أن ينادى بالحكم لنفسه واقصاء الاتراك .

وفى الوقت الذى دبرت له الحكومة التركية خطة للايقاع به وكلفت حاكم وهران بتنفيذها ، نراه يترك البلاد ويتوجه الى الحجاز عن طريق البر ويحبط التدابير التى اتخذها حاكم وهران .

غير أن حاكم الجزائر كلف حاكم قسنطينة ليقوم بعرقلة محمد التيجيني ، حيث أن الطريق المؤدى الى الحجاز هى قسنطينة ، ففشل حاكم قسنطينة كحاكم وهران وتمكن محمد التجيني من ان يذهب الى المدينة ليزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم توجه الى مكة لاداء فريضة الحج ثم رجع الى المدينة ، ر سب الى القدس فقدس ، واخيرا رجع الى الجزائر واثقا من أن السلطات التركية لن تسمح لنفسها بان تؤذيه بعد ان رجع من الاراضى المقدسة ، وما ان رجع حتى لقيه الناس بالترحاب وافهموه بان السلطات التركية قررت أن تقف ضده ، وعلى هذا فيجب عليه أن يجهر

بالدعوة وأنهم مستعدون لمناصرته على الاتراك مع تسليمه مقاليد الامور لما رأوا فيه من الصلاح والتقوى ، فطلب منهم أن يمهلوه مدة حتى ينظر فى الامر ويتشاور مع الشخصيات وان رأى أن فى خروجه عن طاعة الاتراك فائدة فانه لا يتخلف عن ذلك .

وبعد مضى شهر من رجوعه من الحج جاءته الجماعات اثر الجماعات طالبة منه القيام بأعباء الحكم فوعدهم خيرا ، وطلب منهم أن يمهلوه فترة حتى يرتب الامور فأخبروه بأنهم مصممون على أن يتكلفوا بمناهضة الاتراك وما عليه الا أن يستعد لهذا الامر ، فاستجاب لهم ، ورغب منهم ان يأتوه بمن له رأى مطاع فى كل قبيلة لكى ينظم الامور، وفى المكان والزمان المحددين جاءه الناس وبدأ العمل الجدى للاطاحة بالحكم العثمانى .

كانت الحركة التى قام بها محمد التجينى حركة ذات فروع ولها مخطط متقن ، ويشرف عليها رجال ذوو خبرة ، وبعد أن دانت له الامور فى عشيرته وفى القبائل المجاورة لها توجه مع قادة الحركة الى نواحى بسكرة فوافقوه على مناهضة الاتراك وانضموا اليه وجاءته قبائل الحشم الكثيرة العدد فأيدته وناصرته ولما قوى ساعد محمد التيجينى لم يجد حاكم وهران بدا من مقاتلته وابادة القبائل التى أصبحت تساعده فخرج حسين باى حاكم وهران الى مكان خارج بلدة معسكر من جهة غريس فوجد هنالك أنصار محمد التيجينى وكان معظمهم من قبائل الحشم فهاجمهم وعند ذلك تقهقرت قبائل الحشم وأبيدت القبائل التى أيدت التيجينى ، ولم يبق الا ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة التيجينى وبقوا بالمعركة الى أن قتلوا عن آخرهم ، وجاء قائد الجيوش التركية الى حاكم وهران برأس التيجينى كما جاءه بسيفه فأرسل الرأس والسيف الى الحاكم العام فعلقه على باب قصره كعبرة للذين يحاولون الانفصال عن الدولة التركية ، ويخرجون عن طاعة حكامها ، كما بعث الحاكم العام السيف الى السلطان الغازى محمود خان باستنبول .

ان الاستعمار التركى لا يختلف فى شيء عن غيره ، فى احتلاله البلاد العربية ، من المشرق الى المغرب ، زمنا ، كان يتذرع خلاله بالدين تارة ، وبالخلافة تارة أخرى ، ويستتر وراء الاسلام مرة ، والاخاء الدينى مرة أخرى ، وهو فى هذا يجيد الدجل باسم الدين ، ويظلم باسم الخلافة ، وينهك المحرمات باسم الاخوة .

ولقد بدأ الاستعمار التركى زحفه مرتديا رداء التآخى ، هاديا بلغة القرابة فى الله والاخوة في الاسلام ، وانتهى بعد ذلك الى التكشير عن أنيابه . والظهور على

حقيقته ، فتنكر للاسلام ، وتجاهل حقوق الاخوة فى الدين ، وابتدع بدعة تتريك العناصر غير التركية لتنصهر كلها فى بوتقة فاسدة مفسدة ، ضالة مضللة ، بوتقة تركية غدارة لئيمة لا ترعى الا ولا ذمة ٠

ومنذ مال الترك مالت عنهم القوة والمنعة ، وأصبحوا بين الامم هزأة ، وأطلق عليهم اسم « الرجل المريض » ٠

وطبيعى أن تطمع الدول فى أسلاب هذا الرجل المريض وقد قـال الصحافى الانجليزى تشرشيل : ان الاحداث اثبتت بأن مساندة فرنسا بأسطولها الاسطول اليونانى فى معركة نفارين لم تكن مساندة دولة صليبية لدولة أخرى صليبية ، وانما كانت هذه المساندة لحاجة فى نفس فرنسا وهى : اضعاف الدولـة العثمانية حتى لا تجرأ لمد العون للجزائر حينما نغزوها وشل قوة الجزائر ابان الغزو ، اذا فان الاتراك بتهاونهم واذلال الجزائريين سمحوا لفرنسا ان تفكر فى الغزو وتقوم به ٠

وخلاصة القول أن غزو فرنسا للجزائر كان نتيجة حتمية لسياسة الاتراك ٠

أسباب الغزو

سئل أحد المسؤولين فى حكومة شارل العاشر عن سبب غزو فرنسا للجزائر ، فأجاب بكل تبجح : « ان الجزائر أرض شاغرة ولا مانع لنا نحن معشر الفرنسيين من أن نضع أيدينا عليها لنمدنها ، وناول هذا المسؤول للسائل عدة كتب ألفها فرنسيون مغرضون فى أثناء الغزو أثبتوا فيها أن الجزائر بحاجة لمن يمد اليها يده لكيلا تنهار وتعم فيها الفوضى ، وتثير الشغب والقلاقل لفرنسا التى لا تبعد عنها الا بثمانمائة ميل ».

فلم يقتنع السائل بهذا الجواب ورد له الكتب المهداة قائلا : « ان لدى من المعلومات ما يفند هذه الاقوال الغير الصحيحة » ٠

ولقد كان هذا الرد من طرف احد السائلين الذين لا يمتون للجزائر بصلة ٠ أما ردنا عما كتبه كتاب فرنسا فهو رد يقره العقل والمنطق بالرغم من أن اقناع هؤلاء الكتاب الفرنسيين بحقيقة الامر من الصعب فرضه عليهم ٠

ان أسباب غزو فرنسا للجزائر تتطلب بحثا دقيقا ، ولا يمكن للكاتب الذى يتصدى لهذا العمل الشاق أن ياتى بجميع ما قيل عن أسباب الغزو فى مجلد واحد ، وعليه ان أراد أن يعطى للموضوع حقه أن يخصص له عدة مجلدات حتى يدحض بالحجة الساطعة والبرهان الكامل ما قاله هؤلاء الكتاب المغرضون ، لانهم كانوا يكتبون ما يمليه عليهم أساطين الاستعمار وان كان تماديهم فى طغيانهم هذا لن يعمر طويلا بسبب المجلدات الضخمة التى كتبها رجال من أبناء أعمامهم الاوروبيين الذين سردوا أحداث التاريخ من غير أن يشوهوها ، وأظهروا بجلاء أن الجزائر قامت بأعمال ان أنكرها الكتاب الذين باعوا ضمائرهم لتجار الحروب ومصاصى الدماء فان غيرهم وهم كثيرون قد أشادوا بالجزائر ، وصرحوا بان أوروبا أفادت منها الشىء الكثير ٠ وان أكبر دليل

على أن الجزائر كانت لها جمهوريتها ونظامها وتقدمها هو أن أحد سفراء فرنسا ألف كتابا عن حضارة الجزائر وسيادتها على جميع أراضي وطنها بما فيها الصحراء بحدودها الحالية وسماه : « جمهورية الجزائر » .

ولنعد الى التاريخ : لقد احتل الاسبان بايعاز من راهب عدو الاسلام مرسى وهران وجعلوا فيها حصنا يضع البلدة تحت رحمتهم ، ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة تلمسان قاعدة دولة بنى زيان .

ولم تكن دولة بنى زيان فى أخر عهدها قادرة بأن تجمع الامـــة لقتال هــؤلاء المستعمرين الذين كانوا تحت قيادة راهب متهوس ربما لم يعرف التاريخ راهبا أكثر منه تعصبا وبعــدا عن روح المسيــح عيسى عليه الســلام .

كانت الحملة الاسبانية حملة نهب ولصوصية ، وانتقام من الاسلام وانتهــاك فظيع لحرمات المسلمين ، وكان اعتداء الاسبان على المغرب العــربى حديــث النــاس أجمعين فى ذلك العهــد .

وحدث عن لصوصية البحر ولا حرج : فالاسبان والبرتغاليون انشأوا مع غيرهم من رجال أوروبا سفن القرصنة ، وانهالوا على مهاجرى الاندلس التعسين فما كان يصل منهم الى أرض الجزائر الا القليل الذى فقد كل متاع وكل مال .

وكاد المغرب العربى كافة يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة ، لو لم يتمكن خير الدين بربروس « أحد زعماء القرصنة العثمانية أن يحتل سنة 1516 م ، مدينة الجزائر التى كان يرأسها العلامة عبد الرحمان الثعالبى » .

وبدأ بربروس يوسع حدود ملكه فى شمال افريقيا حتى أسس دولة واسعة جعل عاصمتها مدينة « الجزائر » ثم أرسل الى السلطان العثمانى يقدم له الطاعة ، ويطلب اليه عد حكومة الجزائر الجديدة من ممتلكات الدولة العليا ، فرضى السلطان سليمان بأن تدخل الجزائر تحت حمايته ولقب بربروس بلقب باى البايات وأمده بأسطــول وجند . ثم بدأ نفوذ العثمانيين ينتشر فوق ربوع افريقيا الشمالية حتى عم البلاد الاسلامية هناك ، واستقر منذ ذلك الوقت حكمهم عليها .

ومضت الايام تلو الايام ، والجزائر البعيدة عن مركز السلطان لم تزل مخلصــة للعثمانيين تعترف بسيادة الباب العالى عليها ، ولكن ولاتها بدأوا يستقلون بشؤونها الادارية شيئا فشيئا حتى أصبحوا أشبه بمستقلين فى أمورهم الداخلية تمـــام

الاستقلال ، لا تربطهم بالدولة العليا سوى روابط الود والاعتراف بالحماية ، ودفع جزية سنوية للسلطان حتى ان والى الجزائر العام الذى يدعى « داى » بعد أن كان يعينه السلطان فى الاستانة ، صار الاتراك فى الجزائر هم الذين يرشحون لهـــذا المقام من يرونه لائقا به من بين صفوفهم ، ثم يخبرون الباب العالى بنتيجة انتخابهم ، فيصادق عليه ٠

وكانت الجزائر فى طليعة القرن التاسع عشر من أقوى دول البحر الابيض المتوسط ومدينة الجزائر تعد أحسن ميناء على ساحل هذا البحر بقلاعها المتينة ، ومدافعهـــا الضخمة وجنودها البواسل ٠

وكان الاسطول الجزائرى يربو عدده على 72 قطعة ممتازة كبيرة الحجم ، و 140 سفينة متوسطة الحجم ، وكل هذه البواخر الحربية مجهزة بما تحتاج اليه من مدافع وقنابل وجنود وغيرها حتى بلغ عدد البحارة الجزائريين ما يزيد على 30 الف مدربين أحسن تـــدريب ٠

حدا ذلك بسكان الجزائر الى الانتشار فى البحر الابيض المتوسط ، يتخذون الملاحة صناعة وطنية والقرصنة مهنة ، ومع ما كانوا يصيبون من هذه الغزوات البحرية من ربح طائل وثروة ورفاهية عظيمتين ، لا يعدون الانقضاض على البواخر وسلب ما فيها سرقة أو نهبا ، بل يعدونها نوعا من أنواع الحروب بين المراكب التجارية ، أينما وجدت ، وبين العراك بين البواخر الجزائرية ، والبواخر الاخرى ، تكون سفن المغلوب ملكا للغالب ، يتصرف بها كما يشاء ٠

وكانت القرصنة معترفا بها بين جميع الممالك البحرية الا أن مؤتمر فيينا الغاها سنــة 1815 ٠

ولكن الجزائريين لم يكونوا ليهاجموا أية سفينة يظفرون بها فى عرض البحار ، وانما كان على جميع الدول البحرية ، التى تريد أن تجتاز بواخرها البحر المتوسط بأمان ان ترتبط مع داى الجزائر بمعاهدة صداقة ، وان ترسل قنصـــلا لها يقيم فى مدينة الجزائر وتدفع « للباشا » أداء سنويا معلوما مقابل تمتعها بالحرية البحرية ٠

وهكذا كانت انجلترا ، وفرنسا ، والدانمراك ، وهولندا ، وسردينيا ، والبرتغال ، واسوج ، والنرويج ، وهانوفور ، واسبانيا ، والولايات المتحدة الامريكية ، باتفاق

تام مع داى الجزائر ، ترسل اليه كل عام هدايا نفيسة ، وتطلب وده ومصادقته ، وبذلك لا يصيب بواخرها أى اذى بعبورها البحر .

ومن التجنى على التاريخ أن يزعم كتاب فرنسا عدم وجود هذه الحكومة .

ويقول التاريخ : ان الجزائر كانت دولة تعترف بها جميع دول العالم ، بل كانت الدول تتسابق الى طلب ودها لانه كان معترفا لها بالسيادة فى البحر الابيض المتوسط وفى سبتمبر سنة 1795 ، عقدت محالفة سلم وصداقة مع الولايات المتحدة الامريكية تضمنت التصريح للسفن الامريكية بممارسة التجارة مع الجزائر مقابل دفع الرسوم المعتادة ، واعفاء الادوات البحرية والحربية من هذه الرسوم على أن يصرح للسفن الجزائرية بمثل ذلك مقابل جوازات سفر لها من من القنصل الامريكى .

ويؤخذ من كتاب « الامريكيون والبربر » الذى وضعه ديبوى فى سنة 1824 انه فى 12 من أفريل سنة 1825 أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة الامريكية بسبب سوء استغلال أمريكا للاتفاقية السابقة ، وأرسل الرئيس الامريكى جمس ماريسون الى الداى خطابا هذه نصه :

« لقد أعلنتم سموكم الحرب على الولايات المتحدة وقد قرر الكونجرس فى اجتماعه الاخير اعلان احالة الحرب مع حكومتكم وكلف اسطولا من بواخرنا بالتوجه الى البحر الابيض المتوسط لتنفيذ ذلك القرار ، وسيكلف هذا الاسطول تخييركم بين الحرب والسلام وانتم وما ترون ولنا وطيد الامل أن توازنوا بين ويلات الحرب ومزايا حسن التفاهم مع أمريكا التى تزداد قوتها مع الزمن فتجنحوا الى استئناف ما كان بين الحكومتين من علاقات الود والصداقة ، وليس لحكومتنا هدف الا السلام والصداقة مع الجميع » .

وأجاب الداى عمر باسم الحكومة الجزائرية عن ذلك بعد أن عين شروطا للصلح قائلا : « وانى أبلغكم رغبة حكومتى فى استئناف علاقات الصداقة التى ربطت بين بلدينا منذ أكثر من عشرين سنة ، ولا سيما أن أمريكا كانت أول دولة عقدت معها حكومتى معاهدات سلام ، ونتمنى بعون الله أن يأتينا ردكم سريعا بالموافقة على شروطنا الموضحة آنفا ، أما اذا أبيتم الموافقة عليها فانكم تتحملون وزر خرق قوانين الانسانية المقدسة والاعتداء على مواثيق الامم » . وقد رضخت أمريكا لشروط الداى وتم الصلح .

اذن فقد كانت هناك حكومة تملى ارادتها وتعقد المعاهدات وتعلن الحروب وتدافع عن مصالح الجزائر دون الرجوع الى تركيا أو فرنسا أو الى أى بلد من بلدان العالم ،

ومثل هذه الحكومة تسمى حكومة مستقلة ولا يمكن أبدا أن تسمى خاضعة أو تابعة أو تحت سيطرة دولة أخرى .

وليس هذا فقط ، فمن الممكن أيضا أن نضع علاقة الجزائر بفرنسا قبل الاستعمار موضع البحث وسنخرج منها بالنتيجة نفسها :

فقد كانت فرنسا في ذلك العهد تعترف بالجزائر كدولة مستقلة ذات سيادة ، وكانت المسائل في الجزائر ليس مكانها في وزارة الداخلية الفرنسية ، بل في وزارة الخارجية والحربية والبحرية .

وترجع العلاقات الديبلوماسية بين الجزائر وفرنسا الى الوقت الذى جاء فيه الى الجزائر أول قنصل فرنسي وذلك في سنة 1564 ، ففي القرن السادس عشر كانت هناك محالفة بكل معنى التحالف بين الجزائر وفرنسا ، وبمقتضى هذه المحالفة استنجدت فرنسا بالاسطول الجزائرى لحماية شاطئها من العدو المشترك في ذلك الحين وهو : (اسبانيا وملكها شارل كان) وفي سنة 1798 ، بلغت ديون فرنسا للجزائر 7 ملايين من الفرنكات فهل يمكن أن يحدث هذا والجزائر جزء من فرنسا كما ادعت أيام الاحتلال ؟

وهل يمكن أن تمد الجزائر المعونة لبلد كفرنسا الا اذا كانت تقف الى جانبها على قدم المساواة وتضاهيها كدولة .

ان فرنسا التي كانت تتحدث عن الجزائر كجزء منها تعلم جيدا أن تاريخ الجزائر حافل بالسيادة والاستقلال ، ويكفي التدليل على ذلك أن نقول : ان أسطول الجزائر البحرى كان في وقت ما أقوى أسطول في البحر الابيض المتوسط ، وعندما كانت الحالة في هذا البحر يسودها الاضطراب والفوضى من جراء القرصنة ، وكان أسطول الجزائر يتولى حماية البلدان الصديقة وكانت هذه الدول تعمد الى دفع اتاوات معينة للجزائر نظير حماية سفنها وقد ظل هذا النظام قائما الى عهد الاحتلال الفرنسي . وحتى بريطانيا سيدة البحار كانت كلما غيرت قنصلها في الجزائر ترسل مع القنصل الجديد ستمائة جنيه ذهبية كهدية لحكومة الجزائر نظير حماية سفنها من غارات القراصنة .

وكانت هذه القاعدة متبعة أيضا مع سائر الدول الاخرى ، فكل دولة كانت تغير قنصلها ترسل مع القنصل الجديد للحكومة الجزائرية هدايا ، وتختلف هذه الهدايا بحسب مكانة الدولة وبحسب الاخطار التي قد يتعرض لها أسطولها .

وقد سقنا هذا الدليل الاخير لندلل به على أن فرنسا عاشت قرونا طويلة فى حماية الاسطول الجزائرى ، وانه من غير العقول أن يكون للجزائر كل هذا السلطان ثم نقول : « انها كانت جزءا من فرنسا بل لعل العكس هو الصحيح ، فاذا كان هناك تابع ومتبوع فان فرنسا تصبح « التابع » فى هذه الحالة » ·

ان هذا الاعتداء لا مثيل له فى تاريخ الانسانية ·

أما بريطانيا فقد علقت على هذا الحادث بأن العقلية الفرنسية لم ولا ولن تتحول وأن الفرنسيين كعادتهم يسيئون دائما لمن أحسن اليهم ·

وانكرت دول أخرى اعتداء فرنسا على الجزائر التى عقدت معها منذ عام 1619 م الى عام 1830 سبعا وخمسين معاهدة صداقة وتحالف ، وقد اعترفت بطبيعة الحال 57 مرة بتوقيعها هذه المعاهدات باستقلال الجزائر التام وبسيادتها على أراضيها ، وأن التعدى اليوم على هذه السيادة يعد خرقا للقانون·

هذا ما ذكرته الدول التى تمت بصلة الى فرنسا أما الدول العربية فكانت وقتئذ مقيدة لا حول لها ولا قوة ما عدا محمد على طاغية مصر فقد رأى أن الاعتداء جاء فى ابانه والدليل على ذلك أن فرنسا كانت طلبت منه أن يقوم بالاعتداء على أن تمده بجميع ما يحتاجه ، فرفض لعلمه أن فرنسا تريد منه أن يحتل الجزائر ثم تحتل بعد مصر.

وعلى كل فلا يهمنا من الامر ما قالته هذه الدول حيث أن اقوالها وما كتبته صحفها لا يساوى قيمة الحبر الذى كتبت به ، أما نحن معشر الجزائريين فاننا على بينة من الاسباب الرئيسية التى أدت الى قيام فرنسا بهذا الاعتداء ·

ان فرنسا تكن للجزائر العربية الحقد كله لان الجزائريين سبق لهم أن احتلوها وبقى الجنود الجزائريون فوق الاراضى الفرنسية ما لا يقل عن ثلاثة قرون فمدنوها وأسدوا لها خدمات كان حريا على فرنسا أن تقدرها حق قدرها ، ولكن فرنسا من عادتها أن تنسى الجميل ، أما من أساء اليها عن حسن نية أو سوء نية فانها تنتقم منه ولو كان فى بروج مشيدة ·

ان فرنسا لم تنس أن الامير الفرنسى تورفيل جاء ومعه أسطول ضخم من ميناء طولون بقصد الاعتداء على الجزائر ، وبقى بعيدا عن الميناء ، وقامت بينه وبين الاسطول الجزائرى معارك كثيرة ، وكلما حطمت مراكبه ، زود بمراكب أخرى ، وبقى على هذه الحالة مدة تزيد على ثلاثة أشهر ثم رجع الى طولون يحمل معه الخيبة والخسارة ·

ان فرنسا لن تنسى أن الخوجة ابراهيم باشا قد غزا ثغور فرنسا ورجع بمراكب كثيرة ولم يتمكن الاسطول الفرنسى من أن يتعرض له كما غزا ثغور اسبانيا حليفة فرنسا مؤخرا ، وقد حاولت اسبانيا أن تهاجم الجزائر بايعاز من فرنسا ، وكان آخر هجوم اسبانى على الجزائر باء بالفشل ، واعترفت اسبانيا بأن ثغــور الجزائر التى أفنت جنودها ، وأن المراكب الجزائرية خربت ثغورها ولا يسعها الا الاعتراف بمكانة الجـزائر ، ولا يهمنا اعتراف اسبانيا بقوتنا لان هـذا الاعتراف كان متشحا بالمكر ومتسربلا بالخديعة .

ان هذه المكانة التى كانت تتمتع بها الجزائر هى التى سولت لفرنسا أن تعتـدى عليها وهذا لا يستغرب لان القوى يخلق لنفسه المتاعب ، وأن جيرانه اذا كانوا جيران سوء كفرنسا لا يعترفون له بالجميل الذى أسداه اليهم ، بل يتنكرون لهذا الجميـل ويختلقون الاساطير للتخلص من رد التحية بمثلها أو بأحسن منها ، ويذهب بهم الغى الى أن يعتدوا على من أحسن اليهم .

ولو كانت الجزائر أنقذت دولة أخرى غير فرنسا لاستحقت الثناء الجميل والمعاونة الصـادقة .

أما فرنسا فقد نسيت أو تناست أن الجـزائر أنقذتها فى أيامها السود وأمـدتها بجميع ما كانت فى حاجة اليه .

على أن فرنسا قد اتفقت مع حكومة الجزائر سنة 1819 على أن تدفع لها ما بذمتها من الديون البالغة سبعة ملايين فرنك على يد وكيليها اليهوديين يعقوب كوهين وباكرى ومخائل أبى زناك المعروف باسم بوشناق على أن يكون الدفع اقساطا معينة ابتداء من أول يوم فى عام 1820 م .

بدأت الحكومة الفرنسية بدفع هذه الاقساط بالتدريج حتى بلغ مجموع مــا دفعته أربعة ملايين ونصف فرنك ، وتوقفت عن دفع الباقى بحجة أن تجـار مرسيليا لهم بذمة تجار الجزائر مبلغ مليونين ونصف من الفرنكات ، وقد طلب هؤلاء التجار أن يتقاضوا دينهم من أصل دفعات حكومتهم فغضب والى الجزائر حسين « باشا » لتوقف الحكومة الفرنسية عن الدفع له وطلب أن تسدد له الحكومة الفرنسية جميع ديونه ، ثم يطالب تجارها بديونهم من تجاره ، فأحالت فرنسا هذه القضية الى مجلس التجارة فى باريس ، وهذا التصرف ليس بتصرف منطقى لان الدين وقع فى الجزائر والقانون

الدولى ينص على أن المحكمة التى لها الحق فى معالجة أية مشكلة من هذا النوع فان القاضى المختص هو القاضى الذى نشأ الدين ببلاده ، فرفض الداى ذلك ، وطلب أن تحال القضية الى مجلس التجارة فى الجزائر ، لا فى فرنسا ، واصر كل منهما على طلبه ، واستحكم الخلاف بين الحكومتين الفرنسية والجزائرية .

وقد كانت فرنسا فى تلك الاوقات تتمخض عن ثورة تضطرم تحت الرماد ضد الملك شارل العاشر الذى تجاسر على خنق حرية الشعب والتضييق على الصحافة ، وكان الوزراء مهتمين فى تهدئة الخواطر ومعاملة الاهالى بسياسة حكيمة حتى لا يثوروا ضدهم ، فاهملوا قضية ديون الجزائر ، ولم يجيبوا الداى سريعا على رسالة وجهها الى ملك فرنسا بهذا الشأن ، وكان قنصل فرنسا بالجزائر يحاول تهدئة « الباشا » بالمواعيد الكاذبة والاعذار الواهية الى أن كان اليوم الاول من شهر شوال سنة 1243 هجرية الموافق 27 من نيسان سنة 1827 م ، دخل قنصل فرنسا الجنرال دوفال على « الباشا » ليهنئه بعيد الفطر السعيد ، وكان يتقن اللغة التركية ، فسأله حسين « الباشا » قائلا : لما لم يصلنى جواب عن رسالتى الى ملك فرنسا ؟ وكان الانفعال باديا على وجه الداى فأجابه دوفال محتدا : « ليس من العادة أن يخاطب الملك من هو أدنى منه بدون وساطة » ففهم منها « الباشا » أن ملك فرنسا لا يتنازل لاجابته ، فاشتد غضبه وثارت ثائرته لهذه الاهانة ، وصاح بالقنصل مشيرا بمروحة من ريش النعام كانت بيده : « اخرج من هنا » وبتلك الاشارة لمست أطراف المروحة وجه القنصل ، فعظم هذا الامر على دوفال وخرج صاخبا محتجا ، وطير الى فرنسا برقية ينبىء حكومته بما جرى له ، وكيف لطمه « الباشا » بمروحة على وجهه ، فاتاه الامر بمبارحة الجزائر حالا فهيأ امتعته وغادر الجزائر ورافقه أكثر الفرنسيين المقيمين هناك .

فلما رأى الداى مافعلت فرنسا بنقل رعاياها ، ادرك انها لا بد أن تحاربه ، فاصدر امره بالقبض على من بقى من الفرنسيين فى بلاده وضبط أملاكهم ، وخرب قلعة « دى كار » الفرنسية فاعلنت فرنسا الحرب على الجزائر فى 16 من حزيران سنة 1827 م وارسلت الامير « كوليت » باسطوله ليخضع الجزائر لارادتها ، ولكن السفن الفرنسية بقيت تحاصر الجزائر ثلاث سنين متوالية دون أن تنال منها شيئا ودون أن تستطيع أن تلين من قناة « الباشا » أو تقلص من شوكته ، بحيث دمرت أكثر وحدات الاسطول ، وهلك معظم بحارته ، وقتل قائده الاميرال كوليت ، وانسحب البحارة وعادوا مع البقية من فلول جنودهم .

حينئذ أخذ الغرور من حسين « باشا » كل مأخذ ، وأدرك قـــوة جنوده ، ومتانة حصونه ورأى أن فرنسا لا تنام ولا تسكت على هذه الهزيمة وأنها لابد أن تعود لمناوأته فاخذ فى تحصين سواحله ، وترميم قلاعه ، وتدريب جنده ، وانتقل باهله وحاشيته الى القصبة •

ولقد أرسلت فرنسا الى الجزائر معتمدا جديدا يدعى « دى لاير » ليتفاوض مـع الداى ويتفق معه على حل يرضى الطرفين ، لا تمس فيه كرامة أحدهما ولكن « الباشا » لم يلتفت الى هذا المعتمد ولم يصغ الى أقواله ، وعندما غادر الجزائر أطلقت على مراكبه القنابل من برج المرسى ، فكانت النتيجة أن اجتمع المجلس الحربى الاعلى فى بـاريس وبدأ يدرس قضية الجزائر ومـا آلـــت اليه ، واختلف اعضاؤه فيما بينهم وتشعبت آراؤهم فى الحلول العملية للخلاص من هذا المأزق ، فبعضهم كان يرى اعلان الحـرب فورا ، وبعضهم كان يرى أن اعلان الحرب على الجزائر فى هذا الوقت مجازفة ، ولربما يطيح بفرنسا ، وأخيرا انتصر الذين صوتوا لجانب غزو الجزائر وجندت من أجل ذلك فرنسا جميع امكانياتها ، وتوجه أسطولها بكامله الى شواطىء الجزائر •

ويذهب بعض المؤرخين الى أن السبب فى غزو الجزائر هو بغض فرنسا للجزائريين وأن كل رؤساء فرنسا يعتبرون دولتهم البنت البكر للميسحية ويسوءهم أن تعوض الكنائس بالمساجد فى الشمال الافريقى ، بدعوى أن المسيحية كانت الدين الذى ساد هذه البلاد ، ومن الضرورى أن يعيد الزمن نفسه وتصبح المساجد كنائس كما كانت مـن قبـــل •

ولتعزيز آرائهم هذه ذكروا بأسهاب ما قام به « لويس التاسع » فى مصر وكيف أسر فى بيت لقمان ، وكيف ذهب الى عكا ، وكيف خرج منها على أسوأ حال ليتوجه مـن هنالك الى تونس ويلقى فيها حتفه •

ان هؤلاء المؤرخين فضلا عن ما ذكروه من الادلة ذكروا أن « نابليون بونابرت » الذى حدثته نفسه أن يرقى عرش الملكة الصالحة شجرة الدر ، وكليوباترة ، وزنوبة ، وادعى الاسلام وأتى الى مصر بمطبعة كان قد اختلسها من الفاتيكان ليـوهم النـاس بعدائه للنصرانية ودخوله فى دين الاسلام خرج من مصر مطأطأ الرأس خائر القوى بعد أن ترك بها خليفته كليبر الذى طعنه الطالب الحلبى لانه تجرأ فربط حصانه فى الازهر الشريف الذى يعتبر بعد مكة والمدينة والقدس الحرم الرابع •

وحينما خرج من مصر قال لخليفته كليبر « سأصل الى باريس وأطرد أولئك المحامين الذين يهزأون بنا والذين لا يصلحون لحكم الجمهورية ... » وسوف أثبت قدم فرنسا في هذه المستعمرة الفاخرة مصر .

وفعلا فقد بر بيمينه ، وذهب رأسا الى منفاه « فيفاترلو » ووفى الله مصر ـ كنانة الله في أرضه جميع شرور الفرنسيين كما وقى الله الجزائر التى ارتوت أرضها الطاهرة بدماء الصحابة الابرار من رجس فرنسا المسيحية وسترجع مساجدها يردد فـــوق مآذنها « الله كبر » .

ولا حاجة بنا أن نأتى بأدلة لنثبت لفرنسا قوتنا من الذين حاولوا الاعتداء علينا واننا ما وصلنا الى أوج القوة الا بفضل تمسكنا بالدين الاسلامي ، وان كانت فرنسا تدعى بأن الذى أخر العرب هو الدين الاسلامي فاننا لا نرد عليها قيمة ديننا الحنيف ونسلم القلم لاحد أبنائها النزهاء الذين يدينون بالنصرانية وهو المفكر المؤرخ « ليفي بروفنسال » ليقول لها بكل صراحه ووضوح :

« لنفرض أن النصارى عجزوا عن دحر العرب وان العرب وجدوا جو شمـــال افريقيا كجو اسبانيا غير بارد ولا ماطر فاستوطنوه فماذا كان يصيب أوروبا ؟ » .

كان يصيب أوروبا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب اسبانيا من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبى العربى . وكان لا يحدث فى أوروبا التى تكون قد هذبها الاسلام .

الغـزو الفرنسي

اعتاد الفرنسيون اذا أرادوا أن يغزوا بلدا ما ، ويسخروا لارادتهــم سكانــه أن يبدأوا ببيانات ظاهرها رحمة وشفقة وباطنها مكر وخديعة ولا يستغرب ذلك من الفرنسيين لان بضاعتهم دائما هي التمويه والتزييف وقلب الحقائق رأسا على عقب وأكبر دليل على ذلك البيان الذى بعثه المارشال دوبرمون الى الجزائر قبل أن تدنسها رجـــلاه .

ان البيان مكتوب بلهجة غير عربية ولكن يتحتم أن نذكره كما كتبه بورمون حرفا بحرف حتى لا ننقص من قيمته التاريخية هذه مناداة من سائر عسكر أمير الجيوش الفرنسية الى سكان الجزائر وأهالى القبائل .

باسم المبدىء المعبود نستعين ، بأيها سادتى القضاة والاشراف وأكابر المشائخ والاختيارية اقبلوا منى أكمل السلام وأشمل أشواق قلبى بمزيد العز والاكرام أما بعد : اعلموا هداكم الله الى الرشد والصواب ان سعادة الملك فرنسا الملك شارل العاشر مخدومى وعزة جنابه الاعلى عز نصره قد أنعم على بتوليته اياى الكونت دى بورمون منصب سائر عسكر ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمى اليكم من شعب المغاربة ان الداى حسين حاكمكم من حيث أنه تجرأ على بهــدلة العلــم الفرنسى المستحق كل الاعتبار وأقدم على اهانته فقد سبب بجهله هذا ضرب القنصل الفرنسى دوفال بالمروحة كل ما هو عتيد أن يحل بكم من الكوارث والضربات لكونه دعى عليكم الحرب من قبلنا فان عزة اقتدار ملك فرنسا دام ملكه نزع الله من قلبه رحمته المعهودة ورأفته المعروفة المشهورة فلابد أن هذا الداى حاكمكم من قلة بصيرته وعماوة قلبه قد جلب على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر المقدر عليه وعن قريب يحل بــه

ما استحقه من العذاب المهين اما أنتم يا شعب المغاربة شعب الجزائر وجيرانه اعلموا وتاكدوا يقينا أنى لست آتيا لاجل محاربتكم فعليكم ألا تزالوا آمنين ومطمئنين فى أماكنكم وتعملوا أشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة ثم أعدكم أنه ليس فينا من يريد ضركم لا فى مالكم ولا فى أعيانكم وأضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا فيبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشىء من ذلك جميعه أحد من قومنا فآمنوا بصدق كلامى ثم أننا نعدكم وعدا حقيقيا مؤكدا غير متغير أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هى الآن عليه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم أحد فى أمور دينكم وعبادتكم فان حضورنا عندكم ليس هو لاجل محاربتكم وانما قصدنا محاربة باشتكم الظالم الذى بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء فيا أيها الاحباب سكان المغرب (الجزائر وجيرانها حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطنته على كل خير ويفرج عنكم ما انتم فيه من الغم والشدة وذو الحل هذا اسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تعمى أبصاركم عما أشرقه الله عليكم من نور اليسر والخلاص ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم بل استيقظوا لكى تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا طريقنا الذى يؤول الى خيركم وصلاحكم وتحققوا أنه تعالى لا يبغى قط ضرر خليقته بل يريد ان كل واحد من براياه ما يخصه من وافر نعمه التى أسبغها على سكان أرضه .

يا أيها الجزائريون أهل الاسلام ان كلامنا هذا مبادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل على الصلح والمودة وأنتم اذا بعثم مراسيلكم الى مبعوثنا حينئذ نتكلم واياهم والمرجو من الله تعالى أن محادثتنا مع بعضنا بعض تؤول الى ما فيه منافعكم وصلاحكم . هذا وأما ان كان منكم معاذ الله خلاف ذلك حتى تختاروا محاربتنا ومقاومتنا اعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر انما يكون بسببه من جهتكم فلا تلوموا الا أنفسكم فأيقنوا أنه ضد ارادتنا فليكن عليكم محققا ان عساكرنا المنصورة تحيط بكم بايسر مرام ودون تعب وأن الله يسلطها عليكم فانه تعالى كما أنه يامر من يجعل لكم النصر والظفر بالرحمة والمسامحة على الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم باشد العذاب على المفسدين فى الارض فلابد لكم أن تعرضوا لنا بالعداوة والشر والهلاك عن آخركم .

هذا أيها السادة ما بدا لى أن أتلمكم بـه فهو نصيحة منى اليكم فـلا تغفلوا عنه واعلموا أن صلاحكم انما فى قبوله والعمل عليه وأن هلاككم لا يرده عنكم أحـد ان عرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به وأيقنوا يقينا مؤكدا ان كلام ملكنا المنصور المحفوظ

من الله تعالى غير ممكن تغييره لانه مقدر والمقدر لابد أن يكون والسلام على من اتبع وسمع وأطاع .

هذا هو البيان الذى قرر دوبرمون ان يخدر به أعصاب الجزائريين ليتمكن من الاستيلاء على بلادهم دون تعب .

ولقد كلفت ادارة المباحث والمخابرات الفرنسية بان تجعله فى متناول الفئة المثقفة من الجزائر وهم بحمد الله كثيرون بحيث ان نسبة الامية فى الجزائر كانت ضئيلة جدا فى الوقت الذى بلغت هذه النسبة عما لا يقل عن 80 ٪ فى فرنسا على أن أهل العلم والمعرفة من أبناء الجزائر العربية قد اطلعوا على هذا البيان فسخروا منه ومن قادة فرنسا ومزقوه شر ممزق أمام أعين الذين جاءوا لتوزيعه .

على أنه وان كان الشعب الفرنسى يجهل كثيرا حياة هذا القائد الذى جاء ليمثل شارل العاشر الا أن الجزائريين كانوا يعلمون أنه كان خليفة لنابليون يمثل شارل العاشر الا أن الجزائريين كانوا يعلمون ان هذا القائد كان خليفة لنابليون بونابرت وكان يعتمد عليه كل الاعتماد حتى انه لما جاءت المعركة الفاصلة التى خاضها بونابرت ضد الانجليز وكاد ينجح فى قيادتـه وينتصر على الانجليز استدعى نائبـه بورمون وأطلعه على أسرار هذه المعركة غير أن بورمون بدلا من أن يساند قائده ويؤيد مسعاه سولت له نفسه أن يبعث قبل المعركة بيومين الى الانجليز بجميع المعلومات عن قـوة نابليون وعن الخطة التى قرر أن ينتهجها . وبطبيعة الحال اتخذت القيادة الانجليزية عدتها وحطمت نابليون وارسلته الى فاتلرلو وبقى بها حتى لقى حتفه أما الجنـود الفرنسيون فقد أسرهم الانجليز ثم أطلقوا سراحهم بعد ما كان بينهم دوبرمون خليفة نابليون بونابرت ورجـع الى فرنسا يكلل جبينه العار بسبب الاموال الطائلة التى أخذها رشوة وباع من أجلها ضميره ولطخ شرفه العسكرى وأتاح للانجليز ان يكونوا كل شىء فى أوروبا وان يمحوا الى حين فرنسا ويقضوا على ما كان لها من السيطرة والنفوذ فى القارة . على أنه ما ان أطلت المراكب الفرنسية على الجزائر حتى جمع حسين باشا ديوانه العسكرى واستشار رجاله فى الامر فقر رأيهم على أن يتركوا الفرنسيين وشانهم فى سيدى فرج حتى أنهوا شحنة بواخرهم انقض عليهم الجزائريون بجموعهم الموجودة الآن والتى ستتصل قريبا والقوهم فى البحر فيكونون بذلك قد تخلصوا منهم وغنموا أموالهم وذخيرتهم كما وقع مثل ذلك قبل مع الاسبان . وكان ديوان الباشا

العسكرى واثقا من النصر لان الـداى كان كتب الى عماله فى المدائن والضواحى يدعوهم الى الجهاد الاكبر ، ويستفز حماستهم فى الهبوب للدفاع عن بلادهم وأوطانهم وقد بعث برسائل كثيرة مملوءة حماسة وحرارة ووعودا بارسال جميـــع الرجـال القادرين على حمل السلاح ووضعهم تحت امرتهم ، حتى فاق عدد الجنود التى وعدوا بهـا الباشا 200 الـف رجـل لم يصـل منهم الا القلـيل ولما احتـل الفرنسيون شبه جزيرة سيدى فرج فى 12 حزيران سنة 1830 وتحصنوا بها حشد داى الجزائر ما تجمع لديه من القوات فى مكانين يدعيان (مصطفى والى وأسطاوالى) يبعدان نحو 5 كيلومترات عن جنوبى شبه جزيرة سيدى فرج وعقد اللواء لصهره (ابراهيم آغا) الذى كان بعيدا كل البعد عن فنون القتال الحديثة والخطط العسكرية الملائمة فلبث مستقرا فى خيمته بعيدا عن المعمعة يصدر منها الاوامر المختلفة المتضاربة على غـير هدى . وكان عدد جنود الباشا يناهز السبعين ألفا من عرب وأتراك وبربر وكان نظامهم يشبه نظام الجنود الاتراك الذين اعتادوا خوض مثل هذه الحروب ويليهم فى ذلك جنود مقاطعتى قسنطينة ووهران اما القبائل البربرية فكان الاعتماد عليها كثيرا لانها اعتادت حرب الغزوات مع انها لم تالف مثل هذه الحروب النظامية .

ولقد أخطأ ابراهيم آغا بترك الوقت الكافى للفرنسيين لاستعدادهم وتركهم فى أرض محصنة طبيعيا فقد كانت تحمى ميمنتهم وقلبهم ومرتفعات أرضية ومسيرتهم بالقرب من خليج صغير فى شرقى شبه الجزيرة . وعند بزوغ شمس يوم 19 من حزيران بدأت المعركة الحاسمة والتقى الخصمان وجها لوجه فبدأت فرقة الاتراك والعرب بالانقضاض على مسيرة الجيش الفرنسى حتى اوقعتها فى الخطر ووصلت الى استحكاماتها ونصبت راياتها عليها وكادت تقتضى عليها كلها لولا وصول النجدة اليها تعززها المدفعيـــة الثقيلة التى أجبرت جيوش الباشا على الانسحاب الى الوراء انسحابا هو الى التقهقر أقرب اذ حمل عليهم الفرنسيون حمله شعواء وتبعوهم حتى معسكرهم فى مصطفى والى ولما شاهد الجزائريون جموع الفرنسيين تنقض عليهم كالسيل الجارف تركوا مخيماتهم وفروا لا يلوون على شىء وأصبح ما فى المعسكر جميعه غنيمة باردة للفرنسيين . ثم عقدت قيادة الجزائريين للباى تيغرطى مصطفى بومرزاق الذى تحصن فى البساتـين حول مدينة الجزائرحتى حصن الافرنسيون مراكزهم وبعد عدة أيام فى مناوشات بسيطة كانت السفن قد أنهت افراغ جميع شحونها وأصبح الفرنسيون على تمام الاهبة ولم يبق بينهم وبين مدينة الجزائر أكثر من 6 كيلومترات فهيئوا هجوما منظما

وانقضوا على جنود الداى فكانت معركة حامية استبسل فيها الاتراك والعرب والبربر استبسالا فائقا وفاق فيها النظام والخطط العسكرية المرتبة على الشجاعة وحرب الغزوات فلم ينثن الجزائريون عن مراكزهم الا بعد أن حصدت نيران أعدائهم أرواحهم وفرقت صفوفهم واستطاع الفرنسيون ان يطلوا على المدينة ويصبحوا بقرب برج مولاى الحسن المسمى (قلعة السلطان) وهو مركز الدفاع الاكبر لاطلاق نيران مدافعهم عن القلعة من 1 الى 4 من تموز حتى ثقبوا جدرانها وخربوا أساساتها ومات من فيها من المحاصرين بعد أن نفذ جميع ما لديهم من مؤن وسلاح ولم يبق منهم سوى ثلاثة أشخاص على قيد الحياة خشوا ان يحتل الفرنسيون قلعتهم ويسلطوا نيرانهم على الاهالى فى المدينة والقصبة فاوقدوا النار فى مستودعات البارود فدك البرج الى الارض وهلك خلق كثير • فاضطرب الناس وهاجوا وماجوا وعلموا أنهم لابد منهزمون فهرعوا الى حسين باشا يطلبون منه ان يفاوض الفرنسيين فى الصلح ويحفظ البقية الباقية منهم من الهلاك فأجابهم : اننى ما دمت حيا سأقاوم حتى النهاية وان أردتم التسليم فاننى سأتلف القصبة وأموت فيها ثم نهض ليوقد النار فى خزينة البارود وما استطاعوا صده عن ذلك الا بجهد جهيد ولما قطع الداى حسين باشا أمله بالنصر وأيقن بالهلاك المحتم ان قاوم حتى النهاية أرسل بومرزاق مصطفى الى القائد العام الفرنسى بعد ظهر يوم 4 من تموز ليعرض عليه أمر الصلح ويعد باعطائه نفقات الحملة الحربية ويؤكد عليه بصداقة الباشا وحرية التجارة الفرنسية فى البحر والبر ولكن الجنرال دوبرمون القائد العام رفض هذه الحلول مدعيا أنها لا تساوى ثلم شرف فرنسا ، ولا تعادل ثمن دماء الفرنسيين وخسائرهم فقد قتل منهم 400 رجل وجرح أكثر من الفى شخص آخرين وبعد ساعتين تقدم الى القائد العام تاجران من أغنياء الجزائر وقالا له : انهما مندوبان عن اشراف المدينة ويطلبان الهدنة والصلح ولما أقبل المساء ذهب بومرزاق مع قنصل انجلترا الى المعسكر الفرنسى وسالا القائد العام عن شروط الصلح التى يريدوها فحررها لهما فاخذها بومرزاق وعاد بها الى حسين باشا فجمع رجاله وحاشيته وتلا عليهم نص هذه الشروط وحينئذ لم يجد الباشا بدا من توقيع المعاهدة والتسليم بهذه الشروط • وبذلك انتهى نفوذ الجمهورية الجزائرية بعد أن استمرت عشرات السنين • وهذا نص المعاهدة :

أولا : فى الساعة العاشرة من صبيحة يوم 5 منيوليو 1830 يتسلم الى الجند الفرنسى حصن القصبة وسائر الحصون الاخرى التابعة للجزائر ومرسى هذه المدينة •

ثانيا : يتعهد القائد العام للجند الفرنسي نحو صاحب السمو داى الجزائر بـان يترك له حريته وكل ثروته الخاصة .

ثالثا : يستطيع الداى بكل حرية ان يسافر صحبة عائلته وأمواله الى المكان الذى يختاره وما دام مستقرا فى الجزائر فانه يكون تحت حماية القائد العام للجند الفرنسى وتسهر فرقة من الجند الفرنسى على حراسته وحراسة عائلته .

رابعا : كل الجنود الاتراك التابعين لجيش الجزائر يتمتعون بالحقوق المقررة فى الفصول السابقة .

خامسا : اقامة الشعائر المحمدية الدينية تكون حرة ولا يقع أى مساس بحريـــة السكان من مختلف الطبقات ولا بدينهم ولا بأملاكهم ولا بتجارتهم وصناعتهم وتحترم نساؤهم والقائد العام يتعهد بذلك عهد الشرف .

سادسا : يقع تبادل هذه الوثيقة مضاة يوم 5 يوليو قبل الساعة العاشرة صباحا وفى الحال يتسلم الجنود الفرنسيون القصبة وقلاع المدينة الاخرى .

وتنفيذا لهذه الاتفاقية تمكنت الجنود أن تمد يدها الى الاموال التى وجدوها حين تسلموا الثكنات . ولقد اتهم كثير من الفرنسيين والكثير من الوطنيين والداى نفسه مارشال دى بورمون وأركان حربه بأنهم اختلسوا من الخزينة مبالغ طائلة لانفسهم الا أن تقرير لجنة البحث المذكور آنفا قد نفى ذلك . وكانت الغنائم تشمل فوق ذلك ألفى مدفع منها ثمانمائة مدفع من البرونز الخالص ، قيمتها على مقتضى ثمــن وزن البرونز 4.000.000 فرنك وكان فى مخازن الحكومة من الصوف و بضائع المختلفة ما قدر الفاتحون ثمنه بثلاثة ملايين فتكون جملة الغنائم هكذا :

نقــدا	: 48.864.527 فرنكا .
مدافع برونز النحاس	: 4.000.000 فرنكا .
صوف وبضائع مختلفة	: 2.000.000 فرنكا .
المجمـــوع	: 55.864.527 فرنكا .

وجاء فى المعاهدة ان حرية الطبقات المختلفة من السكـــان وديانتهم وتجارتهـم وصناعتهم لن تمس بأذى والقائد العام يتعهد بشرفه الخ ... على أنه لم يكد يمضى شهران على هذا التعهد حتى أمر القائد العام بمصادرة ممتلكات الاتـــراك وأراضى

الاوقاف • وأذاق الشعب الجزائرى مرارة الذل فقد هب القائد روفيجو يطالب باجمل مسجد فى مدينة الجزائر وقام الجنود الفرنسيون باقتحام المسجد على حين كان فى داخله أربعة آلاف مسلم واعملوا فيهم القتل بالحراب وهم يؤدون الصلاة داخل المسجد وبين عشية وضحاها تحول المسجد الى كاتدرائية الجزائر ، وكان من أسباب المقاومة أيضا ما ذكرته لجنة التحقيق التى أوفدها البرلمان الفرنسى بقولها : لقد قضينا تماما على المؤسسات الدينية وصادرنا ممتلكات فئة من السكان قد وعدنا باحترام ملكيتها وبدأنا استعمال سلطتنا بفرض غرامة 100،000 الف فرنك كقرض اجبارى وذهبنا أحيانا الى حد ان اجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات المؤسسات الخيرية الى الغير وانتهكنا دون خجل بيوت الله والمقابر والدور ، وكلها ذات حرمة لدى المسلمين وقتلنا رجالا يحملون عنا ورقة الامان وذبحنا سكان قرى عن آخرهم لمجرد الشك فيهم ، ثم تبينت لنا بعد ذلك براءتهم وحاكمنا رجالا بالنفى يعرفون بالتقوى فى البلاد ورجالا محترمين لانه كانت لديهم الشجاعة الكافية لمقابلتنا والتعرض لقضيتنا •

وقد قام قضاة منا بمحاكتهم وارتكب رجال منا باسم القانون اصدار أحكام باعدامهم ، لانهم دافعوا بشرف عن وطنهم وعن تراث آبائهم وأجدادهم • على أن الذى يهم الفرنسيين ان يوطدوا أقدامهم فى الجزائر ويكونوا سادة تتوفر لديهم طرق المعيشة غير مكترثين بحقوق الجزائريين • والواقع أنهم أخطأوا فيما أقدموا عليه وتبين لهم بعد حين أن الجزائريين لئن صبروا فان صبرهم لن يطول وأن فى استطاعتهم أن يثوروا ليستردوا خيرات بلادهم وليكونوا سادة وتجاه هذه السيادة الفرنسية الخرقاء ، مضت خمس سنوات كاملة على احتلال الجزائر ولا يزال رجال الحكومة الفرنسية وأعضاء البرلمان الفرنسى يجهلون الشىء الكثير عن طبيعة البلاد وحقيقة الحكم فيها لان القادة الذين تتابعوا على ادارة دفة الاحتلال لم يكونوا أكثر من رجال عسكريين لم يهتموا باكثر من الامور العسكرية البحتة ولم يفعلوا أكثر من أن يحتلوا مناطق محدودة على الساحل ظلوا معسكرين فيها حتى ان الاتصال بين المراكز الساحلية التى أقام فيها الفرنسيون لم يكن ممكنا الا عن طريق البحر وأما الطريق البرى فكان صعبا وخطرا فى آن واحد • وكان قد قر الرأى على ارسال بعثة خاصة تذهب الى الجزائر وتدرس حالة البلاد الجديدة وقد وصلت هذه البعثة الى مدينة الجزائر فى أيلول سنة 1832 وعادت الى فرنسا تحمل فكرة ضرورة المحافظة على هذه المستعمرة الجديدة ، على أن يكتفى بتحصين المناطق الساحلية تحصينا قويا ولا يفكر باى توسع

داخل جديد ولكن المناقشة حول مسالة الجزائرية عادت فى مجلس النواب الفرنسى فى العام التالى 1833 وصاح احد النواب محتدا بأن احتلال الجزائر ليس الا محاولة جنونية وهو هوة سحيقة تستنزف جميع خيرات البلاد الفرنسية ولكنه لم يجرؤ قط على ذكر كلمة (الجلاء) ولكن نائبا آخر وهو مقرر الميزانية الحربية فى المجلس قال : انني أفضل استبدال كوخ حقير بالجزائر جمعاء من أراضى الدين • لننظـــر الآن الاماكن التى كان يسيطر عليها الفرنسيون فى الوقت الذى لم يكن ساستهم قد اتفقوا بعد على حل نهائى بشأن الجزائر : هل يبقون فيها أو ينسحبون ؟ ففى الجهة الغربية كانوا قد احتلوا وهران منذ سنة 1830 • وتبعتها مستغانم وأرزيو فى 1832 وكانت مدينة الجزائر وأطرافها بايديهم فى الوسط أما فى الشرق فان عنـابة قد خضعت لحكم متناوب للسلطات المحلية والفرنسية اذا احتلها الفرنسيون مـــرات متعاقبـة وأخلوها بعد أن منى الفرنسيون بخسارات جسيمة وصلت أحيانا الى أن ذبحـــت حامية المدينة على بكرة أبيها وبين عنابة والجزائر وعلى مسافة متساوية تقريبا منهما خليج بحرى تقوم فى جنوبه (بوجى) وقد احتلتها فى 1822 حملة جاءت من فرنسا رأسا اليها ولكن هذه الحملة بقيت أشبه بالمحصورة والسجينة داخل المدينة لان سكان القبائل كانوا منتشرين على مقربة منها ولم يكن من السهل اخضاعهم أو محالفتهـم أو اجتياز الطرق من خلال اراضيهم • هذا مجمل حال الفرنسيين فى الساحل الجزائرى. أما فى الداخل فلقد كان تقدم الفرنسيين تقدما بطيئا جدا ، ومقرونا بكثير من التراجع والانسحاب فلم تكن سهول متيجة فى جنوب مدينة الجزائر قط هادئة أو خاضعـة خضوعا تاما، اذ كانت تخضع لقبائل عربية عدة لم توافق على تسليم الاتراك للجزائر •

ان استيلاء الفرنسيين على المدية بسبب موافقـــة بومرزاق باى تيطـرى لـم يعمر طويلا حيث ان الفرنسيين نفوا الباى المذكور الى مرسيليا واقاموا بدله حاكما مصطفى بن عمار • وما ان بلغ ابنه الخبر حتى ثار ودعا الناس للجهاد ، وجمع الجيوش ونازل حديثه المدية وضيق على أهلها وأنذر الباى مصطفى بن عمار الذى نصبته الحكومة الفرنسية بان يتخلى عن المدينة لانه عميل فرنسا ومن العار على مواطن جزائرى ان يمشى فى ركاب المحتل فلم يستجب له وأخطر حاكم الجزائر جنرال برتيزين ان موقفه أصبح خطيرا وأنه مرغم على ان يسلم البلد للثائر بن بومرزاق ان لم تصله النجدة فى أقرب وقت • وحينما اطلع جنرال برتيزين على هذا رأى لزاما عليه أن يمده بجيش قـوى والتقى هذا الجيش بانصار بن بومرزاق فكبده الخسائر وارغم جيوش جنرال برتيزين

على أن يرجع مع ما بقى له من الجنود وان يصحب معه عميل فرنسا مصطفى بن عمار وان يترك مدينة المدية لابن بومرزاق • وعند رجوع الجنرال وفلوله الى الجزائر واشتبكوا بمضايق جبل موازيه مع ابن بومرزاق وانتصر عليهم وقتل منهم عددا كبيرا وتركوا بأيدى الثائرين مؤنا كثيرة وأسلحة لا حصر لها ولم يدخلوا الجزائر الا فى عدد قليل جدا من الجنود وقد بقى ابن بومرزاق الحاكم المسيطر على مدينة المدية الى أن استقامت الامور لمقاومة الجزائر والتف الشعب الجزائرى من ايالة تيطرى ووهران حوله فسلم له بلده المدية قائلا : : « ان الفرنسيين غرروا بأبى وأرغموه على أن يكون عميلهم ضد الشعب غير أنه أدرك قبل فوات الاوان ان من واجب كل جزائرى ألا يرضى بالمستعمر ولقد استسلم لهم بعد ان أعطوه كلمة الشرف بأنه لم يمس بأذى ولن يخرج من بلاده وبعد ذلك رأوا أنه لابد من اخراجه من الجزائر واستيلائهم على أمواله وتشريد أسرته وعلى كل حال فان ما قامت به فرنسا من التنكر لباى تيطرى ليس بالامر المستغرب لان فرنسا اعتادت تعطى كلمة الشرف ثم تسحب هذه الكلمة على حسب ما تقتضيه الاحوال وان العالم أجمع يعرف حقيقة ان فرنسا لا ذمة لها ولا مروءة ولا شرف وأن المعاهدات التى تبرمها مع هذا أو ذلك عمرها قصير جدا ».• فالمعاهدات مع فرنسا معناها الكيد والنصب والاحتلال • وأنها اذا شاءت أن تتنكر لمعاهدة فمن السهل عليها أن تختلف الاسباب الواهية ، لكن التاريخ يشهد بان الوهرانيين لم يتركوا وسيلة من وسائل الدفاع عن الوطن الا اتخذوها وانهم ذهبوا الى العلامة محيى الدين ليطلبوا منه أن يتزعم الدفاع عن الوطن فلم يقبل منهم ذلك متعللا بكبر سنه وألجاتهم الحال الى أن يسندوا الامر لسلطان المغرب لقرب ايالة وهران من التراب المغربى ، فرحب بالفكرة ولبى طلبهم وبعث بأحد الامراء ليكون قائدا عاما على وهران ، وجاء بالفعل هذا القائد واتخذ تلمسان قاعدة له • ووصل بخيله ورجاله الى مليانة وبقى بالجزائر يأمر وينهى لمدة ستة أشهر وخافت فرنسا من بطشه كما خافت من بطش أحمد باى فى قسنطينة وأدركت أنه ربما يتفق هذا القائد مع أحمد باى حاكم قسنطينة ويهاجمانها ورأت من مصلحتها ان تستعمل دهاءها فبعثت القيادة العامة الفرنسية رسالة مطولة الى وزارة الدفاع تطلب منها ان تعمل ما فى وسعها من أجل أن يسحب السلطان ابن عمه من ايالة وهران واستجابت وزارة الدفاع لهذا النداء وركبت فرنسا رأسها وأنذرت سلطان المغرب بانه ان لم يأمر قريبه بالخروج من الجزائر فى مدة لا تتجاوز ثمانية وأربعين ساعة فانها تضطر

فانها تعلن الحرب على المغرب لتدخله السافر فى قضاياها • وهزأ الوهرانيون بهـذا الانذار وظنوا ان سلطان المغرب لن يعبأ بكلام فرنسا وانه سيأمر قريبه بمواصلة الكفاح • غير أن الايام أظهرت لهم بان سلطان المغرب جبن وأرسل الى قريبه بـأن يدخل المغرب فورا فامتثل لهذا الامر وترك الجزائر تواجه وحدها الاعاصير الفرنسية •

وعلى اثر انسحاب الحاكم المغربى من الجزائر اجتمع العلماء والاعيان وقرروا ان يعينوا مرة أخرى العلامة محيي الدين لما اشتهر به من الصلاح والوطنية فذهبوا اليه وافهموه بان مصير الجزائر أصبح بين يديه وأنه الوحيد الذى يمكن ان يقرره ، وأن هـو أبى معالجة هذه المشكلة الخطيرة فان المسؤولية تقع على عاتقه وعندئذ لم يسع محيي الدين نظرا للظروف الحرجة التى تمر بها الجزائر الآن يقبل مؤقتا قيادة الجيش تـاركـا للشعب الجزائرى الفرصة ليعين الامير لادارة دفة الحكم فى الجزائر • ولقد ذكر للوفود أنه سيعتمد كل الاعتماد على عبد القادر بن زيان وعلى ولده عبد القادر لما يعهد فيهما من بطولات فشكروه على ذلك ووعدوه بأن يكونوا معه قلبا وقالبا • لم يصدق الفرنسيون بان الجزائريين سيقاومون احتلالهم ولقد لقوا من المشاق أكثر مما كانوا يتصورون لقد كانوا يتصورون بأن الغزو لم يكلفهم خسائر فى العتاد وفى الارواح ، وقام أشراف الجزائر ليكيلوا لهم القربات فى المعارك فطاش لب الجيش الفرنسى واحتار فيما يجب ان يقوم به من أجل متابعة الغزو • ولم يوفقوا فى جميع خططهم مما أدى الى تخبطهم حتى كادوا يرجعون من الجزائر كما أتوا •

تخبط الغزو الفرنسي

نادت الثورة الفرنسية بالحرية والمساواة والاخاء ، وقامت الجمهورية على هذه الدعامات الثلاث ، فطوحت بالظلم وأفرجت عن ألوف الابرياء الذين قضوا من أعمارهم عشرات من السنين فى غياهب الباستيل ، وقضت على التمييز بين الطبقات فلم يعد هناك سادة ولا عبيد ولا طبقة تسمو على طبقة ، وقررت أن بنى الانسان اخوة لا فضل لواحد على الآخر الا بما يؤديه من خدمات لوطنه ٠

ذاك هو شعار الثورة الفرنسية ، ويا له من شعار انسانى ، فهل طبقت هذه المبادىء بمعناها ومبناها على الشعوب التى أهدرت حقوقها وسلبت حرياتها ، وديست بالنعال مقدساتها ، ولم يمض على المنادة بهذه المبادىء أكثر من نصف قرن لتتنكر لها ؟

لقد تعلل الاستعمار الفرنسى بشتى العلل وانتحل مختلف المعاذير لتوطيد قدميه فى شمال افريقيا ، فاستهل عدوانه باجتياح الجزائر ؟

وهكذا طبق الفرنسيون مبادىء ثورتهم الحمراء على غيرهم من الشعوب فلم تكن هذه المبادىء فى حقيقتها الا بضاعة للاستهلاك المحلى ، وعلى أية حال ، لقد استنفذت هذه المبادىء أغراضها ، حتى فى فرنسا ، فما عاد أحد يعتد بها ، بل أصبحت مجرد رمز بطل مدلوله على مر السنين ، أما نحن معشر العرب اننا ندرى أن كل المعتدين الذين حاولوا عبر القرون أن يغلبونا على حرياتنا ، وأن يستولوا على أوطاننا ، كانوا — منذ الماضى البعيد يستظلون براية فرنسية ، منذ عهد « لويس التاسع » الى اليوم ، وكانت نتائج المعارك أبدا ، انتصارا لنا وخذلانا لعدونا ، وستظل نتائجها أبدا ، انتصارا لنا وخذلانا لخلفاء لويس التاسع ، حتى ينمحى ظل استعمارهم على الارض ، أو حتى تنمحى فرنسا ٠٠٠

يدعي الفرنسيون أن الجزائر لم يكن لها تاريخ قبل سنة 1830 ٠ وأنها لم تـكن يوما ما حرة ودولة ذات سيادة ، بل كانت شعبا يرتكس في الفوضى والاضطراب ، وتهيمن عليه روح الفردية الجشعة ، ثم راحت فرنسا تدعى زورا ، أن الجزائر ارض فرنسية ، آلت اليها بحق الاحتلال ووضع اليد ، فلا يجوز لاحد أن يتداخل في شأن من شؤونها التي هي من صميم شؤون فرنسا الداخلية ٠

ومن العجب أن هذه الافتراءات الفرنسية ظفرت في المحافل الدولية بمن يستمع اليها ، ويكاد يؤمن بها ٠

ولقد رأينا من واجبنا في هذا الكتاب لكي ندحض افتراءات فرنسا والفرنسيين أن نستعرض بعض صفحات التاريخ ، قبل احتلال فرنسا للجزائر في سنة 1830 ، ليؤمن القارىء بأن الجزائر العربية كانت قبل احتلال فرنسا لها دولة مستقلة ذات سيـــــادة ٠

ولسنا نمضي عبر التاريخ طويلا ، لكي نقيم الدليل على افك الفرنسيين وتزويرهم للحقائق التاريخية ، بل نكتفي بتقديم شذرات من تاريخ الجزائر العربية ، تدحض ادعاء فرنسا الذي لا تسنده حجة ، ولا يقوم عليه دليل ٠

لقد عاشت الجزائر منذ الفتح الاسلامي ، تفخر بقوميتها العربية وبدينها الاسلامي وساهمت في تاسيس دولة الفاطميين ، ثم في دولتي المرابطين والموحدين اللتين قامت على أنقاضهما دولة الجزائر المستقلة ٠

وكان من مظاهر سيادة الدولة الجزائرية ، علاقاتها الدبلوماسية بكثير من دول أمريكا وأوروبا ، فانه بمقتضى أول معاهدة عقدت بين الجزائر وفرنسا استنجد فرانسوا الاول مرتين بداي الجزائر : الاولى في سنة 1536 والاخرى في سنة 1543 طالبا أن يعاونه الاسطول الجزائري في رد عدوان شرلكان الاسباني على ساحل فرنسا الجنوبي ٠

وبناء على هذه المعاهدة أيضا طلب هنري الرابع ملـك فرنسا المساعدة من داي الجزائر في سنة 1593 لمعاونته على تحرير مدينة مرسيليا وشاطىء فرنسا الجنوبي من أيدي الاسبان والهيجنوت ٠ فضلا عن أن ديون فرنسا للخزانة الجزائرية في أواخر القرن الثامن عشر كانت قد بلغت 18 مليونا من الفرنكات الذهبية ٠ ولعل هذا الدين كان من أسباب العدوان الفرنسي على الجزائر ٠

وقد أبرمت الجزائر معاهدات مع انكلترا ، وهولندا ، والدانمارك ، ومملكة البندقية .

ومن المعروف أن المعاهدات على اختلاف صورها ، لا تعقد الا بين الدول المستقلة ذات السيادة ، وعلى هذا الاساس أبرمت المعاهدات بين الدول الجزائرية وسائر الدول ، ومن بينها فرنسا ، واذن ، قد كانت الجزائر ، قبل الاحتلال الفرنسى ، مستقلة ذات سيادة وسلطان .

ويتجنى التاريخ الاوروبى على الجزائريين فيصفهم فى تلك الفترة بالقرصنة ، وهو وصف لو صح ـ على ما قدمنا من أسبابه لكان اعترافا من الاوروبيين بأنهم فيما يحاولون اليوم السيادة على البحار انما يزاولون جريمة قرصنة ، كالتى يصفون بها الجزائر والمغاربة فى ذلك الزمان .

وكان لويس التاسع ، ملك فرنسا ، وقائد الحملة الصليبية الخاسرة على مصر فى القرن الثامن عشر ، قد ناله ما ناله من الخزى والعار فى واقعة المنصورة ، اذ سير به أسيرا الى دار ابن لقمان ، فلم يفلت من محبسه الا بفدية كبيرة وعهد موثق ، على الا يفكر مرة أخرى فى أن يعود الى هذه البلاد .

ولكن الملك لويس كان من التعصب بحيث خيل اليه أنه يستطيع أن يحقق حلمه البعيد ، مع المحافظة على العهد الذى عاهد عليه مصر ؛ فقاد حملته الصليبية أخيرا الى سواحل تونس ، يريد بها أن ينال من المسلمين منالا يرد عليه كرامته ويحقق أمله ، ولعله قد خيل اليه أنه يستطيع أن ينفذ الى مصر وبيت المقدس من المغرب ، بعد أن عجز عن الوصول الى ما يريد منهما عن طريق آخر ، ولكنه لم يكد يضع قدمه على أرض تونس ، حتى نالته جايحة ، فمات قبل أن تكتحل عيناه بالامل الذى ظل يراود حياته ، وفى « قرطاجة » من بلاد تونس ، كان مثواه الاخير ، فاعتبر الفرنسيون مدفنه منذ ذلك الوقت كعبة مقدسة يحجون اليها .

لم يسلم أى ركن فى الجزائر من عدوان فرنسا ، فالعدوان يصيب المدن والقرى ، وان ما حدث فى الجزائر ابان الاحتلال انما هو محاولة لابادة الشعب الجزائرى بالجملة ، ولا يقتصر الامر على اقليم بعينه أو مجموعة من الناس بذاتها أو على مدينة أو قرية معينة ، بل ان هناك خطة عسكرية يقوم بها الجيش وبمقتضاها يشن حربا متطرفة شاذة . فالامر لا يقتصر على أيام محدودة تراق فيها الدماء انما كل الجزائر تسبح فى الدم وتشتعل فيها النار .

ان فرنسا لا تميز بين الاشخاص والممتلكات • فالحرائق والسرقات والتخريب تختلط بالقتل والتعذيب ، وليس ثمة تمييز بين الرجال والنساء والاطفال والمسنين • ان جمعهم سواء في الدم ويزداد عنف مجرمي الحرب وبطشهم يوما بعد يوم •

على من يعتمد الفرنسيون من سكان البلاد في احتلالهم ؟ أعلى الاتراك الذيـــن يمثلون الفئة الحاكمة ، وقد غادر أكثرهم البلاد ؟ أم على العرب وهم اما بدو رحل لا يقر لهم قرار ، ولا يثبتون في مكان ، أو نصف رحل لا يتعلقون بالارض الا بقدر ما تحتاج اليه بعض زراعاتهم الضرورية من زمن للنضوج ، وخاصة أصبحوا يكرهون الافرنسيين الاجانب الذين لا يدينون بدينهم ؟ أم على البربر وعلى الجماعات المعروفة باسم القبائل ، وهم ينحدرون من سكان البلاد الاصليين ، ويتعلقون بالارض ، وهم مزارعون ماهرون، ولكنهم في نفس الوقت يعشقون الحرية ، ويجيدون القتال ولا يمكن أن يضعوا نير الاجنبي في عنقهم وفي أيديهم ؟ أم على المغاربة ، وهم سكان المدن من أصل عربي ، ويزاولون التجارة ويميلون الى حياة الهدوء السياسي ؟ هذا ما جال في خاطر القائد العـــام أن استقر به المقام وانتهى من الفتح ليبدأ عهد السيطرة والاحتلال •• ثم كيف يتفاهم مع السكان وقليل من يستطيع أن يكون وسيطا للترجمة بين الغالب والمغلوب ؟ وما هي أقوم السبل لاخضاع البلاد ؟ هل القسوة والشدة ؟ أم اللين والتسامح ؟ الحـــذر والانتباه وسوء الظن ؟ أم الشفقة والتساهل وحسن الظن ؟

ما كادت هذه الاسئلة ونظائرها تخطر في ذهن الافرنسيين حتى اندلعت أحداث القارة الاوروبية ، وأنذرتهم باحتمال استدعائهم للوطن الام ، وترك البلاد التي فتحوها الى أهلها وساكنيها ، كأن الحملة لم ترسل ، وكأن الفتح لم يكن • وبالفعل فان الجنرال بورمون وبعضا من أركان حربه وضباطه وجنوده قد أعيدوا الى فرنسا ، وبقيت الحملة في الجزائر ضعيفة القيادة ، قليلة العدد والعدة تنتظر رحمة ربها لتقرر مصيرها ؛ ذلك أن ثورة تموز سنة 1830 م ، قد اندلعت في فرنسا ، وطارت شرارتها الى كثير من عواصم أوروبا ، وقوضت ملكية شارل العاشر ، وبوأت لويس فيليب العرش لا باسم ملك فرنسا وانما باسم ملك الافرنسيين ونظرت أوروبا الى هذه الاحداث بعين قلقة ، وخشيت أن تعود أيام الثورة الكبرى الى فرنسا ، وحسدت الافرنسيين لاحتلالهم الجزائر • وتمنت لو تستطيع لتنكص الحملة على عقبيها ، وحصر فرنسا في حدودها الاوروبية الضيقة دون التوسع في مستعمرات جديدة تزيدها قوة ، وتقدم لها موردا

جديدا من المال والرجال والمواد الاولية ، وقد شعر تاليران سفير فرنسا فى لندن بما تنطوى عليه نفوس الساسة الاوروبيين ، فأخذ يهون عليهم الامر ، وينصح حكومته بان تقوم بأعمالها فى الجزائر بمنتهى الحذر والحرص والتكتم ، ولا تثير عليها الرأى العام الاوروبى ، ومن أشهر برقياته فى هذا الصدد قوله : « يجب أن لا تتكلموا أبدا عن الجزائر » ·

وفى اليوم الثانى من شهر أيلول سنة 1830م ، وصل مدينة الجزائر خلفا للجنرال بورمون ورأى أن يقوم بعمل حاسم ، وأن يخضع لارادته باى تيطرى الذى كان يزدرى الافرنسيين ويخلق لهم المشاكل ، فاعد العدة لفتح منطقة جديدة · وخرج بثمانية آلاف وجل فى 17 تشرين الثانى،واتجه نحو المركز الذى تحصن باى تيترى فيه وهى مدينة « ميدية » ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصل بحملته الى المنطقة الجبلية ، ولاقى جنوده صعوبة فى صعود الممرات الجبلية الصخرية الصعبة ، وما كادوا يصلون الى ثنية من ثنايا الجبل ، حتى أصلتهم بنادق العرب وأتباع الداى نيرانا حامية ، من خلف ومن قدام ، فشعر الافرنسيون بثقل هؤلاء الفرسان ـ كما يقولون وأدركوا ميزاتهم الحربية وسرعة حركاتهم ، وخفتهم فى التنقل بين الصخور ومعرفتهم بطبيعة البلاد ، واختل عقد الجيش الافرنسى النظامى وفقدوا ما ينوف على مائتى قتيل ، وانقطع عن القتال عدد عظيم من الجرحى والمصابين ، ولولا حث القائد جنوده على الصبر وأمره بالسير قدما الى ثنية مزاية ، لكان الهلاك قد أصاب الحملة برمتها · وقد تمكن الافرنسيون بعد تراجع المهاجمين عنهم الوصول الى ميدية ، فدخلوها ونفوا الداى منها ووضعوا بدله من قد يكون أكثر خضوعا لهم · وقد علقوا على فتح هذه المدينة آمالا جساما ، وظنوا أن الاستيلاء عليها مقدمة لاستعمارهم افريقية بأجمعها ·

وقد شعر الافرنسيون بعد أيام أن هذه الآمال التى علقوها على فتح ميدية كانت سرابا خداعا ، اذ ما لبث العرب أن هاجموا المدينة ، وقضوا على حملة صغيرة من الجنود والرماة أرسلها الافرنسيون لمدينة الجزائر لتعود اليهم بالمؤن ، والذخيرة ، وأبادوها فشعر الافرنسيون فى ميدية بالضيق ، وما لبث رجال القبائل أن وصلوا أسوارها وأخذوا يقذفونها بسهامهم ورماحهم واضطر الافرنسيون ولم يمض وقت على دخولهم المدينة التى ظنوها أنها فاتحة لفتح افريقية كلها ، حتى عادوا من حيث أتوا ·· ويقول أحد ضباطهم : « ان هذه الحملة الفاشلة لم تكن بدون نتائج ، بل قد تعلموا منها درسا مضاعفا :

الاول : أنهم بقوا يبكون فقدانهم الذين هدرت دماؤهم دون ما فائدة ، فلن يعودوا الى مثل هذه المجازفة .

والثانى : أنهم أدركوا جليا أن الفتح لم ينته باستسلام الداى العثمانى ، وأن السكان الاصليين مصممون على المقاومة ، وهم أقوياء وشجعان وخبيرون بشـؤون القتال ، أفلا يجب على الافرنسيين ، بعد هذا أن يفكروا فى طريقة أخرى غير القوة يخضعون بها البلاد ، وينشرون عليها ألوية السلام ؟ ثم بدأت تجول فى خاطرهم فكـرة الاعتماد عـلى المفاوضة والمراوغة لينالوا بالدهاء ما لم ينالوه بالسيف وقرروا ادخال اصلاحات .

ولم تحسن هذه الاصلاحات الادارية موقف الفرنسيين كثيرا ، اذ كانت القيادة العليا فى الجزائر فى تبديل وتغيير مستمرين خلال خمس سنين من الغزو ، وكان من أكبر أخطاء سياسة فرنسا الخارجية فى ذلك الوقت ـ كما يعترف الفرنسيون ـ أنها لم تكن ترسل الى مستعمراتها فيما وراء البحار خيرة ضباطها وجنودها ، بل كانت ترسل متوسطى الشهرة والكفاءة ، والمغضوب عليهم وكانت تنظر الى هذه الامـلاك الجديدة نظرتها الى مزارع فرنسية يجب أن تستثمر بأعنف الطرق وأقل المصاريف ، وأن تقدم لفرنسا الام جميع خيراتها ، سواء أضر ذلك بالبلاد أم لا .. أما نظرتهم الى هذه الاملاك الجديدة فكانت نظرة احتقار وازدراء فلا يجب أن يعامل الجزائريون الا بقسوة وخشونة ، ولا ضرورة لان يسوسهم أناس عرفوا بالعبقرية الادارية والحربية، بل أناس من أواسط القوم يامرون وينهون ، ويفعلون بهم ما شاءت لهم الاهواء أن يفعلـوه .

تجاه هذه السياسة الافرنسية الخرقاء ، مضت خمس سنوات كاملة على احتلال الجزائر ، ولا يزال رجال الحكومة الافرنسية وأعضاء البرلمان الفرنسى يجهلون الشىء الكثير عن طبيعة البلاد وحقيقة الحكم فيها لان القادة الذين تتابعوا على ادارة دفة الاحتلال لم يكونوا أكثر من رجال عسكريين لم يهتموا بأكثر من الامور العسكرية البحتة ولم يفعلوا أكثر من أن يحتلوا مناطق محدودة على الساحل بقوا محاصرين فيها حتى أن الاتصال بين المراكز الساحلية التى أقام فيها الافرنسيون لم يكن ممكنا الا عن طريق البحر وأما الطريق البرى فكان صعبا وفيه خطورة فى آن واحد وهناك كان ارتفع فى مجلس النواب وبلاط الملك بين رجال الحكم سؤالان هما : « هل يجب أن نحتفظ بالجزائـر

أم نخليها ؟ واذا احتفظنا بها فما هي الطريقة التي نحكم بها ؟ وما هي الاراضي التي يجب أن نحتلها ؟ » وقد كان أجاب على هذين السؤالين البارون منتلبـــير في قصر اللوكسمبورغ في آذار سنة 1831 ـ في وقت كانت فيه أوروبا تعرقل حركاتهم ـ بقوله : « ان احتلال الجزائر هام جدا لدرجة أن الوزير الذي يجرؤ على توقيع صك الجلاء يستحق أن يحاكم بتهمة الخيانة العظمى وفي اليوم التالي أعلن ماريشال فرنسا في 10 آذار أثناء مناقشة الميزانية : ان الامر الحقيقي هو أن نحتل الجزائر ، ولا يوجد مجال لاي اعتراض بأن الحكومة تفكر في اخلائها » . وفي 19 شباط سنة 1832 أعلن الدوق دوبروغلي وزير الخارجية في قصر البوربون : « بأنه ظهر بعض القلق والحذر في وجود بعض الاتفاقات السياسية تمنع الحكومة أن تقوم بما تحبه في شان الجزائر، واني أؤكد لاعضاء مجلس النواب ، بأنه لا يوجد أي تعهد مع أي دولة أخرى من هذا النوع .. وأن فرنسا هي مطلقة الحرية بالتصرف في الجزائر بما يتناسب مع شرفها ومصالحها » . وذلك ليجابه محاولات أوروبا التي كانت لا تزال تعرقل أعمالهم، وتحاول أن تخرجهم من الجزائر كما أخرجتهم من مستعمرات آسيا .

وكان قد قر الرأي على ارسال « بعثة » خاصة تذهب الى الجزائر وتدرس حالـة البلاد الجديدة ، وقد وصلت الى مدينة الجزائر في أيلول سنة 1833 وعادت الى فرنسا تحمل فكرة ، ضرورة المحافظة على هذه المستعمرة الجديدة ، على أن يكتفى بتحصين المناطق الساحلية تحصينا قويا ، ولا يفكر بأي توسع داخلي جديد .. ولكن المناقشة حول المسالة الجزائرية عادت في مجلس النواب الفرنسي في العام التالي سنة 1843 وصاح أحد النواب محتدا بأن « احتلال الجزائر ليس الا محاولة جنونية ، وهو هوة سحيقة تستنزف جميع خيرات البلاد الفرنسية » ، ولكنه لم يجرؤ أبدا على ذكر كلمة « الجلاء » . ولكن نائبا آخر وهو مقرر الميزانية الحربية في المجلس قال : « انني أفضل أن أستبدل الجزائر بأجمعها بكوخ حقير من أراضي الرين » .

لننظر الآن الاماكن التي كان بسيطر عليها الفرنسيون في الوقت الذي لم يكـن ساستهم قد اتفقوا بعد على حل نهائي بشأن الجزائر : هل يبقون فيها أم ينسحبون ؟ ففي الجهة الغربية كانوا قد احتلوا وهران منذ سنة 1830 وتبعتها مستغانم وأرزيو في سنة 1833 ، وكانت مدينة الجزائر وأطرافها بأيديهم في الوسط ؛ أما في الشرق فان عنابة « بونة » ، قد خضعت لحكم متناوب للسلطات المحلية والفرنسية ، اذ احتلها

الفرنسيون مرات متعاقبة وأخلوها بعد أن منى الفرنسيون بخسائر جسيمة ، وصلت أحيانا أن ذبحت حامية المدينة عن بكرة أبيها . وبين بونة والجزائر ، وعلى مسافة متساوية تقريبا منهما يوجد خليج بحرى ، تقوم فى جنوبه « بوجى » وقد احتلتها فى سنة 1833 حملة جاءت من فرنسا رأسا اليها ، ولكن هذه الحملة ، بقيت أشبه بالمحصورة والسجينة داخل المدينة ، لان سكان القبائل كانوا منتشرين على مقربة منها، ولم يكن من السهل اخضاعهم أو محالفتهم أو اجتياز الطرق من خلال أراضيهم .. هذا مجمل حال الفرنسيين فى الساحل الجزائرى .

أما فى الداخل فلقد كان تقدم الفرنسيين بطيئا جدا ، ومقرونا بكثير من التراجعات والانسحابات ، فلم تكن سهول متيجة فى جنوب مدينة الجزائر أبدا هادئة أو خاضعة خضوعا تاما ، فلقد كانت تخضع لقبائل عربية عديدة .

أمام هذه الحالة السيئة رأى قادة الفكر الفرنسيون القيام باصلاحات عسكرية وادارية تتلاءم وحالة البلاد ، ورأوا تأسيس فرقة جديدة تختلف بالبستها وأنظمتها، وطرق قتالها عن الفرق الفرنسية التى خلقت لتحارب جيوشا نظامية أوروبية ، فى جو يختلف كل الاختلاف عن جو افريقية ، كما رأوا أن الانتفاع من القبائل والمواطنين الذين يدخلون تحت طاعتهم خير بكثير من اراقة الدم الفرنسى الصرف ، وهم أعلم بطبيعة بلادهم وأبلى بقتال مواطنيهم ، وان انتصروا فى الحرب كان النصر لفرنسا ، وان قتلوا لم تخسر فرنسا عليهم أكثر من ثمن ألبستهم وطعامهم وكانت أول الفرق فرقة ضمت عددا كبيرا من المرتزقة كما صدر أمر بتشكيل سريتين من الخيالة عرفتا باسم قناصة افريقيا ، وبدى بعد ذلك بتشكيل فرق جمعت جنودها من جميـــع الجنسيات والقوميات التى رغبت فى اتخاذ الحرب مهنة لها تحت العلم الفرنسى ، وبذلك كان تأسيس أول الفرق التى عرفت باسم الفرق الاجنبية .

ان تكتيك قادة فرنسا انهار أمام المقاومة الجزائرية التى سبق لها أن حطمـــت كبرياء جميع الامبراطوريات التى حاولت اخماد صوتها ، وان حاولت تجاهل موقف الشعب الجزائرى فان هذا الشعب لقادر أن يلزمها بأن تجثو على ركبتيها أمام صلابته فى الدفاع عـــن حمى الوطن .

موقف الشعب الجزائري من تجار الحروب

ومن الغريب أن يسلم الداى مدينة الجزائر ويخرج منها ذليلا طريدا فى الوقت الذى كان باستطاعته أن ينتقل الى مدينة جزائرية أخرى ويعمل على جمع كلمة الشعب حوله ويستمر فى الجهاد · فهذه عادة الحكام الجبناء الذين يتملكهم اليأس فيهرعون الى النجاة بأنفسهم مهملين مصلحة شعوبهم ·

لم يكن الداى حسين ملكا على مدينة الجزائر وحدها بل كان ملكا على جميع الاراضى الجزائرية · واننا لنعجب كيف يوقع اتفاقية استسلام ذليلة مع القائد الفرنسى عن مدينة الجزائر وحدها ويفر بعدها الى مصر دون أن يهتم ببقية القطر الجزائرى · أليس فى هذا خيانة ؟ · نعم خيانة ليس بعدها خيانة ·

وفى الرابع من جويليه سنة 1830 عقدت اتفاقية التسليم بين الداى حسين وبين الجنرال (دوبورمون) جاء فيها ما يلى :

أولا : تسليم قلاع المدينة وأبوابها للفرنسيين ·

ثانيا : يتعهد القائد العام الفرنسى بترك الاموال الخاصة بالداى حسين ·

ثالثا : للداى مطلق الحرية فى التوجه مع عائلته وأمواله الى أية جهة يختارها ، وفى حال بقائه فى مدينة الجزائر يكون تحت حماية القائد العام ·

رابعا : يمنح القائد العام هذه الحماية المعطاة الى حضرة الداى ولكافة القادة الجزائريين ·

خامسا : تطلق الحرية التامة للدين الاسلامى وللجوامع الاهلية وتكفل أملاك أهل البلاد وتجارتهم وصناعاتهم ، وتحفظ اعراضهم ، وتعتبر نساؤهم ·

سادسا : يتبادل الطرفان نص الاتفاقية فيما بينهما غدا صباحا • وذيلت الاتفاقية بامضاء الداى حسين عن مدينة الجزائر والجنرال (دوبورمون) عن حكومة فرنسا •

وما كادت تشرق شمس الخامس من جويليه ، حتى دخل الفرنسيون مدينة الجزائر• فنزعوا الاعلام الجزائرية عن الحصون والابراج ودور الحكومة ، ورفعوا مكانها الاعلام الاستعمارية واستولت القوات الفرنسية على خزينة وأملاك الدولة الجزائرية بعد احتلالها العاصمة • فقد وضعت يدها على الاملاك الاميرية ، وأموال ومجوهرات الحكومة وما تحويه مستودعاتها من مواد غذائية ومهمات حربية • وقدرت هذه الاملاك بمبلغ 150 مليونا من الفرنكات الذهبية • (وقد سجل المؤرخون بأن ضباط الحملة الاستعمارية اختلسوا 100 مليون فرنك لانفسهم) ولم يطلعوا الحكومة على أكثر من 50 مليون فرنك ذهبا مدعين أن هذا المبلغ هو كل ما وجد فى الخزينة الجزائرية •

دخلت جيوش الملك شارل العاشر أرض الجزائر وهى مزودة ببرنامج تخريبى كامل • فقد كانت فرنسا تعرف أهم الاسباب الرئيسية الحقيقية لحملتها على الجزائر ، وهى تتلخص فى :

ـ نهب الثروات التى كانت تجود بها أرض الجزائر الخضراء •

ـ التهرب من دفع ديون فرنسا للجزائر والتى بلغت فى ذلك الوقت عشرات الملايين من الفرنكات •

وكان لابد لجيوش الاستعمار أن تنفذ برامجها التخريبية أولا وقبل كل شىء حتى يمكنها بعد ذلك أن تتوغل فى داخل البلاد ثم تقيم بعد ذلك حكمها الاستعمارى •

وعندما دخلت جيوش فرنسا مدينة الجزائر ذاتها شرعت على الفور فى اجـــراء عمليات السلب والنهب واستطاعت أن تحصل على غنائم عدة شجعتها على مواصلة التوغل فى الاراضى الجزائرية ، ولا سيما أن فرنسا فى ذلك الوقت كانت فى حالـة نمو صناعى ، وكانت مصانعها فى حاجة الى مزيد من المواد الخام ، فوجدت فى أرض الجزائر أحسن حل لهذه المشكلة ، وسرعان ما حددت الحملة الفرنسية على الجزائر هدفها وهو يتلخص فى انتزاع خيرات البلاد من أهلها والاستيلاء على الاراضى نفسها ومطاردة السكان العرب الى الصحراء •

وان كانت الجيوش الفرنسية وجدت مقاومة عنيفة فى ميناء سيدى فرج ، فعندما دخلوا مدينة الجزائر وجدوها صامتة يسودها سكون رهيب ، ووجدوا أنها خالية ،

وكانت دهشة الفرنسيين لهذه المقابلة عظيمة ، ارتسمت آثارها على وجوههم وظهرت على حركاتهم •

وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الفرنسى الشهير (كاميل روسيل) :

(لم يحاول الفرنسيون أن يخفوا دهشتهم لان هذه المدينة الخرساء قد تركت فيهم انطباعات غريبة ، مع ان المدينة لم تكن خالية تماما ، فهنا تشهد تاجرا يقبع أمام دكانه المغلق ، وهناك تلمح اشباح نساء فوق سطوح المنازل ، وفى ملتقى الطرق ، وكانت حماعات قليلة من الجزائريين والاتراك تدخن فى صمت ثقيل) •

ولئن كانت هذه المناظر كلها تمثل للفرنسيين مشاهد للفرجة ان الجزائريين لم يعيروا الفرنسيين أدنى اهتمام ، وكانهم ، لم ينتبهوا فعلا لوجودهم • ثم قال كاميل روسيل :

« ان هذا الاحتقار الواضح ، الذى قوبل به جنود الاحتلال الفرنسى ، هو الذى جعل هؤلاء المنتصرين ، يستغربون ويتعجبون من هذا الوضع » •

لقد كان هذا المنظر من مظاهر الاحتفاظ بالكرامة ، وهذا الهدوء الرزين الذى لجأ اليه الجزائريون ، هو الذى أقلق الفرنسيين اذ بدا لهم كانه تحد جارح لانتصارهم •

وقد خامرهم الشك بأن المواطنين الجزائريين يرون من غزو فرنسا لبلادهم نعمة ، وأصبحوا يعلقون الآمال الجسام على استغلال واستثمار هذه الممتلكات الفرنسية الجديدة كما يحلو لهم ، غير أن هذه الاحلام تبخرت وظهرت الحقيقة المرة لهؤلاء الدخلاء بعد مضى 14 يوما من تعديهم السافر على الشعب الجزائرى الذى أنقذهم من الموت يوم ضاقت بهم الارض بما رحبت •

وهذا الشعب الذى لا يملك سوى حريته ويراها أغلى شىء ، قد حافظ عليها عبر الاجيال وان طعن الآن من الخلف من الدولة التى له معها ارتباط فانه يصبر وسينتقم من هذه الدولة المعتدية طال الزمن او قصر ولا جرم ان هذا الغزو المفاجىء كان له اثره السىء فى نفوس الجزائريين غير أن فرنسا باحتلالها الجزائر كانت السبب فى اتحاد كلمة الجزائريين على اختلاف طبقاتهم وميولهم ، حتى أصبحوا كتلة واحدة لا انفصام لها ، وصمم كل الجزائريين على انهم يحاربون جنبا الى جنب الدخيل الفرنسى لانهم قرروا اما النصر واما الفناء عن آخرهم •

لقد خدمت فرنسا الجزائريين من حيث لا تشعر ، وان ما قامت به من تعد سافر اشعر والد الامير ومواطنيه بالخطر الذى يهددهم جميعا ، وهذا الشعور كان السبب فى أن تتوحد جهودهم نحو هدفهم وهو انتشال البلاد من أيدى الغاصبين .

ان المسؤولية الكبرى التى أصبحت الشغل الشاغل لوالد الامير وأنصاره والجزائر كلها انصار له أملت عليه وعليهم ان يعلموا وان يعلنوا أن لهم القوة والقدرة على مواجهة جيوش فرنسا ، وصرحوا بأنهم لا يجبرون بالقوة والقهر والدهاء على قبول الاحتلال الفرنسى الذى يرجع على الوطن بالهلاك والدمار ، وانهم مستعدون بأن يقاوموا بالنفيس من الاموال والعزيز من الدماء ، وان الجزائريين لايزالون بالقوة المؤلفة من ابنائهم الذين يريدون ان يتولوا ادارة أمور الجزائر بأنفسهم دون ادنى تدخل خارجى ، وانهم للمحافظة على ذلك سيصمدون فى الميدان مهما تكن التضحيات .

وقد عقد محيى الدين والد الامير لابنه عبد القادر اللواء وأمره بأن يقاوم بكل ما أوتى من حول وقوة ، وقد خاض عبد القادر غمار المعارك ، وكان النصر حليفه ، وكاد الفرنسيون ينسحبون تماما من الجزائر اثر انهزامهم فى معركتين رئيسيتين قرب الجزائر .

وبعد هذا النصر المبين الذى احرزه عبد القادر بن محيى الدين كلفه أبوه ان يكون على رأس جيش عرمرم ليواجه العدو فى واقعة (برج رأس الطين) ودامت المعارك أياما وكانت النتيجة ان منيت فرنسا بخسائر فادحة ، وعندئذ تحقق الفرنسيون ان تسليم الاتراك لهم انما هو حبر على ورق .

ولقد لقن عبد القادر بن محيى الدين فى هذه المعارك الاولى العدو الدروس اللازمة، وابان له بوضوح ان القضية خلاف ما يتصوره ، وأن الجزائرى لا يقرأ حسابا لتسليم الاتراك فى الوطن لانهم ليسوا بأصحابه الشرعيين ولا تربطهم به روابط العنصر والتاريخ، وان الجزائريين اثباتا لذلك سيجاهدون حق الجهاد للنيل من الدخيل واحباط مساعيه .

وفعلا لقد أبلى الجزائريون بقيادة عبد القادر كخليفة لابيه من 1830 الى 1832 فى الدفاع عن حقهم الضايع وكرامتهم المداسة احسن البلاء ، وكان الشاب عبد القادر فى طليعة المجاهدين ، بل كان من أهم الاسباب لاحرازه التفوق على العدو فى هذه المعارك التى فتحت الباب على مصراعيه للنضال .

ولقد ضرب صفحا عن النزاع والتنابذ اللذين أوجدهما الدخيل بين أفراد الشعب ، وتمكن عبد القادر بفضل ايمانه بقضية بلاده العادلة أن يقرب بين المتباعدين ٠

اطـوار النضال فى الجزائـر

وانتهت مقاومة الجزائر الرسمية للقوات الفرنسية فى نحو 20 يوما ، ولكن ما كادت هذه المقاومة الرسمية تنتهى حتى بدأت المقاومة الشعبية ٠ واستمر كفاح شعـب الجزائر 132 عاما لم يهن فيها ولم يضعف ٠

وما كاد ينتهى أمر الداى ويساق الى المنفى ، حتى هب شعب الجزائر يكافـح المستعمر ، وقد اتخذت المقاومة الاولى صورتين :

1 ـ صورة المقاومة الرسمية الحكومية ٠

2 ـ صورة المقاومة الشعبية ٠

اما المقاومة الحكومية فقد تولى قيادتها الحاج احمد ، باى قسنطينة ، الذى بايعته الناحية الشرقية باشا ، وكانت له مع الجند الفرنسيين وقايع وطنية مشرفة ، ولكن جاء احتلال مدينة قسنطينة سنة 1837 ، منذرا بنهاية المقاومة المنظمة ٠

وعند انتهاء المقاومة الحكومية بدأت المقاومة الشعبية ، التى ضرب فيها أهـل الناحيتين الوسطى والغربية من الجزائر أروع الامثال ٠

وكيف لا يقوم الشعب الجزائرى بمقاومة لا تبقى ولا تذر حيث ان تعهدات القائـد الفرنسى باحترام الشعب الجزائرى تبخرت قبل أن يجف الحبر الذى كتبت به ، ولـم يستح القائد الفرنسى ان يتنكر لما التـزم به وهو : « ان حريـة الطبقات المختلفـة من السكان ودياناتهم وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم لن تمس والقائد العام يتعهـد بشرفـه ٠٠٠ الخ » ٠

على أنه لم يكد يمضى شهران على هذا التعهد حتى أمر القائد العام بمصادرة ممتلكات الاتراك وأراضى الاوقاف ٠ وأذاق الشعب الجزائرى مرارة الذل ٠٠ فقد هب القائـد روفيجو يطالب بأجمل مسجد فى مدينة الجزائر ، وقام الجنود الفرنسيون باقتحام

المسجد ، بينما كان في داخله أربعة آلاف مسلم ، وأعملوا فيهم القتل بالحراب وهم يؤدون الصلاة ، وبات الجند داخل المسجد ، وبين عشية وضحاها تحول المسجد الى كاتدرائية الجزائر . (وكان من أسباب المقاومة أيضا ما ذكرته لجنة التحقيق التي أوفدها البرلمان الفرنسي بعد ثلاث سنوات من الحرب :

لقد قضينا تماما على املاك المؤسسات الدينية ، وصادرنا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ملكيتها . وبدأنا استعمال سلطتنا بفرض غرامة 100،000 فرنك كقرض اجباري ، وذهبنا أحيانا الى حد أن أجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات المؤسسات الخيرية الى الغير ، وانتهكنا دون خجل بيوت الله والمقابر والدور ، وكلها ذات حرمة لدى المسلمين . وقتلنا رجالا يحملون منا ورقة الامان ، وذبحنا سكان قرى عن آخرهم لمجرد الشك فيهم ، ثم تبينت لنا بعد ذلك براءتهم ، وحاكمنا رجالا يعرفون بالتقوى في البلاد . رجالا محترمين لانه كانت لديهم الشجاعة الكافية لمقابلتنا والتعرض لغضبتنا ، لا لشيء سوى السعي لاخوان لهم بائسين .

وقد قام قضاة منا بمحاكمتهم ، وارتكب رجال متمدينون منا اعدامهم . لقد فقنا في البربرية . هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم) . وقد صدقت لجنة التحقيق !

وان تقرير لجنة التخريب جاء صورة طبق الاصل لاول مقاومة قلمية .

أول مقاومة قلمية

ولا يسعنا الا أن نسجل بمداد الشرف ، على صفحات التاريخ الجزائري ، اسم الاستاذ الشهم الكريم السيد حمدان عثمان خوجة ، فلقد كان أول جزائري رفع عقيرته بالاحتجاج الصارخ ، منذ الاحتلال البغيض . فلقد بعث به أهل مدينة الجزائر سنة 1832 على رأس وفد يطالب حكومة فرنسا بالاقلاع عن مظالمها وآثامها ، وارجاع ممتلكات المسلمين اليهم ، والاعتراف لهم بحق الحياة .

ولقد ترك لنا هذا الشهم الكريم وثيقة من أغرب وأثرى وثائق التاريخ الجزائري الحديث ، اذ ألف كتابا ضخما أسماه مرآة الاحوال نقله الى الفرنسية أحد الكتاب اللبنانيين ، وطبع في مجلد ضخم سنة 1873 بمدينة باريس . ومما امتاز به هذا السفر الجليل :

أولا : اثباته أن عدد سكان القطر الجزائرى كان عند الاحتلال عشرة ملايين من الانفس (والسيد حمدان كان المدير الثانى لمصلحة الضرائب فى الحكومة الوطنية الجزائرية) ٠

ثانيا : أنه سجل أعمال اللصوصية والنهب التى قام بها الجنود الفرنسيون ، وصور أبشع الصور لتلك المنكرات التى فعلها الادنياء دون حياء أوخجل ، وبعث بوثيقة فرنسية على يد محضر فرنسى ، أن الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الاسلامية ، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا ٠

ثالثا : بيانه عن الاملاك والارزاق المصادرة ، والمظالم التى ارتكبها الطغاة أثناء الاحتلال ، وحكاية ما رآه منها رأى العين ٠

وقد رجع السيد حمدان للجزائر خائبا ، بعد المجهود الضخم الذى بذله ، ولم يرجع الاستعمار عن غيه ، بل زاد فى طغيانه ، وبقى كتاب (المرآة) فى الخزائن العامة ، يشهد على الاستعمار بالخزى والعار ٠

لقد نجح الاستعمار الفرنسى فى مواجهة المقاومة الجزائرية العنيفة وفى تنفيذ برنامج التخريب بدقة ، فوضع الشعب الجزائرى داخل قفص من الفولاذ ، ولم يسمح له بالتنفس على الاطلاق ، ولقد حرص الاستعمار على مصالحه الاقتصادية أن أقام سياسة الارهاب والقمع الاقتصادى وهى سياسة تقضى برفض منح أبناء الجزائر تصاريح الاستيراد والتصدير وقصرها على الفرنسيين واليهود ٠ كما تقضى بفرض ضرائب فادحة على متاجر الجزائريين من الاهالى وتصفية المؤسسات الجزائرية الناجحة ٠

انه الاستعمار الفرنسى البغيض وليس فى تاريخ البشرية كلمة تثير من الخواطر المفزعة ، والصور المخيفة مثل كلمة الاستعمار الفرنسى٠ففى كل لغة ، وعند كل امة لها دلالات مطبوعة بطابع البغض والكراهية لما اقترن بها من احداث وما لابسها من آلام ٠ ولكن لا نظن أن أية كلمة فى قاموس الامم التى وقعت تحت الاستعمار تعادل كلمة (الاستعمار) فيها بشاعة وسوءا وكراهية ٠٠٠ ذلك أن هذه الكلمة هىفىذاتهاعنوان لكتاب ضخم أسود الصفحات تجرى بين أسطره وتتدافع بين كلماته صور من المخازى وألوان من التنكيل هى خلاصة ما عرف الاشرار من شر ، وعصارة ما ارتكب الآثمون من أثم !

ومن العجب أن كلمة الاستعمار هذه قد أصابها من الظلم والعسف ــ ان كان فى الكلمات ما يشعر بالظلم والعسف ــ بالقدر الذى أصاب ما أصابتهم وحلت بدرياهم ؟

فالاستعمار معناه اللغوى : الاصلاح والتعمير ٠٠٠ والاصلاح والتعمير دعوى باطلة زائفة يدعيها الغزاة المجرمون ، ليخدعوا الناس عن غاياتهم ، وليضللوهم عن نواياهم ٠ فليس الاستعمار الا تدميرا وتخريبا ٠٠٠ تدميرا لكل صالح ، وتخريبا لكل عامر ٠٠٠ فما كان هؤلاء المتسلطون على الشعوب والامم دعاة خير ، ولا رسل رحمة ، وانما كانوا عصابات نهب وقطاع طرق ، يسلبون أقوات الامم ، ويزهقون أرواح مجاهديها ، وينتهكون حرمات نسائها ، فاذا بقى فى الامة نابضة تنبض بالحياة لم يهدأ لهم بال الا اذا قضوا عليها ٠

فحق لكلمة الاستعمار أن تتأذى من هذا الظلم الذى وضعها فى هذا الموضع ، وعرضها بهذا المعرض الذى يجعلها فى عين الناس قذى ، وفى قلوبهم ازدراء ومقتا ، وهى التى كان من حقها أن تذكر فيذكر معها الخير الذى ترتاح له النفس ويطمئن به القلــب ٠

فات فرنسا بان ألاعيبها على شعب الجزائر الذى سبق له ان قاوم كل الامبراطوريات التى ساقها سوء حظها الى بلاده فقاومها مقاومة عنيفة وأجبرها على الذوبان وأملى عليهـــا ارادته وأرغمها على الاعتراف بأن الجزائريين لا يساقون كالانعام كالشعوب الاخرى وان دفاعهم عن وطنهم دفاع أحرار ٠

دفاع الجزائريين عن وطنهم

ان الاستعمار الغربى الذى كال للدولة العثمانية الضربات اثر الضربات وكان يفكر فى الاستيلاء على الجزائر حتى يستولى على كل بقعة دخلها الاتراك ٠

وكان الاستعمار الغربى فى الوقت نفسه يسعى للانتقام من الجزائريين الذين كانوا من بين الشعوب التى داست البلاد الغربية بالاقدام ، واستعمرتها ولو لم يكن الغربيون ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه لاعترفوا بأنه يوجد فارق بين ما يقومون به وبين ما قام به العرب وان استعمار موسى بن نصير ، وطارق بن زياد للعالم الغربى كان فتحا لا استعمارا ، وكان فيه رحمة وانسانية ، أما الاستعمار الذى قرر شارل العاشر أن يسلطه على الجزائر فانه استعمار فيه حقد ومكر وكراهية ولصوصية واستغلال وعمل على تاخر البلاد ٠

ومن العجيب أن الاستعماريين المجاورين لفرنسا قد اختلفوا فيما بينهم ، فحاول الاسبانيون أن يستولوا على الجزائر ، كما حاول الانجليز والفرنسيون ، وأخيرا اتفق رأيهم على أن يقتسموا الاسلاب ، وقررت فرنسا أن تكون فى الجزائر وحدها ، مدعية أنها البنت البكر للكنيسة ومن حقها أن تقوم بما يجعل الجزائر مسيحية كما كانت فى العهد القديم ٠

ومما لا ريب فيه ان فرنسا لا يهمها وضع البلاد التى تريد أن تحتلها ولو كانت هذه البلاد عقدت معها اتفاقات ومحالفات ٠ بل ورات منها كل المساندة والاعانة كما أنها انقذتها من الجوع وفكتها من الحصار الاسبانى ثلاث مرات ٠

ولا يستغرب ذلك من فرنسا لانها اعتادت أن تاتى البيوت من غير أبوابها وتسىء لمن أحسن اليها بشتى الطرق وكافة الوسائل ٠

ظنت فرنسا أن الجزائر استسلمت ، واذا بالاحرار يبرزون ، ويتنادون من كل حدب وصوب ويسرعون ملبين دعوة الوطن ، وتجمعت جموعهم تقودها العزة القومية ، وتدفعها الحمية الدينية فخاضوا معارك تشيب لهولها الولدان ، وأصلوا الفرنسيين نارا حامية ٠

برز جميع الجزائريين رجالا ونساءا ، فأبلوا في الدفاع أصدق البلى ، ولم يتركـــوا في الجهاد زيادة لمستزيد ، وكانوا قد أعدوا الشعب وعبؤوه ، وأعدوه مؤمنا بالله والنصر واثقا من عدالة حقه ، وأدخلوا في صميم اعتقاده أن الآخرة خير وأبقى ، والشهادة في سبيل الوطن أجدى من العيش الذليل الحقير ٠

هذا الشعب عبؤو ليبتسم كلما تلقته المصاعب والعقبات ، ويهزأ بكل ما يعترض سبيله ويحول دون طريقه السوى طريق العزة والحرية والكرامة ٠

ان أول من رفع لواء المقاومة في وجه الفرنسيين هو محيى الدين بن مصطفى ابن المختار بن عبد القادر ٠

ان الرجال الذين يوجهون أفراد الشعب الذين ينتمون اليه ويوجهون اليه أن يتبع خططا وأساليب معينة ، فيما يمس حياة مجتمعهم سواء في أوقات السلم أو الحرب هؤلاء الرجال جديرون حقا بأن تسجل بطولتهم وأن تذكر لهم الاجيال ما قدموا لاوطانهم من خدمات خارقة ٠

وفي مقدمة هؤلاء الرجال القادة الوطنيون الذين قلما يجود بمثلهم الزمن الا غرارا وفي فترات متباعدة بمختلف بقاع الارض ٠

على أنهم اذا ظهروا في بلاد تقدموا صفوف شعوبهم وملأوا قلوب الناس قـــوة وصبرا وايمانا بنجاح قضاياهم ، وقد يكتب لهم التوفيق أحيانا ، وقد يتعثرون أخرى ولكن بلادهم في النهاية لابد بالغة ما أرادوه لها من حرية وسؤدد ومجد ، ســـواء تم ذلك على أيديهم أو على أيدى من يجيء بعدهم ٠ هؤلاء القادة على الاغلب رجال عصاميون نشأوا في أوطانهم بين أواسط الناس ، وأخذوا قدرا كافيا من التعليم والتثقيف ولكنهم سرعان ما يضيفون اليه ويكملونه بما حذقوه ومرنوا عليه ، بالاطلاع والتجربة وبما كسبوه من دروس صروف الحدثان ، ثم ما هو الا حادث يقع في أوطانهم أو قرار يصدر بشأن مواطنيهم حتى يخرج هؤلاء الرجال من صمتهم ويشقوا طريقهم بعيدا عن غمرة الحياة الرتيبة التي درجوا عليها ٠ ثم انك لتراهم بعد ذلك كأنهم قـــد

مستهم عصا سحرية فتقمصتهم أرواح جديدة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وتملكتهم افكار وأحاسيس ورغبات وعزمات لا عهد لهم بها ، وهكذا تتجلى معجزة النبوغ في هؤلاء الرجال في أعمالهم وحركاتهم وأقوالهم ، فيؤمن بها القوم وتملك عليهم ألبابهم ومشاعرهم حتى يصبحوا جزءا مكملا لقادتهم أو يصبح قادتهم جزءا متغلغلا في نفوسهم جميعا .

لقد كان الامير محيي الدين من هذه الفئة المؤمنة التي جعلت نصب عينها التفاني في حب الوطن في جميع الميادين .

وبالرغم من اعانة الجزائر لفرنسا اعانات لا تحصى فان فرنسا ركبت رأسها وقد وجدت في ابنائها قادة وساسة يتجنون على التاريخ ويدعون زورا وبهتانا لتبرير غزوهم الغاشم تارة بأن الجزائر لم تكن دولة مستقلة حين احتلتها فرنسا ، وانما كانت من الممتلكات التركية ، وطورا لقد احتلت فرنسا الجزائر لكي تضع حـــدا لنشاط القراصنة ، وتارة أخرى ادعى الجنرال جيرار فور نزول القوات الفرنسية في الساحل الجزائري « أن هذا الاحتلال مستند الى ضرورات هامة جدا ويرمي الى فتح منفذ واسع لتصريف بضائعها كما أن هذا الاحتلال يعد صفحة من أمجد صفحات التاريخ الفرنسي».

لم يصدق الفرنسيون بأن الجزائريين سيقاومون احتلالهم ، ولقد لقوا من المشاق أكثر مما كانوا يتصورون .

لقد كانوا يتصورون بأن الغزو لن يكلفهم المتاعب ولن يكلفهم خسائر في العتاد وفي الارواح ، وبهتوا لما قام أشراف الجزائر ليكيلوا لهم الضربات في جميع المعارك ، فطاش لب الجيش الفرنسي واحتار فيما يجب أن يقوم به من أجل متابعة الغزو ، ولم يوفقوا في جميع خططهم مما أدى الى تخبطهم حتى كادوا يرجعون الى بلادهم .

ان من شيم فرنسا الاعتداء ولهذا يمكننا أن نقول بأن كل جيرانها لم يسـ[illegible]ـروا من طيشها وطغيانها حتى الذين تربطهم بها محالفات كالجزائر مثلا لم تنج من [illegible] يلاتها ولا غرابة في ذلك لان فرنسا تجهل أو تتجاهل المثل القائل : « ان كفران النعمة ولو أحله الشرع فالطبع يحرمه » .

ان الشعب الفرنسي لا يقرأ حسابا للمثل العليا والذي يهمه من الامر أن ينـــال بغيته ولو كان ذلك على حساب الغير .

ان قادة فرنسا العسكريين كانوا يحلمون منذ القدم بالاستيلاء على الجزائر حتى يتمكنوا من اضافة أرض شاسعة الى أراضيهم وخاصة أنهم بفضل الجواسيس الذين كان بعثهم نابليون الى الجزائر فى القرن الثامن عشر ليطلعوا على حقيقـــة الجزائـر وليدرسوا امكانياتها ويتصلوا بسكانها وليستعملوا دهاءهم من أجل استمالة بعض السكان ليكونوا طابورا خامسا لفرنسا وأن جواسيسها قاموا بما كلفوا به ورجعوا الى نابليون يحملون له البشرى ويقولون له ان مساحة الجزائر مثل مساحة فرنسا أربع (4) مرات يزرع منها خمسون (50) مليونا فدانا وفيها من المراعى سبعون (70) مليونا من الافدية وهى تنتج ربع انتاج العالم من الفلين كما تنتج ثلث انتاج العالم من زيت الزيتون وأن معامل الورق بانجلترا تعتمد اعتمادا كليا على الحلفا الجزائرية ، وسر نابليون بهذا التقرير وقرر أن يقوم بالغزو ولكن الظروف كانت غير مواتيـــة فوضع هذا التقرير على الرف بخزانة وزارة الخارجية حتى يحين وقت تنفيذه .

وشاءت الاقدار أن تصاب فرنسا بنكسة وأن تدخل فى عراك مع انجلترا واسبانيا وزيادة على ذلك فان سنة الغزو ، كانت جذباء لا زرع ولا ضرع فيها ، وأصبح الشعب يتململ واضطر شارل العاشر أن يصوب وجهته للجزائر ليستولى على خيراتها لان الجوع عم القرى والبلاد وأن الجزائر لا يمكنها أن تعينها لانها لم تسدد باقى القرض .

ان فرنسا صعب عليها الامر كيف تعالج هذه المشكلات التى تعددت فمنها رد عدوان شارلكان الاسبانى ومواجهة دسائس بريطانيا عدوتها وايجاد ما يقتات به الشعب ومواجهة الاحزاب السياسية التى كتبت على نفسها أن تطيح بشارل العاشر الذى لم يتمكن من ارساء قواعد للحكم على أسس ثابتة .

واختلط الحابل بالنابل على شارل العاشر ، وفكـــر كـثيرا وأخيرا اهتدى الى الحـل وهو الغزو ــ غزو الجزائر بالرغم من المحالفات التى تربطها بها وجهز الغزو واحتـل الجزائر غير أن القواد الذين سخرهم لهذه الحملة الشنيعة لم يكونوا فى المستوى وكانوا يعتقدون بأن الجـو فى الجزائر صفى لهم ولن يجـدوا فى طريق استيلائهم على هذه الارض الغنية من يتعرض لهم .

لكن التاريخ يشهد بأن الوهرانيين لم يتركوا وسيلة من وسائل الدفاع الا اتخذوها وأنهم ذهبوا ابان الاستعمار الفرنسى الى العلامة محيى الدين ليطلبوا منه أن يتزعم الدفاع عن الوطن ، فلم يقبل منهم ذلك متعللا بكبر سنه ، وألجأتهم الحال الى أن يسندوا

الامر لسلطان المغرب لقرب أيالة وهران من التراب المغربي ، فرحب بالفكرة ولبى طلبهم وبعث بأحد الامراء ليكون قائدا عاما على ايالة وهران وجاء بالفعل هذا القائد واتخذ تلمسان قاعدة له ، ووصل بخيله ورجاله الى مليانة وبقى بالجزائر ، يأمر وينهى لمدة ستة أشهر وخافت فرنسا من بطشه كما خافت من بطش أحمد باى في قسنطينة وادركت أنه ربما يتفق هذا القائد مع أحمد باى حاكم قسنطينة ويهاجمانها، ورأت من مصلحتها أن تستعمل دعاءها لمعالجة هذا المشكل وقررت أن تبعث الى وزارة الدفاع رسالة تشخص لها فيها وضعها المنهار ورجتها أن تداركها فورا بما يضمن لها من الخروج من هذه الورطة وورطة الاحتلال المرتجل ما فى وسعها من أجل أن يسحب السلطان ابن عمه من ايالة وهران وكان رد وزارة الدفاع سريعا ايجابيا لهذا النداء ، وركبت رأسها وأنذرت سلطان المغرب بأنه ان لم يأمر قريبه بالخروج من الجزائر فى مدة لا تتجاوز ثماني وأربعين ساعة فإنها تضطر لان تعلن الحرب عليه لتدخله السافر فى قضاياها .

وأحيط علما الوهرانيون بهذا الانذار ، فظنوا أن سلطان المغرب لن يعبأ بكلام فرنسا ، وأنه سيأمر قريبه بمواصلة الكفاح ، غير أن الايام اظهرت بأن سلطان المغرب جبن وأرسل الى قريبه بأن يدخل المغرب فورا ، فامتثل لهذا الامر ، وترك الجزائر تواجه وحدها الاعاصير الفرنسية .

على اثر انسحاب الحاكم المغربي من الجزائر ، اجتمع العلماء وقرروا أن يتفقوا على خطة ليردوا كيد فرنسا الى نحرها ، وبعد أخذ ورد اجتمعت كلمتهم على أن يراجعوا مرة أخرى العلامة محيي الدين لما اشتهر به من الصلاح والوطنية فذهبوا اليه وأفهموه بان مصير الجزائر أصبح بين يديه وأنه الوحيد الذى يمكن أن يعالج الامر ، وان هو أبى ، فان المسؤولية ستقع على عاتقه ، وعندئذ لم يسع محيي الدين ، نظرا للظروف الحرجة التى تمر بها الجزائر الا أن يقبل مؤقتا قيادة الجيش تاركا للشعب الجزائرى الفرصة لتكليف من هو جدير بهذه المسؤولية فيما بعد .

ولقد ذكر للوفود أنه يرجو من عبد القادر بن زيان وولده عبد القادر لما يعهد فيهما من بطولات أن يكونا مشاركين له فى رد العدوان فشكروه على ذلك ، واتصلت الوفود بعبد القادر بن زيان وعبد القادر بن محيي الدين فرضيا بالمامورية وبدأ نشاط الاحرار.

لننظر الآن الى الاماكن التى كان يسيطر عليها الفرنسيون فى الوقت الذى لم يكن ساستهم قد اتفقوا بعد على حل نهائى بشأن الجزائر : هل يبقون فيها أو ينسحبون؟

ففى الجهة الغربية كانوا قد احتلوا وهران فى سنة 1830 وتبعتها مستغانم وارزيو فى سنة 1833 ، وكانت مدينة الجزائر واطرافها بأيديهم فى الوسط ، أما فى الشرق فان عنابة قد خضعت لحكم متناوب للسلطات المحلية والفرنسية اذ احتلها الفرنسيون مرات متعاقبة ، وأخلوها بعد أن منى الفرنسيون بخسارات جسيمة ، وصلت احيانا الى أن ذبحت حامية المدينة على بكرة أبيها ، وبين عنابة والجزائر ، وعلى مسافة متساوية تقريبا منهما خليج بحرى ، تقوم فى جنوبه (بوجى) وقد احتلتها فى سنة 1833 حملة جاءت من فرنسا رأسا اليها ، ولكن هذه الحملة بقيت أشبه بالمحصورة والسجينــة داخل المدينة ، لان سكان القبائل كانوا منتشرين على مقربة منها ، ولم يكن من السهل اخضاعهم أو محالفتهم أو اجتياز الطرق من خلال اراضيهم هذا مجمل حال الفرنسيين فى الساحل الجزائرى .

أما فى الداخل فلقد كان تقدم الفرنسيين تقدما بطيئا جدا ، مقرونا بكثير مـن التراجع والانسحاب ، فلم تكن سهول متيجة فى جنوب مدينة الجزائر قط هادئة أو خاضعة خضوعا تاما ، اذ كانت تخضع لقبائل عربية عدة لم توافق على تسليم الاتراك للجزائـر .

ان استيلاء الفرنسيين على المدية بسبب موافقة بومرزاق باى تيطرى لم يعمر طويلا حيث أن الفرنسيين نفوا الباى المذكور الى مرسيليا وأقاموا بدله مصطفى بن عمر .

وما ان بلغ ابن بومرزاق هذا الخبر حتى ثار ودعا الناس للجهاد ، وجمع الجيوش ونازل مدينة المدية وضيق على أهلها ، وأنذر الباى مصطفى بن عمار الذى نصبتـه الحكومة الفرنسية بان يتخلى عن المدية لانه عميل فرنسا ومن العار على مواطن جزائرى أن يمشى فى ركاب المحتل ، فلم يستجب له واخطر حاكم فرنسا بالجزائر الجنـرال برتيزين ان موقفه اصبح خطيرا وانه مرغم على أن يسلم البلد للثائر ابن بومرزاق ان لم تصله النجدة فى أقرب وقت .

وحينما اطلع الجنرال برتيزين على هذا راى لزاما عليه أن يمده بجيش قوى ، والتقى هذا الجيش بانصار ابن بومرزاق فكبدوه الخسائر وارغموا جيش الجنرال

برتيزين على أن يرجع مع ما بقى له من الجنود وأن يصحب معه عميل فرنسا مصطفى ابن عمار ، وأن يترك مدينة المدية لابن بومرزاق ٠

وعند رجوع الجنرال وفلوله الى الجزائر اشتبكوا بمضايق جبل موزاية مع ابن بومرزاق فانتصر عليهم وقتل منهم عددا كبيرا ، وتركوا بأيدى الثائرين مؤنا كثيرة ، وأسلحة لا حصر لها ، ولم يدخلوا الجزائر الا فى عدد قليل جدا من الجنود ٠

وقد بقى ابن بومرزاق الحاكم المسيطر على مدينة المدية الى أن استقامت الامور لمقاومة الجزائر والتف الشعب الجزائرى من ايالة تيطرى ووهران حول عبد القادر بن محيى الدين فسلم له ابن بومرزاق بلدة المدية قائلا:«ان الفرنسيين غرروا بأبى وارغموه على ان يكون عميلهم ضد الشعب غير أنه أدرك قبل فوات الاوان أن من واجب كل جزائرى الا يرضى بالمستعمر ، ولقد استسلم لهم بعد أن اعطوه كلمة الشرف بانه لن يمس بأذى ولن يخرج من بلاده ، وبعد ذلك رأوا أنه لابد من اخراجه من الجزائر واستيلائهم على أمواله وتشريد أسرته » ٠

وعلى كل حال فان ما قامت به فرنسا من التنكر لباى تيطرى ليس بالامر المستغرب لان فرنسا اعتادت أن تعطى كلمة شرفها ثم تسحب هذه الكلمة على حسب ما تقتضيه الاحوال وأن العالم أجمع يعرف حقيقة المعرفة أن فرنسا لا ذمة ولا مروءة ولا شرف لها ، وأن المعاهدات التى تبرمها مع هذا أو ذاك عمرها قصير جدا ٠

ان الشعب الجزائرى على بينة من الاعيب فرنسا ، فالمعاهدات مع فرنسا معناها الكيد والنصب والاحتيال وأنها اذا شاءت أن تتنكر لاى معاهدة فمن السهل عليها أن تفتعل الاسباب الواهية ٠

ولا غرو أن قام بالدعاية عبد القادر لانه سبق له أن رافق والده محيى الدين الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، فزار أكثر الاقطار العربية وتعرف كثيرا على معالمها وحضر دروس علمائها وفقهائها ، فأضاف الى معارفه معارف جديدة واسعة ، واطلع على أنظمة الحياة وأساليب الحكم ، وطراز المعيشة فى المدن التى مر بها ، وعاد الى وطنه ليقيم فيه ناعم البال موفور الفكر، لكن ما كان يقدره عبد القادر، غير الذى كان يخبئه القدر فى طياته ففى عام 1830 زحفت فرنسا الباغية بجيوشها لتحتل الجزائر ولتسوم أهلها الذل والهوان ٠

كان الامير عبد القادر من الذين يخافون هذا الاعتداء السافر على الجزائر وكان يدعو الله لنصرة الجزائريين حتى يتمكنوا من وضع حد لهذا الاحتلال وكان يجتمع

بالشباب الناهضين ليتدبروا فيما يجب أن يقوموا به من أجل الكفاح المرير ضد هذا الغاصب الدخيل الذى جاء مزودا بعـــدده وعـدته ومدافعـه وأساطيله ودسائسه ومؤامراته وكان يخطب فى الاندية مع الشباب المثقفين ، لكى يوحد الشعب كلمتـــه ويعتصم فى محنته برئاسة رشيدة حازمة وفعلا فقد اتحدت الآراء عـلى عبد القـادر واسندوا له البيعة ٠

ان وضع فرنسا أصبح وضعا سخيفا وفى الوقت الذى تبلبلت أفكار الفرنسيين كان الرأى العام فى الجزائر مثابرا على المقاومة ، فالشباب فى الجزائر وفى وهران وفى قسنطينة تحمس وكان ينتظر الشخصية التى تسند اليها الامارة لتكون تحت تصرفه وذلك استجابة للنداء الذى وجهه اليها الشاب عبد القادر الذى لعب دورا هاما فى المعارك التى خاضها أبوه الامير محيى الدين ضد جميع الجنرالات الذين وفدوا عـلى الجزائر من 1830 الى 1832 ومنضمنهم الجنرال بويا والجنرال دى ميشال ، وأن هؤلاء الجنرالات نالوا من الهزائم ما أثخن ظهورهم وأحنى رؤوسهم ٠

وكان الفرنسيون يخافون كل الخوف من عبد القادر بن محيى الدين، لان جواسيسهم اخبرتهم بان الجزائريين عقدوا العزم على اسناد البيعة للامـير ، وفعلا فان مـا قـدره الجزائريون فيما يخص الامارة والبيعة بعدما كان حلما يراود أجفان الجزائريين أصبح حقيقة ملموسة ، وقرروا قرارهم الاخير ان تسند البيعة الى عبد القادر وان ينصبوه ويعطوه لقب ناصر الدين ، لان عبد القادر أعطى خلتان متميزتان متكاملتان ، تدعم احداهما الاخرى ، أما الخلة الاولى ، فايمان بالعروبة راسخ لا يعلو عليه ايمان ، وأما الخلة الاخرى فالحفاظ على تقاليد المغرب العربى فى اصرار ليس وراءه اصرار ٠

كان كل عرق فيه ينبض بهاتـين الخلتين ، جهـده عليهما موقوف ، وحماسته فى سبيلهما لا تفتز وآية ذلك ما خطه من دراسات الادب ، وما نهض بتحقيقه ونشره مـن ذخائر الكتب بل انه فى شتى مناصبه السياسية فى الدولة كان يمثل تلك الخلتين فى مختلف مظاهرهما القومية العربية واللغوية والادبية على السواء ٠

لم تكن عروبته أو شرقيته عن جهالة أو جمود أو تعصب ، فذلكم رجل قد تعددت أسفاره ورحلاته ، وأفاد من الاطلاع ما أفـــاد ، وعرف من أنماط الحضارة الفكـرية والاجتماعية ما يوسع أفق الذهن ، ويفسح مجال الرأى ، ويهب قوة التأثر والاختيار والاقتناع فاذا من بعد ذلك بمقومات العروبة وخصائص الشرق فانما هو ايمان عن

وعى وبصيرة وتقدير • واذا اثر روح الحفاظ للتقاليد والتؤدة فى اصطناع الجديد من الانماط فانما هو الايثار القائم على العقيدة المستنيرة والرأى المختمر •

ربما كان عبد القادر فى تحمسه للقديم ، لا يخلو من بعض الغلو ، ولكن مرد ذلك الى ما امتلأت به نفسه من حبه للعروبة والشرق وهو حب شاعر ، ولا على من أحب أن يغلو ، ولا حرج على من احب ان يغــلو ، ولا سيما الشعراء •

ليست روح المحافظة مما يستهان بــه فى تقويم النهضة ، وفى توفـير التعادلية للمجتمع فالمحافظة انما تمثل فــلسفة لها دعائمها فى الحياة ، ولها نصيبها من الحق ، فهى عامل من عوامل الخير ، وعنصر من عناصر السداد فى التقدم ، لاغناء عنه فى فورات التطور التى تفتقر اليها الامم عند الصحوة من سبات عميق ، ولعلنا أحوج الى قبس من روح المحافظة فى عالم قد اضطربت فيه موازين القــيم ، واختلطت معالم الاوضاع ، وعز استخلاص الحقيقة المجردة فى لبابها الصميم وجوهرها المصفى •

فى مثل هذه الحقبة تبدو المحافظة أركانها ثابتة ، ومعالمها واضحة ، ومغبتها مأمونة ، سريعا مــا ترجى منها السلامة ، ذلك لان المحافظة تستند الى تجارب مــرت وخبــرة استفيدت ، فقضاياها ركائز ثابتة فى بناء المجتمع ومفاهيمها جلية فى أذهان الناس ، ومن ثم تطمئن اليها الافئدة ، وتسكن الخواطر ، وتمضى فى طريقها الخطى على غير قلق •

نحن فى حاجة الى مجردين يشفون فى الحياة آفاقا مجهولة ، ويبشرون فى المجتمع بقيم لم تكن مالوفة فتلك سنة التطور والتقدم ، ولكننا فى حاجة كذلك الى من يدعم حياتنا الحــاضرة بتقاليدها الموروثة ، فالهدم قبل البناء شطط ، والبنــاء على الخــواء لا يقوم ، والحاضر والمستقبل متداخلان كلاهما يأخذ من الآخر •

لابد لنا من روح المحافظة ، فهى ضرورة اجتماعية لانها ابقاء على مقــومات حياتنا الحاضرة ، حتى تنجلى الفكرة •

مبايعة الأمير

لقد رأت البلاد الجزائرية وهى تواجه غاصبا دخيلا وعدوا قويا بخيله ورجالـــه ورصاصه ومدافعه واسطوله ودسه وأمواله ان توحد كلمتها وتعتصـم فى محنتها برئاسة رشيدة حازمة ، فنشرت كنانتها باحثة عن اصلح الرجال لها ، فاهتدت الى والد الامير محيى الدين بما تعهد فيه من الشجاعة والكفاءة .

فوفد عليه جمع وفـير من اعيــان غريس وشرفائها وعلمائها ، وهى القبيلة التى ينتسب اليها الامـير ، وافهموه ان الوطن فى حاجـة ماسـة لمن يدافع عنـه ، وانهم يناشدونه الرحمن ان يتولى ذلك لما يعهدون فيه من اللياقة والكفاية وحاجوه بذلك حتى لم يبق له حق فى الاعتذار .

وقبل ان يجيبهم الى ذلك استخار الله ، وبعدما ظهر له وجه الحق استدعى فئـــة من أقاربه وعلماء الوطن والرجال الكمل ، واخبرهم انه يقدم للامارة ابنه عبد القادر ، وانه ما خصه بذلك الا لما رأى فيه من النجابة والهدى وعلو الهمة والعلم والحلم والحماسة والعز والشجاعة ولو كان يعلم ان فى الوطن الجزائرى طولا وعرضا من يفوقه وتتوافر فيه شروط الامارة ما تأخر عن اسنادها اليه ، لانـه يعتبر جميع الجزائريين ابنـــاءه فلا يفرق بينهم ، وهم عنده جميعا سواء .

غير ان عظائم الامور لا يصلح لها الا من كان أهلا لها .

ثم استدعى ابنه واخبره الواقع وما صمم عليه ، فاجابه الامير : (انا لها انا لها) : فكان قبوله دليلا على ما أوتى من العقل واشتهر به من كريم الشمائل وسامى الاخلاق وفائق الشجاعة .

وبعد هـذا اجتمع الاشراف والعلماء والاعيان وحضر الصغير والكبير مـن قبيلته ومن القبائل المجاورة لها وخيموا بوادى « مروحة من قبيلة » « غريس » عند شجرة « الدردرة » وهى شجرة عظيمة كان يجتمع اليها الاعيان للشورى كلما دعا الامر الى ذلك ، وقام احد العلماء وخطب فى الناس قائلا :

اننا فى حاجة لمن يقود سفينتنا ويقف فى وجه العدو فى الداخل والخارج ليذيقه العـذاب ، ولهذا فان الخاص والعـام قد اتفقوا على ان يسندوا الامارة لعبد القـادر ابن محيى الدين ·

وما كاد الخطيب يجلس حتى قام الناس على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم هاتفين : « لبيك يا عبد القادر ، اننا كلنا تحت أوامرك » ·

وعندئذ قام أبوه وبايعه على السمع والطاعة ودعا له بالتوفيق ، ولقبه بناصر الدين ، ثم اقتفى اثره جميع الاقارب والعلماء والاعيان ·

وعندما تمت المبايعة توجه الامـير الى بلدة معسكر حاضرة الامـارة فقابله بالحفاوة التامة جميع السكان الذين صاروا يأتون اليه زرافات ·

وان ما كان عليه الامـير من التمسك بالدين الحنيف دفعـه الى ان يصرح لـزوجه بالحقيقة قائلا لها :

ان القوم وضعوا فى عنقى امانة ، وانه من الواجب على ان أقوم بها ، وان ذلك لا يدع لى مجالا لان أقوم بواجباتى الزوجية على أكمل حال ، ولك ان أردت ان تبقى معى من دون التفات الى طلب حقوقك المقدسة ، فانى أوافق الموافقة التامة على ذلك ، واما ان كان قصدك الا تفرطى فيها فامرك بيدك ، وذلك لانى قد تحملت ما يشغلنى عنك ، فردت بانها تضحى بنفسها وحياتها فى سبيل قضية الوطن ·

فحمد الله وشكر لها اختيارها ثم خرج الى المسجد الجامع وصلى الظهر بالناس ، وخطب فيهم واعلن ان ما تاتيه فرنسا وما أتته من العداء السافر يجب ان نحتج عليه ، ونعلنه على الملأ ليشهد العالم والامم العربية والاسلامية على تصرفاتها الباغية ، تلك التصرفات الجائرة التى لا تنطبق على روح العصر وعلى حقوق الشعب المقدسة ويجب أن نجعل دائما نصب اعيننا ان من الحكمة الا نمكن فرنسا منا ·

ويجدر ان نقف برهة لنصف شخصية الامير البارزة التى ينحى أمامها التـاريخ والمؤرخون اجلالا مهما كانت صبغتهم السياسية أو جنسيتهم مقدرين الجهود الجبارة التى بذلها فى سبيل الدفاع عن وطنه دون مارب مادى أو غاية لا تشرف ٠

هذه الشخصية التى اقترنت بالعظمة الحقة هى شخصية الامير عبد القادر بن محيى الدين الذى وصفه القائد سولت فى سنة 1843 بالعبارات التالية :

« ان الامير عبد القادر يستحق عن جدارة حق وتقدير قوى لقب العظيم لتخليد ذكـراه دوليـا » ٠

ويرجع ميلاد الامير الجزائرى المجيد الى عام 1807 بقرية غتنا بالقرب من معسكر فى الجنوب الشرقى من مدينــة وهران ٠

فابوه محيى الدين كان « مرابطا » من الاسرة الهاشمية وكان العرب يجلونه لتقواه وورعه ولنسبه الذى يرجع بالاورمة الى بيت النبى صلوات الله عليه ٠

ولقد اجتمعت الهيبة الطبيعية الى الاجلال فى شخصية عبد القادر فنصبته القبائل أميرا لها وقائدها لحسن درايته وقوة ادراكه وذكائه وشجاعته ٠

ولم يدخل الامير عبد القادر حلبة الميدان دفاعا عن الوطن الا فى عام 1832 أى بعد اعلان الحرب رسميا بعامين وكان عمره اذ ذاك خمسة وعشرين عاما ٠

ولكى يشحذ عزيمة المجاهدين جعل شعاره الدفاع عـن الدين مع انـه لـــم يكن متعصبا كما اعترف له بذلك احد معاصريه من كبار المؤرخين الفرنسيين ـ ولكى يكسب صداقة سلطان مراكش ومحبته لم يقبل لقب السلطان حين ولاه العرب عليهم واكتفى بلقب الامـارة ٠

ولقى فى أول الامر عناء شديدا فى جمع كلمة الجزائريين ولم شملهم وضمهم تحت لوائه اذ صادف من بعض العبائل رفضا ومن بعض رؤساء العشائر الدينية معارضة قوية أساسها الحسد ومن جيرانه تسويفا فى مده بالمساعدة الحربية ٠

بيد انه استطاع التغلب على كل هذه الصعاب بما اوتى من حكمة وصبر وجـلد فجمع الكلمة وحارب فى بسالة ودهاء يفوقان حد الوصف ٠

لقد ارغم فرنسا فى المدة التى بين عامى 1834 و 1837 على ابرام معاهدتين :

فاعترفت فى الاولى ببسط نفوذ الامير الفعلى على كل الجهات الغربية من القطـر الجزائرى ما عدا مستغانم ووهران .

وفى الاخرى بتوسيع دائرة امارته لتشمل جميع البلاد على ان تحتفظ فرنسا بمدن وهران ومستغانم والجزائر وما حولها من سهول .

ويذكر التاريخ بالثناء العاطر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الامير سخية مثمرة فى تنظيم جيوشه لتصبح قادرة على منازلة جحافل أكبر الدول البرية وقتئذ ؛ فاعـد فرقا يسودها النظام ودربها أحسن تدريب على القتال وقسمها فرق مشاة وكتائب فرسان ، وفصائل مدفعية وزودها بالسلاح والعتاد والذخيرة .

واعد الى جانب الجيوش النظامية فرقا من الفرسان المهرة المتطوعين اطلق عليها اسـم « القومى » وقد بلغ عدد جيوشه باسرها ما يزيد على الثمانين ألف مقاتل .

وليمد جنوده امدادا منظما بالعتاد والغذاء كون فرقة كبيرة خاصة من الرجال المهرة قدر عدد أفرادها بعشرة آلاف ، وعهد بحراستها الى ستة آلاف مقاتل ، واطـــلق على مجموعهم اسم « الزمالة » واقاموا مع أفـــراد أسرهم فى خيـــم متنقلة تتقدم عند انتصاره ، وتتقهقر كلما خسر موقعة ، وهذا الاجراء أكبر دليل على حسن قيادته وبعد نظـــره .

وبعد ان ضمن صداقة سلطان مراكش وانس فى نفسه القوة على محاربة العـدو نظاميا بعد ان ارهق جنود فرنسا بمناوشاته الكثيرة الجريئة واعلن على فرنسا الحرب رسميـــا .

والواقع هو ان الامير العظيم كان رجلا مثقفا يتقن اللغة العربية ويعرف الكثير من أخبار الامم علاوة على اتقانه فنون الحرب ومهارة القيادة .

ولما علم الامير الفرق الذى بين الجنود المنظمة والحشود المتطوعة وبعد ان اطلع على انظمة العدو قرر العزم على تنظيم قوته تنظيما يتجاوب وروح العصر ، وادخـــل فى الانظمة الجديدة التمرين والتدريب بحيث يصبح أعضاء الجيش على اختلاف أنواعهم لهم دراية باساليب الحرب ومعرفة بدسائسها ومناوراتها .

وما ان رجع من واقعة الجزائر التى ابلى فيها بلاء حسنا حتى عقد مجلسا عـــامـا استدعى له جميع رجال الدولة واعيان القبائل والزعماء وجميع من له رأى مطاع فى

عشيرته وذكر للجميع ان الوضع الحربى تغير وان للعدو طرقا خاصة فى القتال وبناء على اننا نرغب ان نتغلب عليه يجب علينا ان نتقن انظمتنا وان نلجا الى أمور تكـون السبب فى كسر شوكته وان الخير كل الخير فى أن يكون عسكرنا عسكرا نظاميا لان النظام كله فائدة ·

وبعدما اتم كلامه اجابوه بالسمع والطاعة وذكروا له انهم زيادة على اكبارهم لـه وتفانيهم فى حبه فانهم يصرحون له بايضاح بان لابد ان يتخذ ما يتطلبه الموقف مـن حلول نظرا لما صمم عليه العدو من مواصلة الكفاح ـ ولهذا فانهـم كلهم يـرون رأيه ويطلبون منه ان يبادر باتخاذ ما يجب اتخاذه من التدابير ·

فاجابهم الامير بانه كان واثقا من تأييدهم له وان هذه الروح العالية التى يتكلم بها جميع الجزائريين من جميع الطبقات تزيده قوة على قوته وبفضلها سيكون النصر حليفنا لاننا نسير مع الحق وان من كان هذا شأنه فان الله يأخذ بيده ويجعل له من أمره يسرا ·

وبعدما انفض المجلس قام المنادى فى جميع الاماكن واخبر الخاصة والعامة بانـه صدر أمر من مولانا ناصر الدين بتجنيد الجنود وتنظيم العساكر من جميع البلاد فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدى فليسارع الى دار الامارة ليقيد اسمه فى الدفاتـر الامـيريـة ·

ففرح الناس بهذا الخبر وتلقوه بانشراح وارتياح وصار هذا الامر حديثهم فى جميع مجالسهم وانديتهم ·

وبمجرد ما اتضح لفرنسا الامر تحققت ان المعركة الجزائرية دخلت فى طـورها الحاسم وان الامير اتخذ من الاجراءات ما يمكنه من التمادى فى الحرب حتى النهاية ·

لقد روعى فى اسناد الامارة الى عبد القادر الكفاءة لان الشجاعة والاقدام ان كانا يصلحان لخوض المعارك والانتصار فيها فانهما لا تكفيان لادارة الامور التى تتطلب العلم الغزير والامير من هؤلاء الذين امضوا شبابهم فى الاهتمام بالعلوم والمعارف ، وهو القائل يوم بويع : « تعالوا ايها المواطنون الاعزاء ان نعمل ما فى وسعنا لنحرر الوطن ، ويجب ان ننجح فى القضاء على جيوش فرنسا · ما الذى ينقصنا نحن معشر الجزائريـين لكى نصبح عاملا هاما من عوامل السلام والاستقرار فى المغرب العربى الكبير ! » ·

قد أسس الامير الدولة الجزائرية ورسم لها الخطط ثم عقد مؤتمرا حضره العلماء واعطى فيه للشعب فكرة صائبة عن الاوضاع والتدابير التى اتخذها من أجل الاطاحة بقواد فرنسا ورغب مـن مواطنيه ان يساندوه بقدر مـا أوتوا من حـول وقـوة لان الجزائريين ولو حصلوا على مكاسب فان الطريق ما زال طويلا فى الكفاح الشاق الذى تخوضه ، فبالرغم من الخطوات التى قطعتها الجـزائر اثـر توحيد كلمتها فى طريق تحررها فانها ما تزال مهددة بوجود الاستعمار الفرنسى الذى لم يتخل قط عن غريزة الاستغلال والاستحواذ .

وأمام تكالب الاستعمار الفرنسى على السيطرة وتشبثه بالبقاء فان على الجزائر أن تظهر ارادة لا تزعزع فى التحرر التـام ، يجب ان نضاعف مجهوداتنا وان نبذل التضحيات الغالية لتحرير بلادنا من السيطرة يجب ان نتحرر لكى نتحد ، وان نتحد لكى نبقى ولبناء جزائر جديدة يستطيع فيها الشعب ان يعيش فى جو الحرية والكرامة وان يستثمر لمصلحته الخاصة خيرات بلاده الهائلة وان يحقق لنفسه التقدم الاجتماعى والاقتصـادى .

ان هذا يندرج فى اطار هذا الاتجاه التاريخى العظيم وان الرؤساء المجتمعين هنا والشاعرين شعورا كاملا بمسؤولياتهم قد اتخذوا قرارات هامة حول المشكلات الكبرى التى تواجهها الجزائر فى الوقت الحالى .

ونحن على يقين بان تطبيق هذه القرارات سيؤثر تاثيرا كبيرا على سير الحـوادث ويدعمها دعما عظيما ويعجل بانتصارها .

وبهذه المناسبة أود أن أعبر بما تشعر به الحكومة والشعب عن امتنانهما لمظـاهر الصداقة والتعاون العملى التى اظهرها مرة أخرى الحلفاء الطبيعيون .

ونستطيع أن نؤكد لهم ان الشعب الجزائرى فى المحنة القاسية التى اجتازها عرف كيف يقدر تقديرا كاملا كل مساعدة أخوية كان قد تلقاها .

ان هذه المساعدة شكلت وقتئذ مساهمة هائلة من البلدان الشقيقة فى تحـرير الجزائر كما تعتبر من أفضل عوامل دعم وحدة الشمال الافريقى فى المستقبل ، هذه الوحدة التى ستجعل من كل افريقية حقيقة منصهرة فى بوتقة المحن والتضحيات المشتركة .

ان العالم الجديد الذى نريد بناءه فى شمالى افريقية يرمى قبل كل شىء الى سعادة شعوبنا التى اغتصبت القوة الاجنبية حقوقها واملاكها منذ قرون • وليس هذا العالم الجديد موجها ضد أى بلد آخر فهو يريد فقط ان يكون حرا فى اقامة ودعم السلام بين كل شعوب العالم فى ظل المساواة والاحترام المتبادل •

وان الحركة التحررية فى الجزائر قد اعتمدت كل الاعتماد على الحلفاء الطبيعيين ، وعلى الاحرار فى العالم •

وفعلا فقد كان تجاوب الاشقاء العرب مع الجزائر تجاوبا صادقا فى كل الميادين •

وبعد مضى عامين من المبايعة ظهر للامير انه فى حاجة الى تنسيق الادارة وتطوير الجيش وانه لن يعارض فى أى معاهدة مع الجنرال دى ميشيل حتى يتمكن من الحصول على المؤن الحربية الكافية بحيث يمكنه ان يرد كيد العدو بما امكن ان نقض دى ميشيل أو من يأتى بعده هذه المعاهدة •

وبالرغم من ان الامير كان يود بكل قواه ان يسمح لجيوشه ان تنعم بالراحة ولو لمدة قصيرة فانه لم يبادر دى ميشيل بأمر المعاهدة بل ترك أمرها للظروف وفى الوقت نفسه أكثر من مناوشات العدو حتى اقلق مضجعه وجعله يتوسل للحصول على المعاهدة ويتخذ الاجراءات الكثيرة للوصول الى ذلك •

وقد بعث دى ميشيل برسائل عديدة من دون ان يتلقى ردا عليها وأخيرا نجح فى ان يشرفه الامير بالرد على رسائله وكان نص الرد : انه من السهل جدا ان نتفق غير ان الاتفاق لا يمكن ان يتحقق الا اذا كانت الصراحة رائدكم وان تكون معاملتكم مقرونة بحسن النية ويجب ان كانت نيتكم القضاء على الفتن ان ندخل رأسا فى الموضوع وان نتناقش فى المسائل علنا نتوصل الى حل ، وذلك قبل ان نتورط فى معارك لا يدرى نتيجتها الا الله ، ولن اسمح لنفسى ان ادعى ان النصر سيكون حليفى حيث ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء •

وقد بلغنى ان اناسا كثيرين يعملون الآن على ايجاد خلافات بيننا حتى لا نتوصل الى عقد معاهدة وانهم قاموا بدسائس من أجل ايهامكم وعليه ان اردتم ان نتعاهد فيجب عليكم ان توصدوا الابواب فى وجوههم كما افعل انا حيث اننى لن أدع لهم طريقا للوصول اليه لعلمى ان شأنهم هو ايجاد الفتن بين مخلوقات الله ولكم ان تتصلوا بوكيلى بن دران وانى لن أعطى قيمة الا للرسائل التى تكون ممضاة منكم ومختومة

أيضا بختمكم وان كلفتم اناسا يتفاوضون فلابد ان يكونوا من الذين يفقهون القول اما المواطنون الجزائريون فلا تفكرون فى التفاوض معهم لانهم بايعونى والمبايعة معناها التفويض الشامل وانهم لن يتنكروا لهذه المبايعة ٠

ان هذه المبايعة اتاحت للامير الفرصة بان يؤسس دولة وان يكون راية وان يدير الامور بحكمة متمشيا مع الشريعة الاسلامية محافظا على الجيران ، جاعلا نصب عينيه ان الجزائر عربية مسلمة ومن العار ان تتنكر لتاريخها وان تدين بالولاء لمن لا تربطها بهم صلة وبهذه الروح العالية قاد الامير الجزائر من نصر الى نصر من سنة 1840 الى 1847 وفى هذه السنة بالذات غلب فيها على أمره وتعددت الاسباب فاستسلم للقضاء والقدر وترك الجزائر وهو يبكى ويردد : حنانك يا رب ٠ امنن على عبادك بالصبر وارزق الجزائر رجالا يمكنهم ان يثاروا لى ولها وان ينتقموا من الذين شوهوا الحقائق ونالوا النصر بفضل الدس والمؤامرات ٠ وان فرنسا التى قهرت الجزائريين حقبة من الزمن ستدفع ثمن طيشها ٠

ان الامير عبد القادر كان وما يزال الرمز الحقيقى لكفاح الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى وقد حاولت فرنسا ان نسىء الى الامير ولكنها لم تنجح واعترفت أخيرا بفضله ٠

ان الشعب الجزائرى لم ولن ينسى ان أول من رفع لواء الجهاد هو الامير عبد القادر وان هذا الزعيم لم يضع السلاح الا لاسباب قاهرة وان استسلامه معناه ان حفدته « وأريد بالحفدة جمع 14 مليون جزائرى » مطالبون بان يناضلوا حتى آخر قطرة من دمائهم لكى تدرك فرنسا ان الحرية لا تقدر بثمن وان الحقوق تؤخذ لا تعطى وان الشعب الجزائرى لم يعرف فى تاريخه القديم بانه استكان أو مال الى الذل أو رضى بالاستعباد بل انه كان يثور فى كل مناسبة على الطغيان والظلم ويعمل جاهدا من أجل استرداد حـــريتـــه ٠

ولو أمعنا النظـر فى تاريخ شمال افـريقيا لوجدنا ان الامبراطورية الرومانية والبيزنطية وجدت حتفها فى الجزائر ٠ وان الجزائر يمكن ان يقال عنها بحق انها مقبرة الغزاة ومن الطبيعى ان تلحق امبراطورية فرنسا بالامبراطوريات السابقة وان يحل بها الانهيار والذوبان مثلما حل بالتى سبقتها ٠

الدولة الجـــزائرية
في عهـــد الامير عبـــد القـــادر

بعد ان بويع الامير المبايعة العامة من قبل الشعب ، ونصبه العرب والجزائريون اميرا عليهم أخذ على عاتقه احياء الدولة الجزائرية من جديد ، ونفخ روح التنظيـــم بين صفوفها فانشا الوزارة والفها من المقاعد التالية :

رئيس وزراء : يقوم بهذه المهمة الامير عبد القادر الملقب بناصر الدين •

نائب رئيس ،

وزير خارجية ،

وزير خزينة المملكة ،

وزير الخزينة الخاصة ،

وزير الاوقاف ،

وزير الاعشار والزكاة •

ثم ياتي بعد الوزراء الكتبة وهم ثلاثة ـ حسب الحاجة ـ ثم الحاجب وهذه الوزارة التي اتخذت مدينة معسكر مقرا رئيسيا لها بعد سقوط العاصمة الاولى في يد العدو ، كانت تعد من احسن الوزارات في القرن التاسع عشر لما اشتهرت به من دقة ونظام ولما عرف عن اعضائها من خبرة فنية ومهارة علمية وسياسية وكفاءة حربية فائقـــة مما جعلهم يتبؤون هذا المركز الممتاز ويقومون خير قيام بالمسؤوليات الملقاة على اكتافهم•

واختار الامير الحاشية الخاصة به من اخلص قادة البلاد العسكريـــين وعلمائهـا وقضاتها • وانشا مجلسا للشورى بلغ عدد افراده احد عشر عضوا يمثلون مناطـق مختلفة جعل على راسهم قاضي قضاة الجزائر •

وثمة اسباب حدت بالشعب الى الالتفاف حول الامير وحكومته الوطنية وهى اصدار الامير قوانين تبطل ما كانت تقوم به حكومة الداى السالفة من فرض ضرائب ومغارم وعوائد أثقلت رقاب الجزائريين .

وما كاد يفرغ الامير من تنظيم اجهزة الدولة حتى ارسل الى عمال الحكومة السابقة فى المناطق التى لم يغتصبها الاستعمار حاثا اياهم على التعبير عن ولائهم للحكومة الجديدة وعلى الرجوع اليها فى كل أمورهم . فأجابته الاغلبية الساحقة منهم بالسمع والطاعة كاشفين له عن عظم اغتباطهم . اما الذين أبوا الدخول فى طاعة الامير الجديد مغتنمين الذعر والفوضى التى انتشرت فى البلاد على اثر احتلال العدو لبعض مناطقها اختاروا الاستقلال بادارتهم تدفعهم الى ذلك شهوة التحكم والطمع غير مبالين بما يحدق بالبلاد من خطر وبيل وما يترتب على عصيانهم من تشتيت لوحدة الشعب وتبديد لقوته فى الوقت الذى يجند فيه العدو كافة موارده ويحشد جميع قواته لاجتياح الوطن .

هؤلاء المارقون سرعان ما أفحمهم الامير بالمنطق أو بالقوة مستدركا الخطر الذى ينتج عن عنادهم . وعين فى مناصبهم رجالا كفاة ذوى اطلاع ومقدرة واخلاص .

وبذلك استقرت الاحوال للحكومة الجديدة وبدأت تعمل جاهدة على ارساء قواعد الحكم النزيه على أسس متينة قوامها الدين الاسلامى وأساسها مكارم الاخلاق العريقة.

وان أول من اعترف بشرعية هذه الحكومة الناشئة هو القائد الفرنسى دى ميشيل ومن الملاحظ ان الحكومة الفرنسية لم ترض كل الرضى عن ابرام هذه المعاهدة التى وافقت عليها كآخر محاولة للحفاظ على نفوذها فى بعض المناطق الجزائرية . ولهذا لم تدخر وسعا للبحث ن أسباب تحل بها نفسها من الارتباط مع الامير بالهدنة المعقودة بينهما خاصة وانها قد امدت حاكم وهران بقوات اضافية جعلته يغير بنفسه ويوسوس الى قبيلتى « الدوائر والزمالة » بالخروج عن طاعة الامير .

وهذا الاجراء بل الاجرام من قبل حكومة فرنسا وقوادها لم يثن الامير على ان يشق طريقه وان يرسى قواعد حكومته العربية الاسلامية على أسس متينة تشد بعضها بعضا.

مشروعات دولة الجزائر فى عهد الامير

اغتنمت الدولة الجزائرية الهدنة المعقودة بينها وبين فرنسا . وراحت تنمى اقتصادها وصناعاتها . فزادت فى ضرب العملة التى تحمل طابع الدولة الجزائرية

الحرة . وشرعت تستخرج الملح من جبال الونشريس . كما شجعت صناعة الجـوخ والمنسوجات القطنية فى تلمسان والصناعات المختلفة الاخرى كصناعة الحديد والنحاس.

ولم تهمل الحكومة النأحية الحربية فانشأت المصانع الحديثة للاسلحة والذخيرة بما فى ذلك المدافع الثقيلة فى كل من معسكر وتلمسان ومليانة والمدية .

وقد بنت الحكومة حصونا قوية فى كل من سعيدة وفزى وسبدو وتاكمدت وبوغار وبوخرشفة وعريب وتازة . واهتمت كذلك بالجهاز الحكومى ورواتب المـوظفـين . وقسمت القطر الجزائرى الي مقاطعات وألوية .

الجيـش الجزائـرى

لم يتجاوز تعداد الجيش الوطنى الجزائرى فى عهد حكومة الامير عبد القادر أكثر من 16000 جندى قسموا ثلاثة اقسام : (مدفعية ، فرسان ، ومشاة) الا ان الجيش الجزائرى الباسل على قلة عدده كان يعد من انظم الجيوش العالمية آنذاك واشجعها واتقنها لفن القتال . ويكفيه فخرا ان ضمن حرية القيام بشعائر الدين الاسلامى فى المناطق التى تحت الاحتلال واعاد العلاقات التجارية بين المدن الجزائرية الى مجراها الطبيعى . وتبادل الفريقان ممثلين عنهما فى المدن الرئيسية لكليهما .

كما نصت الاتفاقية على عدم قبول أى الطرفين لمن ينزح قادما من حكم الطرف الآخر . ونزل الفرنسيون بفضل هذه الاتفاقية عن بعض المراكز التى سبق ان احتلوها من قبل كمرفا « أرزيو » التجارى .

وجاء جواب الحكومة الفرنسية موافقا على هذه الاتفاقية ولو انها اظهرت بعض الامتعاض مما جاء فيها من شروط تضر بمصلحتها الاستعمارية .

وقد قبلت الحكومة الاستعمارية هذه الاتفاقية على مضض . اما نحن الجزائريين وان كنا نرفض مثل هذه المعاهدة فى الوقت الحاضر ، لانها تعترف جهارا باحتـلال الاستعمار الفرنسى لجزء غال من اجزاء الوطن العربى فى الجزائر ، فان للامير عبد القادر ما يبرر موافقته على هذه الهدنة التى رأى فيها فرصة سانحة لتنظيم جيشه وتسليحه وتـدريبـه .

هذا الجيش القليل العدد تمكن من قهر أكبر جيش فرنسى فى القرن التاسع عشر ، أكثر من عشر سنوات متتالية ، وقف بعدها موقف المدافع المستميت عن الوطن • واستطاع ان يؤخر الاحتلال الاستعمارى الكامل للبلاد سبعة أعوام أخرى •

وقد شاركت المقاومة الشعبية المكونة من جميع طبقات الشعب مشاركة فعالة فى الحرب • فساندت جيش الحكومة المنظم فى نضاله ، وحملت السيف الى جانبه • ولولا المقاومة الشعبية ما تمكن جيش الامير القليل العدد والعدة من الصمود طويلا امام قوات استعمارية بلغ عددها فى بعض الاحيان 150 ألف جندى مسلح •

ان الاهمية الكبرى التى وضعها الامير فى تنظيم الجيش والمسلك الحسن الذى سار عليه أوجب عليه ان يتولى هو بنفسه ما يجب اتخاذه من الترتيبات والانظمة ليكون محل عناية الجميع وليكون التنظيم الجديد تنظيما جديدا تراعى فيه المحافظة على صحة الجنود وعلى راحتهم البدنية والروحية والمعنوية حتى يكون الجنود المثل الاعلى فى الشجاعة والسيرة والتمسك بدينهم ليرهبوا عدو الله وعدوهم بتقواهم والسير على المنهج المستقيم •

ولقد اغتنم الامير فرصة الهدنة واستتباب الامن بينه وبين الفرنسيين ، فقام بمجهودات جبارة لتقوية الجيش الذى كان قد داخله التعب وكاد ينضب لديه العتاد الحربى لقصر المدة بين نشاته ودخوله الفورى فى العمليات الحربية •

وقد عمل الامير خلال هذه الفترة على اعادة تنظيم الجيش ووضعه فى مصاف الجيوش العالمية الحديثة •

فقسمه الى ثلاث فرق : مشاة ، خيالة ، مدفعية ، ووحد زيه ، واصدر القوانين العسكرية التى يتوجب على الجندى التمسك بها ، ويعاقب عقابا صارما وشديدا اذا ما حاد عنها •

وكان قادة الجيش يتمتعون برتب عسكرية مرموقة فاذا ما تسلق الجندى النفر سلم الترقية لابد وان يتخطى فى صعوده الدرجات التالية :

جاويش : يرأس 12 جنديا ،

رئيس الصف : يرأس 20 جنديا ،

السياف : يرأس 100 جندى ،

الآغا : يرأس 1000 جندى •

ولم يهمل الامير أمر الكتبة فى الجيش بل جعل تحت يد كل آغا وكل سياف كاتبا يتولى شؤون الحسابات والرسائل والتقارير ٠ ويشرف هذا الكاتب على أعمال توزيع الطعام والرواتب الشهرية على الجند ٠

ولكى يتميز الرئيس من المرؤوس منح الضباط ـ حسب رتبهم علامات فارقة من الذهب والفضة والجوخ الاحمر ، ونقش على هذه العلامات آيات وعبر تحمل جميعها طابع النظام والطاعة والجهاد ٠

ولقد جرت العادة على منح أوسمة الفخر والشرف لمستحقيها فى حفل بهيج يحضره الامير أو خليفته ، وتعزف فيه الموسيقى العسكرية الحانا شجية ٠

اما الوسائل الضرورية كالماء والغذاء والرواتب الشهرية فقد خط لها الامير نظاما دقيقا جعلها بفضله متوفرة للجيش ٠ وكذلك اعتنى اعتناء كبيرا بصحة رجاله وشعبه ففتح المستشفيات فى كل مكان من مملكته علاوة على المستشفيات المتنقلة التى كانت تلازم الجيوش فى تحركاتها ٠ واقام على شؤون المستشفيات اطباء جزائريين مهــرة يساعدهم ممرضون عسكريون ٠

واسند رئاسة فرق المدفعية لمجهر آغا المعروف بابن كسكسة الكرغلى وكلمة الكرغلى تطلق على كل من كان أبوه تركيا وأمه جزائرية ٠

وبعدما قسم الجند الى هذه الفرق وجعل لكل فرقة شعارها ورأى من الواجـب ان يضع قوانين وضوابط يرجع اليها عند الضرورة قد كلف بعض الكتاب تدوينها وجمعها لتكون حجة ٠

وان هذه القوانين جمعت كلها فى رسالة سميت بـ « وشاح الكاتب وزينة العسكر المحمدية الغالب » ٠

وبما ان الجيش لا يتمكن من القيام بالمهام المسندة اليه الا اذا كان له رواتــب شهرية وان تكون بالحكومة أموال ثابتة قرر الامير انشاء الخزانة ٠

الخـزانــة

وبما ان ادارة دفة الحكم تعتمد على الاموال اقترح الامير على وزرائه ان يفكروا فى ارساء قواعد متينة للميزانية لان القيام بمتابعة الحرب لا يمكن ان يكون ذلك مثمرا الا اذ كان فى بيت المال الاموال الكافية لشراء ما يلزم من ذخائر حربية ومواد تموينية

وقد استدعى مجلس الشورى وعرض عليه الاجراءات الشاذة التى قام بها بيجو والتى ترمي لاستئناف القتال ان لم يكن اليوم فغدا وطلب من مجلس الشورى ان ينظر فى الامر من جميع نواحيه وان يرسم الخطط اللازمة لتفادى هذا الخطر المحدق بالجزائر والجزائريين ٠

وقد انضم لمجلس الشورى عدد لا يستهان به من ذوى الخبرة ورؤساء العشائر والعلماء والوجهاء وبعد اخذ ورد اتفقوا وآلوا على انفسهم بألا يبخلوا على الخزانة بالاموال الكافية لان دينهم يقرر ان الزكاة فرض على كل مسلم ومسلمة وانه لا يعفى من اداء هذا الفرض الا طوائف من ذوى الفقر والاحتياج وهم الفقراء والمساكين وعمال الجبايا والمؤلفة قلوبهم وابناء السبيل والغارمون والمجاهدون فى سبيل الله ٠

وكما ان الزكاة فرض مقدس لرد كل معتد اثيم بما امكن فهى فرض أيضا يقرره النظام العام على المجتمع الاسلامى ليكون وسيلة الى التكافل الاجتماعى حتى لا يدفعه الانسان وهو مكره ولكى ينال من ذلك ما وعد الله به الذين يقرضون الله قرضا حسنا كما ورد وصفهم فى أكثر من آيات الكتاب الحكيم واكدته السنة المطهرة وسار عليه المسلمون فى مختلف العصور ٠

وان ما اتفق عليه المجلس الشورى هو ان تفرض على المسلمين ضريبة « معونة » بنيت على اسس شرعية مؤيدة بنصوص فقهية وأعمال سلفية ٠

وان كان مجلس الشورى بأكمله قد وافق عليها فبعض الاذناب ادعوا انه لا موجب لدفع الضريبة هذه حيث ان الامير قد بويع على ان يكافح العدو باستمرار حتى يخرج عن الديار منكس الرأس وان بيعتنا انما هى بيعة جهاد لا أقل ولا أكثر وحيث ان الامير ركن الى السلم وجنح اليه فلنا ان نرجع فى بيعتنا ونمتنع عن دفع أموالنا ٠

وكان هذا انذارا بخروج بعض العشائر عن الامير وتعلقهم بركاب فرنسا ٠

والسبب فى ذلك يرجع لدس فرنسا ومؤامراتها ومكايدها وقد لجات الى هذه الطريقة بعد ان تبين لها ان الانتصار على الامير بالسلاح أمر بعيد وانها مهما حاولت من خوض المعارك ومهما بذلت من تكاليف ومهما احضرت من جنود وعتاد فان النتيجة تكون وخيمة عليها ٠

وان كان بعض الاشرار تنكروا لوطنهم واصبحوا يؤيدون فرنسا فان العدد الكبير من الجزائريين كانوا يرون ان التملص من اداء هذا الواجب يعد ردة وانهم ان لم

يؤيدوا الامير فى تمويل بيت المال فان فرنسا ستتغلب على الامير وسيدخل الوطن الجزائرى باكمله تحت نفوذ الدخيل ، وتتمكن فرنسا اذ ذاك من فرض سيطرتها ولتفادى هذه المصائب ارسلوا وفدا للامير ليعلنوا انهم مستعدون ليدفعوا ما هو واجب عليهم من الحقوق التى فرضها عليهم شرعهم غير ان لهم طلبا وهو ان يعين الامير على كل قبيلة من قبائلهم مسؤولا عنهم بعد مشاورتهم فى ذلك لانهم ادرى من غيرهم ممن تتوفر فيه الشروط واللياقة فقبل الامير ما اشاروا به عليه ورجع الوفد والبشرى بين يديه لخلفية للامير قصد القبائل وسر بذلك الامير سرورا لا مزيد عليه وتوجه الخليفة نفسه وعين الرؤساء بعد استناده على اعيانهم واشرافهم وعلمائهم وحاسبهم على ما هو واجب عليهم فدفعوه عن رضى نفس وكان ما دفعوه أربعة آلاف جمل وثلاثين ألف رأس من الغنم .

وقد صارت هذه القبائل من أشد الناس تمسكا بالامير واخلصهم طاعة له .

وبعد ان منى قواد فرنسا بهزائم متكررة لجاوا الى طريقة اخرى وهى الدس بين الجزائريين باساليبهم الخاصة وتمكنوا ان يتغلبوا على ضعفاء العقول فانضموا الى صفوفهم وأصبحوا حربا على مواطنيهم الذين يدافعون عن الحرية والاستقلال .

والشيء الخطير هو ان هؤلاء الاذناب صاروا يثيرون الناس ويلحون عليهم فى عدم تزويد بيت المال حتى يصير الجند الى اسوأ الحالات وتنهار معنوياته .

ان مجلس الشورى وافق على دفع الضريبة كما ان علماء الجزائر جعلوا الضريبة فرضا .

كما استفتى علماء مراكش فيما يخص هذه الضريبة فاجتمعوا وقرروا بالاجماع ان من تخلف عن اداء هذه الضريبة يعتبر مرتدا ولا تقبل شهادته .

وارسلت الفتوى لسلطان مراكش فعلق على الفتوى بقوله :

« ان هذه الفتوى موافقة للسنة والقياس والاجماع وان من تعرض لتنفيذها أو أولها تاويلا آخر فانه يعتبر من الظالمين وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وقد جاءت فتوى علماء المغرب المصدق عليها من طرف سلطان المغرب ضربة قاصمة للذين سولت لهم انفسهم ان يعرقلوا جهاد الامير لأسباب واهية ما انزل الله بها من سلطان .

معالجة المشكلات الداخلية

بعد ان فرغ الامير من شؤون ملكه قام فى فبراير سنة 1832 ليتفقد احوال من تخلفوا عن البيعة فيردهم على الطاعة واشهر سيف الحق ودوخ بلاد العصاة وجال فى مواطنهم وجبى الاموال ثم عاد الى الثغور فانتهى الى مرفأ أرزيو وكان قاضيها أحمد ابن طاهر يراجع حاكم وهران ويدعوه الى الاستيلاء على المرفأ المذكور فقبض عليه الامير واعتقله ثم اقبل على ضبط الثغور وتثقيفها فرتب الحامية وقدر ذخائرها ثم أرسى قواعد الامن فى البلاد وأول عمل جرىء قام به هو ان دك دكا قبيلة فليته التى تحتوى على بطون وعشائر عديدة وكان من دأبهم سلب النفوس والاموال وقطع السابلة حتى فى عهد الحكومة الجزائرية فى القرن الثامن عشر · وبعد انقراض هذه الحكومة اشتد عدوانهم ولما آل الامر الى الامير قام من الحضرة ونزل بالبطحاء المعروفة الآن بهبزة ومنها قرر السير اليهم بجموعه فشتت شملهم واكتسح أموالهم ، وبعد الانتهاء من أمرهم بلغه انتفاض قبائل عكرمة وبنى مديان فسار اليهم وحثهم الى الرجوع فاظهروا الشقاق على الطاعة فاغار عليهم واستولى على موجوداتهم ولما ندموا رد اليهم أمنهم وأموالهم ، وطلب منهم ان يلتفوا حوله لاجلاء الدخيل · وبفضل وحدة الجزائريين فرض الامير فرضا على القائد الفرنسى دى ميشيل معاهدة ذات مغزى وطنى ·

وبعد ان وقع الامير المعاهدة مع دى ميشيل فكر فى ان يبسط نفوذه على ساحل الشلف حتى الحدود الفاصلة بينه وبين الجزائر وحاول ان تكون صلته حسنة مع الحكومة الفرنسية فبعث برسالة الى قائد الحامية الفرنسية بوهران ليعين لديه سفيرا ·

وفى الوقت نفسه استعمل ما لديه من القوة لاخضاع القبائل التى كانت غير خاضعة لاوامره وذلك بفضل الاسلحة التى كان يتلقاها من الجنرال دى ميشيل ·

وبينما تمكن الامير من اخماد جميع الفتن والتغلب عليها حاول عمه وأخوه مصطفى ان يؤلبوا عليه القبائل بدعوى انه اتفق مع الفرنسيين ولم ينفذ بحذافيرها البيعة التى تمت له بان يقوم بالجهاد الى أقصى حد .

واتفق عمه وأخوه مع زاوية الدرقاوة وكذلك مع المرابطين بالوارسنيس وكونوا كتلة لا يقل عددها عن 600 جندى وقد فكر الامير بان يستميلهم غير انهم لم ينقادوا وقرروا مجابهته ، فاضطر لمحاربتهم وقد تغلب عليهم وفروا هاربين اما عمه واخوه فقد لجآ الى الجبل ثم طلبا العفو فعفا عنهما وقد فرض على المهزومين مائة حصان وألف بندقية وخمسمائة سلطاني فضة كضريبة .

ان هذا الانتصار على هذه القبائل المناوئة للامير قد فتحت له الابواب على مصراعيها لكى ينضم اليه أناس كثيرون وخاصة القبائل الساكنة ببلدة مليانة التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للشيخ ولد السائح ، فخطبت وده ووضعت جميع امكانياتها تحت تصرفه ، كما انضم اليه رؤساء قبائل « جحوط » ، ومرايا سومال ، بن مناد ، ابن مناصر .

وعندما وصل الى مليانة اتصل باسرة الوالى الصالح سيدى أحمد بن يوسف الذين يتمتعون بصيت كبير فقدم اعضاء هذه الاسرة خدمات جليلة وتقدم علاوة على هؤلاء مشايخ « جندل » وجميع الجنود التى كانت بمعيتهم وقابلوا الامير بحفاوة تامة بحيث ان هذه القبائل التى كانت تعيش فى فوضى فى عهد الاتراك أصبح لها رئيس هو الامير عبد القادر يدير شؤونها وأعمالها بالعدل والانصاف .

ان الامير لكى يتمكن من تسيير الامور كما يجب عين فى مليانة خليفة له .

وبما ان المدية تجاور مليانة ولها أهمية كبيرة وخاصة ان الجنود الفرنسيين حاولوا الاستيلاء عليها كما فكر باى قسنطينة بان يحتلها وخاصة انها فى مفترق الطرق وانها همزة وصل مع المغرب ـ قرر الامير احتلالها ليتخذها ذريعة للسطو على باى قسنطينة .

غير ان أحد اصدقاء الامير القدامى المدعو الحاج موسى وهو من اسرة شريفة قد أصبح من اعدائه فكر فى ان يؤلب عليه جميع القبائل العربية بدعوى انه اتفق مع الكفار وانه بفعله هذا قد أصبح لا يعمل بشروط الجهاد .

وقد نادى الحاج موسى فى الناس جهرا بالجهاد واظهر للناس جميعا رسائل قد اتته من باى قسنطينة وباى تونس وبتلك الكيفية تمكن من تجنيد ما لا يقل عن 1200

فارس وتقدم الى باب قرية (المدية) وطلب من حراسها ان يفتحوا له الحصن فامتنعوا ودارت بينهما معارك ثلاث أو أربع وبعد مضى اسبوعين تمكن من فرض ارادته على السكان ففتحوا له الابواب واتفق معهم على ان يؤيدوه بالمؤن ليهجم على الفرنسيين ٠

وقبل ان يقوم بهجوم على الفرنسيين طلب من الامير ان ينضم اليه ليجاهدوا معا غير ان الامير أجابه بانه اتفق مع الفرنسيين وان دينه يأمره بأن ينفذ الاتفاق وانه يمنع المنع البات الحاج موسى من ان يمر على أراضيه ٠

وبعد مضى ثلاثة أيام ظهر للحاج موسى ان يهاجم الامير وكانت النتيجة ان قتل 60 جنديا من رجاله وأسر 95 كما أسرت 260 امرأة وولدا كما فر تاركا وراءه للامير حيوانات كثيرة ٠

ثم بعد هذا الانتصار الباهر دخل الامير بلدة المدية وصلى فى مسجدها الكبير وقضى على جميع الذين أيدوا الحاج موسى وخاصة الكراغلة ٠

وكان الامير يعلم ان هذا الانتصار الباهر لابد ان يعقبه رد فعل من قادة فرنسا الذين ساءت احوالهم واصبحوا لا يخرجون من هزيمة الا ليغرقوا الى الاذنين فى هزيمة أخرى ٠

وبما ان وضع حكومة فرنسا قد أصبح وضعا لا تحسد عليه وضاقت بها الارض بما رحبت ففكرت فى ايجاد خلافات بين الامير ومواطنيه ٠

واستخدم قواد فرنسا من أجل الحصول على هدفهم هذا جميع الوسائل فنجحوا وتمكنوا من ان يستميلوا بعض الاشرار ٠

ولكن ما قامت به القيادة العسكرية الفرنسية من اثارة الجزائريين على الامير لم يجدها نفعا فقد تغلب الامير على جميع المشكلات وعرف كيف يسوس الامور بحكمة واتزان وان يرد كيد قادة فرنسا الى نحورهم حتى ان عددا لا يستهان به من الجيوش الفرنسية قد شقوا عصا الطاعة على رؤسائهم العسكريين فبعضهم لجا الى معسكر الامير طالبا الحماية وبعضهم الآخر ذهب الى الاراضى المراكشية ٠

وكانت معالجتها لهذا الانشقاق فى صفوفها ان خطبت ود بن اسماعيل والقبائل التى فى قبضته ٠

معاهدة ابن اسماعيل وتريزيل

وقعت بين جنرال تريزيل والرئيس ابن اسماعيل معاهدة اهم بنودها :

اولا : ان تكون تلك القبائل فى جانب فرنسا وتحت حمايتها ٠

ثانيا : تخضع هذه القبائل لمن يولى منهم بالموافقة مع القائد لايالة وهران ٠

ثالثا : تدفع هذه القبائل ما كانت تدفعه قبل اليوم للحكومة الجزائرية أيام العهد العثمانى أو ما كانت تدفعه للامير عبد القادر ٠

رابعا : لا يسوغ لهذه القبائل ان تأتى امرا الا بعد الحصول على الاذن من حاكم وهـــران ٠

ولما تبين للامير ان ابن اسماعيل قد تنكر لوطنه وللديانة التى ورثها عن آبـائه جيلا بعد جيل قام فى الناس خطيبا وكان من ضمن ما قال :

« الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه ٠ اما بعد : فاعلموا ان الله تعالى قلدنى هذا الامر للمدافعة والدفاع عن الدين والوطن وقــد بلغكم خبر هذا الرجل ابن اسماعيل المتنصر فان تركته وشانه فانى أخاف عــلى الوطن ان تفتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا اصلاحه » ٠

فوافق الحاضرون الامير وكرروا له انهم يؤيدونه ٠

وبعد ما وقع الجنرال تريزيل المعاهدة واخبر بها الحاكم العام الجأت الضرورة هذا الحاكم العام ان يخفى ما قام به نائبه بوهران وان يكتب الى الامير رسالة على يد وفـد من قواد فرنسيين للاطاحة بالاتفاق السرى واتفاق تافنا وان يشفعها بهذه الشروط :

اولا : يعترف الامير بملك فرنسا على افريقية وسيادة فرنسا على جميع القطـر الجزائرى ٠

ثانيا : تكون سلطة الامير محصورة فى ايالة وهران المحدودة بنهر الشلف ونهر سيــق ٠

ثالثا : يعطى جميع الفرنسيين الرخصة العامة للسفر فى جميع القطر الجزائرى ٠

رابعا : التجارة تكون حرة وليست مقيدة بقيد أو شرط ٠

خامسا : ان السلع لا ترسل الا من الموانىء التى تسيطر عليها فرنسا .

سادسا : يدفع الامير ضريبة سنوية مع وضع الرهائن على ذلك .

ويبدو واضحا ما ينم عن هذا الاتجاه من سوء النوايا :

ومع ذلك قوبل وفد الحاكم العام بحفاوة لم يسبق لها نظير وكان أعضاء الوفد يظنون ان الامير سيستسلم لاوامرهم وان التوقيع على الشروط التى اقترحها حاكم الجزائر الفرنسى سيتم .

وبعد مكثهم اياما فى ضيافة الامير رجعوا وبأيديهم الرد عما اشترط الحاكم .

1 ـ يشترط ناصر الدين أمير الجزائر ان تبقى جميع الايالة الخاضعة له تحت سلطته كما ان المدن التى استولى عليها الفرنسيون تبقى على حالها تحت أيديهم .

2 ـ ان التجارة تكون حرة للجميع .

3 ـ ان الامير له الحرية التامة فى شراء آلات الحرب وادواتها .

4 ـ ان كلا من الفريقين ملزم برد الفارين للفريق الآخر .

5 ـ ان الامير مراعاة لنصوص معاهدة دى ميشيل وبيجو ان ظهر له ان ينتقل الى البقاع التى ليست تحت سيطرته يخبر بذلك الحاكم العام الفرنسى وكذلك الجانب الفرنسى يفعل مثله .

وبعد ما اطلع الحاكم العام على التقرير الذى قدمه له الوفد والشروط القاسية التى بعث بها اليه الامير تبين له ان معاهدته مع ابن اسماعيل لن تزيد فرنسا الا العناء وأصبح خائفا من انتقام الامير كما ان الامير أخذ للامر عدته مخافة ان يؤخذ على غرة وكان تريزيل قد هيأ نفسه لذلك ولادنى سبب تحفز الجيشان والتقيا بالقرب من بلدة سيق وتناوشا يومين .

حزم الامير وسياسة فرق تسد

خاب العدو سواء كان مدافعا أو مهاجما ففكر فى سلاح آخر وهو ايجاد الخلافات بين القبائل المجاورة للامير بحيث تتقاتل ولا تنضم له ، ولكن الامير ، لم تفته هذه الحيلة فجمع رؤساء القبائل وأعلمهم انه ليس شىء ادل على سفالة الافراد والجماعات ولا اشهد على لؤم غرائزهم وخسة طباعهم من ان يتقاتلوا فى الوقت الذى يحيط بهم العدو من

كل صوب وجانب وانه من الاليق لهم ان يثبتوا لفرنسا ان سلاح التفرقة اكل الدهر عليه وشرب وان سوء مصير الذين انضموا لفرنسا يجب ان يأخذوا منذ درسا قاسيا ·

ان السياسية التى اتخذتها فرنسا مع الامير لم تنجح واصبحت عاجزة كل العجز عن الثبات امامه فى المعارك واخيرا رأت ان اقوى سلاح يمكنها ان تستعمله هو سلاح التفرقة والدس والمؤامرات ·

وقد عملت فرنسا جاهدة على ايجاد خلافات بين الامير ومواطنيه ، ولم تجد من المواطنين الجزائريين الا عددا قليلا رضوا بان يخالفوا الامير ومن ضمنهم التيجانى ·

وقد حاول الامير بكل الطرق وشتى الوسائل ان يستميله ولكنه ابى فبعث الامير بجنود كثيرة فحاصرت الحصن الذى كان به وظل الحصن محاصرا بضعة اشهر حتى غلب على أمره ·

وخرج ملوما مدحورا جزاء وفاقا على مساندته لقيادة فرنسا ·

وكانت هزيمة التيجانى بمثابة درس للقبائل المجاورة ·

هذا وان خليفة الامير الحاج مصطفى ابن التهامى لما انتصر على التيجانى من دون اراقة الدماء أوجب عليه حبه لوطنه ان يسلك الطريقة نفسها لجميع القبائل المجاورة لحصن التيجانى وفاتح الامير فى ذلك فوافقه وارسل له الرسالة التالية ليذهب وفد من رجاله الى القبائل التى اصبحت تعترف تماما بامارة الامير وهذا نص الرسالة :

« الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبى بعده ـ وبعد ـ فان الله منذ ولانا أمر المسلمين والنظر فى مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى فى تاليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقوله عز وجل : « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » وقد توجهنا هذه المرة الى بلاد الاغواط لجمع كلمتهم واصلاح فسادهم ، فاظهر عامة اهلها غاية الطاعة والانقياد الا التيجانى ومن انتمى اليه فانهم تجاهروا بالشقاق وتظاهروا بالابتعاد عن الوفاق فامرناهم بالرجوع الى الحق وحذرناهم عاقبة شق عصا الطاعة لامراء المسلمين غير مرة وناشدناهم الله صون دمائهم واعراضهم، فلم يرجعوا عن غيهم ، بل صمموا على قتالنا واستعدوا لمحاربتنا، فخفنا ان اغفلنا أمرهم تسرب هذا الفساد الى غيرهم ، فيفوت المقصود الذى هو جمع الامة على كلمة واحدة وطريقة متحدة فاخذنا فى حصار حصنهم والتضييق عليهم ، ولما اشرفوا على الردى طلبوا منا الامان مع انهم خدعونا مرات عدة ، فمنحناهم الصفح صونا لدمائهم وحفظا

لاعراضهم لقومه تعالى : **فاعفوا واصفحوا** وامناهم على ان يخرجوا من الحصن ويتوجهوا حيث شاءوا فخرجوا كلهم منه الا المستضعفين منهم .

وقد ذهب التيجانى وحريمه وأولاده الى الاغواط الغربية ، وبعث ابنه الكبير رهنا عندنا ، فالحمد لله الذى ايدنا بنصره على من عصى أمره وناواه فانه لا رب غيره ولا معبود سـواه » .

وقد ذهب الوفد الذى ائتمنه خليفة الامير ليكون رسوله عند القبائل التى كانت تخضع لقوة التيجانى .

ولما وصل الوفد الى أراضيهم تابله أهلها احسن مقابلة واظهروا الطاعة واعترفوا بانهم مقصرون وان من الواجب عليهم ان ينضموا للامير اقتداء بجميع الجزائريين من أول وهلة ولكن السبب فى عدم القيام بهذا الواجب المقدس هو ما كان يدعيه التيجانى من الاباطيل والآن حصحص الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

وبعد الانصات لهذه الرسالة اعترفت القبائل للامير بالامارة .

خروج الامير الى الجهة الشرقية وهزيمة محمد البغدادى

ولما فرغ الامير من عقد المعاهدة مع بيجو واصلح خلل الجهة الغربية من مملكته ، رجع الى الحضرة ثم نهض منها فى ثمانية آلاف فارس وألف من المشاة وقطع من المدافع لتمهيد النواحى الشرقية واشرافه بنفسه على الامور حتى انتهى الى المدية حاضرة ولاية تيطرى فلقيه محمد بن علال فى وادى الشلف فى أربعة آلاف جندى . وكان وصول الامير الى المدية بمثابة انذار لمحمد البغدادى وبما انه لم يقلع عن ذنبه سار اليـه الامير يتقدمه محمد بن علال .

وارسل الامير الى اعيان القبائل الدائنة بطاعة الثائر كتابا يدعوهم فيه الى مراجعة الطاعة ويحذرهم من سوء العاقبة وذكر لهم فيه ان جل الناس بايعه وان خروجهم يحل سفك دمائهم .

ولكن هذا لم يزدهم الا اعتداء وعتوا . ومع ذلك اقام الامير اياما ينتظر أوبتهم فلما يئس منهم وبلغه انهم تجمعوا لقتاله سار اليهم فى جيوشه والتقى الجمعان واشتـد القتال ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع اشتبك جيش الامير مع رجال البغدادى فاثخن فيهم القتل والاسر .

والتجاءت القبيلة المعروفة ببنى عنتر الى موضع تكثر فيه الصخور وتحصنوا فيها ولكن الجند نالوهم كما نالوا كل من هرب منهم أو حاول الفرار .

واما قبيلة بنى عنتر ومن لاذ معهم فقد اشتد عليهم الجوع والعطش حتى عفا عنهم الامير وهدأ من روعهم · ولـــما ذاع خبر هذه الواقعة اذعن الناس وجاءت الوفود طالبة عفو الامير وهو فى بلاد أولاد مختار ، ورجع العصاة كلهم واذعنوا اليه نادمين على خروجهم عليه طالبين منه العفو فعفا ورد اليهم اسراهم وسبيهم واموالهم ·

وقدمت هذه القبائل التى عفى عنها الامير محمد بن عوده ليكون واليا عليهم فأكرم وفادته وكتب له بالولاية على سائر قبائل ناصيته من عرب وبربر وسماه آغا · وقرىء المرسوم امام رؤساء القبائل الذين ترأس عليهم ·

وبهذه السياسة تم الشمل للامير وتحسنت أحوال بلاد الجزائر فى كل الجهـات واستقامت الامور ·

واما محمد البغدادى فانه وقع فى أيدى بعض العصاة فقبضوا عليه واحضروه الى ديوان الامير فعفى عنه بعدما اعتذر وذهب الى المغرب الاقصى ·

ولم يزل الامير يتنقل فى تلك النواحى الى ان قضى على المفاسد واصلح بين قبائل النواحى الجنوبية والجهات الشرقية ورجع الى المدية عاصمة الولاية مرتاح الخاطر قرير العـــين ·

غـــزوة متيجـــة

وبعدما فرغ خلفاء الجهة الشرقية من استعدادهم لتنفيذ أمر الامير بالغزو على متيجة فتقدموا بجنود كثيرة · وكان مســيرهم جميعا فى أول ديسمبر مـــن عـام 1839 · وكانت معسكرات الفرنسيين التى اختطفوها مالئـة لذلك السهـل الممتد شرقا وغربا مسيرة أيام ولما قربوا تلك البسائط شنوا الغارة عليها فاثخنوا فى ساكنيها بالقتل والاسر وسلبوا أموالهم وحطموا مزارعهم واحرقوا سائر مساكنهم واستولوا عـلى كافة ما لديهم من ماشية ومؤن وذخائر ولم ينج من القتل الا القليل · ولم تزل جيوش المسلمين تجدد الغارة يوما فيوما حتى انتهوا الى بساتين الجزائر ، وضاق الفضاء على ما استولوا عليه من صنوف الغنائم فى سهل متيجة · ثم صدر أمر الخلفاء بحـرق سائر الابنية فامست رمادا تذروه الرياح وفر الناس افواجا الى مدينة الجزائر فكان

دخولهم اليها عن الامور المزعجة ، حتى الماريشال فالى فانه انتقل من قصره خارج البلد الى داخلها ، وتبعه من كان معه بعد ان دب الرعب فى سائر القلوب · ورجع الخلفاء بجيوشهم بما جمعوه من الغنائم الى المدية · وكان الامير ينتظرهم فيها وتوجه الخلفاء الى ولاياتهم لسد ثغورهم والقيام بشؤونهم لعلمهم ان العدو لا يتغافل عن هذه الواقعة الهائلة · وقد أرسل الجنرال دى ميشيل يخبر دولته بهذه الغزوة الاسلامية التى اخافت الجيش الفرنسى والجأته الى التحصن باسوار مدينة الجزائر وبدأت هزائم جنرالات فرنسا تطل برأسها ·

مناورة دى ميشيل

ان دى ميشيل الذى كان معروفا عند دولته بانه مـن رجالات الحرب القديرين ، فجاءت به وزارة الدفاع من فرنسا من أجل أن يثأر للجنرال بويا الذى لقى من الهزائم من والد الامير والامير ، لم تساعده الظروف كجميع الجنرالات الذين جاءوا من قبله ، فكان لا يؤمل فى الفوز وتحير بين أن يرضى حكومته وبين الشدة التى يلاقيها من الامير ولم ينل ما كان يصبو اليه الا بعد مناورات عدة ، وفكر جدا فى الوصول الى غرضه وشعر دى ميشيل قائد وهران أن الامـير قد يصبح عنيدا اذا أهمله فعمـد القائـد الفرنسى الجنرال دى ميشيل الى مباغتة الامير والقيام بحركة توسعية فجهز فرقـة وسار بها الى مدينة مستغانم واحتلها وفـكر فى أن يخرج الى أطرافها ويضمها الى منطقة الاحتلال الفرنسى ولكن الامـير عبد القادر لم يهمله حتى يتمكن فى مستغـانم وضواحيها مراسى العرب المناضلين واندفاعهم نحو مراكز العدو وبقلوب ملؤها الايمان والعقيدة بالنصر .

واخيرا رأى الجنرال دى ميشيل أن يأمن من جانب عبد القادر بعقد مهادنة أو صلح معه ورأى أن يبدأه بالمراسلة عله يستطيع أن يستميله الى ناحية أو على الاقل يوقف أعماله العدوانية ضد الفرنسيين وبذلك قام الجنرال الفرنسى دون أن يدرى أول تأييد لسلطة الامير عبد القادر على مواطنيه فى الرتبة والمقام ان لم يكن يفوقه لان من العادة أن يبدأ الضعيف المفاوضة مـع القوى ويطلب صلحـا أو مهادنة وكانت أول رسالة تبودلت بين الامير والجنرال دى ميشيل طلب فيها الجنرال دى ميشيل اطلاق سراح بعض الاسرى الفرنسيين الذى وقعوا فى قبضة جيش الامير وقد جاء فى هذه الرسالة :

« الى سمو الامير عبد القادر انى لا أتاخر عن كونى أخاطب سموكم بشيء تحثنى عليه دواعى الانسانية وان لم تدعنى رجلا عربيا فخرج عليهم كمين من جيوشكم فاخذوهم ولا أظن قوة شهامتكم ترضى هذا وتضع أمام طلبى شروطا لاننى كنت من قبل أخذت بعض اسرى من عرب العزابة والزمالة فى ميدان الحرب وأطلقتهم من غير شروط وبناء عليه آمل أن سمو الامير اذا كان يرغب فى أن ياخذ من التقدير قدرا عظيما الا يطيل المراجعات وأن ينعم باطلاق الاسرى » ٠

وبطبيعة الحال لو كان القائد من أمة أخرى غير الامة الفرنسية ، لاكتفى من هذه الصفعةغير أن دى ميشيل اعتبر ذلك أمرا عاديا والجأته الضرورة الى أن يتطفل فيكتب الى الامير ما يلى :

من الجنرال دى ميشيل الى الامير عبد القادر بن محيى الدين لى أمل بان تطلق الحرية للاربعة الاسرى التعيسى الحظ والمحبوسين فى قلعة معسكر وما كنت أتردد عن السعى لديكم فيما تمنعنى وظيفتى الرسمية عنه حيث تدفعنى الانسانية اليه ولعلمى أن البشر الراقيين الى الدرجات العليا عليهم أن يمتازوا بأعمال كريمة دالة على التفاوت الذى وضعه الله بينهم فارجو الافساح عن الفرنسيين الذى وقعوا فى شر مكيدة وهم فى الدفاع عن بعض العرب لتخليصهم من انتقام بناء جنسهم ولا أظن انكم تضعون فى طريق ذلك بعض العقبات لانكم اذا رغبتم أن تعدوا من كبار أهل الارض لا تتاخروا عن اظهار كرم اخلاقكم ، واذا دواعى الحرب أوقعت بين يدى بعض اتباعكم فانا أعدكم بارجاعهم دون عوض ، وتبين للجنرال أن الامير عبد القادر غير مستعد للتفاوض معه بل عد سكوته اهانة له فركب راسه وبعث بكتاب ثالث يختلف عن الكتابين الاولين وهذا نصه :

الى الامير عبد القادر بن محيى الدين ،

بما أننى ما أخذت جواب كتابى الذى أرسلته اليكم منذ شهر فاحب الى القول بأنه لم يصلكم من انكم لم تلتفتوا الى قبول طلبى وعليه جئت لثالث مرة أكرر طلب فك الاسرى الفرنسيين الموجود عندكم لانهم لم يؤخذوا فى ساحة الحرب بل سقطوا فى أقبح خدعة وفى أقبح مكيدة وعلى أن اذكركم أن فرنسا هى اقوى دولة فى الدنيا فليس من الحكمة أن تدوموا على خطة المقاومة فاذا كان اليوم فى امكانى أن أنتصر عليكم قبل وصول النجدات التى أنتظرها فما تكون حالتكم اذا فرغ صبر فرنسا نحو العرب

وأرسلت ما تهياه لى فعندما تهجم عليكم عساكرنا فتبعثركم كما يبعثر الهوى الرمال فاذا رغبتم أن تبقوا فى مركزكم السامى فما عليكم الا الاجابة عن دعوتى حتى أجرينا المعاهدة تبادر القبائل الى زرع حقولها الخصبة قائمة بما الشعب العظيم فى حاجة اليه »

وفى هذه المرة رأى الامير أن من اللياقة أن يجيبه عن هذا الكتاب الثالث حتى يزيل من فكرة الايهام وحتى يذكره بما كان للجزائريين من أمجاد وما لهم من انتصارات فى معارك كثيرة حتى مع الفرنسيين أنفسهم فكتب له قائلا :

« من الامير عبد القادر بن محيى الدين الى الجنرال دى ميشيل » .

أما بعد ، فقد وصلنا كتابكم المتضمن أفضل النصائح فقدرنا قدرها وعلمنا أنكم تحثونا فى كتبكم الثلاثة على الافساح عن الاسرى وتندبون حظكم مع أننا نعتنى بشأنهم غاية الاعتناء والافساح عنهم ليس لهم عندنا أهمية غير أن الحالة التى نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم دون فدية فاذا رغبتم فى الاتفاق قبل تسليم الاسرى اليكم عند المعاهدة بيننا لان ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله اذا عرض علينا وأن الثقة التى منحتمونا اياها فى تحاريركم حملتنا على أن نبادلكم المخابرة وأن المفاوضة التى تطلبونها يقتضى أن تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتونى شروطكم وما تطلبونه منى وأنا أعرفكم بمثلها والله المعين وكيف تفاخرونى بقوة فرنسا ولا تقدرون القوة الاسلامية مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على قوة الاسلام وانتصاراتهم على أعدائهم ونحن وان كنا ضعفاء على زعمكم فقوتنا بالله الذى لا اله الا هو ولا شريك له ولا ندعى بأن الظفر مكتوب لنا دائما بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا غير أن الموت مسر لنا وليس لنا ثقة الا بالله وحده لا شريك له لا بعد وعدة وأن دوى الرصاص وصهيل الخيل فى الحرب لالذ لنا من الصوت الرخيم فاذا صممتم على عقد صلات ودية دائما بيننا وبينكم فأفيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا مأذونين بالمفاوضة معكم وحينئذ تتم أمانيكم بمعونة الله ولا تظنوا باننا نأسف اذا اضطررنا الى ترك البلاد لاننا نعلم يقينا أن الارض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده وان سلمنا وراثتها فحيث ما كنا نجد أمتنا وقد ظهر لنا من مضمون كتبكم انكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال ومسابقتهم للنزال فى كل مكان وزمان ، واذا فتحتم التواريخ تروا ما أجروه فى آسيا وجهات الشام من الجرأة والثبات والاقدام والفتوحات التى أظهرها الله على أيديهم » . وبالرغم من

هذا كله فلن يتــرك دى ميشيل الفرصة تمر دون أن يتجاسر فيكاتب الامـير للمـرة الرابعة ليشعر الامير بانه لا يريد الا شيئا واحدا وهو خلق جو من التفاهم بين قادة فرنسا والامير عبد القادر فرأى الامير أن من الضرورى مكاتبته فبعث له برســـالة فحـــواها :

بعد التحية ، وصلنى كتابك الذى أظهرت فيه رغبتك فى الحصول على اطلاق الاسرى الذين أوقعتهم الاقدار الربانية بين يديكم وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك ومـا اشتملت عليه من تكرار الطلب ومن المعلوم عندكم أن جميع الاسرى الذين أوقعوا فى أيدى عساكركم فى ميادين الحرب لم أتعرض لكم ولا لمن قبلكم فى اطلاقهم ولا أتعب أفكاركم بمراسلة قط لان حكمهم عندى حكم الاموات وموتهم اعتبره حياة لهم غير أنى كنت أتالم عليهم شفقة ورحمة وقولكم أن هؤلاء الاسرى الذين تطلبون اطلاق سراحهم ما كان خروجهم لامر يتعلق بكم بل كانوا يحمون عربيا من انتقام أبناء وطنه فهـذا لا أعتبره وسيلة لاطلاقهم فان المحافظ ، والمحافظ عليه كلاهما أعـــداء لنا وانتهاز الفرصة فى الانتقام منهم غاية مقصودة وسائر العـــرب الذين عندكم أوغاد وأرذال يجهلون واجباتهم الدينية هذا وانى رأيتك تفتخر بأنك اطلقت الاسرى من الغرابة والزمالة من غير شروط مع أنك لو راجعت أفكارك لوجدت أن رحمتك انمـا كانت لاناس استظلوا بظلكم واحتموا بحماكم وكانوا عيونا لكم على المسلمين ويخدمونكم بكامل الصدق ومع ذلك فان عساكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه فلو كان هذا المعروف الذى تحججتم به مع غير هؤلاء كالحشم وبنى عامر مثلا لكان يحق لكم الافتخار وكنتم تستحقون الشكر وعلى كل حال فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم أو يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر منا . وبالحق فلقد كان الامير فى جوابه فند أقاويل القائـد الفرنسى لغة الابطال وأشار اليه بطرف خفى الى مراجعة كتب التاريخ ليعلم أن التاريخ لم يذكر قط أن العرب أساءوا للاسرى أو عاملوهم بعنف وشدة بل بالعكس فـــان الفرنسيين كانوا يتمنون أن يكونوا أسرى العرب وهذا ما دعا عددا كبيرا من الجنود لان يسلموا عتادهم للجيوش العربية ، لعلمهم بأنهم سيكونون معززين مكرمين وذلك لان العادات العربية تعد الاسير ضيفا وفى الوقت نفسه تحدى الامير القائد الفرنسى حيث أنه طلب منه أن يخرج للمبارزة ان كان يظن ان له الشجاعة على ذلك . وقد قال المؤرخ الانجليزى تشرشيل لو كان هذا الجواب الكبريائى فى غير تلك الايام لاهاج فى صدر الجنرال الفرنسى نيران الحماسة وحرك منه سواكن الاحن وربما صاح بأعلى صـوته

وقال أين العربى المبارز والبطل المناجز ولكن الوقت لم يساعده ، غير أنه لاذ بالصبر على هذه الخيبة وهذه الهزيمة النكراء ولم ير الا طريقة واحدة للخلاص من هذا المأزق وهى أن يعتدى على قبائل الدوائر والزمالة التى سبق لها أن اتفقت مع الفرنسيين على أساس أن يكون معهم الا أن هذه القبائل لما رأت أن الامير أصبح قويا شقت عصا الطاعة على الفرنسيين وانحازت للامير وكانت تنتظر انتقام الفرنسيين وقد اختار دى ميشيل الانتقام منهم حينما خيب الامير رجاءه ولم يكترث بالخطابات التى كان يرسلها اليه الواحدة بعد الاخرى ، فقتل منهم الكثير وسلب أموالهم وبمجرد ما اطلع الامير على خيانة القائد الفرنسى دى ميشيل واعتدائه على المواطنين الذين انضموا لصفه هاجم الجيوش الفرنسية التى كانت فى طريقها الى وهران مع الاسرى وأخذ الحيوانات واستولى على الاموال وارغمهم رد جميع ما اخذوه من قبيلتى الدوائر والزمالة بعد ان قتل عددا لا يستهان به وارغمهم على أن يتركوا أمواتهم وجرحاهم بساحة القتال أما الاسرى فقد سيقوا كما تساق الاغنام الى قيادة الجيش الجزائرى كما تحمل الجيش الجزائرى أن ياخذ معه الفرنسيين لمعالجتهم حتى يدرك الفرنسيون أن الجزائر عربية ومن عاداتهم الشفقة والرحمة بالعجزة والصبيان والجرحى ولو كانوا أعداءهم .

ولقد كانت هذه المعركة خاتمة للمحادثة التى كانت بين الامير والجنرال دى ميشيل وظن الامير أن الفرنسيين سيطلبون النجدة للثأر لقتلاهم غير أن الاحداث جاءت مفندة لهذا الظن حيث أن الجنرال دى ميشيل التمس هذه المعركة التى منى بها بالفشل ذريعة ليكاتب الامير من جديد ، ولكنه لم يتلق جوابا فعيل صبره وكتب رسالة أخرى استعمل فيها أنواع التهديد والوعيد عله يؤثر على أعصاب الامير فيخشى العاقبة ويذعن لمشيئة الفرنسيين ولكن الامير كان أذكى من الجنرال فاغتنم الوقت فرصة ليبرم مع الفرنسيين معاهدة صداقة وتحالف ترفع مركزه الى الاوج وتهيء له الفرصة المناسبة لتسليح جنده ، وتدريبهم واعدادهم للمعارك المقبلة يتفرغ فيها للنظر فى شؤون منطقة نفوذه الداخلية فينظم أمورها ويعدها اعدادا عاما لتحمل القتال الذى لا مندوحة عنه ان عاجلا أو آجلا ، وبرهنت رسالة الامير عبد القادر الى الجنرال دى ميشيل الثالثة على أن الامير عبد القادر لم يكن جنديا محاربا فحسب بل سياسيا ماهرا يتقن أساليب المفاوضة ويعرف كيف يظهر أمام خصمه مظهر القوى الذى يفرض ارادته مع استعداده للصلح ان جنح عدوه للصلح ولم يكن دى ميشيل ينتظر مثل هذا الجواب فاهمل قضية المعاهدة والهدنة او الصلح ولكنه لم يلبث ان اضطر بعد عدة معارك

ثانوية جرت بين جنده والعرب التابعين للامير أن يعود الى المراسلة ويطلب البدء بمحادثات الصلح بصورة جدية ، فأوفد الى الامير أحد الجزائريين اليهود الذين انخرطوا في خدمة فرنسا منذ دخولها أرض الجزائر ، ويدعى مرخاء وحمله الرسالة الآتية :

« الى سمو الامير عبد القادر »

حيث لا تجدني أيها الامير غافلا أبدا عن كل فعل حسن ، فاذا كان سموكم يريد أن نتخابر في أمر المعاهدة فانا مستعد لذلك مع الامل بانه يمكن الحصول على معاهدة موفقة يتوقف بها سفك دماء أمتين اقتضت الارادة الالهية الا تكون تحت سلطة واحدة . وجرت على اثرها المفاوضات بأن أرسل الامير وزير خارجيته وأخذ أعوان دولته الى مدينة وهران حيث يقيم الحاكم الفرنسي دي ميشيل ، وبدأت مقدمة المفاوضات مع دي ميشيل ومندوبي الامير واتفق الجميع على أن متابعة المفاوضات أمر ضروري وسلم دي ميشيل قائمة بالشروط التي يمكن أن تكون أساسا للمفاوضة فتسلمها منه مندوبا الامير بعدما ذكرا له أن الشروط فيها نوع من التعسف ولا شك أن الامير بعد أن ينظر فيها سيدخل فيها تعديلات ، وتركا معسكر الجنرال وتوجها راسا الى مقر الامارة ، وبعد أن سمع الامير التقرير الشفوي الذي أدلى بـه المندوبان واطلع على المذكرة الفرنسية رأى من اللائق أن يستدعي مجلس ديوانه ليكون على بينة من القضية ويتخذ اجراء جماعيا وبعد أخذ ورد اتفق مجلس ديوان الامير على أن يذهب المندوبان المذكوران ومعهما صورة من الشروط فان قبلها العدو فتعقد معه معاهدة ، وان رفضها فالشعب الجزائري مستعد لان يواصل القتال حتى النهاية وبمجرد ما اطلع دي ميشيل على الشروط جمع قواده الفرنسيين واخبرهم بهذه الشروط ، وذكر لقواده ان الشروط معقولة وان لا مانع من قبولها وبخاصة ان الوضع في فرنسا أصبح شائكا وان الخلافات تزداد يوما بعد يوم ، وان أردنا متابعة القتال فلربما نضطر لان نكتفي بما لدينا من عدد وعتاد ولهذا قبل ان أوافق على الشروط أرجوكم أن تدرسوها حتى لا يقال عنا اننا تسامحنا في حقوقنا .

وبعد خمسة أيام وهي المدة الكافية لدراسة الشروط استدعى دي ميشيل أعضاء القيادة من جديد وتباحثوا وقرروا أن لا سبيل لعدم الموافقة عليها من طرف القائد العام وسلمها لمندوبي الامير اللذين سلماه المذكرة الفرنسية الممضاة من الامير ففرح دي ميشيل بذلك واقترح أن يكون صك المعاهدة صكا واحدا تحرر فيه شروط الامير

باللغة العربية وشروط الفرنسيين باللغة الفرنسية وكل من الامير والقائد الفرنسى يوقعان على الشرطين فوافق المندوبان على ذلك وحررت الوثيقة فى مكتب دى ميشيل فوقعها وسلمها للمندوبين لعرضها على الامير ليوقعها بدوره ، فتسلماها منه ورجعا الى الامير فوقعها كذلك واحتفظ منها بنسخة وسلم للمندوبين النسخة الخاصة للجنرال دى ميشيل هذا نصها :

أولا : منذ يوم تحرير هذا الصك يتقرر ترك الحروب والخصومات بين الفرنسيين والعرب • وكل من الجنرال دى ميشيل والامير عبد القادر يجتهد فى القاء الالفة بين شعبين اقتضت الارادة الالهية أن لا يكونا تحت سلطة واحدة ، ولاجل ذلك يتعين وكلاء من الامير عبد القادر فى وهران ومستغانم وأرزيو كى لا تقع الخصومة بـــين الفرنسيين والعرب كما أنه يقام وكيل عن فرنسا فى معسكر •

ثانيا : تقرير احترام ديانة الاسلام وعوائدهم •

ثالثا : يلزم رد الاسرى من الفريقين •

رابعا : تقرير اعطاء الحرية الكاملة للتجارة •

خامسا : يلتزم العرب بارجاع كل من يفر اليهم من الفرنسيين ويلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر اليهم من الهاربين من القبـائل وأهل الجرائم الى وكلاء الامير فى المـدن الثـلاثة •

سادسا : من أراد السفر من الاوروبيين الى داخلية البلاد يجب أن يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الامير ويصححها الجنرال وبذلك يحصل على الامان فى جميع الاقليم ، ولما عرض الصك الجديد على الجنرال دى ميشيل سر لذلك وقال : « انى كنت متحققا من أن الامير لن يخيب أملى والآن أعترف أنه النبل عينه والشهامة نفسها وأنه من القادة المقتدرين الذين لا يقدمون على ما يخدش كرامتهم وأنه دون شك سيعمل قصارى جهده على تنفيذ ما جاء فى هذه المعاهدة التى ستثمر كل الخـير للجنسين الفرنسى والعربى وقابل مندوبى الامير بالاحترام والاحتفال وكان قواد الجيش الفرنسى جالسين على حسب مراتبهم والعسكر مصطفة حولهم يسمعون ما تقرر فى الصك وبعد تلاوة وقعه الجنرال بخطه » •

ويلاحظ أن الجنرال دى ميشيل قد رأى من مصلحة فرنسا أن يفاوض الامير وقد فرح وأصبح يظهر المودة والصداقة للعرب وطلب من الامير أن يبعث له بمندوبه علـه

يتفق معه على ايجاد طريقة أمثل للصلح فوافق الامير وبعث له وزير خارجيته وتجاذب أطراف الحديث مندوب الامير ومن بين ما تحدث بــه الجنرال ما يلي : « ان العـــرب لا يجهلون قوة فرنسا واستعدادها للحرب ... » فاجابه مندوب الامير : « ان العرب لا ينكرون قوة فرنسا واقتدارها » ويلاحظ ان المندوب كان ذكيا وقد أظهر للجنرال ان من اللياقة الدبلوماسية الا يغلو فى كلامه ثم استطرد الجنرال دى ميشيل قائلا : « لقد كنت عازما قبل عقد المعاهدة على أن أطلب من دولتى عشرة آلاف جندى زيادة على ما عندى واخرج من مدينة وهران لاحاربكم مدة شهر وأدخل على اميركم الوهن والضعف » فأجابه مندوب الامير : « اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ولكن محاربة هجوم واقدام وان خرجت كتائبكم وقواكم نتقهقر أمامها متوغلين فى الصحارى باهلنا وأثقالنا ولا نترك مجالا للقتال حتى ترجعوا ثم نبقى على هذه الحـــال حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم » ، ويلاحظ كذلك ان الحكومة الفرنسية عدت هذه المعاهدة من الامور التى تقرها الحكمة أما الشعب الفرنسى فقد عـدها خطأ لانه بموجبها اضطرت فرنسا ان تسلم للمرة الثانية بلادا كان يرفرف فوقها العلم الفرنسى . أما الامير فكانت المعاهدة عنده كحجر زاوية لارساء البناء الذى شيده بحكمة وسداد بالرغم من المنازعات التى كانت تحيط به والقلاقل والفتن التى كان يتغلب عليها .

سوءنية دي ميشيل

وبمجرد أن تمت المعاهدة اهتم الامير كثيرا بالادارة وقرر باتفاق مع دى ميشيل أن يكون لكل منهما سفير ينوب عنه ويقوم بما يتطلبه الامر حتى يكون همزة وصل بين الامير ودى ميشيل ٠

ولقد جاءت مسالة تنصيب السفراء فى الوقت الذى أدركت فرنسا فيه ان دى ميشيل لم يكن الرجل القوى فيعقد مع الامير معاهدة تراعى فيها قبل كل شىء مصالح فرنسا لتثبيت أقدامها فى الجزائر التى قررت أن تكون لها الى أبد الآبدين ٠

على أن فرنسا التى جاءت بدى ميشيل قد جهلت أن الامير ليس بالرجل السهل الذى يمكن أن يطاح به بسهولة وقد بين الامير لدى ميشيل والذين جاءوا قبله ، وسيبين للذين ياتون بعده أن الجزائرى لن يترك القتال من أجل تحرير بلاده ، ولو دام القتال العام وعشرات الاعوام بل المئات ، لانه تغذى بلبان الحرية منذ القدم وأن من مميزات هذا الشعب أن يقدم لنزعامة من هو جدير بها وكفء لها ، وان اسناد القيادة للامير عبد القادر لم يكن عن تحيز ، وانما جاء هذا التعيين بعد اطلاع تام على مقدرة الامير عبد القادر ٠

وكان الامير يوصف فى الجزائر باسم « صلاح الدين » ، ويجرنا الحديث الى الموازنة بينه وبين صلاح الدين الايوبى ، فانه لا يرد ذكر أحدهما الا اقترن فى الخاطر بذكر ثانيهما ومن الانصاف أن نعرف لكل فضله ، فاذا كانت شهرة صلاح الدين قد ملأت الخافقين ، فان الامير كان الاستاذ والقائد ، والممهد والمخطط ، لان القدر أراد له أن يواجه الفرنسيين وجها لوجه ، فباع نفسه فى سبيل الله ، وانصرف بكلياته

وجزئياته ، الى تطهير بلاد المسلمين من رجس الصليبيين ، حتى حقق الله له أمنيته فاقام للاسلام دولة قوية منيعة الجانب ، موحدة الكلمة ، تحت قيادة زعيم عظيم ، وفارس لا يشق له غبار ، وقائد عبقرى ، شهد له العالم أجمع ، ذلكم هو الامير عبد القادر بن محيى الدين ٠

ان الشيء الذى عرف عن الامير هو استقامته التى أصبحت مضرب الامثال ٠

ومما لا ينقضى منه العجب ، أن استقامة الامير ، وفروسيته الاسلامية ، أخلجت فلول الفرنسيين ، وأخافتهم منه ، وجعلتهم يدركون أن تحقيق مآربهم بالغـــدر او بالحيلة أو الخيانة دونه المستحيلات ، فاضطروا الى التراجع ، وأرغموا على عقـــد معاهدات مع الامير ، واعترفوا بانهم ازاء ملك عادل ، ومسلم مؤمن ، وفارس كريم ، وقائد شديد المـراس ، جليل المـروءة ٠

بل ان كثيرا من الكتاب الفرنسيين قرروا فى ثنايا كلامهم عند وصف معاركـه « اضطر أحد القواد الفرنسيين أن يحارب ، وهو واقف على قدميه ، لان حصانه صرع فى المعركة ، فلما شاهده الامير ارسل اليه جوادين من أكرم خيله ووجه اليه حديثه قائلا : ان من قلة المـروءة أن فارسا مثـلى يحارب راجـلا مثلك » ٠

وليس أدل على كرم النفس أكثر مما صنعه الامير مع هؤلاء الفرنسيين ، وليس أدل على خسة الطبع ، أكثر مما صنعه الفرنسيون مع الامير ، ويكفى فى التدليـل على صدق المقابلة ، ان الفرنسيين قد ذبحوا أسرى المسلمين الذين وقعوا تحت أيديهم ونقضوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم فى وثيقة المعاهدة التى وقعها دى ميشيل بخطه وورد فى نصوصها ما يحرم الخيانة والغـدر ، وحق الاسرى فى الحيـاة ٠

ولقد أشار الكتاب المنصفون الغربيون الى هذه المأساة وأفاضوا فيها كثيرا ، مسجلين العار على المتعصبين من أبناء ملتهم ، وشهادة هؤلاء ليست موضوع طـعن ، أو مظنـــة شك ٠

ولسنا نذكر من مؤرخى العرب ، فى موضوع الاسرى ، أكثر من الاستشهاد بقول المقريزى فى خططه ، عن سلوك المسلمين ازاء أسرى اعدائهم فقد قال :

« اذا انتهت المعركة الحربية ، ووضعت الحرب أوزارها ، أحصيت الغنائم والاسرى وكان كل أمير يستولى على غنائمه عدا الاسلحة فانها كلها كانت تـؤول الى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن ياخذوا شيئا منها الا باذنه ٠ أما الاسرى فكانوا من

نصيب السلطان الذى كان ياخذ منهم ما شاء لنفسه ، ويامر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الامراء ، أما الرجال فقد كان السلطان لا يتصرف فى امرهم الا بعـــد صرفة أقدارهم ومراتبهم ومكانتهم بين ذويهم ، فمن كان منهم ذا مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأخلى سبيله ، أما من كان منهم من العامة ، ولا ينتظر منه فدية ، فكان يرسل الى أمكنة خاصة بالاسرى .

هذه الخصال التى اشتهر بها العرب ، كان الامير يجعلها دائما نصب عينيه ليسير على هداها ، وان كان قد خاف دى ميشيل من معاملة الامير للاسرى فقرر أن يعين سفيرا له لدى الامير من ذوى الخبرة الذين يمتون للعرب بصلة حتى يتمكن من الحصول على أشياء أربعة ، وبذلك يخفف على دى ميشيل وطاة الاتفاقية التى أصبحت تنظر اليها حكومته نظرة مزرية ، وهذا السفير هو عبد الله ميسون .

والامور الاربعة التى أراد دى ميشيل أن يحققها بواسطة سفيره الجديد هى :

أولا : أن يكثر اتصالاته مع ديوان الامير والوزراء واصحاب الامر والنهى فى ايالة وهران ليأخذ منهم ما يمكن أن يحصل عليه من أسرار ويغدق عليهم من الامـــوال ما يريدونه حتى يميل هؤلاء للقيادة الفرنسية ، ولربما يناصرونها ان فكر الامير فى نقض المعاهدة .

ثانيا : ان تعيين هذا السفير الذى هو من أصل عربى يمكنه دون مشقة وتعب ، ان يندمج فى الشعب ، وان يظهر فرنسا بمظهر القـوة حتى يدخل الـرعب عليـها فلا تتجاوب مع الامير ، ولربما ستتمرد عليه وتخذله فى الوقت الذى يكون الامير فى حاجة ماسة الى قوة الشعب بكاملها .

ثالثا : كان يهدف دى ميشيل من سفيره الجديد ان يهيأ الطريق لبعث وفود اخرى من فرنسا ولا يمكنه أن يقاتل فى الداخل والخارج .

رابعا : أن يكلف هذا السفير فئات من المتعلمين للاتيان له بكل حركات وسكنات الامير حتى يتمكن من احاطة القيادة العامة بمعلومات صحيحة تعتمد عليها فى المستقبل .

على أن تفكير دى ميشيل كان القصد منه أن يسترد نفوذه لدى حكومته معتمدا على سفيره المذكور ، وكان يظن أن اسناد السفارة لهذا الرجل ستبلغه حتما الاهداف التى يرجوها .

ولقد بدأ عبد الله ويسون وهو من مماليك الامراء المصريين ، عمله بالانخراط فى جيش فرنسا ، واصبح يعمل بتفان فى خدمتها ، فحاول بكل ما اوتى من غدر ونفاق أن يستهوى قلوب الجزائريين ، فكان يجتمع بالمثقفين بالاندية ويحاضرهم ، ومن بين ما كان يردد على اسماعهم : أن الجزائر لا يمكن أن تستغنى عن فرنسا ، وأن الامير بما عرف عنه من قوة ضمير ، وتعمق فى الدين ، فانه سيتفق معها ويعيش الشعبان فى رفاهية ورغد ، وأن الامير سيدرك أن الحضارة الفرنسية قد أثرت الانسانية ٠

وكم كانت دهشة هذا المنافق الكبيرة لما قام احد الحاضرين ليقول له : « ان الفرنسيين اعلنوا بالسنتهم وأقلامهم تحرير الانسان ، والغاء الرق ، وقانونية أوضاعه، ثم راحوا من جهة اخرى يفرضون عليه رقا آخر من نوع أقسى وأمر ، رقا بغير قانون وعبودية بقيود متطورة ٠

ان ما تقوله الآن وتتشدق به هو ظلم وبهتان ، وأن ما يريده الجيش الفرنسى أن يفرضه من الرق اليوم على شعب الجزائر انما هو أشام مما حاول أن يفرضه الدخلاء الذين جاءوا الى الجزائر بقصد الاساءة اليها والتحكم فى مصائرها ٠

لئن سبق للدخلاء فى الماضى السحيق أن يستغلوا حاجة الفقير الى لقمة العيش ويستغلوا ضعفه واضطراب الخائفين من بطش الطغيان وجبروت الحديد والنار ، وقسوة الحكم الاعمى ، واتخذوا الفقر والجهل والخوف مرافق استغلال فى نفوس الضعفاء ، فان الوضع اليوم أصبح يختلف كل الاختلاف عما عليه فى الماضى يوم كانت الجزائر تعانى الفوضى والانشقاق ٠

وبفضل سياسة فرق تسد التى كان يأتى بها الدخيل قد أصاب الشعب الجزائرى عبء ثقيل من الرزايا أثر فى بلده الامين ووضع من قدره ٠

ولكن لم يتمكن هؤلاء الاجانب من أن يقذفوا ببلائهم ويرموا بسهامهم المسمومة الا بعد افتراقنا وتدابرنا ٠ اما الآن فقد ظهر الحق من الباطل ، ولا يأتى لدى ميشيل أو من يعمل فى ركابه من ان يلمح بسيف العدوان فى وجوهنا ٠

فسكت عبد الله ويسون واعتذر للحاضرين ، وظن أنه يمكنه أن ينتصر على من حضروا هذه الندوة بتأويلات لم ينزل الله بها من سلطان ، غير أن الردود التى جاءته من الحاضرين أعطته فكرة على أن وظيفته ستكون شاقة ، وأن تجسسه لن ينجح ، وأن الامير الذى كان يقابله ببشاشة كان كلف العدد الكثير من أبناء الجزائر بان يرقبوا خطواته خطوة بخطوة لكيلا يثير الشك فى اذهان الجزائريين ٠

كما أن الامير أوعز لفئة من الذين لهم دراية بالدين الاسلامى أن يكونوا على اتصال بالجنود الذين سلموا انفسهم فى المعارك ، وأن يخاطبوهم بالتى هى أحسن ، علهم يعتنقون الدين الاسلامى بعد ما يعرفون عنه أنه دين الفطرة دون منازع ، أى أنـه الدين القويم ، ومن هنا صح لنا ولغيرنا ان نسميه دين البشرية ، وما كان الاسلام ليسمى دين البشرية اغتباطا او تحمسا . ولكن ما جاء به هذا الدين من دستور يقبله العقل ، وهداية يتأثر بها القلب ، وعمق يتركز عليه الايمان ، وتطور يصلح لكل زمان ومكان ، وشريعة تنظم أحوال المجتمع ، ومساواة تربط بين جميع الناس، وتأمين للنفس البشرية يجعلها تطمئن الى حياة أخرى تلقى النعيم بقدر ما قدمت من خير ، كل ذلك وغيره جعل الاسلام أقرب الى طبيعة النفس البشرية دينا ترتضيه ، وسراجا تستهدى به ، وصمام أمان يرد على النفس طمانينتها اذا هزها ريب أو اعترتها شكوك .

ولقد شعر هذا الرجل بأن وضعه اصبح على موعد مع القدر ، ولا بد ان يعلـــم دى ميشيل بهذه الاحداث ، وانقطع عن الذهاب للاندية ، وزيارة الوجهاء الا لماما أما الامير فقد قرر الا يراه وكلما طلبه الامير لمعالجة مشكلة أجاب رسول الامير ، انه لم يفارق الفراش منذ مدة وسيزوره متى وجد لذلك سبيلا .

وبطبيعة الحال فسبب عدم زيارته للامير مرده أن الامير سلط عليه وعلى جميع الذين أتت بهم فرنسا من أجل العبث عيونه ، وأن رجالات الامير كانوا أقوى بكثير مـــن رجال دى ميشيل .

واضطر عبد الله ويسون ان يبعث بتقرير سرى الى فرنسا ليعـطى عجزه ، وجاء فى هذا التقرير أن الامير على صلة متينة بتونس والمغرب وليبيا ومصر ومكة ، وأن امير مكة الذى يعتبر خليفة المسلمين قد اعانه كثيرا وهو يتلقى منه كل تأييد وتشجيع ، ولهذا لن تتمكن فرنسا من السيطرة على الامير الا اذا أوقفت هذه الاعانات المتكررة .

على أنه لم يكن من وزارة الدفاع الا أن بعثت صورة من هذا التقرير الى دى ميشيل، ولما وصل هذا التقرير اليه أدرك أن سفيره يتجسس عليه ويعمل من أجل اقصائه عن قيادة وهران ، ولم ير بدا من أن يفكر كيف يواجه الوضع ، فكان أول ما فكر فيه أن يتقرب الى الامير علة لا ينقض الهدنة .

ولقد فرح دى ميشيل لما جاءته رسالة من الامير ومعها جنود من الجيش الفرنسى حاولوا الانضمام للجيش المغربى ، فرفضهم سلطان المغرب وبعث بهم تحت حماية وفد

مغربي بمناسبة تهنئة الامير بتشكيل الحكومة الجديدة ، وانتصاره على دى ميشيل ، وطلب منه السلطان أن يجد الحل الملائم لقضية هؤلاء الجنود ان شاء ابقاهم عنده وان شا سلمهم للسلطات الفرنسية ٠

قال الامير لدى ميشيل : « انى تنفيذا للاتفاقية ، أسلم لكم الجنود الذين فروا من جيشكم لتروا فيهم ما يجب اتخاذه ، غير أن لى رجاء عندكم هو أن تعفو عنهم لانهم ذهبوا الى المغرب بسبب جهلهم للبلاد ٠

وانى اعتقد بأن من سولت له نفسه ان يشق عصا الطاعة ريـاء ونفـاقا مـن الجزائريين التابعين لايالتى فانك تردهم لى دون مناقشة ، وبذلك نتفادى الاخطاء ونعيش فى وئام واستقرار دائمين » ٠

واعلم اننا نحن معشر المسلمين اذا عاهدنا لا نغدر، واذا وعدنا لا نخلف، وبما أن من نصوص المعاهدة التى عقدناها معكم أن يسلم كل واحد منا للآخر ما عنده من الجنود الفارين ، فانه يسرنى أن أكون البادى وأن أسلم لكم هؤلاء الجنود » ٠

ولما اطمأن الامير على الوضع وظن أن دى ميشيل لم يسبب له متاعب ، قرر أن يهتم بمسألة الذين انحرفوا حتى يردهم الى الصواب ، وأن يقضى على الذين زلت بهم القدم وتوجه اليهم فمن تمادى فى عصيانه ضرب على يديه ، ومن تاب صفح الامير عنه ٠

وفى الوقت الذى كان الامير يوجه قواده للاماكن القاصية لرد الضالين ، اذا بفئة من الذين أعمى الله بصائرهم أصبحت تنادى بأن الجزائريين غير مطالبين باداء الزكاة وضريبة الجهاد ، لان الامير أصبح يميل الى الفرنسيين ، والدليل على ذلك تعاهده معهم والدين يمنعه من ذلك ، فاضطر الامير أن يقاتل فى جهات كثيرة بسبب هؤلاء الذين روجوا هذه الاشاعات ٠

ولقد زاد بعض هؤلاء المنافقين على هذه الادعاءات ما هو ادى الى أبعد حد وادعوا أن الامير يجمع هذه الاموال ليزيدها فى رصيده والواقع أنه كان لزاما على الامير أن يكذب هذه الاشاعة الباطلة وأن يفند هذه الدعايات الزائفة وهذا مما كان يؤثـر على برنامجه ولا يتيح له الفرص للقضاء على العدو ٠

ولكن الامير كان من الرجالات الذين لم يسبق لهم أن انحرفوا عن الطريق أو تخلوا عن مكارم الاخلاق أو ظلموا خلق الله ٠ فالايضاحات التى اعطاها لمواطنيه كانت كافية،

بل زادته قوة على قوة ، واصبح المواطنون يعملون ما فى وسعهم من أجل قطع دابر هذه الاشاعات ·

غير أن الامير وهو منصرف لمعالجة المشكلات الداخلية ، والضرب على أيدى الذين تنكروا لوطنهم واصبحوا يعملون من أجل تثبيت أقدام الفرنسيين ، جعل دى ميشيل يعانى أزمة قاسية ، بسبب القوانين التى سنها الامير وكانت تقول : « ان الواردات والصادرات لن تكون الا من الموانىء التى يشرف عليها الجزائريون ، ولقد طلب التجار الفرنسيون من الحكومة المركزية أن يزيد فى حجم التجارة فى فرنسا ، ويجعلهم فى حالة تسمح لهم بان يمارسوا أعمالهم ·

على أن الحكومة المركزية قد بعثت بهذا الاحتجاج لدى ميشيل وأمرته بأن يجد طريقة لانهاء هذا الحصار الذى يتنافى مع حرية التجارة ·

كما بعثت له توبيخا قائلة فيه : « انك لم تقدر المصالح الفرنسية لما وقعت على هذه المعاهدة ولو لم تكن لنا ثقة فيك لقلنا انك تواطأت مع الامير لتعرقل حركتنا فى الجزائر ، وعلى كل فالامر واضح ، ولابد لتجارنا أن يكونوا أحرارا وللتجارة الفرنسية فى الجزائر أن تتوسع ·

وفكر دى ميشيل فى ما يمكنه أن ياتى به من اجراءات لازالة هذا السخط من طرف الحكومة فخطرت له فكرة فاسدة هى أن يرسل أحد الضباط ليؤلب القبائل على الامير حتى يلهيه عن تنفيذ شروط المعاهدة ·

جاء هؤلاء الضباط واتصلوا بالشعب والجيش فلم يفلحوا ·

وتنبه الامير لدور هؤلاء فاحبط آملهم وارغمهم على الرجوع من حيث أتوا ، لانهم جاءوا للسياحة على زعمهم ولم تكن لهم المقدرة التامة على القيام بما كلفوا به ·

لقد قدم هؤلاء الضباط تقريرا الى دى ميشيل يتلخص فى انه من الممكن أن تنال فرنسا بعض الانتصارات فى الميدان التخريبى ضد الامير فى حال ارسال ضباط درسوا اللغة العربية بصفة مدربين لجيش الامير ، وأن هؤلاء الضباط سينالون النجاح فى المأموريات التى تسند اليهم ·

واطلع الامير على هذه الرسالة السرية التى بعث بها الضباط وكلف من يراقبهم ، ولما حاولوا الرجوع الى وهران قال لهم رجال الامير : « انكم لم تطلعوا على جميع

«الاماكن وان من الافضل أن تبقوا معنا مدة أخرى ، حتى يتسنى لكم ان رجعتم الى فرنسا ، أن تذكروا للفرنسيين جمال الجزائر الخلاب وثمراتها الطيبة » ٠

فلم يعص هؤلاء الضباط أمرا وبقوا قرب الامير ظنا منهم أنه لم يتنبه لما قاموا به من جاسوسية وصاروا يرسلون الرسائل والمعلومات التى كانوا يرسلونها كما كان الامير يطلع كذلك على الرسائل التى تأتى من دى ميشيل لهــؤلاء الضبــاط وكان جواسيس دى ميشيل يجهلون الفخ الذى نصبه لهم الامير ليسدد لهم الطعنات بين آونة واخرى ٠

ان الامير الذى تمكن بفضل أبنائه أن يطلع على اسرار دى ميشيل وتمكن أيضا أن يكشف عن الاتصالات التى كانت بين بعض القبائل ودى ميشيل فوجه اليها الامــير خلعاءه فاذاقوها العذاب ، ونهبوا أموالها ، وارغمت على أن تطلب العفو ، وتضم قواها لقوة جيش التحرير الجزائرى الذى كان يقوده الامير بجدارة ٠

ولقد سمع بذلك دى ميشيل فتأثر لانتصار الامير على هذه القبائل وأيقن أن سطوة الامير تزداد يوما بعد يوم ، وأن هذا النفوذ سيسمح له بان يكون عنده جيش قوى يستعمله ضد الفرنسيين ، ورأى من الفائدة ان يدس له فبعث له هدية تتلخص فى اربعمائة بندقية ومقدار الذخائر الحربية واساتذة من كلية الحرب قائلا له : « انى أبعث لك بهذا حتى يتمكن الجنود والضباط من ان يكونوا مدربين لعلمى أن الجيش النظامى أقوى من الجيش الذى لا يخضع للنظام » ٠ فقبل الامير الهدية وشكره ٠

على أن القيادة العامة الفرنسية قد علمت بهذا ، فاولته بطرق شتى ، فمنهم من يرى أن هؤلاء الضباط ما هم فى الحقيقة الا جواسيس ليطلعوا على الامور ، ومنهم من كان له رأى آخر ، وهو ان دى ميشيل اذا اقدم على هذه الفعلة انما قصده ان يتقــرب من الامير لما بينهما من المودة وخاصة أن دى ميشيل أصبح يميل كل الميل للاسلام ، ولربما سيقرر اعتناقه الدين الاسلامى فى القريب ٠

غير أنه جاء ما يكذب هذه الاشاعة حيث ان الحكومة المركزية أمرته بان يتقــدم بتقرير واف عن الوضع فى الجزائر ، فاجابهم بان الوضع باق على ما هو عليه ، فأجابت الحكومة المركزية دى ميشيل بأن الامير له صلة بأمير مكة وهو الذى يحرضه على الجهاد وان الاعانات لا تنقطع عنه ، وعليه فنرجو ان تكلف من يقوم بوظيفة الجوسسة وياتى بكل صغيرة وكبيرة عن اعمال الامير حتى يتسنى لنا ان نعمل ما يوطد اقدامنا فى الجزائر

وبعثت له من باريس شابا فطنا يدعى روس لبون لمراقبة اعمال الامير وحركاته واعلامه بالامر المهم المرسل لاجله فلما وصل الى الجزائر تطلف حتى وصل الى الامير وأسلم على يديه فامر الامير بعض الفقهاء بأن يقرئوه القرآن وآداب الشريعة والعقائد الدينية ويعلموه اللغة والكتابة ولما تعلم أحضر الى الامير فتعجب من عنايته وذكائه فزوجه من جزائرية واستعمله فى كتاباته الخاصة تالفا له وتشويقا لغيره فقام باداء وظيفته أتم قيام ولازم الامير فى أغلب المواضع وبخاصة بعض المعارك ودام على هذا الشأن مدة من الزمان ولما أحكم التدبير شرع فى التفكير باتمام العمل وسرعة الخروج فكتب كتابا بما أراده الى أمير مكة وقلد خط الامير فى الامضاء وختمه بخاتمه الخصوصى وترك الامير مشتغلا بالحرب مع فرنسا فى بعض الوقائع وانتهز الفرصة وآب الى معسكرهم راجعا ومنه توجه الى باريس وأخبر الحكومة بما فعل فأصحبته بهدية ووجهته الى مكة ، ولما قابل الشريف محمد بن عون وسلمه الكتاب والهدية احترمه وأكرم نزله ، وبعد أيام سلمه الجواب مع هدية لائقة بالامير ثم ودعه وأمره بالمسير فأقام راجعا وكان مضمون الجواب اهداءه السلام والدعاء بالتوفيق وبلوغ المرام وعند ذلك تحققت الحكومة الفرنسية أن لا مخابرة بينهما فى أمور سياسية .

ولما رجع الجاسوس قدم تقريرا للحكومة المركزية ، غير أنها رأت أن قضية الاحتلال دامت دون جدوى ، ورأت كذلك ان تتخذ قرارا حاسما فبعثت لجنة لتدرس القضية .

وبعد أن درست اللجنة هذه القضية قالت فى تقريرها :

ان فرنسا صرفت مبالغ باهظة جدا فى الجزائر ، ولا يمكنها أن تتخلى عنها ولهذا نرى من الضرورى تغيير القيادة واسنادها لاناس أكثر كفاية ، بموجب هذا عزل دى ميشيل واستغنى عن خدمات القائد العام ، واسندت القيادة للكونت دوريان دورليان » .

ولقد تمكنت فرنسا من أن تقوم بهذه التغييرات فى قيادتها بسهولة لوجود أناس فى الجزائر يعملون ضد الوطن .

أعداء الأمير

ان الامير الذى بايعه الشعب الجزائرى كله على ان يجاهد فى سبيل الله من أجل رد كيد المعتدى الاثيم كان يعمل ما فى وسعه للاطاحة بجنود الاحتلال الفرنسى ولكى يتمكن من الوصول الى غايته هذه أعلن لمواطنيه ان الاتصالات المريبة مع العدو ستجر حتما الى اضعاف روح المقاومة وان من تحدثه نفسه بأن تكون له علاقات مع هـؤلاء الدخلاء فانه يضرب على يديه ويقيد فى القائمة السوداء قائمة الذين يتنكرون لامجادهم.

وبالرغم من هذه التحذيرات فان الزاوية التيجانية التى أسسها التيجانى والتى مقرها بعين ماضى كانت تتحدى الامير وتتصل بقيادة فرنسا والسبب فى ذلك ان التيجانى كان فى وقت ما الرئيس المطاع فى بلدة معسكر وكان يرى التيجانى فى الامير عدم اللياقة ويعتبر نفسه اقوى منه بكثير وحاول ان يقصيه عن الامارة ليكون الآمر الناهى فى الجزائر ، وكان ينتظر من فرنسا ان تؤيده ليـكون صاحب الـكلمة ، وهذا ما يفسر اتصالاته بفرنسا وقوادها من اجل العبث بامانى الجزائر وآمالهـم .

ان هذه الزاوية أرغمت الحكومة المركزية فى الجزائر قبل سنة 1830 ان تخصص لها كتائب كثيرة من اجل ارغامها على الخضوع ولو كانت هذه الزاوية لم تتنـكر لوطنها ولم تفكر فى احداث الشغب للحكومة المركزية فى الجزائر قبل سنة 1830 لتمكنت الحكومة المركزية من الاهتمام بأمورها حتى لا تفاجئها فرنسا بالاحتلال البغيض .

ولا ينسى الشعب الجزائرى الخلاف بين التيجانى وبين باى وهران محمد الكبـير وقد تطاول التيجانى على باى وهران فكانت النتيجة الحتمية لهذا ان جهز الباى جيشا عرمرما وسطا به على القصر الذى تحصن به التيجانى فدمره تدميرا وما نجا من الموت الا بعد هروبه .

ان هذه الهزيمة التى منى بها التيجانى لم تثنه عن عزمه فى تشييد قوة ضاربة حيث انه رجع وعمر ما خربه الباى ورجع له انصاره كما كان منقبل واقام من نفسه حاكما حيث انه سك النقود مما دعى حاكم الجزائر ان يكلف باى وهران حسن بأن يهاجمه مرة أخرى وقد دارت بينهما معارك كثيرة لم يحرز الباى النصر فيه والجاه الحال الى ان ترك التيجانى وشانه على شرط ان يدفع ضرائب وان هذا الاتفاق فى الحقيقة هو هزيمة نكراء لحاكم الجزائر التركى ولنائبه الباى حسن فى وهران وان كان ذلك يدل على شىء فانه يدل على ان الاتراك ضعفت شوكتهم فى اول القرن التاسع عشر واصبحوا يتشبثون بالاوهام وهذا ما ادركته فرنسا بفضل جواسيسها التى كانت تتنقل من قرية الى قرية فى الجزائر وبفضل التقارير التى قدمها بعض الخونة لهؤلاء الجواسيس الذين جاءوا كسائحين اقدمت فرنسا على غزو الجزائر لتحققها بان الرعية أصبحت بلا راع وان غطرسة القواد الاتراك انما هى عبارة عن اشباح تزول لاول صدمة .

فمات التيجانى الاول الذى اهداه تفكيره لبناء قلعة عين ماضى وفى تشييد المراكز العسكرية به وتولى الامر بعده ابنه الكبير وحاول هذا الولد ان يسيطر على الاراضى الوهرانية المجاورة له بحيث انه كان طموحا أكثر من ابيه وانه يختلف مع أبيه فى نقطة واحدة فابوه كان همه الوحيد ان يدافع عن قلعته من طرف الحكومة التركية اما الولد فقد كان يفكر فى الهجوم على البلاد المجاورة له لتزاد رقعة نفوذه وليكون المجال الحيوى أكبر من ذى قبل وقد هجم على التل الوهرانى وغنم كثيرا فى المرة الاولى ثم حدثته نفسه ان يستولى على معسكر فجهزلها جيشا قويا فاستولى عليها غير ان هذا الاستيلاء لم يستفد منه حيث ان الحكومة التركية رأت فى التيجانى المذكور العدو الذى يهدد كيانها فدخلت معه فى معارك كثيرة وقد خسرت فى المعركة الاخيرة ما لا يقل عن 400 مقاتل كما قتل هو وعلق رأسه فى الجزائر وبعد موت هذا الابن الكبير تولى الامر أخوه وكان هذا الاخ يميل كل الميل للاستقرار ويفر فرار السليم من الاجرب من الحرب وكان يكره السياسة كره الموت ويتجنبها كل ما وجد لذلك سبيلا . وكانت الغاية التى يسعى اليها والهدف الذى ينشده ان يعتنى الاعتناء التام بالدين والعلوم وان يكرس حياته لذلك وان يدعو سكان عين ماضى لان يحافظوا على تعاليم دينهم وبان يتعلموا ، وان هذا النوع من التفكير جعله لا ينقاد للامير ويرفض

مشاركته فى المهرجان الذى أقامه يوم ان عين الشريف الحاج العربى خليفة له عـــن الاغـــواط ٠

وفعلا فلقد بعث الامير برسالة مسهبة الى التيجانى يقول له فيهــا اننى نصبت الحــاج العربى خليفة عنى فى الاراضى الوهرانية التى من ضمنها القلعة التيجانيـــة وانه يرى ان تشاركنى فى المهرجان العسكرى الذى نقيمه واحضر انت وفئة مـــن اصحابك لكى نظهر لفرنسا ان الجزائريين متحدون وانهم لا يفكرون الا فى شىء واحد هو وحدة اراضيهم ٠ وكان جواب التيجانى غير مشجع ، فمن جهة كان يتفق مع الامير وانه رضى بدفع الزكاة التى فرضها ومن جهة أخرى كان لا يعترف به كمسؤول أول عن الاراضى الوهرانية حيث انه لم يبعث رسولا له ولم يذهب اليه مع بعض الشخصيات ومنع الامير من الحضور الى عين ماضى وأنذره ان حضر فانه يجـد من باس التيجـــانى وقوته ما لا يخطر له بالحسبان ٠

واجابه الامير باننى فى غنى عن أموالك وان الغرض من مشاركتك فى المهرجان هو تبنور شخصية الجزائر وبما انك تعارض فى ذلك وان معارضتك سيستغلهـــا الفرنسيون،ولهذا أرى لزاما على أن اردك عن غيك وان ابرهن لك ان منعى من الحضور لن يكلل بالنجاح وانى ساكون عندك بخيلى ورجالى فى القريب العاجل حتى تعلـم ويعلم غيرك الذين يعملون جاهدين على اثارة النعرة الطائفية وايجاد ثغرات فى صفنا الجزائرى انهم مخطئون ٠

ان سياسة هؤلاء المغرضين هذه لن تغنى فتيلا وان الجزائر سائرة قدما الى الامام فى سبيل وحدتها الجزائرية وان كل من تحدثه نفسه بالحيلولة دون الوصول الى هذه الغاية فان سنة التطور ستدكه دكا ٠

لقد زعزع هذا الكتاب التيجانى وتركه هو واتباعه صرعى وما هم بصرعى ولكن وقع تهديد الامير كان شديدا واول شىء فكر فيه التيجانى ان يضم الى صفه قبائـل الارباع وقبائل القصر ليدافعوا عن حصن عين ماضى وبالرغم من ان الحصار حصار التيجـانى دام اشهـر وكبد جيوش الامير خسائر فادحة فان الامـير قـرر ان ينتصر على التيجانى وان يدخل عنوة القصر وان يدمر تدميرا القرية التى عاثت على الارض الفساد وشقت عصا الطاعة وساندت فرنسا فى احتلالها بصفة غير مباشرة ٠

وفى 11 يونيه 1839 كان الامير رابطا مع 2000 جندى و300 خيال والمدفعية بكامل ادواتها و150 جمل كانت محملة بما يحتاجه الامير وجنده من مؤن وانظم الى الامير زيادة عن جنده ما لا يقل عن 2000 بعتادهم ورأى الامير من الحكمة الا يكون البادى فى الحرب حتى لا يتحمل وزر ذلك ، وبعث برسالة يقول له فيها ان سلامة الوطن تقضى بان نكون يدا واحدة على العدو وان الطريقة التى تعالج بها المشكلة لا تتفق وروح الاسلام وان الاسلام منها براء وان تماديه فى عدم الاتفاق مع السلطة الشرعية الوحيدة فى الجزائر والتى له الشرف فى ان يكون رئيسا لها وان خروجه يعتبر مروقا على الدين وخروجا عن تعاليم الاسلام وان الشرع صرح فى موضوعات كثيرة بان من تحدى السلطة الاسلامية الحاكمة يقتل فى الحل والحرم .

ولهذا اناشدك الرحمن فى ان تقلع عن ارادتك والا سببت فى اراقة الدماء الزكية ظلما وعدوانا وان هؤلاء الجنود الذين سيقاتلون من جانبنا وجانبكم يجب ان ندخرهم ليوم الزحف المقدس ، وهو اجلاء فرنسا عن اراضينا .

ان هذه الرسالة بالرغم مما فيها من فوائد فانها لم تؤثر فى التيجانى واعتبرها مناورة من الامير لضعفه وقلة عدده وعدته وكان الرد عن هذه الرسالة ان كان كل من التيجانى والامير على موعد مع القدر وان التيجانى لم يتقهقر ولا يهمه الاموال التى تبذل ولا الارواح التى تزهق فى سبيل المحافظة على حصن آبائه واجداده .

وفى 26 يونيو تبين للامير ان المساعى غير كافية فلم ير بدا من مهاجمة الحصن وقد تكبد جيش الامير فى هذه المعركة خسائر ذات بال فمات 50 من جنوده وجرح 86 اما العدو فكانت خسارته كبيرة جدا .

وبعد هذه المعركة بعث التيجانى برسالة وشرح فيها عدم تسلمه ويطلب من الامير ان يرحل عن بلاده وان يدفع له الضريبة اضعافا فرد عليه الامير بقوله ان الضريبة مهما بلغت لن تؤثر فى وانى جئت هنا من أجل الاستيلاء على حصنك والى واصل لذلك باذن الله مهما حشدت من جنود وان النصر يكون حليفى لانى ادافع عن حق شريف وهو وحدة التراب الجزائرى اما أنت فانك تدافع عن انانيتك ومصالحك الشخصية وشتان بين من يريد الوحدة الشاملة ومن يريد المصلحة الشخصية .

وجدير بالذكر ان شوكة الامير أصبحت قوية وخاصة انه تلقى اسلحة ذات أهمية من تلمسان كما ان فرنسا مدته باسلحة تنفيذا للهدنة التى كانت سارية المفعول بينها وبين الامير .

وان هذه الامدادات كان لها الاثر السيء فى التيجانى حيث انه عرض على الامير المرة تلو الاخرى ان يرحل عن أراضيه وان يمده بما يحتاجه من أموال غير ان الامير أجابه بان الغرض هو طاعته وتسليم المدينة والاعتراف بالسلطة الوحيدة وهى سلطة الامير وفكر الامير فى ان يهجم عليه هجوما شاملا حتى يستولى على الحصن وما فيه ولو أدى ذلك الى اراقة دماء كثيرة وبعث برسالة الى التيجانى فحواها ان بقاءه والجنود هنا لن يكون لصالح الجزائر وان رجوعه من دون الاستيلاء على عين ماضى يعتبر هزيمة نكراء له ولن يقبل ذلك باى وجه من الوجوه وبعد فقد قرر قراره الاخير بان يستولى على المدينة ولو كلفه ذلك ما كلفه فلم يسمع التيجانى لكلام الامير وفكر فى ان يدافع عن المدينة غير ان خليفة الامير الحاج مصطفى الذى كان على بينة من قوات التيجانى وقوات الامير تدخل فى الموضوع وبعث الى التيجانى يامره بالا يتعرض للشروط التى فرضها عليه الامير مخافة ان يقع له ولعين ماضى ما وقع لابيه مع باى وهران من تنكيل وتعذيب ودمار شامل . فاستمع لكلامه وطلب منه ان يكون الوسيط بينه وبين الامير فاشترط حينئذ الامير شروطه الآتية :

اولا : ان يخرج التيجانى من البلد لمدة يتفق عليها .

ثانيا : ان يتحمل تكاليف المعارك والحصار .

ثالثا : ان يرسل بابنه وباثنى عشر من شخصيات البلاد كرهينة على تنفيذ الاتفاق.

وبمجرد ما قرأ التيجانى الشروط رأى انها شروط غير مجحفة وفيها شيء من الانسانية حيث انه اتاح له الفرصة ولاسرته ان ينجو من الموت وان ياخذ معه امواله وان يذهب للمكان الذى يريده وطلب اجلا لذلك فاستجيب لطلبه ونفذت الاتفاقية بحذافيرها وفتحت الابواب وخرج منها التيجانى وحاشيته وبقى بها الذين قرروا عدم مغادرة الوطن وقد انضموا لقوة الامير واصبحوا جندا من جنوده .

وجدير بالذكر ان عدم مبايعة التيجانى للامير لها مبررها وهو ان التيجانى كان يعمل للاطاحة بالامير وكان بصلة وثيقة مع الحكومة الفرنسية وكان يكاتب الوالى العام ويطلب منه التاييد ليكون ضد الامير وان الامير لم تخف عليه اتصالات التيجانى مع فرنسا وكان يطلع على كل صورة من الرسائل التى كان يكاتب بها فرنسا وخدمة للتاريخ نذكر هنا ترجمة الرسالة التى بعث بها الجنرال الماريشال فالييه الى وزير الحربية بفرنسا وهذا نصها :

الجزائر 17 اغسطس سنة 1839 ·

معالى وزير الحربية ·

أرسل اليكم صورة من الرسالة التى بعث بها التيجانى أحد اعداء الامير عبد القادر الذى قاوم الامير فى عين ماضى ·

وان هذه الرسالة قد سبقتها محادثات قبل وانى قد اجبت عليها بما يتفق ومصلحتنا وان سياستى هو عدم اثارة الموضوع علانية حتى لا تتأثر علاقتنا مع الامير وانى أعمل جاهدا على ان أكون بصلة مع التيجانى لعلى انتفع من ذلك ·

وفى 27 من نفس الشهر جاء الرد للوالى العام وهذه ترجمة رسالة الرد ومفادها ان وزارة الدفاع توافق الموافقة التامة على سياسة الوالى العام الحكيمة وان لابد من عدم انشاء هذه الصلات لكى تتمكن فرنسا من المحافظة على الاتفاق المعمول به مع الحكومة والامير ما دام هذا الاتفاق يخدم المصالح الفرنسية واضاف قائلا ان من واجبنا ان نقوى الخلافات التى تنشأ بين الامير ومواطنيه لان كثرتها وتنوعها يكون فى آخر المطاف لفائدتنا ·

والتاريخ يقول بان اتصالات التيجانى مع فالييه فى 1839 كانت فاترة اما فى سنة 1841 فقد تحولت الى اتفاق قوى بحيث ان بيجو قرر ان يضم التيجانى لصفه وقد بعث له بترجمانه الخاص ليون روش وان هذا الترجمان بدلا من ان يذهب الى عين ماضى ليطلع التيجانى على ما عقد عليه العزم بيجو اختار ان يذهب الى مصر ليحصل على فتوة تدعو الجزائريين المسلمين الى وضع السلاح وعدم مقاتلة فرنسا ·

وقد استاء كثيرا بيجو من هذا الاجراء الذى قام به ليون روش برغم من انه لم يحصل على الفتوة المطلوبة وان الازهر الذى كان اعتمد عليه قد خذله غير ان فرنسا كانت راضية كل الرضا عن ما قام به ليون روش والدليل على ذلك ان بيجو بعث برسالة الى وزير الحرب يخبره بالواقعة وكيف ان ليون روش لم ينفذ المهمة السرية التى كلف بها غير ان النتيجة كانت ناجحة بالنسبة لفرنسا حيث ان الاوضاع كانت تسير بخطى سريعة لتدهور كيان الامير ·

وفى الوقت الذى كان الامير يجد كل تأييد ومساندة من المغرب الشقيق كان بعض الجزائريين يناهضونه فالدوائر مثلا قد خضعوا للامير لمدة معينة ثم نقضوا العهد وان

الكراغلة كانوا يميلون كل الميل لفرنسا ويفضلون الاستعمار الفرنسى على كفاح الامير من أجل الحرية والاستقلال ٠

وبدلا من ان يعطوا الفرصة للامير بان يكافح ضد الدخلاء فان الجزائريين كانـوا يعملون على الاطاحة به وبالرغم من هذا كله فقد انتصر على هـؤلاء واولئـك وافحم الجزائريين المناهضين لسياسته التحررية ٠

أن الجزائر التى كانت تتمتع بوحدة شاملة وتخضع لارادة الله وقيادة الامـير أصبحت من 1840 الى 1847 مفككة الاوصال خائرة القوة مما ارغم الامير ان يكرس حياته الى اخضاع القبائل بدلا من ان يشن غاراته على جيوش فرنسا ٠

ولقد رأى الامير عبد القادر من الشعب الجزائرى كل العقبات والسبب فى ذلك ان الوعى كان غير موجود وان فرنسا التى درست الاوضاع الجزائرية دراسة كافية كان لها من القوة ما زعزعت به مركز الامير وكيان الامير ونفوذ الامير بحيث انه فكر فى التخلى عن الحكم واسناده لغيره ٠

فلم ير الامير بدا من الانصات لنصائح السلطان التى كانت تشير عليه بعـــدم الاكتراث بعدد وعدة الاعداء بالرغم من استخدامهم اضخم الوسائل والاسلحة واعنفها وكذلك أخسها واقذرها واكثرها شراسة وحيوانية ٠

فادرك الامير ان الشعب الجزائرى يمر بمرحلة خطيرة وحاسمة فقرر ان يستمر فى زحفه البطولى وان يستمر فى نضاله القومى المقدس وان يصمد للاحداث تمشيا مع ارادة هذا الشعب وتمشيا مع اهدافه القومية ٠

تنكر جنرال دى ميشيل لشروط المعاهدة

لما انتقد الشعب الفرنسى الشروط المتفق عليها بين دى ميشيل والامير عبد القادر رأى جنرال دى ميشيل ان يتنكر لتعهداته وان يعمل وراء الكواليس ولكن فطنة الامير ومعرفته بالسياسة عرقلت جميع الدسائس وافسدت سبل نجاحها ٠

والشىء الذى يجب التنويه به هو ان كلا من الفريقين الامير عبد القادر وجنرال دى ميشيل جعل لنفسه منفذا يخرج منه متى شاء : ولذلك تأثر دى ميشيل كثيرا من استياء الامة الفرنسية وحاول بجميع الطرق ان ينكث العهد فانتهز فرصة وجود الامير بمعسكر واخذ يستعد لمهاجمة بلدة مستغانم وهى بلدة جيدة الهواء حتى لتفـــوق

سويسرا بجمالها وساحلها من احسن سواحل الجزائر فهاجمها دى ميشيل وخـرج السكان وكلهم مدنيون فدخلها الفرنسيون وبنوا بها حصنا منيعا .

غير ان الامير اسد الجزائر الضرغام صمم على استرداد هذه المدينة وضرب الفرنسيين فارسل جواسيسه الى من بقى من السكان وامرهم ليتركوها حتى لا يصيبهم اذى فاستجابوا له الا قبيلة الزمالة التى كانت تربطها بفرنسا روابط صداقة مصطنعة .

ومخافة ان تستولى فرنسا على قبائل أخرى عالج الموضوع بحكمة حتى يضم كل البلاد اليه ويؤاخى بين القبائل جمعا للكلمة وتوحيدا للصفوف فى مقاومة الاجنبى الدخيـــل .

لقد حاول جنرال دى ميشيل ان يمسخ الحقائق ويزيفها وعهد لقواته ان يعتدوا على الاراضى التابعة للامير ، وكلما أوقفه الامير عند حده ادعى ادعاءات لا تمت الى الحقيقة بصلة : فتارة يزعم ان الاراضى التى استولى عليها قواده تابعة لفرنسا وطورا يدعى ان سبب تعدى قواده يرجع للجهل بجعرافية الجزائر وعلى كل حال انذره الامير بان الجزاء يكون من جنس العمل .

قيادة دورليـــان

لقد اعتادت فرنسا أن تغير القيادة كلما صادفتها الهزائم فى الجزائر ، وأن كـل قائد يعزل تنسب له جميع الرذائل ، وكل قائد يعين بدله يصور على أنه الرجل المقتدر الذى يمكنه أن يسيطر على الامير ويرغمه على قبول الصلح الملائم لمصالح امبراطورية فرنســا .

ان الجنرالات الذين هزمهم الامير شر هزيمة من يوم أن تولى قيادة جيش الجزائر لا يمكن حصرهم لكثرة عددهم وأن الضابط الذى هزم فى أيالة وهران شر هزيمـــة هو دىَ ميشيل الذى يعد من المع جنرالات فرنسا وأذكاهم وأكثرهم جراة فى القتال، غير أن هذه الصفات التى كانت لا تفارقه كظلـه تبخرت فى جبال وسهول ووديان الجزائر أمام قائد العروبة فى الجزائر : الامير عبد القادر .

اعترفت وزارة الدفـاع الفرنسيـة بأن دى ميشيـل خـذلـه الامـــير فى الحقل الدبلوماسى حيث انه فرض عليه ارادته كما املى عليه شروط المعاهدة ، وأرغمه عـلى أن يبقى على ما هو عليه ان لم يرد أن يدخل فى معارك طاحنة تأتى على البقية الباقية من سمعته .

وأخيرا اضطر دى ميشيل أن يصور لحكومته الوضع بالتفصيل فلم تجد بدا من ان تستدعيه فرنسا وأن تغير القيادة العامة وقيادة وهران تغييرا شاملا وأن تزود هذه القيادات بايضاحات عن الوضع وأوامر لمتابعة القتال بدبلوماسية فذة ، فعيـــنت دورليان قائدا عاما للجزائر وتريزيل قائدا لوهران .

جاء دورليان دوريون وبمعيته الجنرال تيريزيل كقـائد لايالـة وهران ، وكانت طباعهما تختلف واتجاهاتهما السياسية تتعارض ، فلم يمر أسبوع من يوم تنصيبها

الا وقد نشأت بينهما خلافات فيما يخص السياسة التى يجب أن يتبعاها من أجل العمل على الاستقرار فى الجزائر ٠

وحاول القائد العام أن يدخل فى روع تريزيل أن الوضع السياسى فى فرنسا ، يتطلب التريث فى الامور حتى لا تأتى أمرا لا توافق عليه الحكومة المركزية لانها أدرى منا ، وهى ذات الرأى المطاع فى معالجة جميع المشكلات بوجه عام ، ومشكلة الجزائر بوجه خاص ، وان هذه المسالة أصبحت تتعقد شيئا فشيئا ، وكان القائد العام بالجزائر يظن ان تريزيل يستمع القول فيتبع أحسنه ، ولكن تريزيل تمسك بعقليته القديمة واعتمد على ما كانت تصوره لـه نفسه من مهاجمة الامير وخـلق الاسباب الواهية للنيـــل منـه ٠

واذا كان الوالى العام قد عقد العزم على تنفيذ المأمورية المكلف بها نصا بنص ، فان الجنرال تريزيل قائد وهران كان له رأى آخـر فى الموضوع ، اذ كان يـرى أن الحكومة الفرنسية المركزية تجهل كل الجهل الاوضاع فى الجزائر وقرر أن يعـــمل فى الظاهر على حسب ما تقتضيه أوامر دولته ، وفى السر يجهد نفسه على أن يعرقل حركة الامير ويرغمه على ان يعطيه الفرصة لنقض المعاهدة ٠

ولا غرو فان هذا الجنـرال كاكثر جنرالات فرنسا يميـل الى الطيش والبطش والعنف والقسوة ، وأنه كغيره من العرنسيين اذا غلب على أمره ينادى بالرحمة والشفقة والانسانية واذا ساعده الحظ بان وقع بين يديه أحد الجنود أو القادة العرب ، فانه يبطش بهم ويريهم من أنواع التنكيل والعذاب ما لا عين رات ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ٠

وبعد مضى أيام من تغيير فرنسا لقيادتها وتنصيب الوالى العام بالجزائر وجنرال تريزيل بوهران حدث فى الجزائر حادث له قيمته وهو أن سكان ايالة تيطرى بعثـوا الى الامير رؤساهم ليتفاوضوا معه حتى ينضموا اليه ويعملوا بجانبه حتى يطهـروا الجزائر من رجس الاستعمار ، فرحب الامير بهم وأكرم مثواهم وشكرهم على وطنيتهم ، وعين عليهم رؤساء ليهتموا بامورهم وخطب الامير فى الناس قائلا :

« لقد ظهر الحق وزهق الباطل ، حيث أن اخواننا الذين بمنأى عن الحركة الوطنية انضموا لصفوفنا لتكون لنا بهم قوة ولنتمكن أن نواجه العدو بسلاحين سلاح الايمان بعدالة قضيتنا وسلاح سواعدنا » ٠

فبلغ تريزيل انضمام سكان تيطرى للامارة كما بلغه فحوى الخطبة التى كان لها الاثر الحسن فى الوفود ، ورأى ان الفرصة للعمل من أجل نقض المعاهدة أصبحت هى ورقته الرابحة ، وأنه لن يتاخر عن ارغام الامير ليجاهر بالعداوة فتتمكن الولاية العامة بالجزائر من أن تمزق شر تمزيق معاهدة دى ميشيل التى قيدت الجيش الفرنسى بقيود متينـــة .

وقد خامرت تريزيل هذه الفكرة فى الوقت الذى كان الامير قد بعث وزير خارجيته مولود بن حراس الى الجزائر ليهنىء الوالى العام بمنصبه الجديد ، وهذا نصه :

« بعد التحية ان معتمدى بن حراس وجهته الى حضرتكم ليبلغكم التهنئة والتبريك من قبلى بالولاية على الجزائر .

ولقيامى بالمحافظة على أمور المعاهدة أو عزت اليه أن يفاوضكم فى أمور تعين على اجرائها لتوطيد الراحة فى جميع المقاطعات الداخلية فى السهول والجبال والسواحل التى على ساحل الجزائر وبجوارها ووهران والمدية ، وخشيت ان يكون ذلك سببـــا مكدرا لما بيننا من المصافاة » .

وكان مراد الامير من هذه ان يثبت بوسيلة خفية امارته على جميع الاقليم ما عدا المدن الاربع التى بيد الفرنسيين .

ومكث ينتظر الجواب خارج وهران أو يجيبه بأنه لا يعنيه التعرض له بمن لا يعنيه أمرهم على أنه يعلم من الجواب : هل يمكنه أن يملك اقليم تيطرى بدون مجاوزة حدود المعاهدة أولا ؟

فلما وصل ابن حراش الى الحاكم أكرم وفادته والان له الجانب وسلمه رسالة للامير جوابا عن كتاب التهنئة الذى بعث به له الامير ونص الرد :

قد وصلنى مرسومكم ، وبلغنى معتمدكم ما تعلقت به ارادتكم فى الجهة الشرقية وحيث ان جل مقاصد سموكم توطيد الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها فلا تتوقفوا ، وانى ارجو نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد ، ولك أن تعتقد أنك لن تقاوم فى كل أرض تقصد الاستيلاء عليها بشرط أن تكون لك قوة على أخذها .

ولقد اطلع الامير على هذا الخطاب الذى يعبر عن تنفيذ الوالى لما قررته حكومته من المحافظة على المعاهدة ، واستدعى الامير أعضاء المجلس ليتشاوروا فى موضوع كتاب

الوالى العام ، وكانت الآراء متناقضة فيما يخص سلامة نية الوالى العام الفرنسى ، فمنهم من كان يرى أن الوالى الجديد لن يخلق لنا مشكلات لان الوضع فى فرنسا ينذر بالشر ، ومنهم من كان يرى أن هذا الكتاب فيه تخدير لاعصابنا ، وأن فرنسا ستبطش بنا متى وجدت لنا سبيلا ·

وتكلم أحد الاعضاء قائلا : « اننا على ثقة من دسائس الفرنسيين ، ويجب أن نكون على حذر حتى لا نقع فيما لا تحمد عقباه » ·

ثم ختم الامير قوله : الامور كلها بيد الله وما علينا الا أن نتخذ للامر عدتنا · ولقد أصبح كل من الامير والجنرال تريزيل يعملان فالاول لتلقى الوفود العربية التى كانت تأتيه للدخول فى طاعته وللتملص من الفرنسيين وتريزيل كان يسعى بكل ما عرف عنه من مكر وخديعة للاتصال بضعفاء العقول من الجزائريين الذين كانوا يظنون أن الامير سيغلب على أمره فى آخر المطاف ، وأن من فائدتهم أن تكون لهم علاقة مع ترزيل ·

ولقد واتت الفرص تريزيل فجاءته رسل بنى اسماعيل وقومهم يعرضون عليه أمرهم ويرغبون منه أن يقبل طاعتهم ، وأحيط الامير علما بذلك فبعث برسالة الى والى الجزائر يخبره فيها بأنه عقد العزم على أن يتوجه الى ايالة تيطرى وبعث له بصورة طبق الاصل من المعاهدة التى أبرمها مع الجنرال دى ميتشيل ، واطلع الوالى قائـــد وهران على هذا الكتاب ، وطلب منه أن يشير عليه برأيه فى الرد على الامير فاغتنمها تريزيل فرصة ليقول له : اننا ان فسحنا المجال للامير فانه سيكتسح جميع أراضى الاقليم الجزائرى حتى اقليم قسنطينة وان من الواجب أن نعرقل حركاته ونقف منه موقف الحذر ، وأفاد بان القبائل الجزائرية لا تؤيد الامير وأن جلها انضم اليه خوفا من بطشه واننا نحن المسؤولين عما وصل اليه الامير من قوة ، ولو كنا أوقفناه عند حده فى مبدأ الامر ما كان له من الشان ما له الآن ·

وزاد تريزيل قائلا : ان بعض القبائل أصبحت تتنصل منه وقد جاءتنى اليوم وفود مصطفى بن اسماعيل وقومه يطلبون منى أن يكونوا تحت حمايتنا وأنهم مستعدون بأن يمدونا بما نحتاج اليه من مؤن ورجال ان اقتضى الامر ذلك · فتحير الــوالى العام ، وخاصة ان قرب عهده بدخوله الجزائر وعدم معرفته بالسياسة العربية وخلو قيادته من المستشارين وأوامر دولته على أن يحافظ على مسالة الامير فى جميع الاحـــوال والا يجرى أمرا ما يستوجب عدم رضاه وخاصة أهم أمر وهو أن حكومته أنذرته ان

تقدم بطلب من أجل الحصول على معونة عسكرية أو على عتاد فان طلبه هذا لن يجاب مطلقـــــا .

فقال لتريزيل : ان ما قدمته من معلومات يجعلني أوافقك على شرط الا أتحدى أوامر الحكومة ، واني ساكاتب الامير بما يتمشى مع الوضع الراهن ، وفعلا بعث للامير كتابا فحواه :

« قد فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذى أراه أن هذا العزم خال من الصواب ، وليكن فى علمكم أن الجنرال دى ميشيل لم تكن له سلطة ولا حكم الا على ايالة وهران ، ولذلك لم يتعرض لما يختص باقى الولايات ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى فى هذه المعاهدة فلا يكون لكم طلب الا على ايالة وهران ، وبناء على ذلك فلا نسمح لكم أن تدخلوا ايالة تيطرى وألا تتجاوزوا وادى الشلف شرقا ونهر ارهيو الى كوحيلة .

وبالجملة فلكم أن تحكموا فى البلاد التى هى لكم الآن بحسب شريعة الاســلام ، وبذلك نكون متفقين ، ولا يمكن ان أرخص لعساكركم أن تدخل الى ولاية تيطرى لان كل ما يجرى هناك يختص بى ، وانى مستمر مع ساكنى الاقليم على السلم ، ومعتمد على تعيين مراكز فرنسية فى البليدة وبوفاريك متى رأيت ذلك مناسبا لصالح فرنسا .

وبهذا الكتاب ظهر للامير ولمجلسه حقيقة فرنسا ومناوراتها من أجل الأبقاء عـلى المعاهدة حينما كانت مبلبلة الافكار ، حينما حاول الشعب الفرنسى أن يثور على هذه الحكـــومـة .

وانه وان كانت الاحوال قد تحسنت نوعا ما الا أنه قد غير اتجاهه نحو الامير ، لان قائد وهران اصبح يوسوس له ، كما أن الحكومة المركزية أصبحت تامر بالشدة مع الامير الا ان أمير الجزائر لم يتاثر بهذا التغيير المفاجىء الذى فاجأه به الوالى الفرنسى ، ورأى من الحكمة أن يكاتبه بما يجعله يفكر ويتدبر فى رد الامير ، فأرسل له رسالة فى غاية الوضوح نصها :

« قد وصلنى تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه ثم أقول ان مرمى أفكار حضرتكم بعيد عن الاصابة لان محافظتى على السلم لا يجهلها أحد ، ولولا ذلك ما احتجت الى مذاكرتكم فيما أجريه فى وطنى ، وقصارى الامر انه لا يبعد أن يكون بعض أهـــل الفساد قد ألقى فى ذهن حضرتكم ما أوجب أن يكون جوابكم عن هذا الاسلوب ، وعلى كل حال فانى عدلت الآن عن النهوض الى تيطرى ابقاء للسلم ورعاية له ، وأخاف أن

يحدث في ايالة تيطري ما يوجب دهابي اليهم ، حتى يعم الاستقرار لهذه الايالة التي تاثرت كثيرا بما يقوم به قائدكم تريزيل من اشاعة الفوضى فيها ، وعلى كل اقول لكم ، ان وقع ما يعكر الجو فانتم وحدكم المسؤولون عن ذلك » ٠

ان ما كان يظنه الامير شكا فيما يخص تعكير الجو في ايالة تيطري أصبح حقيقة ملموسة والسبب في ذلك هو عدم استجابة الامير لسكان ايالة تيطري ، وان عدم قبوله التوجه اليهم لكي يتفاوضوا فيما يجب اتخاذه من اجراءات أدخل في روعهم أن الامير اصبح مقيدا بالمعاهدة وبما أن المعاهدة لا تخص الا ايالة وهران ، فلابد من أن يبحثوا عن رجل آخر يمكنه أن يقاوم الفرنسيين ، والا يدع لهم الفرصة ليستحوذوا على الايالة بتمامها ، وشاءت الظروف أن يزور قبائل ايالة تيطري رجل يدعى الحاج موسى بن الحسن المشهور بابي حمار واستوطن الايالة ، واظهر الزهد والصراحة ، وادعى أنه شيخ الطريقة الشاذلية فانصاع اليه الناس حيث ان الامير عارض في أن يكون رائدهم لانهم كانوا يجهلون تعرض فرنسا لخروجه اليهم متمسكين بشروط المعاهدة ٠ وتمكن أبو حمار من ان يكون صاحب شان في ايالة تيطري ، وأن يجمع كلمة سكان الايالة ٠ ولما استنفر له الامر طلب منهم أن يهاجموا المدية قاعدة تيطري فأجابوه بأنهم لن يتاخروا عن القيام بهذا العمل الوطني حتى تشعر فرنسا بان البلاد بلادهم وعلى الدخيل أن يحمل عصاه ويرحل ٠

ان محاولة الاستيلاء على المدية كان مناورة من ابي حمار لانه سبق أن علم ان سكان المدية يسعون الى أن ينضموا الى الامير ورأى الفرصة مواتية بان يصدهم عنه ذاكرا أن الامير لا يمكنه ان ينقض المعاهدة ، وأن الفرنسيين ينتظرون الوقت المناسب لنقضها واحتلال الجزائر باكملها وحاول سكان المدية ان يدافعوا عن البلد ، غير انهم عجزوا كل العجز وبخاصة انه كان لهم مدفع فقاوموه به ، فانكسر فسلموا له البلاد ظنا منهم ان ابا حمار المذكور جاء لينقذهم من شر الفرنسيين وأنه من الرجال الصالحين والدليل على ذلك أن مدفعهم لم يؤثر فيه وفي جنده ٠

ولما دخل أبو حمار كان أول عمل قام به أنه ذهب الى المكان الذي به المدفع فوجده متداعي الاجزاء فقال لهم : ان بركتي هي التي كسرت هذا المدفع ولو لم تسلموا لي لكنت مسخت البلاد وما عليها ، فصدقوه واعتذروا عن مقاومتهم له ذاكرين ان سفهاءهم هم الذين شجعوهم على المقاومة ، ولذلك فهم يرجون منه أن يتناسى هذا وأن يتنازل فيقودهم الى ما فيه خيرهم دينا ودنيا ٠

ومن العجيب أن الزمالة والدوائر التي كانت تخضع للامير عبد القادر لما بلغها أمر أبي حمار قاموا على بكرة أبيهم ليخرجوا عن طاعة الامير ، وارتحلوا من منازلهم قرب تلمسان ، وتوجهوا الى قرب وهران ، ولما شاع الخبر ، وأحيط تريزيل علما بذلك فرح كثيرا لعمله بان « أبا حمار » المذكور لن يتأتى له أن يقاوم كثيرا الفرنسيين ، وأن الامير لن يسمح له بان يكون أميرا على تيطرى ، ونتيجة لذلك يقتل المسلمون بعضهم بعضا ، وعندئذ تبقى الجزائر لفرنسا وحدها تمرح فيها كما تشاء ٠

هذا بالنسبة للجنرال تريزيل ، أما بالنسبة للامير فان موقفه كان موقفا مشرفا حيث ان الاحداث جاءت مصداقا لما كان يتخوف من قيام متاعب وقلاقل في تيطرى التي كانت تابعة لفرنسا ، وظن أن تريزيل سيقوم بما يتطلبه الموقف من مهاجمة أبي حمار ، ولكن القيادة الفرنسية بقيت على ما هي عليه من دون أن تحرك ساكنا ، فرأى الامير أن الظروف الحالية توجب عليه الا يدع الجزائريين يميلون لرجل لا تتوفر فيه شروط القيادة ، وربما كان الفرنسيون ينتظرون الوقت المناسب ليهاجموهم فيه ، وعلى هذا فالسياسة الحكيمة توجب أن يعالج الامر قبل أن يقال : « سبق السيف العذل » فاستدعى في الحين ديوانه وعرض عليهم القضية واطلعهم على العرض الذى تلقاه من سكان ايالة تيطرى وعلى نيته في الذهاب اليهم وعلى تعرض الحاكم الفرنسي بايعاز من الجنرال تريزيل ، وعلى خروج أبي حمار بدعوى أنه من الصالحين ٠ وبعد أن سمع أعضاء الديوان التفاصيل قالوا : « اننا نرى أن المبادرة بايقاف أبي حمار أصبحت ضرورة ماسة » ٠

وبعد هذه الموافقة طلب الامير من قائد الجيش أن يتهيأ للنزال ويجهز الجيوش وبعد ما أتم قائد جيش الامير الاستعدادات اللازمة خرج الامير وشاهد بعينه الجيش ، وأشار على القائد بما يجب اتخاذه ونبهه الى ما رآه من خلل وضرب خيمته في هبرة وأسند قيادته لاخيه حتى يكون أخوه مشرفا على البلاد التي تخص مستغانم وأرزيو ، وطلب منه أن يبدأ ببث العيون ، ليأتوه بمعلومات عن تحركات العدو من هذه الجهة ، كما أمر الامير خليفته في تلمسان أن ينحدر بجموعه الى نواحي وهران ليشغل حاكمها، وليناوشه بالقتال ان حاول الخروج من وهران وتوجه الامير بجيشه النظامي قاصدا ايالة تيطرى ٠

وبعد أن جهز الامير الجيوش ونظم الامور كتب الى الوالي العام بالجزائـــر بان ما حصل من أبي حمار من تعد على ايالة وهران يعد هو المسؤول عنه ، لانه كان يعلم

قبل اليوم أن الدجالين سيقومون باعمال تسيء للجزائريين وان تعرض القائد العام لذلك هو الذى أتاح الفرصة لابى حمار بان يقوم بما قام به • غير أنى مضطر أن أوقفه عند حده وانى خارج اليه الآن بجيوشى •

وحينما خرجت جيوش الامير متوجهة الى تيطرى مرت ببلاد العرب المعروفة ببلاد صبيح ، فمنعوا الامير من المرور ، الا بعد أن يؤدى ضريبة ، فافهمهم الامير أن دفع هذه الضريبة غير ممكن فعارضوه قائلين : ان الحكومة التركية طيلة وجودها بالجزائر ، لم تنكر علينا ذلك ، ونحن نرى نكرانك لهذا الامر غير مقبول ، وعلى هذا نصر على أن تدفع الاتاوات الواجبة والا فنحن نامرك بأن ترجع من حيث أتيت ، فتحير الامير من هـذا الموقف وطلب منهم أن يكلفوا وفدا للتفاوض معه ، وظنت هذه القبائل أن الامـير مستعد للدفع ، وانما كان طلبه الوفد من أجل تعيين ما يمكنه دفعه ، وجاء الوفـــد ورحب به الامير ، وأفهم رجاله أن القوم ضالون وأن المسلم لا يمكنه أن يدفع ضريبة ما اذا مر ببلد مسلم آخر ، وأنه لا يفهم طغيان هذا القوم الذين لا يميزون بين الحكومة التركية التى جاءت بلادنا ، واستولت عليها ، واستغلتها ، وبين امارتى التى اختارنى الشعب للقيام بها ، وكنت أظن أن هذه القبائل التى تمت للجزائر العربية بصلـــة تمد لى يد العون ، وينضم منها رجال لى ليحاربوا العدو الوحيد فى بـــلادنا وهـــم الفرنسيون ، وعلى هذا أرجوكم أن ترجعوا لقومكم وتنصحوهم بان لهم أن يختاروا بين أمرين : اما ان ينضموا للقوات الاسلامية ، واما أن يتهيئوا للقتال لان ابقاءهم عـلى هذه الحالة المخزية سيكون السبب فى ضياع الجزائر •

وبعد أن سمع الوفد ما قاله الامير ونصائحه وافقوا على ذلك وقالوا للامير : اننا معك قلبا وقالبا وسنرجع للقوم لندلهم على الخير فيتبعوه ، وان لم يفعلوا فاننا راجعون لنكون من بين حاشيتك •

ورجع القوم وبعد ساعة بل أقل من ذلك جاءت العرب وحاولت أن تصد الامير وتمنعه عن المسير ذاكرة له ان حقنا فى قبض اتاوات من أجل المرور حق طبيعى ولابد لنا أن نأخذه ، فسلط عليهم طائفة من جيشه فدكتهم دكا ، وبعد أن هزموا شر هزيمة طلبوا من الامير العفو فعفى عنهم ، وترك فيهم رجلا من علمائهم ليدبر أمورهم •

وسمع تريزيل بهذه الواقعة فارعد وأبرق ، كما سمعت بها قبائل جندل فاعترفت بمقدرة الامير • وبما أن الامير لا يمكنه أن يذهب الى تيطرى الا عن طريق قبائل جندل

بعثت هذه القبائل وفدا منهم ليلتقى جيش الامير قبل أن يدخل البلد وعرض الوفد على الامير وجنوده أن ينزلوا ضيوفا علىقبائل جندل فقبل الدعوة وطلبمنهم أن يشاركوا فى المعركة التى سيشعلها نارا حامية على أبى حمار وعلى القبائل التى شقت عصا الطاعة، فقالوا له : اننا وما نملك تحت تصرفك.فعد الامير هذا الاجراء من قبائل جندل فاتحة خير، وقرر أن يستريح جيشه أياما قبل أن يبدأ المعارك .

وبعد مضى أسبوع تقريبا جهز الامير الجيوش وتهيأ للخروج من جندل ، وقبل أن يخرج بلغه أن أبا حمار جمع أنصاره وخطب فيهم قائلا : ان الامير عبد القادر سيكون لى معه شان وأنه جاء بقصد محاربتى ، وأنه لا حق له فى محاربتى لامرين :

الامر الاول : أنه تعاهد مع الفرنسيين وأصبحت بيعته بيعة انتهى أجلها .

والامر الثانى : هو انى من الرجال الصالحين الذين قيل فيهم : « **ان لله رجالا لو اقسموا على الله لابرهم** » . وبما أنى بينت لكم كراماتى وكيف تمكنت من أن أفل المدافعواجعلها قطنا فانى أعدكم بأن كراماتى هى هى لا تتحول وان مدافع الامير سيكون مصيرها كمصير مدفع المدية ، وعلى هذا أرجوكم أن تكونوا لى والا تطيعوه ، وانى أبعث اليه اليوم برسالة عله يرجع لجادة الصواب ، فوافقه أنصاره على ذلك وكتب أبو حمار رسالة الى الامير نصها : من حامى الاسلام أبى حمار الى عبد القادر ابن محيى الدين .

« أرجوك أن توافق على بيعنى » . فاجابه الامير « ان الشعب الجزائرى بايعنى ، وان المعاهدات التى ابرمتها مع الفرنسيين قد عقدتها معهم بعد استشارة هذا الشعب وان المعاهدة المذكورة ، ما ابرمتها الا لكى أتمكن من تنظيم الجيوش وأحصل على المؤن وأخلق فى الشعب الجزائرى وعيا لكى يمكننى أن أنقض المعاهدة طبقا لما جاء فى القرارات من دون أن اسحب كلمة الشرف عندما أرى أن العدو نكث العهد وانى متيقن بان الفرنسيين لن يتاخروا فى نكث العهود » .

وكان بالمدية البلد الذى أصبح تحت حكم أبى حمار رجل من رجالات الامير الذين جاءوا الى هذا البلد للحيلولة بين أبى حمار وقبائل المدية ، ولما سمع بان الخلاف بين الامير وأبى حمار بلغ أشده خرج من البلاد وقال لاهلها : انكم ضللتم الطريق ، وانكم سترون باعينكم ما يحل بكم من غضب الله وبطش الامير .

وانتظر الامير ثلاثة أيام لعل القبائل ترجع عن غيها وأن يتوب أبو حمار لرشده وبعث الى رؤساء القبائل والى أبى حمار انذارا أخيرا وحذرهم بما يترتب عن عدم انقيادهم وما سيكون له من عواقب وخيمة فكان رد ابى حمار على انذار الامير السكوت المطبق ظنا منه أن الامير لا يمكنه أن يقوم بأى شيء ضده وضد القبائل التى مشت فى ركابه وقرر الامير جمع جنده وقبل أن يبدأ المعركة خطب قائلا :

« الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله واصحابه ، أما بعد ، فاعلموا ان الشعب قلدني هذا الحق للمدافعة والذب عن الدين والوطن وقد بلغكم خبر هذا الرجل فان تركته وشأنه خفت على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا اصلاحه، واطال فى هذا المعنى ثم قال :

« هذا وانى أختبر أمره الذى كاد يوقع فى قلوبكم ما يؤول بكم الى تشتيت الشمل وتبديد الجمع وذلك أنى أطلق عليه مدافعى فان كان الامر كما زعم فانا أول مطيع له بعد اختبار احواله من جهة الشرع ، وان كان الامر بخلاف زعمه فهو دجال من دجالى هذا الوقت » ٠

وبعد ما سمع جيش الامير هذا الخطاب البليغ قام أحدهم وقال : سنريه سخافته ٠ وتقدم الامير وأمر صاحب المدفعية بأن يصوب المدفعية ضد أبى حمار وأنصاره الضالين فاصيبوا بقنابل المدافع وتبعثر جمعهم ، ومن بقى منهم فر الى الجبال أو اختفى فى الاودية ، وفر أبو حمار تاركا وراءه حريمه وجميع المؤن والذخائر التى قرر أن يستعملها فى حربه ضد الامير وعوملت هذه القبائل معاملة تتمشى مع ضلالتهم وما كف الامير عن تاديبهم الا بعد أن لاذوا بالطاعة وندموا على ما فعلوا ، ولذلك قرر الامير أن ترد لهم أموالهم لانهم رجعوا الى الاسلام بعد ما ارتدوا عنه ، وأن مال المسلم حرام على المسلم ما لم يتصدق به أو يهبه عن الرضا ٠

ان القضاء على أبى حمار هو فى الحقيقة قضاء على دورليان الذى لم ينفذ توصيات وزارة الدفاع من مسالمة الامير واتصاع لوساوس تريزيل الذى هزم فى جميع المعارك مع الامير لمحاقته ولم تكن الهزيمة خاصة بتريزيل وحده بل تعدت الى قبيلتى الدوائر والزمالة ٠وان من حدثته نفسه أن يتنكر لبلاده سيحطم طال الزمان أو قصر وان القبائل التى ربطت مصيرها بمصير فرنسا وخدعها تريزيل فانها ستلقى حتفها، كما ان تريزيل الذى جعلت فيه حكومته ثقتها سيناله من العقاب ما هو فى حاجة اليه وستندم القبائل المتنصرة ساعة لا ينفعها الندم ٠

خيانة الدوائر والزمالة وهزيمة تريزيل

فى الوقت الذى كان يظن قائد وهران تريزيل أن القبائل التى كانت تناهض الامير ستنتصر عليه ويمكنه بعد ذلك أن يتوجه اليها لينتصر عليها وبذلك يكون قد شارك فى هزيمة الامير وفى كسب أراض شاسعة للاستعمار الفرنسى . حدثته نفسه بان المعركة التى دارت بين الامير والمرتدين الجزائريين ستسفر بعد قليل عن نتائج تكون لصالح فرنسا ، فبث العيون ودفع بسخاء الاموال الطائلة للجواسيس وكتب الى رؤساء القبائل ليمنيهم ، ومن سوء حظه فان كل ما رسمه من خطط وما دبره من مكائد زال تماما وجاءت الاخبار تعلن أن الامير كسر شوكة أعدائه وأن الذين رفعوا السلاح فى وجهه رجع اليهم رشدهم وطلبوا منه العفو فعفا عنهم ، وأصبحوا من جملة جنوده ، وتبين للجنرال تريزيل أنه أخطأ لما أشار على القائد العام بأن يمنع الامير من الذهاب الى ولاية تيطرى ، وأن الاجدر به الا يكشف أوراقه للقائد العام والا يعترف بهفواته ، بل يتحتم عليه أن يؤلب القائد العام الفرنسى على الامير .

وبقى تريزيل حائرا وكان خائفا كل الخوف من توجه الامير الى المدية وأن مخاوفه تحققت حيث توجه الامير الى المدية بجيوشه فدخلها وكانت له القبائل وطلبت منه العفو عما ارتكبته من عدم تقديم مراسيم الطاعة له معتذرة ذاكرة ان الذنب هو ذنب أبى حمار ، ورأى الامير ان لابد من أن يسند ادارة أمورهم الى أحد منهم فطلب تعيين من يليق لذلك فانتخبوا محمد البركانى الذى كان يعد من خيرة رجالهم .

ان الحاكم العام الفرنسى بالجزائر كان يظن بأن أبا حمار سينتصر على الامير وبذلك يسهل له أن يعقد هدنة مع الامير المهزوم ويملى عليه من الشروط ما أراد 0 غير أن هزيمة أبى حمار النكراء غيرت الاوضاع رأسا على عقب .

وبالرغم من هذا فقد تجرأ الحاكم العام الفرنسى أن يعرض على الامير هدنة ، وأن يرفق هذا العرض بشروط قاسية هى :

اولا : يعترف الامير برئاسة فرنسا على افريقيا ·

ثانيا : تكون سلطة الامير عبد القادر محصورة فى أيالة وهران المحدودة بنهر شلف ونهر ارهيو الى كوجبلة ·

ثالثا : تعطى الرخصة العامة للافرنج فى السفر فى سائر جهات بلاده ·

رابعا : اعطاء الحرية التامة للتجارة فى داخلية البلاد ·

خامسا : لا يصير تسليم أى شىء من الاغلال والبضائع من الاماكـــن التى بيــد الفرنسيين ·

سادسا : يدفع الامير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع رهائن للامن على ذلك ·

فلما وصل الرسولان الى الامير بش فى وجهيهما واحتفى بهما وأكرم ضيافتهما ، وظن الرسولان أن المامورية التى كلفا بها ستكون ناجحة ورجاهـــما أن يبقـيا فى ضيافته اياما ، فوافقاه على ذلك ، ورأيا فى أثناء الاقامة ما طمأنهما ، وطلبا بعدئــذ من الامير أن يسمح لهما بالرجوع الى الحاكم بعد ما شكراه فوافق على ذلك وأذن لهما بالسفر وسلمهما رقيما الى حاكم الجزائر وضمنه الشروط التى رغب فى عقد المعاهدة ان تكون عليها ·

يشترط ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين :

اولا : ان تبقى جميع الايالات الخاضعة له تحت سلطته وحكمه ، كما أن المـــدن التى استولى عليها الفرنسيون تبقى على حالها فى أيديهم ·

ثانيا : ان ولاة المدية ومليانة عند عزلهم تبعث أسماؤهم الى حاكم الجزائر ليعرفهم ولتكون المواصلة مع الامير بواسطتهم ·

ثالثا : ان المتجر يكون حرا للجميع ·

رابعا : ان الفرنسيين يكرمون العرب كما أن العرب يكرمون الفرنسيين فى جميع الامــاكن ·

خامسا : ان الامير له أن يشترى من الجزائر بوساطة وكيله فيها سائر ما يحتاج اليه من المهمات والادوات الحربية ·

سادسا : ان الامير يرد جميع الفارين من الفرنسيين ، كما أن الحاكم العام يرد اليه الفارين من العرب ·

سابعا : ان الامير اذا عزم على السفر الى قسنطينة أو غيرها يخبر بذلك الحاكم العام مع الافادة عن سبب ذلك السفر ·

والواقع أن هذه الشروط التي أرسل بها الامير الى الحاكم العام لم تؤثر فيه ، بل ظن أنه من الممكن ان تعدل بعد التمحيص ، ومن دون شك أن الامير سيرضى بتعديلها ، وأن هذا التعديل يكون فيه منافع كثيرة للفرنسيين ·

ولما وصلت هذه الشروط الى الحاكم العام أظهر السكون اليها ، وفهم من فحواها : ان الامير جانح لعقد معاهدة جديدة فسافر لوقته الى وهران وبعث اليه لاول وصوله يخبره بقدومه ليكون قريبا منه تيسيرا للمخابرة ·

وظن الحاكم العام الفرنسى بانه من السهل جدا أن ينتصر على الامير بفضل التجارب التي يتميز بها حاكم وهران الجنرال تريزيل ، وأطلع تريزيل على رسالة الامير ودقق فيها معه واتفقا على خطة معينة من أجل القضاء على الامير وارغامه على قبول صلح يخدم فرنسا ·

على أنه كتب اليه ما نصه : « بعد التحية والتعظيم ·· قد وصلنى رقيم سموكم من يد رسولى القبطان سنت ابيوليت وفهمت منه ما فى أفكاركم ولاجل ان اتمكن من اجراء المخابرة معكم بوجه السرعة حضرت الآن الى وهران فى اليوم الرابع من يوليو 1832 ، واعدكم بان المخابرة التي قررت أن أجريها معكم ستكون لصالحنا جميعا ، لصالح الامتين الفرنسية والجزائرية ، وسأبين لكم أن فرنسا لا يهمها من الامر الا أن يعيش الجنسان فى وئام مستمر ومثمر وبعد اتمام المخابرة يتسنى لنا أن نعقد معاهدة لن يكون فيها حيف لاى الطرفين ·

فاجابه الامير يهنئه بوصوله وكان الحاكم ينتظر الجواب بغير ذلك ، حيث أنه كان يتمنى أن يدعوه الامير الى الاجتماع ثم ان الجنرال تريزيل أنكر على الحاكم قدومه الى وهران وقال له : لا أجد لزوما لحضوركم لاننى أرى أن ذلك يدل على ضعف أحوالنا ، وأيضا فان قربكم من الامير يكون كالمصادقة له على سائر تصرفاته ، فاثر ذلك فى الحاكم وقفل راجعا الى الجزائر ، وظن أن عدم البقاء بوهران من صالح فرنسا ، كما أشار عليه تريزيل بذلك ، كما ظن ان عدم الاجتماع بالامير سيكون له أثره

على القبائل التى تتخلى عن مساندة فرنسا ، كما يكون له أثر على الامير نفسه ولربما يؤول الامير عدم اجتماعه به تاويلا يرجع نفعه لفرنسا • غير أن الامير أظهر له أنه مخطىء ، وقرر أن يخاطب المواطنين الذين انحرفوا بقوة وعنف فقال : أما بعد •• فليكن فى علمكم أنه قد طالما نصحناكم ووعظناكم وبينا لكم ما يجب عليكم شرعا أن تفعلوه أو تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا اليه والآن فانصحكم بان ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الاسلام التى مضى عليها آباؤكم وتتركوا منازلكم التى أنتم فيها الآن بقرب تلمسان وان قررتم عدم الاذعان لامرى هذا فيحل بكم من الانتقام بحول الله وقوته ما لم تكونوا تتصورونه • وان اخوانكم الذين كتبوا على أنفسهم أن يواصلوا الجهاد الى آخره لم يبخلوا على الوطن بأموالهم وارواحهم لعلمهم بان الفرنسيين جاءوا من أجل ابتزاز أموالهم واستعباد رقابهم أما أنتم فاخاف عليكم من العذاب الدنيوى والاخروى • ولما أطلعوا على الكتاب تحققوا أنهم لن ينجوا من أيدى الامير ورأوا أن يكاتبوا جنرال تريزيل وقرروا أن يرسلوا وفدهم له فاطلعوه على حقيقة أمرهم ، وطلبوا منه انجاز ما كان وعدهم به ، فأجابهم الى مطلوبهم وخرج مسرعا الى « مسركين » حيث مخيمهم فتلقاه رؤساؤهم وقدموا اليه طاعتهم فعقد لهم شروطا هى :

أولا : تعترف القبائل برياسة ملك فرنسا وتلتجىء تحت حمايته •

ثانيا : تخضع القبائل لمن يوليه عليها من رؤساء الاسلام •

ثالثا : تقدم القبائل فى الاوقات المعينة المرتب الذى كانت تقدمه الى بكوات الترك•

رابعا : يكون اقتبال الفرنسيين جيدا من القبائل كما يكون اقتبال القبائل من الفرنسيين •

خامسا : تجارة الخيل وتجارة المواشى وتجارة المحصولات تكون حرة لكل انسان عند القبائل •

سادسا : لا تكون تجارة الاسلحة وسائر متعلقات الحرب الا بواسطة مأمورى الفرنسيين •

سابعا : تلتزم القبائل بتقديم نجداتها متى دعاها والى وهران الى غزوة حربية فى اقليم افريقيا ويكون للفارس فرنكان ، وللماشى فرنك كل يوم ، وكل واحد منهما يحمل على الاقل خمسة فشكات ويعطى من الترسخانة عشرة فشكات ، وكل من يقتل فى الحرب يعطى بدله •

ولقد ظن الحاكم أن الامير سيسكت على هذا التعدى الذى قام به تريزيل وانتظر رد فعل الامير على هذا الاجراء الذى عده تريزيل اجراء يتفق ومصالح فرنسا ، ووافق عليه الحاكم غير أن الامير لم يعط لهذه المخالفة اية قيمة لعلمه بما ينويه تريزيل من شر حيث انه تمكن من قلب الحقائق فكتب حينئذ الى الحاكم يحتج عليه فيما أجـــراه تريزيل ويقول له : قد ارتكبتم ما يؤذى بنقص المعاهدة التى عقدناها مع الجنـــرال دى ميشيل وارتبطت بها دولة فرنسا واعتمدتها ومن جملتها الا تقبلوا من يلتجىء اليكم من العرب ، كما اننا لا نقبل من يفر الينا من الفرنسيين ، فجاء الجواب من الحاكـم محتويا على مخادعة ومحاولة وصورته :

« انى أوضح لسموكم أن المعاهدة التى رغبنا فى اجرائها الآن معكم ، لن تكون مخالفة للمعاهدة التى وقع عليها الاتفاق مع الجنرال دى ميشيل سابقا ، نعم ان لفظ هارب المحررة فى صك المعاهدة السابقة لا يفهم منها العموم ، ربما يكون الهارب ليس فى نيته الالتجاء انما قصد سكناه عندنا . وذلك ما هو جار بين الناس من تفضيل ولاية على أخرى . وهذا أظنه لا يضر ولا يكون فاتحا لابواب الخصام الذى لا شك أنه يكون ممقوتا عند اصحاب النوايا الحسنة . هذا واننى على كل حال أحافظ على تلك المعاهدة بكمال الشرف والاعتناء » .

وتيقن الامير قيمة الشرف الفرنسى حيث انه سبق لقواد مثل هذا أن خضعوا للامير كلما رأوا ضعفهم ، ثم يتنكرون لتعهداتهم بمجرد أن يزول هذا الضعف ، وان القائد العام كغيره من القواد لا ذمة له ولا مرءة ولا انسانية ولا شرف ، وانه كغيره لا تنفع معه الا القوة ، ورأى الامير أن يجيبه بما يلي :

« قد وقفت على ما حواه كتابكم والذى أقول لك الآن انك أيها الحاكم تعلم الشروط التى ربط بها دى ميشيل نفسه باذن دولته ، وعند وصولك الى الجزائر وعـــدتنى بالمحافظة عليها وأنك تعلم جيدا أن الحكومة الفرنسية ملزمة بان ترد الى كل مذنب التجأ اليها ولو كان رجلا واحدا ، فكيف بالعشيرة والقبيلة وعلى هذا فان قبيلـــتى الدوائر والزمالة من رعيتى التى أحكم فيها بحكم شريعتى ، والآن أبلغكم البلاغ الاخير انك ان سحبت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التى وقع عليها الاتفاق قديما والا فانى لا أستطيع مخالفة شريعتى فى التخلى عنهم وهب انهم اعتمدوا عـلى رأيكم لضعف اعتقادهم وقلة دينهم ودخلوا مدينة وهران فلا أرفع عنهم يدى ، ولابد أن

ثامنا : الا تتعدى القبائل على من يجاورها من القبائل فان وقع تعد منها عليها ، حينئذ تعلم والى وهران ليحضر حالا لنجدتها ٠

تاسعا : متى ذهب الجنود الفرنسيون الى العرب يعطى لهم كل ما يحتاجونه من المؤونة بالثمن العادل ٠

عاشرا : الاختلاف الذى يحدث فى القبائل ان كان فى قبيلة واحدة يصرفه قاضيها ، وان كان بين قبيلتين يصرفه قاضى وهران ٠

حادى عشر : ينتخب رئيس من كل قبيلة ويسكن مع عائلته فى وهران ٠

ولقد قبلوا هذه الشروط وصدقوا عليها ولما رجع الى وهران بعث الى الحاكم يخبره بما أجراه ، وكان يظن أن الحاكم سيبتهج لفعله هذا وسيبعث له برسالة ثناء وشكر ، لانه تمكن من أن يستميل قبائل كثيرة وقوية ستكون سندا للقوات الفرنسية ، لكن كانت النتيجة غير ما كان يترقبه وكتب له الحاكم كتابا هذا نصه :

« وصلنى تحريرك مع صورة الشروط التى أجريتها مع قبيلتى الدوائر والزمالة وهذا العمل لن يعود على فرنسا بالنجاح فانه سيكون مانعا لامضاء المعاهدة المنتظرة مع الامير عبد القادر ، وقد رجع لى ابن دران لن يسكت عن تعديكم هذا ٠ وبالجملة فانى ارى عملك هذا لم يوافق طريق الصواب ٠

وانى ما زلت على اعتقادى بأن ما قمت به لن يكون فى صالحنا وأن الامير سيتخذ من هذا الاجراء ذريعة ليفاجئنا بهجوم قوى ، ولربما لن نتمكن من الصمود لضربات الامير التى ستؤثر فى موقفنا ، وستقضى لا محالة على قوتنا ، فتاثر تريزيل من هذا الخطاب وكتب اليه ما يلى :

« قد وصلنى تحريركم وفهمت منه أن وساوس ابن دران كادت تؤثر فيكم ، والذى أقوله ان ابن دران لا خبرة له بالمرة وليس فى وسعه ان يطلع على بواطن الامير عبد القادر، وأن التربص بهذا الامر سيزيد فى ملك هذا الامير قوة جديدة ، خلاصة الامر ان ما اجريته مع الدوائر والزمالة لم يكن مخالفا لاوامر مجلس وزارة الحرب فى باريس، وان كانت افكاركم تاباه فتكرموا برد ورقة الشروط مع تعيين من يخلفنى فى وهران» ٠

فلما أطلع الحاكم على هذا الكلام علم أنه قد أخطأ فى اجتهاده وأن تريزيل أكثر اطلاعا منه على غوامض أمور العرب ، ومع ذلك فانه لم ييأس من الحصول على ما رغب فيه من اجراء المعاهدة مع الامير ٠

المقهم وأطالبهم بالرجوع عن خطئهم الفاحش فان كنت ولابد مصر على تنفيذ ما صورته لك أفكارك من ادخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلك من عندى ، واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضى بيننا ومسؤولية اراقة الدماء واتلاف الاموال راجعة اليك ، وعليك ، والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولقد دلت قرائن الاحوال على أن الحاكم العام لن يجيبه عن رسالته وأنه يستعد لنقض المعاهدة فرأى لزاما عليه أن يستدعى مجلس ديوانه ورؤساء الجند والاعيان ليبين لهم الحقيقة وليدعوهم الى ملاقاة العـدو بشجاعة وايمان قويين ، ولما حضر أعضاء المجلس قال لهم :

لا يخفى عليكم ان الله تعالى قال فى كتابه المجيد : « **يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** • ص• ١• ع• » وقال : « **وقاتلوهـــم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ص• ١• ع• » ، وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثـــوا وصدقانهم فغدروا وصابرناهم فلم يصبروا ، وان تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة وهاهم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء الدين وحازوهم اليهم ، فما الذى يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ، ونحن موعودون بالنصر على أعدائنا هيا بنا أيها المسلمون الى الجهاد وهلموا اليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكـم برود الكسل وازيلوا من قلوبكم دواعى الخوف والوجل ، أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا ، ومن بقى نال الفخار وعاش سعيدا ، ثم هز سيفه بـــيده ثلاثا فضج القوم وقالوا نحن على السمع والطاعة لسيدنا ومولانا ناصر الدين •

بعد ذلك رأى الامير من السياسة أن ينتظر جواب حاكم الجزائر وبدلا من أن يجيب الامير أتخذ قرارا بسحب وكيله والامر له بالتوجه الى وهران ، وكان رد فعل الامير على ذلك ان استدعى وكلاءه وأمر برفع العلم الاكبر خارج الحضرة اشارة الى أن المعارك ستستأنف •

ونادى المنادى بأن العدو نكث الوعد ويجب على المسلمين أن يلتفوا حول الامـير ليكافحوا الدخيل ، ففرح المواطنون بذلك ، وعم الفرح القبائل الجزائرية كلها ، وجاءوا بخيلهم وبأسلحتهم قائلين : أيها الامير نحن جنودك فمرنا وسترى أننا لا نتاخـــر ولا نخون •

وبلغ الجنرال تريزيل استعداد الامير فجهز جنوده وخرج من وهران ، ومعه خمسة آلاف من المشاة ، وفرقة من الخيالة وأربع قطع مدافع وعشرين مركبا ، وانضمت اليه

قبائل الدوائر والزمالة ، وتهيا لملاقاة الامير ، وبمجرد ما شاهد خليفة الامير خروج الجيوش الفرنسية من وهران بعث رسولا للامير يحيطه علما بآخر المعلومات ، ورأى الامير أن لابد من عرقلة العدو ، فنهض لوقته من الحضرة ومعه الفان من الفرسان وألف من المشاة ، واتخذ بلدة سبيح مقرا لقيادته حتى يتمكن المواطنون من تعزيزه بقوات ، وأدرك تريزيل أنه ان لم يعاجل الامير بالقتال فانه يتعذر عليه ذلك ، واشتبك جيش الامير وجنود تريزيل فى حوش مولاى اسماعيل بالقرب من بلـــدة سبيح وبـــدأت المناوشات مدة يومين كاملين ، وفى اليوم الثالث هجم جيش الفرنسيين على الجيوش الاسلامية ، وكانت النتيجة أن منى الجيش الفرنسى بالفشل ، وقتل فى المعركـــة الكومندان أودينو بن الماريشال دوق دى تريجو ، وكان قتل هذا القائد أمام جنوده سببا من أسباب الهزيمة .

كان تريزيل يظن أن خططه الحربية تضمن له النجاح غير أن الامير كان له بالمرصاد اذ رسم خطة لهذه المعركة أحسن من خطة تريزيل فثبت هو وجيوشه فى قلب المعركة واسندت الميمنة الى خليفته بوحميد وكلف خليفته بن شكور بان يكون فى المســيرة بحيث أن المعركة حينما بدأت كان جنود الامير يوجهون ضرباتهم الى العدو ، ولـــم يسمحوا لفلوله ، بالفرار ، وظن جيش الامير بان العدو المهزوم سيستانف القتال ، غـير ان هــذه الفلول لكثـرة ما لحقها مــن تعب اثرت أن تبيت بعيدا عن المعركـــة حتى تتمكن فى الصباح من أن تعود الى وهران .

وحاول العدو أن يعود الى وهران فى نفس الطريق الذى جاء منه ولكنه عدل عن ذلك لان امدادات الامير كانت له بالمرصاد ، وقرر أن يرجع عن طريق أرزيو الا ان الامير قد تنبه لقصد العدو فهيا لملاقاته القوة الكافية ، وخف فى الف فارس وأردف كل فارس جنديا وتوجه بهم الى مجاز نهر هبرة ، المعروف بالمقطع ، ولما جاءت جنود العدو هجم عليهم الامير بجنوده ، وبعد نشوب معركة حامية الوطيس ارتد جنود العدو على أعقابهم ، وحاولوا عبور النهر، فلم يوفقوا فجلهم قتل والباقى منهم غرقوا فى النهر، واستولى جيش الامير على أسلابهم التى خرجوا بها من وهران وهى كثيرة جدا ، ولم يتمكن تريزيل وجنوده من الوصول الى أرزيو الا بمشقة كبيرة بعد ما أعطاه الامير واعطى جنوده وقبائل الدوائر والزمالة التى احتمت بفرنسا درسا قاسيا .

على أن هذه المعركة ونتائجها كانت كافية لدس هذه القبائل ، غير أنها لم تتعظ بهذا الدرس واختارت مساندة العدو لان العـدو أيدها وأدخلها تحت حمايته ووعدها

بانه سيشهر معركة أخرى ضد الامير لينتقم منه وليفسح لهذه القبائل المجال لتعيش عيشة كريمة وتنعم بالازدهار ، ولكن الامير لم يسكت عن خيانة هذه القبائل وتنكرها للمبادىء الوطنية والاسلامية فبعث الامير عبد القادر مع كبير دولته كتابا الى الفرنسيين يقول فيه :

« ان هؤلاء القوم الذين فروا اليكم هم رعيتي ومن ايالتي فلابد أن تردوهم الى والا فالحرب بيني وبينكم » .

فامتنع الفرنسيون من الاستجابة للامير واستعدوا للحرب ووقعت معارك دموية بين الامير وتريزيل ، ولقى تريزيل فيها الخيبة والدمار ولم تنج جنوده الا بعد أن تسلقوا سور أرزيو وخسروا في أثناء هذه المعارك ما لا يقل عن أربعة آلاف جندى ، فاستاء الشعب الفرنسي لما بلغه هزيمة جيشه حتى قام أحد الاعيان في مجلس النواب وقال : « ان هجوم الفرنسيين على بلاد الجزائر أراه من الاعمال الناشئة عن الطيش والهوس، لان سائر الاعمال الحربية فيها لم تات بنجاح ، والمدن التي استولوا عليها لا أرى فائدة لهم في الاقامة فيها » .

وبالرغم من هذه النصائح فان تريزيل أصر على متابعة القتال فعزل وعين بدلـه بيجو كما عزل القائد العام دورليان وجيء بالماريشال كلوزيل .

ولاية كلوزيل

كان كلوزيل من ألمع جنرالات فرنسا بل من الجنرالات الذين اشتهروا بالخيانة والدس والمؤامرات ·

قال هذا الجنرال لمبعوث الجزائر سنة 1832 عندما ذهب الى باريس ليؤلب الرأى العام الفرنسى على الذين تنكروا للجزائر وغزوها فى الوقت الذى كانت تخاف فيه الجزائر من اسبانيا لما بينهما من عداوات · ان المحالفات والمعاهدات انما هى مجرد أوراق تمزق ان اقتضت الحاجة لذلك ، وان فرنسا اذ ضربت بعرض الحائط بما بينها وبين الجزائر من اتفاقيات ، فالذنب ذنب داى الجزائر الذى أهان فرنسا ·

ولا يستغرب من كلوزيل هذا المنطق لانه كان يعرف بذى الوجهين ، ففى البرلمان كان يعارض الغزو ، ولما انخرط فى السلك العسكرى أصبح من الذين يرون أن من صالح فرنسا أن تتمم عملية الغزو لكى تتمكن من أن تكون لها مستعمرة ذات أهمية على أن هذا هو الجنرال الذى بعثته فرنسا بعد أن تقهقر الماريشال بورمون، والقواد الذين جاءوا بعد على أساس أن يوقف المقاومة ، واستعمل كل ما لديه من لياقة ودهاء ، وفى آخر المطاف عزلته فرنسا لعدم كفاءته ·

هذا الجنرال هو الذى كان أحد قواد نابليون بونابرت وقد اتفق مع بورمون على الخيانة ــ خيانة نابليون بونابرت ــ ، وقد هزم اثر هذه الجريمة جيش فرنسا وسيق بونابرت أسيرا ·

اذن ان وزارة الدفاع التى درست ملف هذا الرجل ورأت ما امتاز به ، لذلك بعثته الى الجزائر ليتمم الاحتيال اللا انسانى ·

ولقد كانت وزارة الدفاع تظن أن هذا الرجل في وسعه ان يتغلب على الامير ولهذا أسندت له قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر ، ولتسند ظهره ولتقوى معنوياته جاء معه الدوق دورليان ولي عهد ملك فرنسا حتى يشعر الناس بان فرنسا جادة في انهاء المقاومة ٠

ولما جاء القائد كلوزيل استعرض الجيش ، وخطب في الجنود قائلا : « اننا عقدنا العزم على أن ننتقم من الامير لانه انتصر على تريزيل في المقطع ، وكبده من الخسائر ما الله بها عليم ، ولن نرتاح حتى نكيل لـه خسائر فادحة ، ونقصيه عن دار ملكه معسكر ، وبذلك يدرك الجزائريون أن وضع الامير تزعزع وان امكانياته انهارت ، وعندئذ صفق الحاضرون ، وظنوا أن ما قاله كلوزيل حقيقة ملموسة ، غـير أن الايام أظهرت له خلاف ما كان يتوقعه ٠

وفي الوقت الذي كان الامير يتأهب للهجوم على العدو وبلغه أن الجنرال كلوزيل يعمل ما في وسعه من أجل التوجه الى العاصمة معسكر ، فقرر الامير ان يغزو الجزائر وجاءت القبـائل طائعـة ومعها السـلاح ووضعت كل ما تملـك تحت تصرفه بحيث ان عدد الجيش بلغ خمسة آلاف تحت قيادة خليفة الامير بمليانة ٠

قاد هذا الخليفة تلك القوة الجبارة ومروا على سهول متيجة فهزموا القبائل المتنصرة وقتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا منهم عددا أكبر ، ولم يكفوا عن انتصاراتهم حتى بلغوا باب المدينة ٠

وعندما كثرت المغانم وازداد عدد الاسرى ، أوعز خليفة الامير لنائبه بان يرجـــع الى الحضرة مع فئة من الجنود ليسلم المؤن والاسرى لادارة الامير ٠

وفي الوقت الذي انتصر فيه خليفة مليانة على القبائل المتنصرة وعـــلى الحاميات الفرنسية كان خليفة الامير بتلمسان يقاوم الفرنسيين وينتصر عليهم في ايالة وهران، وأخيرا تمكن هذا الخليفة من أن يحاصر وهران ويقطع على الجنود الفرنسيين طـرق المواصلات ويفصل بين القيادة الفرنسية بوهران والقبائل المتنصرة ٠

ان المعارك التي دارت بين قائد وهران وخليفة الامير بتلمسان ، كانت معارك قوية جدا بحيث وصفها أحد المؤرخين بقوله : « وبحسب الامر فعل البوحميدي جميـــع ما أمره به الامير وصار الفرنسيون داخل وهران في أشد الضيق الا انهم أحسن حالاً من أسرى الحرب ، وكاد الامير يحقق قوله : لا يسمح للطير أن يجول من غير اذنه

فـوق المـدن التى استولى عليها الفرنسيون الذين أمسوا كالمغلول يطلب الخلاص من قيوده يتنفسون الصعداء وتتفتت أكبادهم غضبا ، وأقاموا يترقبون وصول المدد مع أوامر الهجوم ليندفعوا على ذلك الامير الذى رماهم بسهام نباهته المدهشة » ٠

ولقد بقى الامير فى معسكر ينتظر رد الفعل من قائد وهران وقائد الجزائر وينتظر ما يقوم به الماريشال كلوزيل من اجراءات ٠

وفى الثالث من اغسطس 1832 وصل الماريشال كلوزيل وولى عهد فـرنسا ، فاصطف أمامهما الجنود عند باب البحر بالزينة الكاملة ، وفى التالى اجتمعا بقـواد الحاميات وأعيان البلد ، وأطلعهم الماريشال على أوامر الدولة بولايته على مدينـة الجزائر ، وعلى حرب الامير وأخبرهم أن ابن الملك انما حضر معه ليراقب اجراء الاوامر فضج القوم استحسانا لذلك ٠ فقال الماريشال : « ان أول ما نبتدأ به هو أن نزحف بجيوشنا على عاصمة الامير وان ساعدنا الوقت فى الاستيلاء عليها نتمكن من أخـذ الثار ونشفى أنفسنا من العرب ، ثم نعقد مع الامير صلحا لكل نزاع » ٠ فضجوا فى محافلهم وكثر تصفيقهم استحسانا لخطابه ٠

ولما رأى ارتياح القوم لما ألقاه عليهم وشاهد منهم النشاط لاخذ الثار بيوم المقطع وأخذه الطيش وتخيل أنه استولى على سائر البلاد ودانت له بالطاعة والخضوع وجعل ما ارتسم فى خياله محسوسا ، ولم يكتف بذلك حتى رسم خريطة جعل البلاد فيهـا أقساما وعين لكل قسم منها عاملا ٠

ولقد تهيأ كلوزيل للقيام بمهمته فارسل العيون لجهات مختلفة لتطلع على أمـور الامير وأحواله وصلته بالقبائل وقوته من خيل ورجال ورجعت هذه الوفود لتخبر بأن الوضع أصبح فى خطر وأن العرب متمسكون وان ادنى اشارة من الامير تحضر لديه القبائل لتنفيذ ما أشار اليه ٠

وبعد أن اطلع كلوزيل على هذه التقارير تبين له أنه سيلاقى خصما عنيدا ، وبالرغم من هذا كله أبحر هو وابن الملك فى أول ديسمبر 1832 فى أسطول ضخم على حين لم يكن مع الامير الا ثمانية الف خيال وألف من المشاة ، وأربع قطع مدافع ٠

ورأى الامير هذه القوة التى كانت تهدف قبل كل شىء الى الاستيلاء على الامارة (معسكر) فقرر الامير أن يستهويه للاستيلاء على معسكر ويضعف قوته ، فأمر سكان معسكر بالخروج منها وتوجه الامير الى قصره الكائن بقرية كاشن ودخل كلوزيل الامارة

من دون مقاومة وكان فى مقدمة جيشه قبائل العرب التى انضمت للفرنسيين فانتهبت هذه القبائل دار الملك واستولت أيديهم على الخزائن ولم يبق بها كلوزيل الا يومين ثم غادرها وانقلب الى وهران تاركا بها القبائل المتنصرة التى أرادت أن تنتقم من الامـير ٠

وبعد ثلاثة أيام من هذه الواقعة قرر الامير أن يرجع الى دار الامارة فدخلها وجاءت القبائل تعتذر على تفريطها وأن القبائل التى استولت على الذخائر ردتها الى الامـير طالبة منه العفو فلم ير بدا من العفو والصفح عنهم ، لان هذه القبائل أصبحت تتلاعب، فتارة تؤيد الامير ، وتارة تخضع للفرنسيين ٠ وبعد أن عفا عنها قال للقبائل : « ان هذا الامر لن يؤدى الى نتيجة طيبة وكان الاحرى بكم أن تواظبوا على الكفاح لتنتشلوا بلادكم من أظافر العدو وتعيشوا أحرارا ، أو تموتوا عن آخركم فتحصل لكم الشهادة ، ولكن كيف الامر وليس فى يدى حيلة ٠

والحق ان لطف الله تعالى هو الذى الهم هذه القبائل بان اذعنت للامير بعد أن أخطأت وعفا عنها ، مما زاد فى قوة الامير وبعث الرعب فى قلوب الفرنسيين ٠

وفى الوقت الذى ثابت فيه قبائل كثيرة الى رشدها وجددت العهد للامير اذا بقبائل الدوائر والزمالة تخرج من الاراضى التى عينها لهم الامير وتلتجىء للفرنسيين ، ومن بين الذين نكثوا العهد وخرجوا عن طاعة الامير ، أحد قواد الامير المازرى الذى تمرد بسبب الافراج عن مصطفى بن اسماعيل عدو الامير ٠

ولقد كبرت الهزيمة على كلوزيل ، وبعد تفكير عميق رأى من الفائدة أن يأمر الحاكم التركى بوشناق الذى كان قائدا لفرنسا بمستغانم بأن يتوجه بجيشه الى دار الامارة بمعسكر ليشل حركة الامير ويلهيه ٠

وخرج هذا العميل التركى ووصل الى المكان الذى يدعى البطحة ووقعت بين جيوشه وجيوش المسلمين معارك كثيرة ، ولو لم يتنبه بوشناق الى فتح أفواه نهر هبرة ليحول بين جيشه وجيش المسلمين لكان الجيش الاسلامى قد قضى القضاء المبرم عليه وعـلى جيشه ولم يسع فى معركة لا أول ولا آخر لها ٠

ان هذه المعركة التى أثبتت فيها الجيوش الاسلامية أن الاذناب سواء الاتـراك الذين رضوا بان يكونوا تحت قيادة فرنسا أو القبائل المتنصرة التى رضيت بان تحارب اخوتها جعلت كلوزيل أنه يعمل من أجل لا شىء وان الخطـة التى رسمها لبوشناق

كانت نتيجتها أن خسر الفرنسيون الجنود ولصق بجبينهم العار · فقرر كلوزيل أن يهاجم تلمسان ظنا منه أن الامير سيتخلى عن تلمسان كما تخلى عن الدفاع عن معسكر ·

وجهل كلوزيل بان تخلى الامير عن معسكر كان خطة مدبرة ليمتحن بها القبائــل اما دفاعه عن تلمسان فلابد وأن يكون قويا ·

وخرج الامير ليلتقى مع عدوه كلوزيل ، وأول ما قام به الامير أن هاجم قــوة قائد الزمالة فقتل هذا الاخير فى هذا الاشتباك ، ولم ينج الا الذين فروا فى الشعاب تاركين أموالهم وراءهم بحيث أن الامير كلف فرقة كاملة من جنوده لتسليم هذه المغانم لدار الامــــارة ·

وبينما هو سائر الى تلمسان بلغه أن قبيلة انكاد تحاول نجدة ابن اسماعيل قرب تلمسان وخرج من تلمسان هذا المتمرد ومعه من يؤيدونه ، غير أنهم لم يصمدوا لضربات الامير ، وتمكن جيش الامير من أن ينتصر على مصطفى بن اسماعيل ولم يفلتوا الا بعد أن رجعوا الى تلمسان واحتموا بقلعتها ·

ترك مصطفى بن اسماعيل فى هذه المعركة مئات القتلى والوف الجرحى ، اما قبيلة انكاد التى جاءت لنجدته فلم تتمكن من مجابهة الامير ، بل فرت فى أول النهار تاركة وراءها كل ما تملك حتى انها سلمت فى حريمها وأولادها وجرح قائد قبيلة أنكاد المعروف بعبد ألله غمارى ·

كان الامير يعتز بقواده لشهرتهم وجراتهم وكانت فرنسا تهاب قوتهم ، وتعمل ما فى وسعها من أجل الاطاحة بهم واحدا تلو الآخر ، سواء بالمال أو بالدس حتى يبقى الامير وحيدا فيسلم وشاءت الاقدار أن ينفصل عن الامير هؤلاء القواد فاول من ترك المعركة هو الخليفة ابن فريحة كان هذا القائد من الرجال الشجعان ، اذ بينما كان يراس حفلا ، ابتهاجا بانتصار المسلمين على النصارى اذ برصاصة طائشة أصابت منه المقتل ، وظن الامير أن فى الامر خدعة ، وأن الذى قتله كان بايعاز من الفرنسيين ولكن التحقيق اظهر غير ذلك واستغفر الله الامير وقال : « اللهم أجعل هذه الطعنة آخر طعنة ، تصيب القواد حتى أتمكن أن أواصل القتال حتى آخر قطرة من دمى » ·

وتبين لكلوزيل أن ما كان يعلق عليه الآمال من أن الامير سيقلل من هجومة قد تبخر ، وبخاصة انه كان قد ارسل الى حكومته تقريرا أشاد ببطولة جيشه وبكثرة عددهـم حيث انتصروا على الامير واستولوا على دار الامارة بعد معارك طويلة ·

وشعر كلوزيل بان حكومته اطلعت على ان هذا التقرير الذى لا صلة له بالواقع ، حيث ان ضباطا آخرين لهم صلة بقيادة الجيش بفرنسا بعثوا برسائل ذاكرين فيها : أنهم دخلوا دار الامارة دون أن يكون الامير بها أو يجدوا من يقاومهم ، وفى اعتقادهم أن عدم مجابهة الامير لجيوشنا كانت خطة عسكرية ، والدليل على ذلك أن الامير اتخذ من استيلائنا على معسكر حجة وسبيلا الى الفتك بنا ، وبالقبائل المؤيدة لنا ، وزاد هؤلاء الضباط شرحا فقالوا : « ان كلوزيل ليس بالرجل الذى يمكنه ان يكون كفؤا للامير وان ما يرسمه كلوزيل من الخطط لم ولن يجدى نفعا » .

وجاءت الرسائل من وزارة الدفاع تشير من طرف خفى الى كلوزيل : بان الاشاعات تذيع خلاف ما تدعيه أنت فى تقاريرك ، وعليك أن تكون صريحا مع وزارة الدفاع حتى تتمكن من معالجة المشكلات حسب ما تقتضيه المصلحة العامة فى الجزائر .

ودرس كلوزيل فحوى هذه الرسائل وقرأ ما بين السطور ، وأدرك أنه يوجد بين ضباطه من يلقى الاضواء على الوضع ويحيط وزارة الدفاع علما بها ، وتبين له أنه لم يبق فى يده الا ورقة هى أن يهاجم تلمسان وبلغ الامير ذلك واتخذ نفس الخطة التى اتخذها فى معسكر فامر السكان بأن يخرجوا من تلمسان ويتركوها للفرنسيين الذين بيتوا النية على مهاجمتها من آن لآخر .

وجاء الفرنسيون بجيوشهم قرب تلمسان ،ولما سمع مصطفى بن اسماعيل بهم خرج هو وانصاره وفتحوا لهم أبواب القلعة ولم يدخل الفرنسيون باب القلعة الا بعد دفاع مستميت لان جنود الامير قد وقفت سدا فى وجوههم ، ولما لم تسفر المعركة عن نتيجة رجعت جيوش كلوزيل خائفة من هجوم الامير ، غير ان القبائل التى خرجت من تلمسان بامر الامير عادت الى تلمسان بحيث ان قوة الجيوش الفرنسية ، بعدما انهارت تحسنت أحوالها وأن الامير أصبح لا يعتمد على هذه القبائل التى أصبحت تميل لفرنسا وتخضع لها بحيث ان سكان تلمسان أصبحوا من مؤيدى كلوزيل .

ولما استولى كلوزيل على البلد ، فرض ضريبة باهظة عليها وبخاصة على كبارها ، مثل الكراغلة وابن اسماعيل ومن معه ليسد نفقات الحملة التى غامر بها دون اذن من دولته وكانت الضرائب تجمع بقسوة ووحشية مما أثار حنق اهل البلد على كلوزيل وعلى فرنسا كذلك .

كانت هذه الضرائب فادحة حتى أدت الحال الى أن الرجل كان يبيع لباسه وفراشه ويؤدى ما افترض عليه وأن المرأة تبيع مصوغها وثيابها وتدفع عن نفسها ما افترضوه

عليها ، واستياء الرأى العام الفرنسى من هذا الاجراء ، وتكلم رجل الشارع فقال : « ما أقوى قوادنا يطلبون من القبائل الجزائرية أن تنضم اليهم ، واذا انضمت يرغمونها على أن تمول خزينتهم » . وقال احد المؤرخين ان هذا الاجراء سيجر حتما فرنسا الى نهايتها .

أما احد مؤرخى الفرنج الذى كان يرافق الجيوش الفرنسية فقد ذكـر : « ان الماريشال كلوزيل خرج بجنوده من تلمسان راجعا الى وهران فصادف فى طريقه أهوالا جمة وعاين مصائب شديدة منها هزيمة عساكره وتشتيت شملهم بوادى عشبة » .

عـدل عن طريقـه الذ جـاء عليـه وسلـك طـريق الساحل الى مـرسى رشكون فوصلها على أسوأ حال ومنها : أن الامير أخذ بمخنقه فيها وحاصره مدة شهرين كاملين لا يخلو يوم منها دون قتال ثم لما أعياه الامر وضاقت به الحيلة بعث صريخه الى نائبه فى وهران فارسل اليه المراكب فركبها بجيوشه وحمل ما أمكنه من ذخائر ولحـق بوهران ، وكاد الغضب يمزق فؤاده وسولت له نفسه أمرا أوقعه فى الخجـل وهـو ما أشاعه فى الدوائر الرسمية من أنه قهر الامير وغلبه وألجأه الى الفرار الى الصحراء فكانت جنوده تتحدث فى المحافل والمجامع بما يكذب خبره وتعلن ما حل بها من الوبال وبما شاهدته من اقدام الجيوش العربية وقوة جأشها وشدة بأسها .

وبالرغم مـن هذه الهزائم فقد نصب الجنرال كلوزيل الجنرال كلورانج قائدا على وهران والجنرال بهاراجوا قائدا على الجند وتوجه هو الى الجزائر .

وبعد مضى ثلاثة أيام من سفر الجنرال كلوزيل سار الجنرال بهاراجو الى تلمسان ليمهد الطريق بينها وبين وهران ، ولما وصل الى نهر تافنا أقام المتاريس على شاطىء النهر واتصل الخبر بالامير فسار الى ندرومة حيث يمكنه رؤية العدو وتحركاته من كل جهة فى المكان الذى تتشعب منه الطريق من تافنا الى تلمسان عدة أسابيع فقطع جبال القبائل الممتدة حول تافنا ، وبقى عد ةأيام محرضا وواعظا ثم توجه بجيشه واعترض العدو فى وادى نافنا والتحم القتال بينهما نهارا كاملا ثم ضرب الجنرال معسكره فى الوادى ورتب صفوفه على هيئة قلعة ، ونزل الامير بجنوده وبالقرب منه حاصره عــلى الهيئة التى هو عليها .

وفى الـرابع والعشرين من الشهر ، تهيـأ الجنـرال للانتقال مـن مكـانه فجـاء المسلمون من كل جهة وزحفوا اليه دفعة واحدة غير مباليين بصلصلة المدافع ولا بقعقعة

البارود ، وهجموا على المدافع فاستولوا عليها ، وسار الجنرال بجنوده على الهيئة التى كانوا عليها وجنود المسلمين محيطة تذيقهم نكال الحرب حتى أعجزتهم فعسكروا على هيئتهم الاولى ٠

وبمجرد ما أن فكر الجنرال بهاراجو الانتقال من المكان الذى عسكر فيه حتى هجم عليه جنود الامير واستولوا على عتاده وقتلوا من جنوده العدد الكثير ، ثم توجه هذا الجنرال الى تافنا ومن معه من الجنود فحوصرت جنوده ، ولم يتمكن من التحرك ، واخيرا قرر أن يشق صفوف المسلمين فانقضوا عليه وقتلوا بقية جنوده ثم توجه الى وهران بعد أن يئس من النصر وأخطر حكومته بالخسائر التى الحقت به ٠

ولقد ارتكبت جيوش الامير هفوة ٠٠ وهى أنها عندما أحرزت هذا النصر ظنت أن العدو لم يهاجمها ، وأن الدرس الذى تلقاه الجنرال بهاراجو من جيش الامير يكفيه ، فذهبت جيوش المسلمين الى بلدانها تاركة الامير مع بعض جنوده ٠

ولم يخف الجنرال بهاراجو الحقيقة وبعث الى قائد وهران يخبره أن عدد جنوده تضاءل ، وأن العتاد قل ويخاف أن يهاجمه جنود الامير فيقضى على البقية الباقية ، يطلب منه بالحاح أن يرسل له الجنود والعتاد لكى يتمكن من الدفاع عن نفسه ان هوجم ٠

ولقد اطلع دولورانج على هذه الرسالة وأيقن أن الامير ما زال قويا ، وأنه سيهجم على الجنود الفرنسيين فى جميع الانحاء بوجه عام ووهران بوجه خاص ، فكتب لمن بيده الامر ليدل عليه بالرأى الصحيح ٠

ولقد تأزم الموقف ، وأصبحت جنود فرنسا فى مأزق مما اضطر الجنرال دولورانج أن يطلب من القيادة العامة بالجزائر ومن وزارة الدفاع النجدة ، لكنه لم يحصل على طائل ، وأخيرا أخبر رئيس الحكومة يحيطه علما بأنه ان لم يتلق النجدة فانه سيتخلى عن القيادة ويغادر الجزائر ٠ ولما تحققت فرنسا من أن موقف الفرنسيين فى ايالة وهران بلغ غايته من التأزم قررت ارسال الجنرال بيجو ومدته بثلاثة آلاف جندى ٠

وجاء بيجو من باريس فى جيوشه الى وهران، ثم فى السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين الموافق لاول يوليو سنة سبع وثلاثين وثمانمائة والف اتجه الى تلمسان يحمل الذخيرة الى جيشهم المحصور فى قلعتها على حين كانت الجيوش الاسلامية قد لحقها الضجر وطالت عليها المدة فى الحروب فلحقت بأوطانها ، ولكن عندما اتصل

خبر بيجو بالامير وهو فى ندرومة سار اليه فيمن معه من الجنود والتقى الفريقان على نهر سكاك وتهيأ المسلمون للجهاد . وهجموا على تلك الجيوش الكثيرة العدد والعدة . لكن لم يكن التوفيق حليفهم فأثخن فيهم بيجو الجراح وانكشفوا أمامه وكثر القتلى والجرحى بينهم فى ذلك اليوم واستمر بيجو سائرا الى تلمسان ، وبعد أيام رجع الى وهران وطير الخبر الى دولته يبشرهم بانتصاره ويتبجح بما أحرزه من النجاح فى أول معركة كانت له فى بلاد الجزائر ، ثم توجه الى فرنسا وجعل قيادة الجيش الى الجنرال والستاك .

لقد أدرك الامير أن ذهاب الجنود لاوطانهم هو الذى أدى الى هذه الكارثة وأن بيجو لم يهاجمهم الا بعد أن أخبره الجواسيس بأن جيش الامير غير كاف لرد الهجوم ، وبخاصة ان القواد الذين قادوا الحملة معه سبق لهم ان لقوا كلهم الهزائم والفضائح .

ولقد رجع جنود الامير من ديارهم نادمين على ما فعلوه طالبين من الامير العفو فقال لهم الامير : « لقد عفوت عنكم كثيرا وان هفواتكم كثيرة ، وان العدو لنا بالمرصاد ، وأخاف أن يجد ثغرة فى صفوفنا فيجرنا حتما الى النهاية » .

ثم أردف الامير قائلا : « انه يؤسفنى أن تنتصر جنودنا على بيجو ، وأن تهزمه هزيمة ثم تتقاعش فى نفس اليوم الذى انتصرت عليه ، وتخرج من المعركة لتسمح له بان يتعقبها وان يقتل العدد الكبير .

لقد جاءت التقارير بان بيجو كاد ينتحر فى نصف النهار لما رأى جنودنا تتقدم وتفتك بالفرنسيين بلا هوادة وتستولى على الغنائم ، وتقتل الضباط بالعشرات بحيث ان الكثيرين من الجنود سلموا أنفسهم وعتادهم ، وبدلا من أن يتابع جيوشنا الجهاد الى آخره فقد اكتفوا بما أحرزوه ورجعوا الى ديارهم تاركين وراءهم عددا قليلا من الجنود ، ففتك بهم بيجو واعتبر هذا الانتصار الضئيل عديم النظير .

أيها الاخوة ان الجنرال بيجو اذ يعتبر انتصاره فى هذه المعركة انتصارا فانه على حق لان المعارك التى خاضها قواد فرنسا قبله ، كان نصيبهم منها الخذلان ، وعليه فاقول لكم انى تأثرت بواقعة سكاك التى هى الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر ، وانما كبرياء بيجو خلق منها معركة كبرى حتى يشق لنفسه الطريق حيث ان الحكومة بعثته على

سبيل الاختيار فان نجح فسترسله للجزائر وان فشل فستبقيه فى فرنسا ، ولقد علم هو بهذا السر فاجهد نفسه حتى انتصر بسبب نقصان عدد جنودنا .

ولقد حاول الامير أن ينتقم فشدد الحصار على جنود فرنسا فى تلمسان بحيث أصبحوا على وشك التسليم ، وتبين لحكومة فرنسا أن ما قاله بيجو عن الامير مبالغ فيه وانها ان أرادت أن تخرج من هذا الموقف الحرج فيجب أن ترسم خطة تختلف تماما عن الخطط السابقة • وأمرت وزارة الدفاع دولورانج بـأن يبعث لها برسالة مفصلة عن الوضع ، وأن يقترح عليها الحلول التى يجب اتخاذها ، وأرسلت كتابا الى القائد العام كلوزيل تقول له فيه : « أنك لم تقم بواجبك ، حيث لم تتخذ الضمانات الكافية فى وهران ، وعلى أية حال فان الوضع بعد الانتصار الضئيل الذى أحرزه بيجو يهدد الوجود الفرنسى فى الجزائر بالخطر ، واستشير بيجو بأن يدلى برأيه فيما يرجع لارسال امدادات للجزائر ، فذكر أن الوقت غير ملائم لذلك . ويجب أن يترك الامر الى الجنرال كلوزيل ليجد الحل ، وان عدل عن ذلك فلابد من اخراجه من الجزائر . وقال اسكندر بلمار المؤرخ :

« ان بيجو الذى أصبح يدس ضد كلوزيل قد اعتبر نفسه شخصية ذات أهمية بحيث : (أفسحوا لعبقرية فرنسا) ثم يردف قائلا : « ان العبقرى الحقيقى هو الامير عبد القادر ، وأن الانتصار الذى أحرزه بيجو فى معركة سكاك ، انما هو هفوة غير مقصودة وقعت من جنود الامير الذين أنهكهم الصراع المستمر الذى بدأه هؤلاء الجنود يوم غـــزت فرنسا بلادهم ، ولم ينقطعوا عن هذا الصراع ، وإن القوة البشرية لا يمكنها أن تتحمل أكثر مما تطيق •

ومن العجيب ، رجوع قوة الامير الى حالها الاول بعـــد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشى ثلاث مرات :

الاولى استيلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته •

الثانية : بعد غـــزوة تلمســـان •

الثالثة : بعد واقعة سكاك •

وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لان تكون سببا قويا لسقوط قوة أعظم سلطان راسخ القدم ، ومع ذلك فانها لم تؤثر فى الامير ولم تحصل دولة فرنسا منه على طائل ، فلهذا أقول : « لله در هذا الرجل العظيم الذى كانت سياسته وتصرفاتـه

لا يفارقان ذاته طرفة عين ، ومن هنا نعلم أنه كان فى أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوتــه » ٠

وقال غيره : « ان تلك الوقائع تسحق عقل القوى وتضعف عزمــه ، ولو كان كالصخر ، الا أن الامير ، كان لا يبالى بذلك لانه عالم بأنه اذا ابتسم ثغر السعــد فبسيفه البتار يستطيع ان يتغلب على العصاة والمتمردين » ٠

ولقد طلب كلوزيل النجدة من الحكومة فلم تجبه نظرا لما وسوس به بيجو لحكومته وذهب الى باريس ليشرح الوضع لكى لم يجد أذنا مصغية ، فطلب منهم أن يعينوا له الخطة التى يجب أن يتبعها فأجابه وزير الدفاع أننا هنا نجهل كل شىء عن الجــزائر وأنك بصفته قائدا عاما فلك أن تحدد هذه الخطة وتنفذها بما عندك من الجيش ، فان نجحت فذاك وان فشلت فللوزارة بعد ذلك أن تفكر فى الأمر فرجع من باريس خائر القوى ، وقرر أن يغزو قسنطينة وتوجه اليها بما عنده من الجيش فذهب توا الى عنابة ثم الى قالما ، ثم بعد أن استراح هو وجنوده ثلاثة أيام سار الى قسنطينة ، ولما وصلها هاجمها بجيش كبير غير أن هذه المعركة لم يصــل أمــدها فى قسنطينة لان قائــدها ابن عيسى الذى كتب اسمه فى تاريخ الجزائر قد انتصر فى يوم واحد على كلــــوزيل وقواد جيشه الذين جاءوا معه وتركوا وراءهم القتلى والعتاد ولم ينج أى واحد منهم وما نجا القائد كلوزيل الا بأعجوبة ٠

ولقد اتصل خبر انهزام كلوزيل للحكومة العرنسية فعزلته ووضعت بدله الجنرال دوبروسوار ٠

وبطبيعة الحال فان الامير كان على بينة مما قام به كلوزيل من محاولات لغزو قسنطينة فكلف خليفته مصطفى ابن التهامى وخليفته بن حميدى فتوجها الى وهران واستوليا عليها وقطعوا عنها كل طرق المواصلات ٠

ثم كلف خليفة محمد بن علال بأن يذهب الى الجزائر ، فاشعل نارا حامية عــلى قيادة الجيش هنالك وعلى القبائل المتنصرة بل على الفرنسيين أنفسهم وسار حتى دخل الجزائر ، لان جنود كلوزيل ذهبت الى قسنطينة ومــات جلها هنالك ٠ واختلط عــلى كلوزيل الحابل بالنابل.

والواقع أن القيادة الفرنسية فى الجزائر أصبحت غير موجودة فكلوزيل أصبــح يجر ذيل الخيبة فى قسنطينة بعد الهزيمة الشنعاء التى لقيها هنالك ووهران محصورة

وان واقعة قسنطينة قد غيرت خطط جنرال كلوزيل راسا على عقب وابانت له ان سكان قسنطينة قبس من شعلة الامير وانهم يسيرون على منهاجه ويقتفون اثره فى رد كيد المعتدين ٠

ان ما كابدته جيوش كلوزيل من الخسران المبين حمل فرنسا انتقاما لكبريائها وجبروتها على الا ترجع عما قررته من متابعة الغزو والاحتلال ظنا منها انها تعوض الخسائر الفادحة التى اصابتها ولتنفيذ ذلك رأت ان تبدل بالقيادة الحالية قيادة أخرى وان تسند القيادة العامة وولاية الجزائر الى « دوق دومال » وان تعين على وهران جنرال بيجو ٠

ولم يسع القائد كلوزيل المنهزم الا ان يغادر الجزائر حاملا معه قلب ابنه القتيل الذى لقى حتفه فى المعركة ، وتوجه الى اسبانيا وقضى هنالك باقى ايام حياته ٠

اما الامير فقد قويت شوكته وخلفته فرنسا خوفا شديدا ٠

وبعد انتصار الامير ودخوله فى عاصمة تلمسان ذهب لزيارة قبر الولى سيدى بو مدين فوجد القائد ابن نونة متعلقا باستار الضريح لائذا به ، فامنه الامير بعد ما اعترف على ملأ من الناس بانه أتى نكرا واقترف ذنبا ، ولم يكتف الامير بتأنيبه بل اقره على طائفته ، بعدما اماط كل لثام وجلا كل شك وشبهة عن عصيان هذا القائد ٠

وفى العفو عن هذا القائد الذى اغتر بكلام الفرنسيين المعسول دليل على ان الامير الذى يقود الامة الجزائرية وهى متساندة متعاضدة كانها روح واحد فى جسد واحد هو حسن السياسة بعيد النظر ٠ فكان يقضى على الاسباب والوسائل التى يستخدمها العدو ويتذرع بها الى بلوغ غرضه ولهذا لم يعدم طريقة فى ان يدافع عن حمى بلاده ويذود عن حياضها ويكافح عن حقوقها ٠

وقد اعترف للامير حتى اشد اعدائه بالقوة ٠ ولذلك وقد انقضت الاحدى عشرة سنة الاولى من 1840 الى 1851 والحكومة الفرنسية حيرى لا تستقر على رأى ، ولا يتضح امامها طريق حتى سميت هذه الفترة بحق « فترة الاستعمار الحر » يعمل فيها كل فرد ما يشاء : يبدأ بما يحلو له ، وينتهى الى حيث لا يدرى ٠

والطرق مقطوعة ، وان كان قد حاول أخيرا القواد الفرنسيون أن يطلبوا ايقاف القتال ولو لمدة وجيزة واحتاروا كيف يفاتحون الامير بهذا الامر ·

ومن حسن حظ الفرنسيين أنهم تنبهوا لاحد لسماسرة وهو اليهودى ابن دران الذى لعب دورا فى حرب الجزائر ، واشار على القواد الفرنسيين بان يطلبوا من الامير ايقاف القتال ، فالامير لن يعارض فى ذلك لما عرف عنه من الميل الى السلام ·

والعجيب ان هذه الفكرة كانت ناجحة ، حيث أن الفرنسيين استخدموه كوسيط ، ولما طلب من القيادة الفرنسية أن تسلم له رسالة للامير لاجراء الهدنة لم تتاخر عن ذلك ووعدته بهدية ثمينة ، فذهب الى الامير ومعه كتاب من قيادة الجيش الفرنسى تظهر رغبتها فى عقد هدنة · سيقضون عليها بين عشية وضحاها ·

غير أنه قد انكشف للامير نيات الفرنسيين وأن فرنسا قد لجأت الى هذه الطريقة ذرا للرماد ، حتى يأنس الامير ، ويظن أن فرنسا تسعى الى الاستقرار ، ولكنها فى الحقيقة كانت خدعة منها ، حتى تتمكن من الآتيان بقواد جدد ·

وكانت فرنسا عقدت العزم على الآتيان بدا نرمو وبيجو ظنــا منهما بأن هذين القائدين يتمكنان من الانتقام لها من الامير الذى بفضل ما أوتى من حول وقوة زرع الرعب فى قلوب جنودها وأشاع الحيرة والارتباك فى صفوف قادتها ·

وان فرنسا برغم مما كانت تعانيه من هزائم نكراء فقد بعثت للجزائر بدانرمون وبيجو على أساس أن يغيرا أوضاع الامير ويجران الى صفوفهما القبائل علهما ينجحان فى خطتهما هذه وان نجحا فان كفاح الامير سيصاب بالشلل ·

ان الامير كان على بصيرة من أمره واخذ للامر عدته وواجه بكل شجاعته برامج دانــرمــون ·

والطريف فى ذلك ان الجيش الفرنسى كان قد جاء 1840 ومعه شرذمة من التجار المرابين الفرنسيين الذين هيات لهم عقولهم الاحلام العريضة فى آفاق الجزائر الجديدة ، وقد قامت هذه الطغمة من الصعاليك النصابين بمضاربات تعسة باءت جميعها بالفشل ·

ولقد أصبح الشعب الفرنسى والحكومة الفرنسية ناقمين على جنرال دى ميشيل لانه ابرم مع الامير معاهدة اعترف فيها للامير بالسيادة على جزء من الجزائر ، كما اصبحوا ناقمين على الجنرال كلوزيل لانه لم يثبت فى المعارك التى دارت بينه وبين الامير وكان النصر حليف الامير ·

ومخافة ان يثور الشعب الفرنسى فى فرنسا ويطالب بعـودة الجنـود من الجزائر ويتعرض لاستمرار الاحتلال رأت الحكومة من الاصوب ان تعين بدلا من القواد الذين بالجزائر قوادا آخرين وان تكون القيادة العامة لجنرال بيجو ، وان تزوده بما يكفيه من مؤن وذخائر واسلحة ·

وما ان وصل جنرال بيجو للجزائر حتى عقد مجلسا عسكريا ورسم الخطط ، ولكن الامير بفضل ما له من العيون فى القيادة العامة الفرنسية تمكن من ان يكون على علم بما تقرر فى هذا المجلس وبعث الى جنرال بيجو الرسالة الآتية :

« الى جنرال بيجو وسائر قواد العسكر الفرنسى فى الجزائر : السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى » ·

اما بعد ـ فقد بلغنى انكم جئتم من فرنسا لقتالنا بما يزيد على ثمانين ألف جندى زيادة على عساكركم السابقة فيها فاعلموا اننا بعون الله تعالى وقوته لا نخشى كثرتكم ولا نعتبر قوتكم لعلمنا بانكم لن تضرونا بشىء الا ان يضرنا به اللـه ولا يلحقنا منكم اذى الا ما قدره الله علينا وقضاه ·

تلمسان وكلوزيل

ان تخطيط كلوزيل بايالة الجزائر ووهران جمده الامير مما جعله يفكر طويـــلا في الخروج من المازق الذى أوقعه فيه بيجو ، وأخيرا رأى أن الحل الوحيد لتسفيه كلوزيل هو ان يركز اهتمامه على بسط نفوذه أولا على تلمسان وان فشل فسيتوجه لقسنطينة ٠

وجهل كلوزيل بان لكل من الجزائر ووهران وقسنطينة عاصمة وانها كلها لعبت في تاريخ الجزائر أدوارا هامة وقد سبق لنا ان تكلمنا عن الجزائر ومن الضرورى ان نتكلم عن تلمسان عاصمة الاقليم الوهرانى كما سنتكلم عن قسنطينة عاصمة الاقليم القسنطينى ٠

وكانت تلمسان في عهد الاتراك مصونة وكانت هناك أسوار تحيط بها بحيث ان حصنها كان منيعا وان الذين حاولوا الاستيلاء عليها باءوا بالفشل الذريع وكان الحكام الاتراك يعتمدون كثيرا على الجنود الكراغلة لحمايتها والكراغلة اسم يطلق على الاولاد ذكورا واناثا الذين ينشأون من أب تركى وأم جزائرية وكانت المدافع الثقيلة التى تحرس تلمسان لا يقل عددها عن 24 بحيث ان الحكومة التركية كانت واثقة كـــل الوثوق بان المغيرين لن يتمكنوا منها ٠

بقدر ما كانت تلمسان بلدة عسكرية كذلك قامت بدور ذى اهمية في الميـــدان التجارى والصناعى والسبب في ذلك انها كانت همزة وصل بين وهران وفاس مـــن جهة وبين جميع البلاد المتاخمة لها من جهة أخرى ، وكانت سوقها رائجة وفيها يجد السكان ما يحتاجون اليه من المواد الكثيرة التى تاتى بها القوافل كما ان أصحاب هذه القوافل تشترى ما هى في حاجة اليه من منتجات البلاد الوهرانية ٠

ان رواج التجارة وكثرة الرائحين والغادين اتاح الفرصة لسكان تلمسان وضواحيها أن ينالوا الحظ الوافر من العلوم والمعارف بحيث انه كان فيها خمسون مدرسة كما كان بها كليتان الاولى بالمسجد الكبير والاخرى بوادى الامام وبضاحية تلمسان كانت زاوية عين الحوت تؤدى رسالتها الثقافية على أكمل وجه ، وكانت تشرف على ثـلاثين زاوية أخرى وبالرغم من هذا التقدم الثقافى وهذا الازدهار فان الاتراك أصبحـــوا يحكمونها حكما غير مباشر فقد استعملوا القوة طورا والحيل والدسائس تارة أخرى لعرقلة الوثبة الثقافية حتى لا تكون اللغة العربية هى اللغة الاولى وبذلك يتمكنون من ان يفرضوا اللغة التركية على الشعب العربى فى الجزائر لتتركيه وابعاده عن العروبة الصاعـــدة .

ومن الجدير بالذكر ان هذه النية المبيتة ضد الشعب الجزائرى باءت بالفشـــل الذريع وقد قأومها بعنف وبقوة وانتصر انتصارا باهرا وكانت النتيجة الحتمية لذلك ان أصبحت السلطة فى أيدى الحكام الجزائريين وحتى كان الباب العالى يحكم الجزائر حكمـــا رمـــزيـــا .

وفى الوقت الذى دخلت الجنود الفرنسية الجزائر قررت حكومة باى وهران ان تتخذ الاجراءات الكافية لمجابهة الموقف واستدعت جميع من له رأى مطاع واتفـــق الجميع على ان الوهرانيين لا يعارضون الاحتلال الفرنسى على شرط ان يبقى الباى حسن مالك البلاد وان تتاح له الفرصة بأن يحافظ على حامية تركية ويدفعون فى مقابـــل ذلك الضرائب اللازمة لحكومة فرنسا ويرضون بان تكون عمالة وهران تابعة لفرنسا على شرط ان يبقى ميناء المرسى الكبير ووهران فى أيدى الاتراك .

واتفق العرب والاتراك فيما يخص هذه الاجراءات واوفدوا رجلا ذا قيمة ليذهب الى الجنرال بورمان قائد الحملة الفرسسية غير انه لم يؤد مهمته لاسباب ما زالت مجهولة وبعد مضى عشرة أيام قررت الحكومة الفرنسية ارسال بواخر حربية للاستيلاء عـــلى المرسى الكبير ولذلك فقد عرقلت الاتفاق الذى كاد يقرر بين القوات المحتلة والشعب الجزائرى فى وهران .

ومن الملاحظ ان الشخصية المكلفة بابلاغ الاتفاق للقوة المحتلة كان يهوديا وكان يدعى انج عمار وكان يتمتع بثقة الداى وكان المشرف عـلى أمـوال البـلاد الوهرانية بـاســـرهـــا .

وعندما رست البواخر فى المرسى الكبير نزل من احد البواخر يهودى آخر اسمه كوهين وكان يحمل رسالة من ابن القائد للحملة الذى كان يشرف على هذه البـــواخر ومفاد هذه الرسالة ان على باى وهران أن يتخلى عن مرسى وهران والمرسى الكبير وان الحكومة الفرنسية تتعهد بان يبقى حاكما كما كان سابقا مع شرط ان يدفع الضرائب اللازمة غير ان رسالة ابن الجنرال بورمان كانت مبهمة وفسرت تفسيرا خاطئا بحيث ان الشعب الوهرانى اعتقد ان الحكومة الفرنسية اشترطت ان يذهب الباى وجميع الاتراك الى بلدة ازمير بتركيا وان ابن الجنرال بورمان سيكون « هو الباى » على عمالة وهـــران ٠

وكانت نتيجة هذا التفسير غير الملائم ان اتفق أفراد الشعب الوهرانى على ان يقاوموا الفرنسيين بكل قواهم وفعلا خرجوا من البلاد رجالا ونساء وشيبانا وشبابا ولم يبق فى تلمسان الا الجنود الاتراك واليهود والباى حسن وبعث العـــرب لجميع القبائل بان ينضموا اليهم وطلبوا من الباى ان يقود المعركة ضد الفرنسيين فلم يسمع لقولهم وكان الرد على الوفد بان صرح لهم ان نيته هى تسلـــيم الحصن للفرنسيين واتاحة الفرصة لهم بأن يكونوا سادة البحر وان يتصرفوا كما يشاءون فى البر ٠

وكان فى استطاعة الباى حسن ان يقاوم وان يكون القائد العام فى المعارك وخاصة انه كان يملك 100 جمل و 400 بغل و 100 فرس ومؤن حرب كثيرة ولكنه لم يفعل ومخافة ان يسلم هذه الحيوانات والمؤن للعدو استولى عليها العرب ليستعملوها ضد الغاصب ٠

وقد تأزمت الحال بين الباى حسن ورعاياه بحيث انه لما تلقى الامر بالخضوع للمحتل وتنفيذ الشروط المملاة عليه لم يبق له الا ان يلتزم تسليم الحصون وان يترك البلاد وكانت أول بادرة لهذا الخضوع هو ان سلم ميناء مرسى الكبـــير للبواخر الفرنسية وطلب من ابن الجنرال بورمان ان يسمح له بأن ياخذ معه آثاثه ومصوغاته وان يسمح للجنود التابعة له بمثل ذلك ٠

وفى الوقت الذى كان البحارة الفرنسيون يتسلمون الموانىء والآلات التى بالمرسى الكبير ظهرت فى البحر باخرة فرنسية تدعى « أبو الهول » وكانت تحمل أمرا من العقيد « لفول » يدعو الى نسف المرسى الكبير ورجوع البواخر التى احتلت هذا المرسى الى الجزائر وقد تأثر من ذلك ابن الجنرال بورمان الذى اعتبر نفسه احرز نصرا كبيرا فى الاستيلاء على المرسى وعلى حاكم هذا المرسى بان يتقيد بتنفيذ الشروط المملاة عليه ٠

وقد ارتاح العرب ارتياحا بليغا لهذا النبأ واعتبروه بادرة خير وفسروه بأن تخلي فرنسا عن المرسى الكبير وعن الاراضي الوهرانية معناه ان الاوضاع في فرنسا غير مطمئنة وان الفوضى قد اطلت برأسها وان الشعب الفرنسي على وشك الانهيار وكما خرجت الجنود الفرنسية من وهران فانها لا محالة ستخرج من الجزائر وتبقى أراضي حفدة عقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق ابن زياد وعبد القادر بن محيي الدين لابنائها الشرعيين يرتعون فيها ويمرحون ٠

ان الاجراء الفرنسي كان له اثره الحسن حيث ان الباي تصالح مع العرب ورجعوا الى أماكنهم غير ان الحيوانات التي أخذوها من الباي امتنعوا من ان يردوها له ٠

وبينما كانت الاوضاع تسير على هذا النحو قام التلمسانيون وقرروا ان يطلبوا الحماية من رجل قوي يذود عنهم حيث ان الباي أصبح ضعيفا وأكبر دليل على ذلك ان الاموال التي أخذت منه سلبا لم ترد له وان الاتفاق المبرم بينه وبين العرب أصبح اتفاقا مصطنعا وان فرنسا التي أتت بقصد تعمير البلاد وازدهارها قد تخلت عنها بسبب أوضاعها الداخلية وكان لابد من التوجه الى سلطان المغرب عله يجد حلا يتفق مع مصالح الجزائريين الذين أصبحوا بين نارين نار الاتراك ونار فرنسا وخاصة ان الوحدة بين البلدين ستقرر ان لم يكن اليوم فغدا ٠

وكانت طلباتهم التي وجهوها الى سلطان المغرب قد قبلت بالارتياح التام ورأى السلطان ان من الفائدة لوحدة المغرب العربي ان يعين الى حين ابن أخيه على الاراضي الوهرانية وزوده بسبعمائة جندي وتوجه رأسا الى تلمسان وحاول ان يستولي عليها فعجز العجز الكلي لان الاتراك والكراغلة الذين كانوا يحمون حصون تلمسان قد اظهروا شجاعة تامة بحيث انه قرر استعمال الحيل والدسائس للوصول الى غايته وكان يظن ان قرابته من سلطان المغرب كانت تكفي ان يتمكن من دخول تلمسان وحاول ان يراوغ قيادة الحامية الاتراك والقائدين مصطفى بن اسماعيل والمرسلي وان يعدهما بهدايا وبمناصب لا بأس بها ان تمكن من الاستيلاء على تلمسان ٠

وفعلا فان مولاي شريف تسنى له ان ينجح في مسعاه بحيث ان المعارضين الذين كانوا من أعداء الامير قد انخدعوا بكلام مولاي شريف وتوجهوا الى مكان معين لهم للتفاوض وهنالك كان وقوع الامر الذي لم يتصوره أحد وهو انه قيد بسلاسل ثقيلة جميع المتفاوضين وجردهم من الاسلحة واخذهم هم وستمائة جندي من قبائل الدوائر والزمالة وارسلهم كأسرى الى المغرب ٠

ان هذا الامر لم يترك اثره الحسن فى الشعب الوهرانى وقد اتفق العرب والاتراك على ان يقاوموه مقاومة فعالة والا يدعوا له الفرصة لايجاد ثغرة فى صفوفهم ومن هذا الوقت بالذات تحرك قائد الجيش الفرنسى وبعث برسالة ذات لهجة عنيفة الى السلطات المغربية فى طنجة ينكر عليها تدخلها فى تلمسان وكان المكلف بهذه المامورية العقيد « اوفاريه » ٠

وعلى كل فان مولاى على الشريف قد أصبح فى حالة لا يحسد عليها وقرر الخروج من تلمسان سواء كان السبب الضغط الذى فرضته فرنسا بدعواها ان وجوده فى الاراضى الجزائرية كان وجودا لا يتجاوب مع مصالح فرنسا وخاصة انه أتى أمرا نكرا حيث سجن المعارضين بدلا من ان ينفق معهم على كيفية ادارة البلاد والسير بها نحو الخير والازدهار ٠

وفى شهر نوفمبر سنة 1830 قررت الحكومة الفرنسية الرجوع الى مرسى وهران تحت قيادة الكومندان « ارنو » وكان بمعيته اليهودى « بوشناق » كما استولت على ميناء المرسى الكبير ٠

وتمكن اليهودى بوشناق ان يفرض نفسه فرضا على الباى حسن بحيث ان القوات التى كانت تحكم البلاد ليست قوة واحدة بل ثلاث : قوة فرنسا العسكرية وقوة الباى حسن وقوة اليهودى بوشناق وكانت هذه القوة الثالثة اقواها لانه كان يقول للفرنسيين : ان الجزائريين أقوياء ويقال للباى ان الفرنسيين قرروا عزله عن الوظيفة وتعيين آخر بدله وانه يدافع دفاعا مستميتا عنه ولابد من ان يأخذ منه مبالغ فى مقابل ذلك ٠

وكانت المبالغ المطلوبة من الباى حسن تزداد يوما بعد يوم وتحقق الباى حسن ان الطمع اليهودى لا حد له ويجدر به ان يخرج من البلاد فى الوقت الملائم وفعلا طلب من الحكومة الفرنسية ان تعتبره مستقيلا من الوظيفة واستجابت له واذنت له بالخروج فتوجه راسا الى الجزائر وبقى بها من نوفمبر سنة 1830 الى مارس سنة 1832 ٠

وقد أخذ الباى معه مبالغ تقدر بثلاثة ملايين فرنك من ذلك 300 الف فرنك جواهر وسيوف مذهبة و 50 ألف بنادق مطلاة بالذهب والفضة وهذه الاشياء كانت من جملة أملاك الحكومة وليست بأملاكه الخاصة وأخذ الباى لها يعتبر اختلاسا وسرقة ٠

وكانت الطريقة المتبعة انه اذا مات باى أو عزل من منصبه يجب عليه ان يتخلى عن جميع الآثاث والمصوغات والدراهم التى كانت بالقصر وان الذى يخلف الباى المتوفى أو المعزول يجب عليه ان يتسلم الاشياء بمحضر الاعيان وان يلتزم بصيانتها لانها من املاك الحكومة .

اما باى وهران فقد ترك وشانه بحيث انه أخذ كل ما فى القصر ولم يترك الا الاشياء التافهة التى كان من الصعب عليه ان ياخذها معه بحيث ان الحكام الفرنسيين فى وهران ندموا ندامة كبيرة على عدم التعرض للباى فى اخذه مال الدولة .

وبما ان فرنسا قررت حكم البلاد بوساطة الاتراك وبما ان باى وهران أصبح عاجزا عن تقديم خدماته لفرنسا قرر الحكام الفرنسيون الاتفاق مع باى تونس ليعين لهم من يكون « الباى » فى مقاطعة وهران .

وفعلا ارسل الجنرال « كورزيل » شروطا لباى تونس على ان يكون احد ابنائه بايا على وهران فارسل حينئذ باى تونس الى الجزائر « قائمقام » لتولى مهام الحكم فى وهران وكان مزودا بحاشية من 250 خيال وبقى القائمقام مدة بالجزائر العاصمة وقد قابل هناك القائد العسكرى العام ووقع الشروط المفروضة عليه والتزم باداء واجبه لمصلحة فرنسا وتحت سيادة فرنسا ولما وصل الى وهران قوبل من القوات المحتلة كما يقابل الخادم المطيع وقد سلمت له المبالغ المالية التى حصلتها السلطات العسكرية كما سلم له الآثاث الذى خلفه حسن باى لثقله .

وظن الباى التونسى الجديد انه يتمكن بجنوده القلائل واسلحته ان يدير البلاد وان ولكن ما مضت أيام على توليه الحكم حتى تبين له ان الارض أصبحت تميد به وان الشعب أصبح يتململ وينذر بالخطر القريب ، فلجأ الى طريقة لا تمت لسياسة وحدة المغرب بصلة وهو ان يستنجد بالقوة الفرنسية فاستجابت لطلبه وابقيت القوات البحرية كلها فى الميناء الوهرانى بحيث ان الباى التونسى كان مجردا من جميع معانى القوة وكانت جنوده غير كافية للذود عن الوطن وكان يحتاج لتموينها من الحكومة الفرنسية والشعب الجزائرى وهذا الوضع لم يستفد منه ، وقد الجاته الضرورة الى ان يستخدم 500 جندى تركى لتضاف الى الجنود التى أتى بها من تونس وقد عجز عن القيام بالادارة المسندة له .

وكانت الميزة التى يمتاز بها هذا الرجل التونسى الذى كلف بادارة البلاد هو ان يجمع الدراهم بشتى الوسائل وجميع الطرق وقد سولت له نفسه ان يستدين من اليهود ومن العرب وخاصة لما تبين له ان الاتفاق الموقع مع القائد العام للقوات المسلحة فى الجزائر لم يوافق عليه ملك فرنسا ·

كانت سياسته هذه للعباد وللبلاد وخيمة بحيث ان الاعيان كانوا يتحاشون مجلسه وأصبح معزولا تماما عن الناس ولكى ينتقم قرر القيام بهجوم على القبائل المجاورة له واعطى جنوده الفرصة ان يقتلوا ما يشاءون وان ينهبوا ما أرادوا فذبحوا 30 نسمة جلها من النساء والاولاد واستحوذوا على 4000 رأس من الغنم ·

ومن غرائب الزمن ان الحيوانات المسروقة بيعت لليهود وان هؤلاء المشترين قد شحنوها لجبل طارق واسبانيا لان الاموال المسروقة والمغتصبة لا يرغب فيها العرب وخصوصا انها أخذت من مواطنهم · وأخيرا خرج القائمقام على اسوا حالة وكاد الوهرنيون يقتلونه لو لم يتدخل قائد الحامية ·

وقد قام الاتراك بدور مخزى فى الجزائر بوساطة باى وهران واليهود ·

وان هذين الجنسين الاتراك واليهود كانا نقمة على الشعب الجزائرى فأديا أدوارا شائنة بحيث ان تمركز فرنسا فى الجزائر وبقاءها قرنا بل أكثر انما كان بسبب تواطؤ الاتراك مع الفرنسيين وخيانة اليهود للعرب الجزائريين وقد خرج الباى التونسى ملوما مدحورا وكاد الوهرانيون يقتلونه لو لم يتدخل قائد حامية وهران ·

وقد تركت مغادرة القائمقام التونسى للبلاد الباب مفتوحا لسلطان المغرب بان يتدخل مرة أخرى وفعلا فان الاعيان الذين أخذهم مولاى محمد الشريف أسرى الى المغرب تمكنوا من نيل رضا السلطان بحيث لم يعاملهم معاملة سيئة بل بالعكس اتفق مع مصطفى بن اسماعيل شيخ الدوائر والمرسلى شيخ الزمالة على ان يثوروا ضد فرنسا وان يرضوا بأن يكون الحاكم من آل السلطان ريثما تبنى وحدة المغرب الكبير فرضى الجميع بذلك الرضا وخاصة ان السلطان كان فى مبدأ الامر من الذين يرون ان بلاد شمالى افريقيا لا يمكنها الصمود الا اذا توحدت· وقد عين لهذه المهمة الحمدى باشا وقد وصل الى تلمسان فى أوائل شهر اغسطس مع 700 جندى وكان بمعيته الشيخان مصطفى ابن اسماعيل المرسلى وبمجرد ما وصل الحاكم المغربى الجديد والشيخان الى تلمسان فتحت لهم الابواب على مصرعيها · وتكفل الشيخان مصطفى بن اسماعيل والمرسلى

بارسال كتب الى جميع القبائل ليوافقوا على الوضع الحالى وينضموا الى الحاكم الجديد حتى يعمل من أجل الوحدة الكاملة ٠

غير ان القبائل لم تستجب لهما ولم يتمكن مصطفى بن اسماعيل والمرسلى من الوفاء بما وعدا به من ان الوهرانيين كلهم سينقادون للحاكم المغربى وانقلبت الامور رأسا على عقب حتى ان قبائل الدوائر والزمالة التى كانت تسير فى ركاب مصطفى ابن اسماعيل والمرسلى أصبحت تتنكر لهما وتعتبرهما أجنبيين عن البلاد ٠

دور الكراغلة فى معركة المصير

وان الكراغلة القدماء يختلفون عن الكراغلة الحاليين فان كان الاولون انظموا الى اعداء الوطن وساندوا الدخلاء فان الكراغلة الحاليين كانوا يتصفون بما يجب ان يتصف به المواطنون الصالحون وان تأييدهم لثورة أول نوفمبر سنة 1954 كان اشهر من نار على علم ٠

اما الكراغلة القدماء فقد ادانهم الكتاب الذى وجهوه الى أعداء الوطن ٠

فى الوقت الذى هب الشعب الجزائرى من اقصاه الى ادناه لنصرة الامير فان فئة خاسرة قد شذت عن هذه القاعدة ٠

وهذا ما يفسر محاولة بعض الاشرار للدخول فى مفاوضات مع قواد فرنسا ٠

وان التاريخ قد سجل اسماء هؤلاء الاذناب فى سجله والحق بهم وصمة العار ـ فان انكروا موالتهم للدخيل فهذه الوثيقة تدمغهم وهذا نصا :

رسالة من الكراغلة الى الجنرال بيجو

الى نائب فرنسا فى الجزائر ٠٠٠ الجنرال بيجو

تحية واحترام وبعد :

اننا نشكركم على الاعمال الجليلة التى قمتم بها فى الجزائر لصالح بلادكم وهذا ما يسرنا نحن الكراغلة لاننا نريد ان يكون لملك فرنسا شخصية محترمة كشخصيتكم لتنوب عنه فى الجزائر ٠

وقد وصل وفد من أبناء جلدتنا الذين انضموا اليكم واخبرونا بالمعاملة الحسنة التى لاقاها من جانبكم وهذا ان دل على شيء فانه يدل على سلوككم الحسن ومراعاتكم الانسانية للكراغلة الذين قرروا عن بكرة أبيهم ليكونوا من انصاركم ·

وقد عودتمونا الانصات لطالبنا وتاييد كل منها ولهذا نسمح لانفسنا ان نحيطكم علما انكم لما جئتم لتلمسان وجد تمونا على اسوء حالة وانكم قمتم بما يتطلبه الواجب فواسيتمونا واقمتم اعويجاجنا واتحتم لنا الفرصة بأن نسترد حقوقنا المسلوبة وان نعيش كما يعيش اناس يؤمنون بالمبادىء الانسانية وبمجرد ما رحلتم عن الجزائر وجاء بعدكم كلوزيل فقد رأينا اثناء اقامته فى الجزائر ما اقلق مضاجعنا واتلف امـوالنا والحـق بنـا العـــار ·

دور قسنطينة في الكفاح

لقد لعبت قسنطينة فى العصور القديمة ادوارا هامة وهذا ما جعل الاستعماريون يستهلون أول غزوهم باحتلال قسنطينة كما ان انهيارهم كان يطل برأسه من قسنطينة أيضا ٠

وبقيت هذه القاعدة سارية المفعول الى ان فكرت فرنسا فى احتلال الجزائر فخرقت هذه القاعدة مع انها كانت بصلة متينة مع بعض الجزائريين من الاقليم القسنطيني وكانت تمون هؤلاء الذين يوالونها بالاسلحة فى كل من ميناء جيجل والقالة وعنابة وقد عثرت شرطة أحمد باى على ما يبرهن ذلك وبعد احتلال الجزائر ووهران فكر بيجو فى احتلال قسنطينة لينتقم لكلوزيل وان بيجو يفضل جنوده الكثيرة تمكن من احتلال قسنطينة ٠

وما ان بلغ الامير سقوط قسنطينة حتى بعث الى بيجو الرد التالى :

لقد كتب الامير الى الماريشال يقول : « اما بعد فان كانت دولة فرنسا ليس لديها من الارض ما يكفى رعاياها وارسلتكم الى أراضينا لتستولوا عليها باذلين فى ذلك نفوسكم وأموالكم فنحن نتخلى عما هو فى ايدينا الآن من السواحل ونبقى فى حال جيران ينتفع بعضهم ببعض وان ابت فرنسا الا ان تستولى على جميع وطننا فنحن نبذل ما وفى وسعنا للدفاع عنه وحماية أراضينا حتى يقضى الله بيننا ٠ ولا يخفى عليكم أيها الحاكم اننا فى نضالنا قد خسرنا جميعا الكثير من أرواح وأموال ولم تنج أمتكم وأمتنا من ذلك ولان قلتم ان دولتكم تحب الانصاف وتحافظ عليه فان فعلها هذا يكذب دعواها ويبطل ادعاءها واننا نرى رجالكم يسائرون سياستها الرعناء وان كان لديكم سديد رأى ما وافقتموها على فناء جنودها فهل يا ترى تكسبون ما تخسره بلادكم من الرجال والاموال فان كان يرضيكم ان تتعطل زراعتنا ويقل انتاجنا ويسبب ذلك

تجويعنا والخضوع اليكم فقد اخطاتم فليس لرجالنا مطمح فى لذيذ مأكل أو مشرب وانما تشحذ هممنا دائما الحرية ٠

وانا لا نترك قتالكم ما دمتم فى طغيانكم تمعهون والحروب قد تربينا عليها فنحن أهلها من المهد الى اللحد وحروبنا كما قد علمتم لا نرجع فيها الى قانون يحصرها بل نحن فيها مخيرون مطلقون ٠ أما انتم فقد بذلتم أموالكم وافنيتم قوة شبابكم فى تعلم قوانينها وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف وفى كتب التاريخ القديم ان العرب يبتهجون بالقتال فلا يضجرون منه لعلمهم ان الاعمـــار بيد الله وان الارض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ٠

وبالرغم من هذا كله ومن الظروف القاتمة التى كانت تحيط بقسنطينة من كـــل جانب وصوب فان هذه البلدة الكبيرة التى تعتبر بحق عاصمة الاقليم القسنطينى بأسره لم تتأثر من احتلال فرنسا لعاصمة الجزائر كما لم تقرأ حسابا لتسليم باى وهـران وتيطرى ٠ وأكثر من هذا كله انها كانت تظن ان المقاومة الشعبية التى قادها والد الامير عبد القادر من سنة 1830 الى 1832 كافية وبما انه لم يكن بالاقليم القسنطينى لفرنسا جنود لم يفكر المسؤولون فى قسنطينة ان يحاربوهم كما ان الامير لم يكـن فى حاجة بان يطلب منهم النجدة أو الاستعانة لان سياسة الامير كانت تختلف عـن سياسة الباى أحمد ٠

ولا يخفى على جميع الجزائريين الذين درسوا تاريخ الجزائر ان الامير كان يحبذ كثيرا من ان يهرع جميع الجزائريين لنجدة الوطن من الغزو الغاشم وقد اضطر ان يفاتح بذلك أحمد باى وعددا كبيرا من الشخصيات القسنطينية التى كان لها رأى مطاع وكان رد أحمد باى على هذا العرض النبيل ان قوى جيوشه مجندة للوقوف فى وجه فرنسا وفى الحقيقة كان أحمد باى يستعد لرد قوات الامير ان فكرت فى ألاستيلاء عـــلى قسنطينة كما كان بالمرصاد لما يفكر فيه قادة فرنسا فى نفس الوقت وكانت له عيون فى الجزائر وفى تونس وفى المغرب والحق يقال كانت اليقظة ميزة من ميزات باى أحمد حاكم قسنطينة ٠

فقسنطينة كانت خاضعة له الخضوع التام لانه كان أقوى من الحكام الذين سبقوه وقد سنحت له الفرص ان يخافه احباءه واعداءه بحيث تمكن فى مدة وجيزة من ان

يكون له من الخيل الفان ومن البغال ثلاثة آلاف وكان رصيده من الذهب مليونان ومئتان وثمانين الف اما البارود فكانت الكمية التى يمكلها كثيرة جدا وهذه الثروة قوت مركزه ·

فجيشه النظامى كان يربو عن خمسمائة جندى تركى وألفان وخمسمائة مـــن القبائل اما القواد الذين كانوا خاضعين لدولته كان فى استطاعتهم ان يزودوه بثلاثة آلاف جندى · أو أكثر من ذلك ·

وعلاوة على هذا فكان يمكنه ان يحصل على ثلاثة آلاف خيال وكان حريصا كـل الحرص على ان تدفع الرعايا الضرائب الواجبة ومن سولت له نفسه ان يتغافل أو يمتنع عن اداء ما وجب عليه فانه يلاقى منه العذاب كل العذاب ·

ومن الملاحظ ان قسنطينة كانت مدة ولايته تتمتع بالاستقرار وكانت الفلاحـة مزدهرة وكانت التجارة رائجة وقد تمكن القسنطينيون فى عهده ان يحصلوا على ثروات طائلة حيث انه كانت لهم علاقات تجارية مع افريقيا عن طريق بسكرة كما ان القوافل كانت تاتى من تونس ببضائع كثيرة وتاخذ منها ما هى فى حاجة اليه ·

وكانت عنابة الميناء إلتجارى تربط الجزائر مع تونس وأوروبا ·

ويذكر التاريخ ان قسنطينة كان لها ثلاثة حصون فبحرا حصن عنابة وبرأ حصن قسنطينة ومن الجهة الصحراوية حصن بسكرة وان قسنطينة لم تخضع للعدو وتمكنت من السيطرة على الجنرال « كلوزيل » وكان يسكنها حينئذ ·

1 ـ 5025 اتراك وكراغلة ·

2 ـ 6000 عـــربى ·

3 ـ 1000 يهـــودى ·

وكان أحمد باى خاضعا كل الخضوع الى الداى فى الجزائر بحيث انه كان لا يأتى امرا الا بعد مشاورته وقد حاولت فرنسا فى سنة 1830 لما سلم حاكم الجزائر البلاد للقواد الفرنسيين ان تجعل من أحمد باى حاكما على قسنطينة على شرط ان يكـــون خاضعا لها ولكنه امتنع والدليل على ان محاولات فرنسا باءت بالفشل الذريع ان أكبر هزيمة منيت بها الجيوش الفرنسية هى هزيمة كلوزيل سنة 1836 وبعد هذه الهزيمة

حاولت فرنسا مرة أخرى على ان تعقد معه محالفة ولكنه رفضها رفضا باتا وهـــذا ما الزم فرنسا ان تعيد الكرة وان تاتي بجنود جرارة الى قسنطينة سنة 1837 بعـد ان تكبدت من الخسائر اضعاف ما تكبده أحمد باى وجنوده وبعد خضوع قسنطينـة لفرنسا توجه أحمد باى بفلول جيوشه الى بسكرة وطرد حاكمها غير ان الامير اطرد أحمد بـاى لما يعهد فيه من سوء نية وأرغمه على ان يذهب الى الجـزائر ليعيش تحت حماية فرنسا عيشة الاذلاء ·

وقد فسر المؤرخون بان خذلان فرنسا من 1830 الى 1837 يرجع سببه الى المنعة التى كانت لقسنطينة وضواحيها والتى كانت تنعم بها بفضل الوحدة وكانت القبائل تخضع لقوة واحدة وخاصة ان قسنطينة قبل 1830 كانت تمتاز على غيرها بالوعى وكانت متدينة كثيرا بحيث ان المساجد الموجودة بها كانت لا تقل عن 35 وكانت المعاهد العليا سبعة والمدارس الثانوية تسعون والجدير بالذكر ان باى وهران وباى عـين بوسيف كانا عاجزين كل العجز على ادارة البلاد التى تحت تصرفهما اما أحمد باى فكانت سياسته سياسة حزم بحيث ان قواده كانوا ينفذون أوامره من دون ان يجدوا مخالفة وان الرعايا التى كانت تدفع ما وجب عليها من ضرائب فى الوقت المختار من دون ان تماطل المكلفين بجبى الضرائب ·

وكان يظن حاكم قسنطينة ان الاحداث التى أدت الى احتلال الجزائر ستقتصر على الجزائر فقط وان قسنطينة لن تستسلم وستبقى حرة طليقة ولو اجهدت فرنسا نفسها فى الاستيلاء عليها ·

وبعد ما فشل كلوزيل فى قتاله مع جيوش المسلمين بقيادة الامير رجع الى وهران ومنها الى الجزائر ثم الى فرنسا ليعتذر عن غزو تلمسان بدون اذن منها فقبلت عـذره ولكنه حين استنجد بها لم تنجده وجعلت اليه أمر الحرب بما عنده من الجند فى الجزائر ووهران فرجع بصفقة خاسرة وكان مهتما بغزو قسنطينة فسار اليها فى (المراكب) وارسى فى عنابة وفى نفس الشهر احتل قالمة واقام فيها اياما ثم عرض جنده وزحف الى قسنطينة فتلقاه القائد على بن عيسى وقاتله قتالا شديدا وفى آخر النهار انكشفت الجيوش الفرنسية واتصلت بها الهزيمة الى منتصف الليل واستمر كلوزيل راجعا الى قالمة تاركا قتلاه ومعظم ذخائره ومهماته فى أيدى المسلمين ثم سار من قالمة الى

عنابة ومنها الى الجزائر . وعلمت فرنسا بذلك فعزلته وولت مكانه الجنرال « دوبرو سوار » .

وكان الامير بفضل تجاربه وحنكته ينتظر الوقت الذى يفكر فيه قادة فرنسا توسيع نفوذهم فى الاقليم القسنطينى وكان يردد لجلسائه ان ساعة الصفر قربت تدق وان الجنود الفرنسية التى هزمت شر هزيمة فى معارك كثيرة فى الاقليمين الجزائرى والوهرانى لابد ان تحاول من ان تفتح جبهات فى قسنطينة حتى يتمكنوا من ان يكسبوا معارك هنالك وحتى يرضى عنهم الرأى العام الفرنسى الذى أصبح يرى فى احتلال الجزائر نكبة كبرى وحتى ان صحفهم الموالية للحكومة قررت اشهار حرب شعواء على القادة العسكريين فى الجزائر حتى يرجعوا بعددهم وعدتهم الى فرنسا الام .

ولم يخطر ببال أى شخص له اطلاع بالشؤون العسكرية ان تسمح لقائد كبير كالجنرال بيجو ان يتنكر لشرفه العسكرى وان يقضى على هدنته بجرة قلم وخاصة ان هدنته مع الامير كانت هدنة مستوفية الشروط وقد روعى فيها كل ما يجب ان يراعى من أجل ان يعيش الشعب العربى الجزائرى والشعب الفرنسى فى استقرار دائم ورخاء صادق .

وقد اظهرت الاحداث ان الغاية التى كان يهدف اليها الجنرال بيجو هو ان يرسى قواعد الهدنة لكى يجهز نفسه للقيام بالاستيلاء على قسنطينة .

وبمجرد ما فرغ الجنرال بيجو من أمر المعاهدة مع الامير بعث بالجند الذى كان عنده فى وهران الى الجزائر ، وبعد أيام أخذ الحاكم العام استعداده ثم سار فى المواكب المشحونة بالجند والذخيرة قاصدا قسنطينة ونزل فى بونة ومنها خرج الى قالمة ولا يزال يتقدم الى ان استولى على مضيق عمار وكانت حاميته اذ ذاك بعيدة جدا عن جند أحمد باى ، فلما رأت الحامية جنود فرنسا تفرقت من غير قتال . وبقى الحاكم الفرنسى فى المضيق المذكور ينتظر ان تلحق به الذخيرة والمهمات وقسم جنده أربع فرق ، وزحفت هذه الجنود فى الاراضى المجاورة لقسنطينة ولما وصل الخبر أحمد باى قاد جيشه الى خارج البلد واقام نائبه على بن عيسى فى باقى الجيش داخلها . واستمرت الجنود الفرنسية سائرة الى ان وصلت قرب البلد فقاتلها المسلمون قتالا مريرا واستمرت المعارك بين الفريقين ستة أيام .. ثم وقع فتور من الجيوش الاسلامية فتقدمت الجيوش الفرنسية فانتهزت الفرصة واستولت على الخندق فتوقف الحاكم العام الفرنسى عن

القتال وكتب الى الباى وعلى بن عيسى يدعوهما الى التسليم وذكر فى كتابه هذا انه لا مفر لهم من التسليم حيث ان الجيوش الفرنسية تسد عليهم كل طريق فأجابـوه بما نصه : وصلتنا رسالتكم وعلمنا ان مركزنا فى خطر عظيم ولكن استيلائكم عـلى قسنطينة المحمية لن يكون الا اذا اتيتم على آخرنا واعلموا ان الموت فى بلدنا خـير من حياتنا تحت سلطتكم ·

فلما وصل هذا الجواب الحاكم الفرنسى قال لقواده انهم ابطال وما رغبوا فيه سيعود على جنودنا بالعز والفخار ثم أمر باستئناف الحرب ، وأخذ الجيش فى دك الخندق وتوجه الحاكم الفرنسى ومعه الدوق دى بنمور الى التطلع للمعركة وبينما هم واقفون ان ارسلت من مدافع البلد رصاصات اصابت الحاكم الفرنسى فى صدره فاردته قتيلا، وتقدم الجنرال بريكو ليحميه فاصابته رصاصة أخرى الحقته برفيقه ، ثم اتفق القواد على تعيين الجنرال كاله حاكما عاما وهو الذى أمر باطلاق الرصاص على البلدة فارسل عليها وابلا من مدافعه ثم هجم عليها القائد لاموريسيار بفرقته واتصلت النار باللغم الذى كان المسلمون اعدوه للعدو فدمر عددا كبيرا من الفرقة المهاجمة وجرح قائدها لاموريسيار جرحا اعجزه عن القيام بمهامه · ثم هجم كومب بفرقته الاحتياطية واشتد القتال وابلى المسلمون بلاء حسنا فكان منظر القتلى مرعبا وانين الجرحى محزنا واستمات الفريقان ودهش الفرنسيون فى ذلك اليوم من ثبات أهل قسنطينة ونال الفرنسيون الغلبة لانهم اقتحموا اسوار البلد وتمكنوا من نشر راياتهم عليها ، غير ان الخســارة التى تكبدوها لا يعادلها شىء فقد قتل من القواد المشهورين عدد كثير منهم القائد العام الجنرال دامريمون والجنرال بريكو والكومندان كومب وغيرهم ، عدا ألوف الجند ···

ولما دخلت جنود فرنسا الى البلد تفرق العرب وفر أحمد باى فى جمع من خاصته ولحق بالزاب ثم أخذ عنوة مدينة بسكرة من يد حاكمها فرحات بن سعيد الزواوى ·

ومن العجيب ان أحمد باى ذهبت به الجرأة ان يكاتب احد الشخصيات التى عرفت بوطنيتها وعدوانها لفرنسا وهى شخصية على بن عيسى يقول له فيها : لقد وصلنى من الامير عبد القادر كتاب كما بعث بكتابين لرجلين من سكان قسنطينة يطلــب منا جميعا أن نقاوم جنود فرنسا وان نعمل كل ما يمكن ان نعمله من أجل ارغامها عـلى الخروج من قسنطينة من حيث دخلت واعلم انى لا أوافقه على ذلك ولن اعمل أى شىء من أجل عرقلة فرنسا لانى اعتقد ان الامير غير جدير بالتأييد · ولا انضم للامير ولن

أكون معه فى سياسته ولن اهاجم فرنسا وارى من واجبى ان اتفق معها وان اعينها على الامير لانها دولة حكيمة وقوية واكون غير عاقل ان حدثتنى نفسى بان افتح جبهة قتال جديدة ضدها ٠

وان نشبت حرب بين فرنسا والامير فى قسنطينة فيكون لى الشرف كل الشرف ان انضم للقواد الفرنسيين لاحارب الامير ٠

وقد اليت على نفسى بان لا أكون من أعوان الامير ضد فرنسا ولو بلغ الامير ما بلغ من القوة والصيت ٠

وكان يظن أحمد باى بان الولاية الجديدة التى استحوذ عليها فى الزيبان كافية بان تحميه من ضربات الامير غير ان تفكيره هذا قد تبخر بين عشية وضحاها ٠

ولما استولى الفرنسيون على قسنطينة فر أحمد باى الى بسكرة عاصمة الصحراء فاحتلها وطرد صاحبها ٠٠ فذهب فرحات الزواوى الى الجزائر مستنجـدا بحاكمها الفرنسى الذى تغافل عنه ، وكان الامير وقتئذ فى المدية فجاءه وشكا اليه أمره ودعاه الى الاستيلاء على بسكرة وما يليها من البلاد فأجابه الى ذلك وأمر الخليفة السيد محمد البركانى بان يجعل الجيوش المنظمة والمتطوعين فى خدمة فرحات حاكم مدينة بسكرة ولما شاهد أحمد باى جيوش الامير فر هاربا وتوجه الى حاكم الجزائر ، وقد استولى الخليفة على بسكرة ووفدت اليه الاعيان من كل جانب وصوب وقدموا اليه طاعتهم وطاعة جميع السكان وارسل الخليفة الى الامير كتابا يوضح له فيه الانتصار الذى احرزه فأمره بتمهيد تلك النواحى الى اطراف الصحراء ، ثم بالتوجه الى سطيف ثم بلاد مجانـــة ومنها الى جبال زناته وبعد الانتصار رجع الى المدية ظافرا فانعم الامير على فرحات ابن سعيد بايالة بسكرة وما يليها واستلم زمام أمورها بعد ان هدأت فيها الاعمال واستقرت فيها الاحوال ٠

وتسنى لفرنسا بعد ان فرضت ارادتها على سكان قسنطينة ان تتوسع وان تطرد من بسكرة ومن جميع البلاد الاخرى الحكام الذين كانوا يعملون تحت امارة الامير ٠

وقد حلت سنة 1847 وجاءت معها بكل الشرور للجزائـــر والجزائريين ورأى الجزائريون ان خلافاتهم اسفرت عن خضوعهم لارادة حكومة فرنسا وانهم سيسامون العذاب وان خيرات بلادهم ستنتقل من أيديهم الى أيدى الفرنسيين ليعبثوا بها ، وانهم سيندمون ندامة الكسعى والفرزدق على موقفهم المائع من الامير الذى كان يحدث نفسه

بان يرد للجزائر اعتبارها لكى تتحد الصفوف ولكي تعلم فرنسا وقوادها العسكريين ان سكان اقليم قسنطينة كسكان اقليمى وهران والجزائر لن يفرطوا فى وطنهم ولن يسمحوا للدخلاء ان يفرضوا سلطانهم عليهم .

وكان الامير يأمل من ان يجد قواد فرنسا من القسنطينيين الشدة والعنف حتى يتقهقر هؤلاء نوعا ما ولا يمكنهم ان يجيشوا الجيوش لمقارعته فى وهران وفى الصحراء المتاخمة للمغرب ولكن شاءت الاقدار ان يستسلم الكل للقضاء والقدر وان يتركوا لفرنسا الفرصة سانحة لتعبث بامانيهم وأمالهم . وان تشيع فى أرض الابطـال الفـوضى .

لقد ظنت فرنسا انها وطدت اقدامها فى الجزائر وان المواطنين الجزائريين لن يثوبوا لرشدهم بعد الضربة القاصمة التى وجهتها اليهم فرنسا ويحق لها ان تاتى من المناكر ما يحلو لها غير ان الامور جاءت خلاف مطامعها ومطامحها الاستعمارية البحتة .

وقد ثار الجزائريون على فرنسا كلما وجدوا لذلك سبيلا .

لقد كانت فرنسا تعتقد ان دسائسها ومؤامراتها كافية بان تخدر الاعصاب ، أعصاب الجزائريين لتمتص خيرات البلاد وتتيح الفرصة لطريدى الجنسيات بان يكونوا أصحاب الحل والعقد فى الجزائر بلاد العرب وبلاد المسلمين ولكنها ادركت بعد حين انها مخطئة وان الشعب الجزائرى الذى اعتبرته خاضعا لارادتها لن يصبر طويـلا على الضيم وانه يتحين الفرص لكى يكسر قيوده ويسترد حريته لان أوائله كانـوا السادة ومن المحال لسيد ان يخضع لمستعمر مستبد وان يسلم له مقاليد أموره وتصبح بلاده مستعمرة من مستعمرات الامبراطوريات ولو كانت هذه الامبراطورية امبراطورية فـرنسا .

لقد كان موقف الجزائريين موقفا مشرفا ولئن رضوا بالاستعمار فانما كان رضاهم لفترة قصيرة جدا ولئن دام استعمار فرنسا فى الجزائر من 1830 الى 1962 من دون ان تتمكن فرنسا من السيطرة على الشعب الجزائرى فهذا دليل واضح على ان هذا الشعب غيور وليس من الممكن ان يتنصل لتاريخ آبائه وأجداده وانه سيرجع الى حظيرة العرب ولو كان الاستعماريون بعضهم لبعض ظهيرا .

مواثيق فرنسا حبر على ورق

ورغبت فرنسا فى نقض الهدنة وتجديد الحرب مع الامير اذا لم يجنح للسلم على شروط ترضيهم فعزل الجنرال كلوزيل عن الجزائر ونصب الجنرال دومرمون حاكما عاما عليها • وعزل الجنرال اوبروسوار عن وهران وولى مكانه الجنرال بيجو وسار كل منهما الى موضع ولايته مزودا بالعدة والرجال •

وخير الجنرال بيجو بين نقض المعاهدة المبرمة بين الامير وحاكم وهران السابقة أو عقد شروط صلح جديدة مع الامير على وجه يرضى مقام فرنسا • وامرت حاكمها العام ان يجرى كل الاسباب التى توهن عزم الامير وترغمه على قبول معاهدة جديدة •

وقد أخذت الضمائر فى فرنسا تستيقظ شيئا فشيئا ، وادرك الرأى العام الفرنسى ان هناك أحداثا خطيرة تجرى دون ان يعلم حقيقة أمرها ، وأصبحت تلك الاحداث موضع حديث الفرنسيين ، وتناولتها الصحافة الفرنسية بالبحث والتنقيب ، وكتب مراسلوها يصفون ما يجرى فى الجزائر مما اقلق السلطات ، وآثار حنقها ، فحققت النيابة فى بعضها وصودرت الصحف التى استاءت من الوضع •

كما هبت عدة منظمات وجمعيات فرنسية ، وجاهرت باستنكارها للسياسة التى تتبعها الحكومة الفرنسية فى الجزائر •

وقد كتب المريشال بيجو الى الامير رسالة ظاهرها ايمان وباطنها كفر ، وكان رد الامير عليها ردا رادعا وهذا فحواه :

لقد وصلتنا رسالتكم وقد اطلعنا على ما جاء فيها وقد استنتجت من مفهوم منطوقها انكم تريدون ان يعلم الناس مدى قوتكم وانه في استطاعتكم ان تأتوا العجائب وان تفرضوا ارادتكم على من تحبون لاعتقادكم بان القوة أساس النجاح واسمحوا لى ان اسفه آراءكم وان أبرهن لكم بان القوة الحقيقية هى قوة الله وانه الوحيد الذى فى استطاعته ان ينصر من اراد وان يحمى الضعفاء من طيش المستعمرين امثالكم .

لقد سبق لنا ان خضنا معكم معارك كثيرة وبالرغم من ان عددنا كان قليلا جـدا بالنسبة لعددكم فقد انتصرنا عليكم وكبدناكم الخسائر الفادحة ولم ينفع عددكم وعدتكم وانقلبتم الى اهليكم تجرون اذيال الخزى والعار وقد صدق فيكم قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

وتحققوا اننا لن نرضى ونحن أصحاب النفوس الابية ان نقعد مع الخوالف وقد كان أوائلنا من السابقين الاوائل كما لا نرضى ان نكون تابعين بعد ان كنا متبوعين وان يسودنا من كان من جملة الخدم . سلوا التاريخ يخبركم فان دولتكم كانت تابعة لدولة الجزائر ، وانها هى التى حالت بينها وبـين قـوات انكلترا واسبانيا اللتين كادتـا تدخلها فى خبر كان .

الا يشهد لنا التاريخ باننا استولينا بالتدريج على نصف فرنسا الحاضرة وكنـا الاسياد على المساحات الفرنسية الشاسعة التى تبدا من ضفاف نهر اللوار وتنتهى الى مقاطعة فرانس كونتية الم نبسط نفوذنا الكامل على فرنسا حتى ان شارل مارتـل انزوى فى قعر بيته واحجم عن المقاومة لما طلب منه ذلك .

وكان جواب شارل مارتيل على من حرضه على مقاومة العرب الافريقيين الذين مـن ضمنهم الجزائريين ما يلى :

« دعوهم يصنعون ما يشاؤون فهم الآن مستأسدون وهم كالسيل الذى ياتى على كل ما يعترضه وما عندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع والصحون .

الم يان للتاريخ أن يذكر الحقائق كما يجب وان يشيد بانتصار المغرب العربى فى معركة اربونة ومعارك أخرى التى لا تعد ولا تحصى وان يقول بان العـرب استوطنوا

بفرنسا قرنين اثنين وان حاكم مرسيلية سلم لهم برضاه مقاطعة البروفنس سنة 737 كما استولوا سنة 1889 على تروبيدز وقد دامت اقامتهم بمقاطعة البروفنس الى نهاية القرن العاشر ٠

ولا اظنكم تجهلون ان شارل مارتل الذى دحر العرب فى بـواتى لم يستطع ان ياخذ منهم اية مدينة كانوا قد احتلوها عسكريا وقد اضطر الى التقهقر أمامهم تاركا لهم ما قد كانوا استولوا عليه وقد كانت النتيجة التى اسفر عنها انتصاره فى بواتى هى ان جعل العرب أقل جراة من ذى قبل على غزو شمالى فرنسا ٠

ومما تجدر الاشادة به ان بيجو كثير الشبه بمارتل وكل منهما تحين الفرص وطاطأ الرأس عندما لمس القوة عند خصمه وكل منهما رفع خنجره وطعن من الخلف عندما احس بان الظروف مواتية له ٠

ان الجنرال بيجو كان قائدا للقوات الفرنسية فى وهران وهو الذى ابرم معاهدة تافنا مع الامير واستدعته فرنسا لعدم تمكنه من النجاح فى بلاد العرب ٠ واعادتـه حكومة فرنسا مرة ثانية مزودا بجيش وعتاد حربى لم يسبق لاى ممن سبقوه من الحكام لا سيما انها اعتبرت الامير عبد القادر قوة عظيمة فى كل أمر ٠ وهذا ما يفسر امداده بكل ما أحتاجه للنضال فى بلاد العرب ٠

وقدم الجنرال بيجو اعفاءه من أعماله فى الجزائر طلبا للراحة ٠ فرارا من حروب قادها طوال ست سنوات متوالية وهى آخر المطاف تمكن من نقض المعاهدتين ٠

وسافر الى فرنسا وتولى بدلا عنه الجنرال بار وكيلا فى الجزائر والجنرال لامورسيار على ولايته وهران ، والدوق دومال حاكما عاما ، والجنرال بيدو حاكما على قسنطينة ، والجنرال كافنياك على الجزائر ٠

وفى 15 من مارس سنة 1848 استطاع الدوق دومال ان يكتسح مدينة بطاكين ولم يكن من حاميتها سوى خمسمائة جندى وقد خدع هؤلاء السكان بالمكيدة التى دبرها الدوق دومال بان ارتدى جنوده لباس الجنود المسلمين فاستطاع ان ينالهم فى سهولة ٠

لقد خولت فرنسا للجنرال بيجو ان يقضى على معاهدة دى ميشيل التى اعترفت بسيادة الامير على جزء كبير من الجزائر كما زودته بكل ما هو فى حاجة اليه ليقضى فى نفس الوقت عـلى معاهدته هـو هذه المعاهدة التى بموجبها انسحبت فـرنسا مـن ممتلكات كانت خاضعة لها وسلمتها للامير ليحكم فيها بما انزل الله ٠

وقد حددت هذه المعاهدة الاراضى التى يحتلها الفرنسيون ، والاراضى المستقلة . كما نصت على احترام الشريعة الاسلامية منقبل فرنسا وحرية ممارسة المسلمين الواقعين تحت الاحتلال شعائرهم الدينية ، ونصت المادتان السادسة والسابعة على امداد الامير للجيش الفرنسى فى وهران بقدر محدد من الحنطة والشعير والبقر مقابل شراء الامير من فرنسا ما يحتاجه من بارود وكبريت ومعدات حربية .

وتقضى المادة التاسعة بان يتخلى الفرنسيون للامير عن ميناء رشكون ومدينة تلمسان وقلعة « المشور » مع المدافع القديمة التى كانت فى القلعة قبل استيلاء الفرنسيين عليها .

اما المواد الباقية أى الى المادة 15 فانها تقضى بحرية التجارة بين الطرفين . والتكريم المتبادل للاهالى . وتبادل المجرمين بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية وتعيين ممثلين ووكلاء لكلتا الدولتين فى المدن الرئيسية الواقعة تحت حكمها .

ولم تعمر هذه المعاهدة طويلا لان بيجو لما فكر فى اقامتها كان يامل بان ياتى اليوم الذى يمكنه ان يتنكر لها ويسعى للاطاحة بها لانه كان مقرر فى اتفاقية 30 مايو سنة 1873 المعروفة باتفاقية بيجو ان فرنسا لن يكون لها نفوذ الا على الاراضى المعينة لها وان المسلمين لن يكونوا خاضعين لسلطانها بأى وجه من الوجوه وكان موقف الامير من التعديل الذى فرض على ابن حراش موقف المعارض لان هذا التعديل لم ولن يوافق عليه وخاصة انه جاء فى التعديل الذى فرضه الماريشال فالى ما يخالف قلبا وقالبا الاتفاق الاول ولهذا فان ابرامه يعتبر جناية كبرى على الاسلام والمسلمين فى الجزائر .

وقد أحتار بيجو وحاول بكل ما أوتى من حيل ان يكتب رسالة الى الامير يستدرجه فيها حتى يدفع له الحبوب المنصوص عليها فى المعاهدة الاولى وقد كان يظن بيجو ان الامير سيوافق على جزء من الشروط ان لم يكن على كلها وانتظر الرد عن مقترحاته وجاءه الرد عن طريق حكومته حيث ان الامير بعث بتقرير شامل عن الوضع شارحا مواقف قواد فرنسا غير المشرف ومن جملة ما جاء فى الرسالة التى وجهت الى الملك ما يلى :

اما ما يخص عدم تسليم الحبوب التى التزمنا بتسليمها فاننا تاخرنا عن ذلك بالقصد لان الجنرال بيجو لم ينفذ الامتزامات .

وقد دهش الماريشال بيجو لما اتم قراءة التقرير وقرأ بين الاسطر ان الامير لـن يكون مضغة سايغة وان الداعي لاتخاذ هذا الموقف ان جميع اعضاء الحكومة والعلماء كانوا مستئين من السياسة الفرنسية ولا يسعه ان يخالف لهم رأيا وخاصة ان الناس عامهم وخاصهم انكروا على الامير اتفاقية مع الفرنسيين لان المبايعة التى بايعوه بها تنص على ان يجاهد حتى تكون الارض الجزائرية للجزائريين والدين لله وان الشعب الجزائري لن يغفر له ابرام الاتفاقية المعدلة للاتفاقية الاولى والتى ادخلت تغيرات كثيرة على الاتفاقية الاولى ٠

ولم يسبق للامير ان عقد مجلسا كهذا وان الشعب كله شارك علماءه والتجـار والاعيان والفقهاء وانهم اتفقوا كلهم على الغاء هذه المعاهدة الثانية التى جاءت لتعرقل حركة السلام والاطمئنان السائدين فى البلد كما ان الامير كلف جميع الخلفاء فى جميع المناطق بان يعلنوا عدم رضاهم بالاتفاقية الثانية التى امضاها خليفته ابن حراش وان فرنسا لها الاختيار بين أمرين اما ان تنفذ اتفاقية 30 مايو سنة 1837 تنفيذا شاملا من دون ان تطمع فى ابرام الاتفاقية الثانية وان اصرت على الاتفاقية الثانية فان الفاصل بينها وبين المسلمين يكون السيف وان المسؤولية حينئذ عند استئناف القتال تكون على قادة فرنسا اللذين لم ينجزوا ما وعدوا به واصبحوا يزيفون الحقائق ٠

وان أول ما قام به الماريشال بيجو من اجراءات هو التعدى على البلاد المجاورة له ٠

ولكن الامير الذى كتب على نفسه ان يكون حذرا كان قد اعد العدة وهيا للامـر اسبابه واراد ان يفهم الماريشال انه لن يرضى بتاويل المعاهدة لمصلحته فكتب اليه ان هذا التعدى خروجا منكم عن جادة العدل بعيدا عن الصواب ولا سيما ان أهل تلك الناحية لم يحل فى اعينهم فعلكم بل رأوه تعديا على حقوق المسلمين وظلما لهم ولا اتصور ان دولة عظيمة ومشهورة مثل دولة فرنسا تأتى مثل هذا ٠

وبالجملة فاصراركم على تأويل الالفاظ لا يليق بكم بل يجب عليكم وعلينا ان نحافظ على النصوص الصريحة ونجرى أمورنا بموجبها » ٠

فاجابه الماريشال بيجو بما يأتى : « ان مراجعتى لسموكم مبنية على ملاحظة كلمة « فوق » المذكورة فى التحديد فارجو ان تلاحظوها »٠ وكان جواب الامير عن ذلك باسرع ما يكون :

« ان جوابي الاول وما بعده ومراجعتي كلها مبنية على ملاحظات كل ما ذكرناه في التحديد كلمة كلمة · وهو الصواب المطابق للغة العرب وما فهمتموه انتم من كلمة « فوق » وكلمة « إلى » غير مطابق لما اتفقنا عليه وعندكم من علماء اللغة العربية مـن يحقق لكم ما ذكرناه وان هذه المراجعات لا تجدي نفعا » ·

غير ان هذا الكلام الجاد لم يقلل من الاختلافات بين وجهتي نظر الامير ونظـر الماريشال ·

واستمرت المشكلات تزداد يوما فيوما ·

ومع هذا فان الامير بقي على ما هو عليه يحاج في الوقت الذي يجب ان تقـع فيه المحاجة ·

والذي شجعه على ان يبقى على صلته بالماريشال ان الامير قد تبين له ان فرنسـا كانت في ذلك الدقت تريد ان يبقى السلام مأمونا بين السلطتين الفرنسية والعربية ·

غير ان ذهاب الماريشال بيجو الى قسنطينة فتح الباب على مصرعيه للامير واتاح له ان يستولي على مجانة والصحراء وغيرها من النواحي الشرقية والجنوبية وان هـذا الاستيلاء قرأ له الماريشال ألف حساب وكاتب الامير قائلا له :
« ان ما اتيتموه مخالف للمعاهدة » · فأجابه الامير بما نصه :

« انكم استوليتم على مدينة قسنطينة والخط الممتد فيها وبين مرسى بونـة فان ادعيتم ان جميع ما كان تحت سلطة أحمد باي داخل تحت نطاق حكمكم فالمسالة مسالة نظر واما ما استولينا عليه نحن فانه بعيد عن دعواكم ولا حق لكم فيه بتاتا ، لان هذه المناطق ليست من مناطق قسنطينة التابعة لحكومة أحمد باي وما كان في طاعته ·

وعلاوة على ذلك فان أهل البلاد غير راضين عنه والناس لم يقبلوا ان يكون ولي أمرهم ولا اعتبروه رئيسا عليهم مطلقا وتغلبه على مدينة قسنطينة وبونة كان ظلما وعدوانا ولو وجد أهل تلك النواحي من المسلمين من يأخذ بأيديهم ويدفعه عنهم لسارعوا اليه كما وقع ذلك حين توجهنا الى النواحي والاراضي التي تنازع عنها عمالكم بغير حق ·

وبالجملة فهؤلاء العمال معنا حايدون عن طرق الحق مغايرون لاساليب العدل » ·

لما وصل الامر الى هذا الحد وعلم الامير ان المعاهدة قد تقطعت نياطها واختلت شروطها فاوصى أهل دولته وندبهم الى الجهاد ثم دعا قواد جنده وكبار الحضرة الى الجامع وطلع

الى المنبر وخطب فيهم يقول : « اما بعد فلا يخفى عليكم ان الله تعالى قال : « **يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** » ، وقال : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » ··· وهؤلاء الفرنسيون قد عاهدناهم فنكثوا عهدهم وخانوا ميثاقهم على حين غفلة وقد خدعوا الدوائر والزمالة وضعفاء الدين منهم وحازوهم اليهم · فما الذى يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ونحن موعودون بالنصر على أعدائنا ، فهيا بنا الى الجهاد ··· » ، فضجت الجموع بالتأييد والحماس ولبث الامير ينتظر جواب الحاكم فلما تأخر عنه ، وجاء الامر للوكيل بالسفر الى وهران دعى وكلاءه من مواضع اقامتهم وأمر بنشر علم الجهاد وبدء الكفاح وصدرت الاوامر الى سائر النواحى والجهات بالتأهب للحرب وارتاح الجزائريون الى ذلك واستعدوا للقتال حتى اهتز المغرب الاوسط بأهله وبادر ابطاله الى الوقوف فى طاعة الامير ·

ولقد تسنى لهذا الجيش القليل العدد الذى يقوده الامير عبد القادر من قهر أكبر جيش برى فى القرن التاسع عشر ، أكثر من عشر سنوات متوالية ، وقف بعدها موقف المدافع المستميت عن الوطن · واستطاع ان يؤخر الاحتلال الاستعمارى الكامل للبلاد سبعة أعوام أخرى ·

وقد شارك الشعب الجزائرى كما شاركت جميع طبقاته مشاركة فعالة فى الحرب· فساندت الجيش المنظم فى نضاله ، وحملت السيف الى جانبه · ولولا ذلك ما تمكن جيش الامير من الصمود طويلا أمام قوات فرنسا الغاشمة ·

وبما ان الماريشال كان لا يفكر الا فى شيء واحد وهو نقض المعاهدتين ليتمكن من ان يجيش الجيوش فى جميع انحاء الجزائر عله يضعف قوى الجزائريين وقوى الامير فقد لجأ الى عقد مجلسه الحربى فى وهران وجلب الجيوش الفرنسية من الجزائر الى مدينة معسكر حيث اقاموا فيها · واعاث الفرنسيون فى الجزائر العربية وخربوا ديارهم وارتد اليه بعض الانذال الذين ساعدوه فى كشف عورات الجزائريين وارشدوه الى الطريق الذى يمكن أن يسلكوه ، واغروهم فى ذلك بالذهب والوعود ·

وفى 29 من يناير سنة 1843 خرج بيجو من معسكر كثيف الى تلمسان فلما علم الامير بوجهته أخلى البلاد من المؤن والذخائر الا ان بعض الرجال عادوا اليها ليلا بعد ما رحلوا نهارا مع الامير وقدموا طاعتهم الى الماريشال بيجو واخبروه ان جيوش الامير قد لانت شوكتهم وهدت عزيمتهم من طول الحروب فعقد العزم على الاقامة فى تلمسان

وتحصينها وكان فى نيته ان يتركها خاوية ونصب الجنرال بادو قائدا عليها • اما الامير فقد رحل الى ندرومة •

واتصل خبر رحيل بيجو الى تلمسان فجمع الخليفة جنده وباغت الفرنسيين فى معسكرهم وهزموهم واستولوا عليهم حتى فر نائب بيجو ومن تبقى من جنوده الى وهران سيرا على الاقدام •

وان تاهب الماريشال بيجو لاستئناف القتال بجيوش كثيرة العدد قد اعطى فرصة للامير بان يتخذ من الاجراءات ما يظنه صالحا لرد كل صائل بما امكن واستطاع ان يطلع المواطنين على الخطر الذى يهددهم ودعاهم ان يتدبروا الامر قبل فوات الآوان وان يعملوا ما فى وسعهم من أجل ايقاف تعدى فرنسا السافر واحاطهم علما ان السلام لن يستتب فى الجزائر ما دام هناك غزاة واستعمار وقد آن للبشرية ان تشفى من مرضها الوبيل هذا ولذلك فان على الجزائريين ان يعملوا دائما على ازالة كابوس الاستعمار عن كل أراضيهم ، سواءا كان كان هذا الغزو الاستعمارى سياسيا أو اقتصاديا أو فكريا ، لان مجرد وجوده يخلق بؤرة جرثومية تعرض جسم الجزائر كله للعدوى والهلاك •

وخطب الامير فى قومه فقال :

هل تنقصنا المادة ؟

هل ينقصنا العدد ؟

هل ينقصنا الموقع الاستراتيجى ؟

هل ينقصنا الشعب الذكى ؟

هل ينقصنا الايمان القوى ؟

هل تنقصنا القدرة على الكفاح المتواصل ؟

هل تنقصنا الرغبة فى العمل ؟ •

كلا لا شىء من كل ذلك ينقصنا فلدينا المادة بكميات وافرة •

ولدينا العدد الذى يزيد عن 4 ملايين •

ولاية دانرمون ومعاهدة بيجو

ان ولاية دانرمون على الجيوش الفرنسية المرابطة فى الجزائر كانت فى الحقيقة لا وجود لها بالمرة وان دانرمون القائد العام أتت به وزارة الدفاع من أجل ان تحطم مناوياته باعطاء الاسبقية للجنرال بيجو فى جميع الاعمال ٠

ان بيجو بصفته عضوا فى البرلمان وبصفته صديقا حميما لوزير الدفاع وبصفته من المقربين لدى حاشية الملك ومن الملك نفسه فانه كان يتصرف تصرف المالك فى ملكه وكل هفوة تصدر منه كان يدعى بانهاستاذن الوزارة فى دعمه وموافقتهاعلى القيام بما اجراه من أعمال ولو لم تكن احيطت علما بذلك ، اذن يمكننا ان نقول بان ولاية دانرمون كانتولاية رمزية ٠ وان دانرمون كان وجوده وجودا صوريا وان صاحب الكلمة الاخيرة فى كل الاعمال الحربية كانت تخرج من مكتب بيجو ٠

ان فالى حاول ان يشعر الضباط التابعين له بانه هو المسؤول على مصير الجنود الفرنسيين فى الجزائر غير ان الضباط وحتى الجنود لم يقرأوا حسابا لاقوالة واعتبروها اقوالا لا تقدم ولا تؤخر لان القائد العام هو بيجو ٠

ان بيجو بما له من الدهاء نصب حتى فى مكتب القائد العام طابورا خامسا ليراقب أعماله ويحيط بها علما من آونة لأخرى وأدرك فالى بان الارض تميد تحت أقدامه غير انه لم يجد حيلة للتخلص من قبضة بيجو الحديدية ٠

لقد كان يظن الامير بان فالى هو القائد العام حسب ما قررت ذلك وزارة الدفاع وبدأ المكاتبة معه شخصيا واغفل بيجو تماما لانه تابع لفالى وان الكلمة الفاصلة فى جميع الامور لابد ان تصدر من فالى لا من بيجو وأخيرا ان بيجو ادرك بدوره بان الامير

غض الطرف عنه لانه يعتبره قائد وهران لا غير وان قيادته لوهران تحتم عليه الا يأتي أمرا حتى يستشير القائد العام فالي ٠

وتفاديا لغطرسة فالي وفهم الامير بان فالي هو صاحب الامر والنهى فقد اجهد بيجو نفسه بان يخير وزارة الدفاع فيما يعود لمجابهة الامير للغزو الفرنسى بان تكلف فالي أو تكلفه هو وان قررت الوزارة اسناد معالجة هذه المشكلة لفالي فانه يسلم له الجمل وما حمل ويطلب انهاء مهنته ٠

واشار لوزارة الدفاع انه بلغ من العمر عتيا وان معارك الجزائر انهكت قواه وما رضى بان يرجع للجزائر الا من أجل المحافظة على المكاسب التى احرزتها القيادة العسكرية الفرنسية منذ ان قامت بالغزو الى الآن ٠

وبما ان فالي كان له أيضا فى مكتب بيجو عيون وان هذه العيون الساهرة هى التى تحيك المؤامرات لم تدخر وسعا من أجل ان تسلم لفالي نص الرسالة التى كتبها بيجو لوزارة الدفاع للاطاحة به ٠

وبما ان الحديد لا يفله الا الحديد فان فالي لم يبق مكتوف الايدى بالرغم من انه كان يعلم مسبقا بان بيجو سينتصر عنه لكثرة ارتباطه بالشخصيات الفرنسية التى لها صلة بوزارة الدفاع والبلاط الملكى ومجلس الوزارة والملك نفسه فكتب الى وزارة الدفاع يشكو من تعدى بيجو السافر على القيادة العليا وتجاهله بان من الضرورى الا يأتي أمرا الا بعد ما يستشيره حسب البروتوكول المعمول به فى فرنسا ولدى جميع الدول التى تتبع خطوة النظام ٠

ان وزارة الدفاع صعب عليها ان تتحمل وحدها الفصل فى قضية لمن تستند اليه الاولية فى مقارعة الامير وقد طلبت الايضاحات من جميع الوزارات التى تمت بصلة الى غزو الجزائر ومتابعة الغزو أو عدمه وقد كان صعب على المسؤولين فى الحكومة الفرنسية ايجاد حل يرضى الجميع وخاصة ان القائد العام الذى كانت بينه وبين بيجو خلافات بسبب تعنت بيجو وكبريائه لم يطق صبرا على اهانة بيجو له من آونة لاخرى واقام الشكاوى الواحدة تلو الاخرى وفى آخر المطاف تسرب الى الصحافة ما دار فى الاوساط الحكومية وهو ان آراء العامة فى فرنسا متفقة على ترك الجزائر لاهلها وان رجال الدولة يرون دوام الحرب الى النهاية وان الجنرال بيجو مخير من دولته بمهمة فى غاية الخطورة اما ان ينقض الهدنة المعقودة بين الامير وحاكم وهران السابق الجنرال

دى ميشيل واما ان تبرم الصلح مع الامير على وجه يتفق ومطامح فرنسا فى الجزائر وأمرت الحاكم العام بان يقوم بجميع الوسائل والاسباب التى يحدث بها الوهن فى قوة الامير ويجرى صلحا متين الاركان مقبولا من دولة فرنسا على شرط ان لا يعارض بيجو فى جميع ما يتخذه من تدابير ·

وبعد ما وصلت المسألة الى هذا الحد تنفس الصعداء وقال لبعض اعضائه وهم قلة ان المحسوبية بدأت تتسرب الى ادارتنا وان هذا التغير المفاجىء فى سلوكنا لن يكون فى صالحنا ان لم يكن اليوم فغدا وما غدا ببعيد ·

اما موقفنا نحن معشر الجزائـــــريين من فالى وبيجو وغيره من القواد الذى هزمهم الامير هـزائم سجلها التاريخ · ان الجزائر لن تضـــع السـلاح بسبب انتصـار بيجو لان الهزائم التى انصبت على رأســه كثيرة وكثيرة جدا حيث انه فكر فى الانتحار وان استسلام الامير وعدم متابعته للقتال مرده للفئة الضالة من افراد الشعب الجزائرى التى باعت آخرتها بدنياها بنسبه الشطر والشطر الاخر مسؤول عنه سلطان المغرب الذى لم يطبق المثل القائل أنا وأبن عمى على العدو · وان هذ االسلطان اضطر لاسباب قاهرة ان يجثو على ركبتى بيجو ·

وعلى كل فان الامير كافح كفاحا مريرا وأرغم بيجو على ان يعقد معه معاهدة وان يشفع هذه المعاهدة باتفاق سرى ·

لقد تاثر بيجو من الهزائم التى منى بها قواد فرنسا تريزيل ودى ميشيل وغيرهم وقرر ان ينتقم لهم جميعا وان يقضى القضاء المبرم على نفوذ الامير وكان مغرورا بنفسه بحيث انه كان كثيرا ما يعصى أوامر قادته وفى نفس الوقت كان يعامل الضباط الصغار معاملة جافة ·

وبالرغم مما عرف عنه من جبروت وكبرياء رأى الامير من الانسانية ان يطلق سراح اسرى الفرنسيين على شرط ان يعامله الجنرال بالمثل وللتوصل لذلك بعث له بالرسالة التاليـة :

20 أكتوبر سنة 1846

من الامير عبد القادر بن محيى الدين الى الجنرال قائد حامية وهران سلام على من اتبع الهدى وبعد :

اننا فى حرب منذ مدة والحرب سجال كما تعلمون يوما لك ويوم عليك وأكبر دليل على ذلك المعركة التى خضناها ضدكم فقد انتصرتم علينا فى الصباح وفى المســاء كان انتصارنا عليكم ليس له مثيل وقد تمكنتم من الحصول على أسرى من صفوفنا كما تمكنا من حجز عدد لا يستهان به من رجالكم ونسائكم واياكم ان تظنوا باننا نريد بهم سوء اما النساء فتحترمن لان الدين الاسلامى يامرنا بذلك • وشهامتنا العربية لن تسمح لنا ان نحيد ولو بقيد انملة عن احترامنا للمرأة وتقديسنا لجانبها وانى أرى من صالحكم وصالحنا ان نتبادل الاسرى وبذلك يكون كل منا قد حصل على منافع وان امتنعتم عن ذلك فان الحرب تبقى بيننا ولن نضع السلاح حتى يقضى الله أمرا كان مفعــــولا •

غير ان جواب بيجو كان فى غاية السخافة والانحطاط الخلقى ولو كان بيجو الآن حيا وقرىء على مسمعه فحوى خطابه لما تصبب جبينه خجلا ولكن وانى لقادة فرنسا قديما أو حديثا ان تكون لهم لباقة أو سياسة أو دبلوماسية فقد عرفوا كلهم بعــدم أصالة الرأى وللقراء نص الرد الذى تلقاه الامير :

25 أكتوبر سنة 1836

مـن بيجـو الى الامـير

لا يمكننى ان اقبل بتسريح أسراكم فى مقابل أسرانا من النساء وقد اشدتم فى خطابكم بتقديسكم للمرأة ولا اخالك تجهل باننا نحن معشر الفرنسيين نعطى قيمة للمرأة أكبر من أى شعب آخر •

وقد تكلمت عن استمرار الحرب فاعلم اننا لن نتأخر عن كفاحــــكم والاستحواذ على المزارع وغلاتها والحيوانات حتى لا يمكنكم الاعتماد على هؤلاء الجزائريين الذين كانوا الاعتماد الكلى فيما خضتموه من معارك •

واظن انــــكم ستلجأون الى الصلح وبذلك نتفادى جميع الاخطاء ونعيش كجيران يحتاجون بعضهم بعضا وان لم تفكر فى ذلك فان أسراكم سنذهب بهم الى فرنســا وهناك يتمتعون بالحرية التامة ويتعلمون اشياء كثيرة حتى يكونوا اعضاء عاملين فى المجتمــــع •

وان امتنعت انت عن ايجاد حل لمسالة الاسرى فاننى اقترح على اقارب هؤلاء الاسرى بان يتفقوا معى وكل قبيلة تتفق معى فلا أرى مانعا من تسريح أسراها •

وبدلا من ان يكون الامير هو أول من يطلب الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح حينما كان يعتقد بيجو بان فى وسعه ان يشيع انقسامات بين الجزائريين فاذا به يرى بان الاوضاع تبدلت رأسا على عقب وان الهزائم المتكررة التى انصبت على رأسه ارغمته أن يجعل كبرياءه وراء ظهره وان يصارح الامير من دون لف ودوران بانه اصبح من الممكن ان يبحثا سويا الطرق الناجحة لجعل حد للخلاف الناشىء بين فرنسا المسيحية والجزائر المسلمة ٠

وبعث له برسالة تختلف كثيرا عن الرسالة الاولى وكانت فى غاية اللطف ولا غرابة فان قادة فرنسا لا يخضعون الا للقوة وكان رد الامير على طلب بيجو ان بعث بكتاب الى الاسرائيلى بن دران هذا نصه :

رسالة من الامير الى بن دران

بعد التحية افيدكم علما ان قائد وهران الجنرال بيجو بعث لنا برسالة يطلب فيها منا ان نتفاوض معه من أجل الصلح ويرجونا ان نكلف شخصا من طرفنا قبل مضى 3 أسابيع غير ان رسالته كانت تحتوى على كلمة قد أثرت فينا كثيرا ومن العجيب انه هو الذى فتحنا من أجل الصلح ثم سمحت له نفسه بان لا يكون لبقا ٠

ويجب عليه ان كانت نيته حقيقة التوصل الى الصلح الا يستعمل سكرتيره الحالى لانه مشهور بتزييف الحقائق وخاصة ان له صلة باعداء الوطن مصطفى بن اسماعيل والدوائر ، هؤلاء الاشخاص يسوءهم جدا ان نتفق ٠ وان أراد بيجو ان المفاوضات ستكون نتيجتها الاتفاق المثمر فله ان يستعمل كاتبا يثق به حتى لا يتسرب الشك الى اذهاننا وقد اعلمت بيجو بأن التفاوض والشروط التى يتقدم بها يجب أن يحيطكم بها علما لاننى لا اثق فى غيركم ٠ وقد احضر لى احد خواصى رسالة موجهة من بيجو الى العرب وان الاشخاص الذين وصلتهم هذه الرسالة افـــادوا مبعوث بيجو بأنهم لا يملكون سلطة للتفاوض معه وانه ان أراد ذلك فعليه ان يتصل بالامير الذى بويع من أجل القتال الى آخر قطرة من دمائهم ٠

وانى ارسل اليكم هذه الرسالة لتسلموها لبيجو حتى يكون على بينة من أمره ويدرك قبل فوات الآوان ان الصلح لن يتم الا اذا نوقشت شروطه معى ٠ وبعث له برسالة أخرى جاء فيها :

من الامير عبد القادر الى الجنرال بيجو :

السلام على من اتبع الهدى وبعد ٠٠٠ كنت أظن أنكم لا تتعبون أنفسكم فتبعثون الى بهذه الرسالة التى قررتم فيها الاتفاق مع القبائل بالرغم من أن هذه القبائل قد أفهمتكم بانهم لا يكاتبونكم أبدا فى جميع ما تعرضون عليهم ، لانهم بايعونى على السمع والطاعة ، وفوضوا لى متابعة القتال حتى النهاية ٠ انى مسرور جدا بمكاتبتكم اياى ، واعذرونى ان كنت تأخرت فى الرد عن أجوبتكم ، والسبب فى ذلك أن كثرة الاعمال أرغمتنى على أن أهمل الرد مؤقتا وذلك لان ادارتى لا تنقطع عن العمل ، فادارة جبي الاموال لا تغلق أبوابها ليلا ونهارا ، وكذلك ادارة الزكاة وادارة معونة الحرب وادارة التجنيد لان الشباب الجزائرى كله أصبح لا يفكر الا فى أمر واحد وهو تقوية الجيش ليقوم باعباء واجبه على أحسن وجه وأكمله ٠

ولما أتم الامير املاء هذه الرسالة قام اليه أحد العلماء قائلا له : انك قضيت على بيجو ، وانه سيجثو على ركبتيك خوفا من التلميحات التى أشرت اليها من جبي الاموال ودفع الزكاة ودفع معونة الحرب وانضمام الشباب الى الجيش ٠ فأجابه الامير : ان هذا لا يستبعد والتاريخ يقول لنا : لقد جثا طاغية فرنسا الاول على ركبتى حاكم الجزائر مرتين :

الاولى سنة 1536، والاخرى سنة 1543 مستغيثا بان يمده بأسطول الجزائر الذى كان أضخم أسطول فى البحر الابيض المتوسط كى يرد عدوان شارل كان الاسبانى على ساحل فرنسا الجنوبى ٠ ولم تخرج فرنسا من هذه الورطة الا ودخلت فى ورطة ادهى وأمر من الاولى ، ورأى ملك فرنسا وقتئذ هنرى الرابع أن يتقدم سنة 1593 بالطلب نفسه الى منقذ فرنسا حاكم الجزائر ليمده بالعون فيتمكن من تحرير مدينة مرسيليا وشاطىء فرنسا الجنوبى من أيدى الاسبان والهيجونت ٠

وبفضل هذا التأييد سمحت الفرص لفرنسا بان تثبت أقدامها وتسترد كرامتها ، وتصون ثغورها ٠ ولو لم تلق فرنسا الاعانة من حاكم الجزائر لما تمكنت أن تفكر فى المعاهدة وتقدم باقتراح مرفق بشروط ٠

ونظر الامير فى شروط بيجو التى صعب عليه قبولها فرأى أن يصلح خللها ويعدل بها الى ما يصلح ولا يفرط فى دينه ومنصبه ثم يعرضها عليه ، فجمع مجلسا عاما من

العلماء والاعيان وأراهم كيف كثر الشغب بعمالة التيترى فى الجهة الجنوبية وان تجدد الحرب بينه وبين العدو يفوت عليه اصلاح الخلل الذى برز فى تلك الاطراف الشاسعة وربما سيتسع الخرق، وينتهى الامر الى ما لا خير فيه فمنهم من بادر الى قبوله واستحسانه ورآه من الامور الضرورية التى لابد منها ، ومنهم من لم يقبله ، ورأى أن استمرار الحرب أولى . فقام السيد على بو طالب فى المجلس فقال : بعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه : قد علمتم أيها السادة لما تكاثرت المظالم وتواطأ الانذال فدفعتهم على ارتكاب المآثم وانتقم الرب منهم وعمنا البلاء ألم يأن ان تتذكر قوله تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذى ظلموا منكم خاصة**». ولانحرافنا عن جادة الصواب سلط الله علينا عدو ديننا فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل بمساجدنا الكنائس فخرج أهل قطرنا وضاقت بهم أرض مغربنا واستبدلوا بالقصور المشيدة خيام الشعر ومضارب الوبر وتفرقوا فى المواطن وتباينوا فى الموارد وتغيرت الاحوال واشتبه الممكن بالمحال وتوالى الحل والارتحال وضعف الرجاء فى أن يئوب المسافر ويعود الشارد النافر الى ان طالت القضية وعز ما ندفع به هذه الغصة ومالت شمس الاتفاق الى الافول وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول ، فاظهر الله تعالى بلطفه بدر الدين مؤيد كلمة المؤمنين ابن أخى هذا السيد عبد القادر بن محيى الدين فبذل جهده للذب عن الدين والوطن وأتى فى ذلك من العجائب والغرائب ، وكم من كروب أزالها عن المسلمين واطفأ أوارها وكم ضيق على العدو وأخذ بمخنقه وصيره محجوزا فى أحرج مكــــان واضيقه ، وفى بعض الاحيان كما علمتم تكون الحرب بينهما سجالا ويفقد كل منهما من جيوشه أبطالا ثم لا يزال العدو ويتكاثر وبجلب من بلاده العساكر والذخائر حتى جاء بما ملأ جميع أغوار الوطن ونجوده فاستمر القتل فى المسلمين وتـــوالى عليهم التمحيص فى سبيل رب العالمين ، وقد استدعى حضرة الامير ملوك الاسلام فى أقاصى البلاد واستنصرهم للجهاد فاعاروه أذنا صماء ولم يسمعوا له نداء بل أجابه لسان الحال : لا حياة لمن تنادى ولا معين على من تعادى فاذا تمادى الامر أيها السادة على ما نحن عليه ولم ينجح الامبرفيما دعا . العدو اليه فلا جرم أننا نكون قد ألقينا بايدينا الى التهلكة وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه ، ونكون قد أعنا أهل الفساد على أنفسنا ومهدنا لهم السبل الى ما يؤذينا فيتابع الغوغاء غارتهم وتمشى سماسرة الفتن بين رؤساء القبائل ويسعى المفسدون فيما يفسد عليكم أمركم فى العاجل والاجل .

وبالجملة فالمنصف يقول الحق ولا يراعى بعدا ولا قربا ولا يخاف لوما ولا عتبا .

فاذا صحت النيـة وصحت المقاصد السنية فـلا حرج على حضرة الامـير فيما استشاركم فيه واسترعاكم اليه ، هو الذى عليه فتوى الفقهاء وبه عمل العلماء ، وقد قيل سلامة مسلم واحد خير من فتح حصن لكافر معاند، وقد ورد فى الحديث النبوى : « من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جيء به يوم القيامة مكتوبا بين عينيه » ، « آيس من رحمة الله » والمتسبب كالمباشر ـ وورد أيضا : من شكل بغير شكلـه وتطور بغير طوره وحام حول حمى سفك الدماء وهتك المحارم فقد باء بغضب من الله ورسوله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر شرط الامـن على النفس والاهل والمـال ، فما بالكم اذا كان لمجرد الدعوى ، فالنظر أيها السادة انما هو للامام لا لغيره وكيـف تذهبون الى أن عدم قبول الصلح أولى من قبوله مع علمكم بقلة الانصار والاعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين فى الاقطار والاوطان .

وحاصل ما اقول ان ما تسعون فيه ان لم ترجعوا عنه يدينكم لاجله القريب والبعيد وينقمه عليكم الاديب والبليد ، ثم لا شـك أنكـم ترجعون بخسارة الدارين وفقـد الراحتين وشماتة الاعداء علاوة على ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد وما قلت الا بالذى علمـت سعـــد .

فلما سمع المخالفون ما نبههم اليه رجعوا عما كانوا عليه من الخلاف ، واتفقت كلمة الجميع على اجراء الصلح ورأوا من مصلحة الامة تقريره ، وطلب أحد العلماء من الامير ان يتنبه لشيء وهو ان المتاعب التى رأيناها من بيجو وكلوزيل ودوران وترزيل هى أننا عقدنا مع دى ميشيل معاهدة وهى لا تفض الا ايالة وهران ، ولكـــى تكون هذه المعاهدة شاملة لابد ان يوافق عليها القائد العام فى الجزائر ، ولذا نرى أن نكاتب رأسا الماريشال دونرمون وهو أقل طيشا من بيجو ، ولربما وافق على ذلك وساعد على أن تكون المعاهدة التى سنرتبط بها معه أصلح لنا ، فوافق الجميع على هذا الاقتراح وبعث الامـير برسـالة الى الجنـرال دونرمون يقـول فيها : انـى موافـق على المعاهدة مـع بيجـو ، غــير ان اليهـودى بن دران الذى سلمـت لـه الرسـالة لم يفـاتح فى ذلك دونرمون وذهب رأسا الى بيجو ليبلغه أن دونرمون على وشك الاتفاق مع الامير ، وان اتفق معه ، فستجدون أنفسكم بمنأى عن العملية ، وسيحرز دونرمون كل الشرف وارى أن معالجة هذه المشكلة ممكن اذا كاتبتم وزارة الدفاع وشرحتم لها الوضـع وطلبتم منها أن تامر دانرمون بعدم الاهتمام بهذه المعاهدة ، لانه يجهل سياسة الامير ،

ودهاه، وانكم أنتم الذين قمتم فى وجهه يمكنكم أن تعقدوا معه معاهدة تكون لصالح فرنسا » .

فشكر بيجو هذا الجاسوس على أفكاره النيرة وبعث فى الحين برسالة عدد فيها الاسباب التى ذكرها اليهودى ابن دران ، ونظرا للمحبة التى تربط بيجو مع وزير الحرب والملك ، جاء الرد برقيا الى بيجو بالموافقة على اقتراحاته ، وفى اليوم نفسه بعثت وزارة الدفاع كتابا تنكر على دونرمون تدخله فى هذا الامر وتأمره بأن يساعد بيجو للوصول لهذا الهدف ان طلب منه أية مساعدة .

« انه غير خفى على حضرتكم ما جرت به المخابرة بينى وبين الجنرال بيجو حاكم وهران فى عقد الصلح والعدول عن الحرب التى الحقت الضرر بالامتين ، وحيث اننى وجدت مطمح الانظار بعيدا عن المطلوب ، وفهمت منكم ميلكم لوضع حد فاصل لنوائب الحرب وانى اعتقد موافقتكم » .

وكان جوابه الى سمو الامير عبد القادر :

« وصلنى مرسومكم ورغبتكم فى السلام وانا نبادلكم ما ترون واقبلوا احترامى ».

ثم توجه الامير الى المدية واتصل بابن دران ليقف على ما جرى بين الامير وحاكم الجزائر من المخابرة .

والعجيب أن هذا اليهودى الذى كان يعتبره الامير من أعز أصدقائه كان يمثل الطابور الخامس لفرنسا ، وهو الذى كان يعطى للقيادة الفرنسية المعلومات عن الوضع فى الجزائر وعن قوات الامير وعن سلاحه وعتاده بفضل ما كان يغدقه عليه بيجو من الامـــوال .

وعوضا من ان وزير الدفاع يسهل عقد الاتفاقية مع دانرمون القائد العام والامير بعث صورة من كتاب وجهه الى دانرمون ففرح بيجو لذلك وقال لابن دران : « لا أدرى كيف يمكن لدانرمون أن يخرج من هذا المازق الذى أوقع فيه نفسه » .

ولم يسع دانرمون الا أن يكتب الى الامير ما نصه :

« لقد أخبرتكم بشديد رغبتى فى الصلح والى الآن لم أزل على ذلك غير أن الحـــرب والصلح منوط بالجنرال بيجو فان وجدتم وجها مناسبا لاجرائه معه فافعلوا واقبلوا منى مزيد التقدير لمقامكم » .

مفاوضات من أجل صلح تافنة

لقد استعمل بيجو كل قواه للنيل من الامير عبد القادر ولما عجز فكر فى مفاتحة الامير بالحاح وبعث له برسالة فحواها انه يطلب الصلح لان الصلح يؤدى حتما الى الاستقرار والامن وانه يأمل ان يستجيب الامير لذلك لان الصلح الذى طلب تحقيقه انما فائدته تعود على الجزائريين أكثر من الفرنسيين وخاصة ان الفرنسيين لهم جيش منظم وفى استطاعتهم ان يتغلبوا على الجزائريين فرد عليه الامير بقوله : انى معك فيما قلت من اجراء صلح واعطاء الفرصة للشعبين الجزائرى والفرنسى فى ان يعيشا متآخيين لا يظلم احدهما الآخر ، اما قولك ان فرنسا ذات قوة فانكر عليك ذلك بتاتا ولتكن على بصيرة ان القوة لله وحده وان المعارك التى خضناها معا لم يكن الانتصار لكم ولجيوشكم بل الانتصار كان فى غالب الاوقات لنا ، وعلى كل بما انكم جنحتم للصلح فانى أوافقكم على شروط ٠

واثر ذلك بعث الجنرال بيجو صورة من الشروط التى عرضها من أجل الاتفاق مع الامير وبدأت المكاتبات بينهما وأخيرا بعث الامير برسالة بيجو يقول له فيها : ان شروطكم تتجدد والذى اسف له انكم كلما بعثتم بصورة لشروط غيرتموها ولذا اطلب منكم ان تتخذوا طريقة امثل حتى نتفق ٠

فلما علم الامير ان أقدام الجنراز على الحرب سوف يضير بالمسلمين ، وان اجراء الصلح ولو الى أمد غير بعيد لابد سينال من جراة الجنود الفرنسيين ، ويكسر شوكتهم وحينئذ تميل انفسهم الى الراحة والضعف ولذا أجاب الجنرال :

« علمت ما برسالتكم من ان فرنسا أمرتكم باجراء الصلح وهو ما أعمل له جاهدا منعا لسفك الدماء ، ولما كانت دولتكم تعرف كرهى للقتال بدون موجب شرعى ، ويشهد لى فى اقامة صلح على دعائم قوية ما خاطبتها به على يد سفيرها فى طنجة ٠

فاذا ما حققت العناية الالهية على اجراء هذا الامر فهو دليل على حسن نيتكم وصفائها وصدق خدمتكم للدولة والشعب معا فانظروا ما ترغبون فيه واخبرونى على الفور بواسطة رسولى ٠

فلما علم الجنرال برسالة الامير اجتمع بقواده واخبرهم بان نيتهم عقد الصلح فمالت اليه نفوسهم فكتب الى الامير ما يأتى :

علمت ما بكتابكم ولرغبتى فى حصول الخير للامتين قد حملت الرسول شروطى التى يتوقف عليها اجراء الصلح وأرجو ان تنال موافقتكم ٠

أولا : ان يعترف الامير برئاسة فرنسا ، والثانى : تحديد مملكته الى نهر شلف ، والثالث : اداء جزية ، والرابع : ان يعطى رهينة كفالة كشرط أساسى لكل معاهدة يتفق عليها فى المستقبل ، والخامس : كل من التجأ من الامتين الى الاخرى لا يجبر على الرجوع الا اذا كان قاتلا ٠

ولما قرأ الامير هذه الشروط عظم عليه قبولها فرد الرسول فورا الى الجنرال بيجو ليخبره شفاهيا : «ان الامير يرى انه لم يزل على الحال التى كان عليها من قبل المفاوضة». بل يرى انه فى مقام أعظم وأعلى فلا يمكنه ان يقبل شروطا مجحفة بمقامه الذى اعترف به من تقدم قبلك من حكام الجزائر ووهران بمعاهدة دى ميشيل ٠ لا سيما والمسلمون لا يرضون ان يكونوا تحت حكم الفرنسيين ٠ فان كانت فرنسا تريد اذلالهم واخضاعهم لحكمها فدون ذلك حرب ضروس مريرة ٠

ثم ان ابن دران بلغ الجنرال ما سمعه من الامير وفاوضه فى اقليم « تيطرى » فذكر له ان استيلاء الامير عليه كان برضاء أهله فلا يسوغ له شرفه ولا تسمح لـه ديانته بالتخلى عن قوم اسلموا اليه امنهم وراحتهم ، كما انه ليس من مصلحة الفرنسيين قط ان يستولوا على قوم هم لهم كارهون فالاول ان تعـدل هـذه الشروط وتجعـل الصلح مبنيا على أساس تجارى وتعرض عما سوى ذلك ٠

ثم قال ابن دران للجنرال بيجو ان الامير تمكن ان يسمح للفرنسيين ان يعمروا سهل متيجة ما عدا البليدة ويمنحهم ضواحى وهران الواقعة على الشاطىء البحرى الممتد منها الى مستغانم بحيث لا يتعدون سيف البحر ٠

كما تعهد الأمير بحق كل فرنسى داخل مملكته بضمان أمواله وقد آلى على نفسه ان لن يسمح لغير الفرنسيين بذراع واحد من أرض بلاد الجزائر وشواطئها ٠ كما قال ابن دران ان انجلترا قد عرضت على الامير بواسطة معتمدين ان يعطيهم حق التملك فى وهران وهم على استعداد لاخراج الفرنسيين منها ومن جميع القطر الجزائرى فلم يقبل الامير ذلك ٠

فلما علم الجنرال بذلك استكان وكتب الشروط التالية :

ان يعترف الامير برئاسة فرنسا فى افريقية ، والثانى : احتفاظ فرنسا بجزء من وهران والجزائر كلها تحفظ بها على ان تتخلى له عن اقليم تيطرى ووهران ما عــدا الجزء المحتفظ به لفرنسا ، والثالث : ان يدفع الامير جزية سنوية من حبوب ومــواش ، والرابع : حرية التجارة حرية تامة ، والخامس ان يتكفل الامير بكل الاموال الــتى تطلبها فرنسا فى الحــال والاستقبـــال ·

فلما وصلت رسالة الجنرال بيجو الى الامير واطلع عليها عدل عن الرد اليه ، وكتب الى الحاكم العام دانرمون يقول : « انه غير خاف على حضرتكم ما جرت به المخابرة بينى وبين الجنرال بيجو حاكم وهران فى عقد الصـــلح والعدول عن الحرب التى اضرت بالامتين ، وحيث اننى وجدت مطمح انظارى بعيدا عن المطلوب وفهمت منه ميلكم لوضع حد فاصل لنوايب الحرب وانى أعتقد موافقتكم على الشروط التى قدمتها لبيجو ·

وكان جواب الحاكم العام الى سمو الامير عبد القادر : « أخذت مرسومكم واطلعت على رغبتكم فى خدمة سائر الجنس البشرى عموما ··· » واقبلوا احترامى ·

ثم توجه الامير الى المدينة واتصل بابن دران الموسوى ليطلعه على ما جرى بين الامير وحاكم الجزائر من المخابرة، ثم كتب الماريشال الى الاميررسالة «قد اخبرتكم بشديد رغبتى الى الصلح وانّى الآن لم أزل على ذلك غير ان أمر الحرب والصلح منوط بالجنرال بيجو فان وجدتم وجها مناسبا لاجرائه معه فافعلوا ··

··واقبلوا منى مزيد الاعتبار لمقامكم » ·

ولما اطلع الامير على هذه الرسالة اضطره الحال للرجوع الى عاصمته ، ثم توجه الى تلمسان وارسل الى جنرال بيجو هذه اللائحة جوابا عن لائحته وهى :

أولا : يعترف الامير بسلطة فرنسا ·

ثانيا : كل المسلمين الذين يسكنون خارج المدن يكونون تحت حكومتى ·

ثالثا : ملك فرنسا فى المغرب ينحصر فى البلاد التى بين البليدة والبحر وتمتد الى حد المقطع ، ومن جهة مدينة الجزائر يسمح لهم ان يستولوا على البلاد التى بين تلك المدينة وبين نهر عزا ·

رابعا : الامير يدفع عشرين الف كيلة حنطة ومثلها شعيرا وثلاثة آلاف رأس من المـــواشى ·

خامسا : للامير ان يشترى من فرنسا بارودا وكبريتا وسلاحا ·

سادسا : الكراغلة الذين يختارون ان يبقوا فى تلمسان تحفظ أموالهم ويكونون تحت حكمنـــا ·

سابعا : ان الذين يتركون أرضنا أو أرض فرنسية ينبغى ان يسلموا الاراضى عندما يطلبون من احد الفريقين الذين ينتمون اليه ·

ثامنا : ان تترك فرنسا للامير راشكون وتلمسان مع قلعتيهما والمدافع التى بها من قديم ، والامير ينقل ما فيهما من ذخائر الى وهران ·

تاسعا : ان تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين ·

عاشرا : الفرنسية تحترم عند العرب كما ان العرب تحترم الفرنسية ·

احدى عشر : الامير يتكفل بالمزارع ، والاموال التى هى للفرنسيين يتمتعون بهـا بحـــرية ·

وبعد مراسلات عديدة كتب كل منهما شروطا رفض الجميع قبولها ، ثم ان بيجـو اعتزم على تجديد الحرب ، وخرج بجيوشه من وهران الى الناحية الغربية ولما احتـل تافنا بعث بالذخيرة الى تلمسان فى جيش كثيف واتصل الخبر بالامير وهو فى نواحى ندرومة فبعث فى الجهات يدعو الناس الى الجهاد ونما الخبر الى الجنرال فوجم لها وفكر فى أمره فوجد ما عنده من الحيوانات لا يقوم بحمل اثقاله ومهماته فى حـــرب ربما تطول مدتها فوقع فى حيرة ·

وبعد أخذ ورد ادرك الجنرال بيجو ان الاعمال الصبيانية التى قام بها ، تريزيل ، والقواد الذين سبقوه لابد ان تكون لها نهاية ·

ويلاحظ ان جنرال بيجو قد اخبر بان من مصلحة فرنسا ان تفاوض الامير وقـد فرح واصبح يظهر المودة والصداقة للعرب وطلب من الامير ان يبعث له بمندوبه علّه يتفق معه على ايجاد طريقة مثلى للصلح فوافق الامير وبعث لـــه بوزير خارجيته · وتجاذب اطراف الحديث مع مندوب الامير ومن بين ما تحدث به الجنرال ما يلى :

ان العرب لا يجهلون قوة فرنسا واستعدادها للحرب ·

فاجابه مندوب الامير :

ان العرب لا ينكرون قـــوة فرنسا واقتدارها :

ويلاحظ ان المندوب كان ذكيا وقد اظهر للجنرال ان من اللياقة الدبلوماسية الا يغلو في كلامه ثم استطرد جنرال بيجو قائلا :

لقد كنت عازما قبل عقد المعاهدة على ان اطلب من دولتي عشرة آلاف جندي زيادة على ما عندي واخرج من مدينة وهران لاحاربكم مدة شهر ، وادخل على أميركم الوهن والضعف فاجابه المندوب :

اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ، ولكن محاربة هجوم واقدام ، وان خرجت كتائبكم وقواكم نتقهقر امامها متوغلين في الصحارى باهلنا واثقالنا ولا نترك مجالا للقتال حتى لا ترجعوا ثم نبقى على هذه الحال حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم .

ويلاحظ ان الحكومة الفرنسية اعتبرت هذه المعاهدة من الامور التي تقرها الحكمة ، اما الشعب الفرنسي فقد اعتبرها خطأ لانه بموجبها اضطرت فرنسا ان تسلم للمرة الثانية بلادا كان يرفرف فوقها العلم الفرنسي .

اما الامير فكانت المعاهدة عنده كحجر زاوية لارساء البناء الذي شيده بحكمــة وسداد بالرغم من المنازعات التي كانت تحيط به ، والقلاقل والفتن التي كان يتغلب عليهــا .

وان الامة الجزائرية العربية يجب عليها ان تتخذ الدروس النافعة مما وقع للامــير حتى لا تقع في امثال هذه الاخطاء ، وليتاتى لها ان تقوم أحسن قيام بما هي ساعية فيه من السير بثورتها الى اوج الكمال ، وان آباءنا كانوا أساتذة العالم فيجب علينا ان نقتفي اثرهم وننسج على منوالهم .

وقد طلب القائد بيجو ، ان يقابل الامير عبد القادر لتحديد شروط المعاهدة النهائية ورغب في ان يكون الاجتماع في مكان وسط بين معسكره ومعسكر الامير ، ولنتــرك القائد الفرنسي يقص علينا ما حدث في اثناء تلك المقابلة التاريخية في الكتاب الذي بعث به الى الكونت مولي وزير الخارجية الفرنسية وقتئذ ، وهو مؤرخ من 2 يونيو سنة 1837 اي بعد المقابلة بستة ايام وهذه نص ترجمته :

كنت أنا واركان حربي على بعد ثلاثة اميال من معسكرنا واذا باحد رسل الامــير يتقدم ليخبرني ان مولاه لم يستطع الحضور في الميعاد المضروب لوعكة المت به ويطلب الى التقدم مسافة أخرى لملاقاة الامير فلم اتردد في السير الى الامام على الرغم من نصح الضباط بالرجوع خوفا من الوقوع في كمين . وبعد السير نحو ساعة أتى رئيــس

قبائل الواحات « أبو حميدة » وابلغنى ان الامير فى انتظارى عند تل بعيد • ولقد شعرت فى تلك اللحظة اننى وسط مقدمة الاعداء فصحت بالرئيس «أبو حميدة قائلا» :

ان هذا العمل فى غاية الجرأة من مولاك فقد تركنى انتظر طويلا • فأجاب الرسول : فكن مطمئنا فلا خوف عليك وكان فى قوله ما يدل على ظنه اننى جبنت واستولى على الرعب •

وبعد السير مسافة أخرى لمحنا حاشية الامير تتقدم نحونا مكونة من مائتى مرابط تتبختر جيادهم وترقص على انغام الموسيقى • وظهر الامير ممتطيا جواده الاسود وحوله بعض أفراد أسرته يمسكون بركابه وباطراف ثيابه •

وخشيت ضياع الوقت فاسرعت بجوادى نحوه • ومددت له يدى باحترام فشد عليها مصافحا فى حرارة وتبجيل • وعندما طلبت منه الترجل لنتحدث نزل عن جواده ، وجلس على الارض دون ان يدعونى فلم يسعنى الا ان أفعل مثله •

وقبل البدء فى الحديث تفقدته فاذا ملبسه لا يختلف عن أى جندى من جنوده ، واذا اصفرار وجهه ولحيته المستديرة ونعومة بشرته تذكرنى الصورة التى يمثلون بها المسيح • ومن هيئته المتواضعة وملابسه البسيطة تبينت انه ناسك متقشف •

ولما رجوته فى ان يحترم شروط المعاهدة بادرنى بقوله : ان لنا دينا يحرم علينا الخلف بالعهود وسافى بعهدى أكثر من الفرنسيين وثق اننى لم أخلف الوعد يوما •

وبعد مضى خمسة عشرة يوما تقريبا وافقت فرنسا على الاتفاقية •

وصدرت الاوامر الى جنرال كافانياك قائد حامية تلمسان تامره بالخروج من تلمسان وتسليم القلعة لنائب الامير ، فامتثل جنرال كافانياك لذلك •

ولما رجوته فى أن يحترم شروط المعاهدة بادرنى بقوله : « ان لنا دينا يحرم علينا الخلف بالعهود وشأنى بعهدى أكثر من الفرنسيين ، وثق أننى لم أخلف الوعد يوما » •

وبعد مضى خمسة عشر يوما تقريبا وافقت فرنسا على الاتفاقية •

وصدرت الاوامر الى الجنرال كافينياك قائد حامية تلمسان تامره بالخروج من تلمسان وتسليم القلعة لنائب الامير ، فامتثل الجنرال كافينياك لذلك ، وسلم القلعة بما فيها وهو يهتز خوفا ورعبا •

وقد انتصر الامير على بيجو وجمد الغزو الفرنسى ، وقرر أن يقصى الجنود الفرنسيين من الجزائر لو لم يخذله مواطنوه ٠

ان ارغام بيجو على التنازل لصالح الامير فى أمور كثيرة ومن ضمنها الموافقة على الاتفاق السرى لانتصار كبير ٠

ان المقاومة الجزائرية فشلت بسبب معارضة الجزائريين ٠ وفى الختام ان الجزائريين هم الذين شوهوا معالم الاتفاق السرى ٠

الاتفاق السري

ان الاتفاق الذى أبرم بين الامير وبيجو فى 30 مايو سنة 1837 كان حديث الرائح والغادى وقد اهتم بهذا الاتفاق المشرق والمغرب حيث أنه كان السبب فى انهاء حرب طاحنة بين الامير وبيجو دامت 7 سنوات 1830 ـ 1837 .

ولم يخطر ببال أحد أن هذا الاتفاق الذى بنى على أسس قويمة ينهار بين عشية وضحاها .

غير ان الحكيم الذى عاش الاحداث وقتئذ يمكنه أن يقرر بأن هذا الاتفاق كان محكوما عليه بالاعدام لان كلا من الامير وبيجو كانا يفكران فى عدم نجاحه .

ومن المحال أن ترضى فرنسا بان تكون محصورة فى مساحة قليلة جدا كما ان من المحال أن يرضى الامير بان يفرط ولو فى جزء من بلاده ليكون تحت سيطرة الاجنبى الذى لا يدين بدينه وهذا ما يفسر الظروف الغامضة التى لجا اليها كل من الامير وبيجو لابرام هذه المعاهدة مؤقتا وكل منهما كان يعمل جاهدا على الاطاحة بها متى وجد لذلك سبيلا .

ويجدر بنا ونحن نتعرض لكفاح الامير عبد القادر أن نذكر بان استئناف القتال والغاء المعاهدة من طرف الامير يرجع لسببين رئيسين :

أولهما : لقد أنكر الامير على فرنسا بان تتلاعب فى نصوص معاهدة 30 مايو سنة 1837 وأن تؤول تاويلا خاطئا كلمة وادى خضرة وبموجب هذا التفسير الغير الملائم منعت الامير من أن يتوسع فى أراضى البيبان وأن تسمح لقوادها بان يذهبوا الى قسنطينة ويمروا على أبواب الحديد تحت قيادة الدوق دورليان بالرغم من أن الاتفاقية المذكورة تعترف بسيادة الامير على المساحة الشاسعة شرقى المتيجة ابتداء من وادى خضرة حتى حدود قسنطينة وأن قواد فرنسا اذ مروا بجنودهم على أراضى الجبال كانوا يزعمون بأن الاراضى التى مروا بها كانت من جملة الاراضى المعترف لهم بها ٠

وقد كثرت الاقاويل فيما يخص هذا التأويل وأن صورة الاتفاقية التى علقت على جدران العاصمة كانت صريحة وكانت تؤيد الامير فى دعواه بحيث أن الحكومة الفرنسية أمرت بازالة نسخة الاتفاقية التى كانت معلقة على الجدران وأكثر من هذا أن الجنرال دانرمون كان يؤيد الامير فى دعواه حسبما يؤخذ ذلك من رسالة بعث بها فى 18 يونيو سنة 1837 للجنرال بيجو ويلاحظ أن هذه الرسالة قد سرقت لانها تدل دلالة على سوء نية فرنسا وسوء تصرف جنرال بيجو الذى زيف الحقائق لكى يتيح الفـــرص للقواد الذين ياتون بعده أن يقضوا على هذه الاتفاقية ان كانت لهم مصلحة فى ذلك وقد استشير بيجو فيما يخص الحد الفاصل بين أراضى الحكومة الجزائرية وبين أراضى الحكومة الفرنسية وأن هذا التفسير من طرف بيجو كان له مبرر وهو أن بيجو لما أقدم على ابرام المعاهدة كان يجهل تماما أن الامير يمكنه أن يبسط نفوذه على جميع الاراضى المعينة له وأن يصبح خطرا يهدد الاحتلال الفرنسى بكامله ٠ وان معالجة بيجو للقضية لم تؤثر فى سياسة الامير حيث أنه قرر بان الجزائريين الموجودين « شرقى المتيجة » لن يبقوا تحت تصرف فرنسا لانهم كانوا يؤيدونه وأنهم حاربوا فرنسا وانتصروا عليها فى عدة معارك ومن المحال أن يأذن الامير لفرنسا أن تنفذ قانونها على هذا الجزء من الجزائر الذى قرر أن يعيش مسلما وأن عدم انقاذه من هذه الورطة يعتبر جريمة يرتكبها الامير وان العالم العربى فى المشرق والمغرب سيناقشه الحساب العسير ان فرط فى ذلك غير أن الامير الذى بويع على أن يحرر الوطن قدر لهذا الموقف قـــدره ووقف فى وجه فرنسا ليريها أن تزييفها للمواثيق لن ينفعها وأنه سيكيل لها الضربة أثر الضربة حتى يحرر الجزائر من استعمارها ٠

ولما عجز قواد فرنسا عن التغلب على الامير بالحجة والمنطق لجاوا الى طريقة اخرى وهى الدس والمؤامرات واغتنم الماريشال فاليى وجود « ابن حراش » مبعوث الامير الخاص فى الجزائر ليرغمه على ان يبرم معه اتفاقية أخرى بتاريخ 4 يوليو سنة 1838 وان هذه الاتفاقية كانت تناقض معاهدة 30 مايو سنة 1837 وكانت فى جوهرها تعطى فرنسا الفرصة بأن تبسط نفوذها على أراضى لم يأت ذكرها فى المعاهدة الاولى وبطبيعة الحال فان الامير لما اطلع على هذه الاتفاقية أنكرها تماما واشار ببطلانها وافهم الماريشال فاليه بأنه لن يصادق عليها •

ثانيهما : ان سبب استئناف القتال من طرف الامير يرجع لعدم تنفيذ فرنسا الاتفاق السرى الذى بين الامير والجنرال بيجو وأن هذا الاتفاق السرى قد سرق من الملف كى لا يكون حجة على الجنرال بيجو وأن اختلاسه لن يغير فى الوضع شيئا حيث أن الرسالة التى بعث بها المستشار لوزارة الدفاع المدنى فى 23 اغسطس سنة 1837 تنص بصارح العبارة على وجود هذا الاتفاق السرى وأن بيجو أنكر وجوده لان الرأى العام فى فرنسا قد اغتاظ واعتبر هذا الاتفاق يمس بسلامة فرنسا فى الجزائـــر وأنه يسبب لهـا متاعب كثيرة • وقد سئل بيجو عن فحوى هذا الاتفاق السرى فانكره غير أن جنرال بروسار قائد منطقة وهران الذى كان على علم من وجود هذا الاتفاق قد أخبر وزارة الدفاع بذلك وأراد بيجو أن ينتقم منه فاتهمه بتبديد الدراهم التى أئتمن عليها كما اتهمه بالخيانة وكانت النتيجة أن عرض الجنرال « بورسار » على محكمة عسكريـــة للجواب عن الاتهامات الموجهة اليه من طرف بيجو • كان دفاع الجنرال «بورسار» قويا حيث انه أتى بالبراهين القاطعة على أن الاتفاقية التى يطالب الامير بتنفيذها موجودة حقيقة وأنه قد سبق له أن اطلع على رسائل مكتوبة بخط يد الجنرال بيجو فيما يخص هذا الاتفاق السرى ، كما صرح لدى المجلس العسكرى بأن بيجو كان يتقاضى رشوة من التجار الذين يتعاملون مع الجيش وأنه سبق له أن طالب من الامير نصف مليون فرنك ليسلم له تلمسان كما أن الانفاق السرى المعقود بين الامير وبيجو قبض بيجو من الامير رشوة تقدر بمائة وثمانين ألف فرنك لابرامه •

ومن العجيب أن بيجو أنكر بأن التجار كانوا يدفعون لــه الرشوة كما انكر قبض نصف مليون فرنك من قبل تسليم تلمسان للامير أما المائة وثمانون ألف فرنك فقـــد اعترف بوجودها ذاكرا انه كان قرر أن يخصص مائة الف لترميم طرقات البلاد التى

له الشرف أن ينوب عنها فى البرلمان • أما الثمانون الف فرنك فقد وعد بها الضباط والجنود الذين أبلوا بلاء حسنا فى المعركة وزاد قائلا أنه قبل أن يقدم على هذا قد استشار رئيس الحكومة « الكونت ملى » وأن هذا الاخير أذن له بان يطلب مائة الف فرنك من الامير وأنه اذ طالب من الامير مائة وثمانين الف فان الحكومة يجب عليها أن تقدره على اجتهاده هذا الذى سبب زيادة فى الدخل •

وبطبيعة الحال فان رئيس الحكومة بالرغم من أنه يجهل تماما وجود الاتفاق السرى ووجود الدراهم المطلوبة فانه لم يسفه رأى الجنرال لانه سبق أن وافق على الاتفاقية الاولى المؤرخة فى 30 مايو سنة 1837 ووعد بان يطلب من الملك التصديق عليها من دون أن يستشير اعضاء الحكومة وأن يطلع على ذلك الرئيس المباشر لبيجو الوالى العام للجزائر الماريشال دانرمون •

ان اعتراف بيجو ببعض التهم الملصقة به وانكار البعض الآخر قد سبب له انهيارا وأنه مس بكرامته فيما يخص هذا الاتفاق السرى ونستنتج من هذا أن بيجو بصفته نائبا فى البرلمان كان لا يفكر الا فى مصالح الذين انتخبوه وأنه ضرب عرض الحائط بصبغته العسكرية ومهامه كقائد للجيش • ولنا أن نقول انه ليضمن انتخابه مسرة الجيش وبمصالح فرنسا •

وفى الحقيقة أن بيجو كان مرغما بان يسير على هذا المنوال لان الوضع بالجزائر كان وضعا سيئا وان فرنسا كانت تسيطر على الموانىء وما يتصل بها فقط وأنها قد لقيت فى سنة 1836 متاعب كثيرة فى قسنطينة وقد منى جيشها بالفشل الذريع وتكبدت خسائر فادحة فى الاموال والارواح • وأن بيجو نفسه قد حاصرته جنود الامير فى جزيرة تافنا وأن تلمسان كانت تخضع لحصار دام مدة طويلة وكان بيجو بين نارين اما مواصلة القتال واما عقد الصلح ، وبما أن مواصلة القتال كان فيها خطر على فرنسا وجيوشها فقد رأى بيجو أن الاحسن له أن يتفق مع الامير وكان بيجو يفكر بالقيام بهجومين الاول ضد أحمد باى والثانى ضد الامير عبد القادر • وخاصة أن الحكومة قد زودته بجيش لا يقل عدده عن 15 الف زيادة عن تأييد قبائل الدوائر والزمالة •

ان الحكومة الفرنسية التى كانت على بينة من الاوضاع فى الجزائر وقد رسمت الخطة للجنرال « بيجو » كما قررت أن تعترف للامير بسيادته على جميع الاراضى

الوهرانية بما فيها تلمسان على شرط أن يدفع ضريبة سنوية كاعتراف منه بالسيادة الفرنسية ٠

وأن بيجو بدلا من أن ينفذ الاقتراحات التى أملتها عليه فرنسا كان يفكر فى ارضاء المنتخبين فى بلاده وكان يطمع بأن يلقب بالرجل القدير الذى صمد فى وجه الامير لان القواد الآخرين الذين خاضوا معارك مع الامير كان نصيبهم الهزيمة النكراء ٠

وبما أن المنتخبين كان لا يهمهم انتصار فرنسا فى الجزائر وأن الشىء الذى يهمهم هو اصلاح الطرقات وتخفيض الضرائب وهذا ما يفسر وجود الاتفاق السرى الذى أقدم عليه بيجو من أجل ارضاء سكان بلده وفعلا فقد استعمل ذكاءه للصلح مع الامير ولابرام المعاهدة المنعقدة فى 30 مايو سنة 1837 ٠

وجدير بالذكر أنه لا يمكن لاى قائد آخر دون بيجو أن يقوم بما قام به والعلة فى ذلك أنه من النواب الذين لهم شهرة ودهاء كما أنه من أخصاء الملك ٠ وهذا ما يفسر تنازل بيجو فى شروط المعاهدة بحيث اعتبر الاقتراحات التى أمرته الحكومة بتنفيذها ملغاة وتجاوب مع الامير الى أقصى حد حتى يحصل على المعاهدة ولو كان ذلـــك لغير صالح المنافع الفرنسية فى الجزائر ٠

وفى الوقت الذى قرر وزير الدفاع والوالى العـــام « الماريشال دامريمون » أن لا يكون للامير نفوذ فى منطقة عين بوسيف الشاسعة فاذا بيجو ضرب صفحا عن ذلك ويطلق يد الامير فيها ٠

وأن الظروف التى كانت تمر ببيجو ألزمته أن يتنازل عن أمور كثيرة وأن يرضى عن الشروط التى تقدم بها الامير وأن يقبل بان الجنود الكراغلة الذين كانوا يحرسون تلمسان أن يخرجوا منها وبان يسلموا للامير البنادق والمدافع التى كانت فى حوزتهم وأن يطرد حلفاء فرنسا قبائل الدوائر والزمالة من الاراضى التى كانوا يسكنون بها وألا يكون لفرنسا الا الموانىء التى كانت محاطة من كل جهة وجانب بجنود الامـير وأكبر من هذا قرر الامير ألا يدفع الضريبة التى طلبت منه رمزيا بدعوى أنه لا يمكن لمسلم أن يدفع لغير المسلم الاموال ٠

وبالرغم من أن الوالى العام كان غير موافق للشروط التى تقدم بها الامير فان الجنرال بيجو وافق عليها كما أعطى الامير زيادة عما ذكر جزءا كبيرا من الارض التى كانت

تحت تصرف الوالى العام « دانريمون » وان هذا الاجراء من بيجو يعتبر تحديا سافرا لسلطة الوالى العام ٠

وقد ظن الامير أن التسهيلات التى لقيها من بيجو ربما لا توافق عليها فرنسا ولهذا حاول أن تكون له صلة بالوالى العام غير أن بيجو لما بلغه الامر طلب من الامير أن يقطع كل صلة مع الوالى العام لانه لا سلطة له بتاتا ولكى يدوس كرامة الوالى العام بعث بيجو بتقرير الى الحكومة يخبرها فيه بأن الحالة الراهنة تتطلب اتفاقا ولو مؤقتا مع الامير وان الوالى العام الذى يجهل الاوضاع تماما يعمل على عرقلة هذا الاتفاق ولهذا يطلب من الحكومة أن تعطيه التفويض التام لكى ينهى هذا الاتفاق ٠

ان الحكومة أيدت بيجو وأخبرته فورا بان له مطلق الحرية فى التصرف وان ما ياتيه من الاعمال يعتبر كنص الشارع لا يتغير ولا يتبدل٠وبمجرد ما حصل بيجو على تاييد الحكومة بعث برسالة الى الامير يخبره فيها بنجاح مسعاه وكان جواب الامير على ذلك أن يوافق على الاتفاقية على شرط أن تسلم له 3000 بندقية وألف قنطار بارود وأن الاسعار تكون مثل الاسعار الاولى ويشترط أن تكون البنادق من الطراز الجديد وطلب منه أن يتكفل بذلك كتابة وان الالتزام يكون بخط يده وموقع عليه بختمه ويشترط أن تسلم له البضائع المذكورة فى أمد أقصاه 3 أشهر ويجب على الدوائر أن يرحلوا الى الاماكن المعينة لهم وانه احتفظ برسالته التى تكون مذيلة بالالتزام كحجة يظهرها عند عدم التنفيذ ونستنتج من هذا أن الجنرال بيجو كان قد التزم بابعاد حلفاء فرنسا قبل ابرام المعاهدة ٠

وبعد امضاء المعاهدة من الامير وبيجو كتب هذا الاخير الى الامير يقول له فيها انك لا تجهل بانى تساهلت معك كثيرا وارغمت حكومتى أن تقبل شروطا ما كان لها أن تقبلها ولهذا أكون شاكرا لك ان رضيت بدفع ضريبة ولو رمزية وأن ما تلتزم به يكون فى مقابل تسليم تلمسان لكم وان رعاياكم سيرضون بهذا الحل لانه لا يتعارض مع الدين الاسلامى وفى الوقت نفسه أطلق بيجو جميع الاسرى ورغب من الامير أن يعتبر المعاهدة سارية المفعول وأن يتيح للتجارة بأن تصبح حرة حتى لا يتضرر الناس وحتى ان الوالى العام اذا رأى بان الحرية رجعت فى الاسواق وأن التعامل أصبح جاريا فانه من دون شك يغير وجهة نظره وأن الحكومة ترى أن الصلح فيه فائدة ٠

ولست فى حاجة أن انبهكم أن الحكومة اشترطت بان ينحصر نفوذكم فى الاراضى الوهرانية وبالرغم من هذا فقد تعديت الحدود المفروضة ورضيت بالمسؤولية فى عقد الاتفاقية ولهذا أريد منكم أن تساعدونى حتى لا يكون موقفى موقفا شاذا • واكبر من هذا أن بيجو لم يشترط على الامير ان يترك له منفذا ليستعمله حينما تريد جنوده أن تتنقل من مكان الى مكان فانه اضطر أن يطلب من الامير أن يسمح لجنوده أن تمر فى طريق مستغانم الى ارزيو وكانت الرسائل التى يبعث بها الى الامير فى غاية اللطف مخافة من أن يثور الامير ويطالب بتنفيذ الاتفاق السرى وأن يحيط علما بذلك رؤساءه فيعتبرون الاتفاقية الاولى اتفاقية ماسة بحقوق فرنسا ومشوهة لسمعتها •

ان الامير لم يطالب بيجو بتنفيذ الاتفاقية السرية بعنف وشدة ولكنه كان يعمل على أن يذكر بيجو فى الوفاء بوعده فى الوقت المناسب وخاصة أن الامير كان يرى فى تنفيذ الاتفاقية السرية انتصارا له معنويا كما أن الحصول على الاسلحة المتفق عليها تزيد فى قوته قوة وتسمح له بان يجابه بيجو وغيره ان قررت الحكومة فسخ المعاهدة واستئناف القتال هذا وان بيجو تعذر عليه تنفيذ الاتفاقيات السرية كليا بحيث أن الامير ذاق ذرعا بعدم وفاء بيجو بما وعد به وقد ظن الامير بأن بيجو وان الذين يأتون بعده سينفذون الاتفاقيات العلنية والسرية ولكن مماطلة الفرنسيين بلغت حـــدها الاقصى بحيث جاوزت سنتين ولهذا استدعى الامير السفير الفرنسى للمعسكر واخبره بأن الرؤساء الفرنسيين لم ينفذوا الاتفاقيات والحقيقة أنها موجودة وانى محتفظ بأصلها وهى ممضاة بخط يد الجنرال بيجو •

وانى من أجل ابقاء الاستقرار فى الجزائر أعطيت للجنرال بيجو قائمة فيها خمسة عشر من الاشخاص الذين لا يمكن بقاؤهم فى الجزائر لسياستهم الخرقاء التى تهدف الى بلبلة الافكار والشقاق •

كما اننى اشترطت على بيجو الا يسمح للدوائر أن يقتربوا من الموضع المسمى الحنفرة حتى لا يختلطوا برجالى مخافة أن اختلاطهم ببعضهم بعض يؤدى الى ما لا تحمد عقباه وفى الوقت الذى كنت أعتقد أن قواد فرنسا يشيرون على الدوائر بان يبتعدوا بقدر الامكان من هذه النقطة بالذات فانى أشاهد بان الدوائر أصبحت متحدية لقواتنا تأتى صباحا ومساء لموضع الحنفرة الذى جعلناه حدا فاصلا بيننا ، وبينهم ، وان الهدف من هذا هو اثارتنا والزامنا بان نعطيهم درسا لا ينسوه •

وقد جاء فى الشروط التى التزمها بيجو بان المسلمين الذين يسكنون فى الاراضى المخصصة للفرنسيين لهم حرية التصرف فى الخروج من هذه الاراضى ليلتحقوا بى متى شاءوا ويؤسفنى أن بعضهم خرج من أراضيهم تاركا أسرته على أساس أن يرجع اليها أو ياخذها لتلتحق به ، وان هذه الاجراءات غير مشجعة واخاف كل الخوف بانها ستؤدى حتما الى خلق جو حرب بيننا ٠

وفيما يخص الدوائر وتسليم الاسلحة ان التصريحات التى أدلى بها الامير لفرنسا كانت صورة طبق الاصل للرسائل التى بعث بها الى الملـك « لويس فيليب » والى الوزراء التى شرح لهم فيها الاوضاع واشاد بموقفه من أجل ابقاء الصلح ســـارى المفعول ٠

وجدير بالذكر أن هذه الرسائل كانت بمثابة هجوم على الجنرال بيجو الذى تنكر لكلمة شرفه وكذلك هجوم على الوالى العام فى الجزائر الذى كان يحاول القضاء عـلى المعاهدة لا من أجل الاطاحة بمركز الامير بل بالعكس للاطاحة بمركز منافسيه الجنرال بيجـــو ٠

ونرى فى الرسالة التى وجهها الامير الى الملك ما يلى :

« ان قوادك يدعون بانى لم أنفذ الشرط الاول من اتفاقية تافنا فاجيب عن ذلـك بان تاخير تنفيذ الشروط التى التزمت بها يرجع سببها لعدم تنفيذ الشروط التى التزم بها بيجو وهى تسليم البنادق المذكورة بتفصيل فى العقد السرى وعلاوة على ذلك فان الاتفاقية تنص على ان الشخصيات التى تنتمى لقبائل الدوائر والزمالة والتى عملت كثيرا من أجل ايجاد خلافات بينى وبين قواد فرنسا كان يجب أن يطردوا من البلاد منذ أمد بعيد والى الآن أراهم فى أماكنهم كان الاتفاقية غير موجودة بتاتا ٠

وأفهم من هذا أن بيجو يظن بان الاتفاقية السرية ضاعت وطبعا ان الملك قد اطلع رئيس الحكومـة والوزراء عـلى الرسائـل التى جاءته مـن الامـير وطلب مـن الجميع ان يجـدوا حـلا لهـذه المشكلة مـن دون أن يغضبوا الامير أو يسيئوا لسمعة بيجو ٠ وكان بيجو وقتئذ حريصا بتنفيذ الشروط الملتزم بها وحاول أن يقدم التقارير الى الحكومة من أجل ابعاد الشخصيات التى يجب أن تخرج من البلاد تنفيذا لرغبة الامير

غير أن وزير الدفاع أجاب بيجو بان من صالحه ألا يثير مثل هذه القضايا لانها تؤيـد الاشاعات القائمة فى هذه الايام والتى تقول بانك تطلب ابعاد هذه الشخصيات تنفيذا للاتفاق السرى بينك وبين الامير غير أن بيجو رد الى الوزير مفندا الاقاويل التى تختلق اختلاقا وجود اتفاق وطلب بكل الحاح ابعاد بعض الشخصيات لان سياستهم تتعارض مع مصالح فرنسا ، لقد غلب بيجو على امره وانسحب تاركا القيادة للمرشال فالى ٠

قيادة فالى

ان الامير كان يعلم بان الذين يأتون من بعد دائرمون من القواد يحاولون ان يجمدوا الاتفاقين معاهدة تافنة والاتفاق السرى وعليه ان يتخذ من الاجراءات ما يسمح له ان يجعل قادة فرنسا امام الامر الواقع ولهذا بعد اتمام معاهدة « تافنا » عين وكلاء عنه فى كل من وهران ومستغانم ، واحتار فى من يسند اليه وكالة الجزائر التى توجد بها القيادة العسكرية الفرنسية لان الوكيل يشترط فيه أن يكـــون لبقا ومطلعا عـــلى الدبلوماسية ، فطنا حتى يكون متبفظا للدسائس الفرنسية ٠

واستشار الامير فى ذلك عدة أناس لهم خبرة بالسياسة فاشاروا عليه بان أقدر شخصية على القيام بهذه المهام هو مسيو « كازامانى » سفير أمريكا بالجزائر ولـماذا اختار الامير سفير أمريكا دون غيره من السفراء لان أمريكا تربطها مع الجزائر روابط صداقة وان الجزائر كانت أول دولة اعترفت بأمريكا بعد تحررها مـــن الاستعمار الانقليزى فبعث اليه الامير رسالة شخصية أفاده فيها بأن قصده اسناد وكالة الجزائر له ، فرد مسيو « كازامانى » بالقبول ذاكرا أنه لا يدخر وسعا من أجل ان يكون على بينة بما يقوم به الفرنسيون من مؤامرات لاحباط مقاومة الجزائر ـ فسر الامير بهذا الرد وكتب اليه ما يلى :

« الحمد لله وحده ولا معبود سواه ، من عبد القادر بن محيى الدين ناصر الدين الى مسيو « كازامانى » السلام على من اتبع الهدى ، وبعد ـ فاننا منذ وقع الصلح بينـنـا وبين الفرنسيين فى دوام الالفة والمواصلة ، ثم بلغنا عنك أنك من أعقل الناس وأعلمهم بطرق السياسة، وأخبرنا بعض المحبين أنه لا يصلح لوكالتنا فى الجزائر غيرك فانشرحت صدورنا لذلك، وبناء عليه كتبنا لك اعلاما بأن تكون لنا وكيلا عند الفرنسيين

وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها، وتجرى أمورنا معهم على نظرك وتعرفنا بما هو الاصلح لنا معهم، والذى يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به والذى يعرض لك من ذلك تعرفنا به ٠ ومن المعلوم عنا أننا نحب الخير والهناء والعافية والامن فى سائر الــوطـن ٠

حرر فى رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتى ٠

وبمجرد لما وصل تحرير الامير الى مسيو كازامانى فرح بذلك كثيرا ، وطلب مقابلة القائد العام الفرنسى قالى ليسلمه انتفويض وكان كازامانى يظن أن اجراءات تنصيبه كخليفة للامير بالجزائر لا تتطلب وقتا طويلا ، وكم فوجىء لما قابله القائد العام مقابلة غير لائقة ذاكرا له ان قبول هذه المهمة الشاقة ان كانت تدل على شىء فانما هى تدل على انه يوجد بين أمريكا التى تمثلونها هنا فى الجزائر وبين الامير اتصالات مريبة تهدف أساسا الى الدفع بفرنسا لتنتهى اليه الامر علها تدرك أن المعاهدات التى قيد بها بيجو الحكومة الفرنسية معاهدة لا مثيل لها فى التاريخ ومن دون شك فان الحكومة الفرنسية لا تسمع لكلام بيجو وتتخذ الاجراءات اللازمة لتقضى على هذه المعاهدة ٠

وبمجرد أن وصل كتاب الماريشال قالى الى وكيل الامير كازامانى ارسله الى الامير وضمنه بعض الايضاحات عما تقوم به فرنسا من أجل الاطاحة بمعاهدة بيجـــو ، فاستاء الامير من موقف الماريشال فالى ، واستدعى اعضاء مجلسه ليتفاوض معهم فيما يخص المشكلات التى اثارها الماريشال قالى وطلب منهم ان يدلوا بآرائهم حتى يجيب القائد الفرنسى اجابة مستوفاة الشروط فناقش مجلس الامير المسالة برمتها واتفـق راى الاعضاء على أن يرسل الامير للقائد الفرنسى رسالة اشد قسوة يفهمه فيها انـه يسعى السعى الحثيث لنقض المعاهدة والدخول فى معارك من أجـــل ابادة الشعب الجزائرى ، فوافق الامير أعضاء مجلسه على ما ابدوه من آراء ، وكتب لقالى كتابا قويا وهذا نصـــه :

« الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين الى حضرة الماريشال قـــالى :

ان وكيلنا مسيو كازامانى قد بلغنا أنه لا يسمح له ان يقوم بمصالحنا ، وقـــد كتبتم له تحريرا ارسل الينا نسخة منه ومفاده أنكم لا تقبلونه وكيلا عنا وأنه يجب أن يقام مكانه ابن عرب فاولا لا نقدر ان نجد من العرب من يمكنه القيام بهذه الوظيفة

وعـــلاوة عـلى ذلـك أن مسيو كازاماني رجـل حكيم وعاقـل ، وهـو يتمسك بما فيه النفع للفئتين ، وثانيا ليس لفرنسا حق أن تجبرنا على تعيين وكيل ضد ارادتنا وميلنا ، لان ذلك منوط بنا ولنا أن نختار من هو الاحسن لنا ، وان كنتم ترغبون أن تعينوا ابن عرب وكيلا لكم عندنا فافعلوا فاننا لا نعارضكم فى ذلك ، فلماذا تتعرضون فى انتخابنا ، وان عملكم هذا يناقض مبادىء الشرف الذى يجب أن يراعى فى كـل الاعمال ، ويظـهر مـن هذا أنكم تريدون الاحتلال مـرة أخرى فى ايالتى الجـزائر ووهران ، حيث ان الافراد الذين أرادوا أن يأتوا ويستوطنوا أراضينا لم يمنعوا عن ذلك بالقوة فقط ، بل القوا فى السجن كانهم مجرمون ٠ ولقد أقام مسيو كازاماني الحجة على هذه الاعمـال وأمثالها فلم تتنازلوا وتجاوبوه ٠ فتصرفكم هذا يشـير الى الاجحاف بالحق ، وكنا نامل أن تصرف حضرتكم لا يكون كتصرف من سبقكم ولا تمشوا على اثره ، واستناد حضرتكم فى تحريركم عـلى الشرط الاخير من المعاهدة المختصة بتعيين الوكلاء متبادلا منا ومنكم عندنا وعندكم ، أن يكون وكلاؤنا من العرب ووكلاؤكم من الفرنسيين ، فهو خلاف أصله المصادق عليه بـل هذا التفسـير خاطىء فان كنتم محافظين على المعاهدة فاقبلوا وكيلنا مسيو كازاماني المعين بموافقة مجلس شورى الامة وان كنتم استحسنتم خرق الشروط وابطال المعاهدة فنحن مع عدم الميل الى ذلـك نجيبكم الى مرغوبكم ولا يخفى ان البغى وخيم ونتيجته وخيمة وانها تعود على البادى ٠

وبالجملة اننى انتخبت كازاماني وكيلا عنا فى الجزائر فرجوعى عنه محال ٠

ولقد اضطر الماريشال فالى الوالى العام بالجزائر أن يوافق على تعيين مسيو كازاماني وبعث برسالة الى الامير فحواها :

« بما أنكم قررتم اسناد الوكالة فى الجزائر الى مسيو كازاماني فلا أرى مانعا فى ذلك مع تحقيقى أن هذا التعيين سينتج عنه متاعب لنا ولكم ، وأرجوكم أن تكـونوا محافظين على هذه المعاهدة لصالح الشعبين ، اما أنا فاعاهدكم على أنى أحافظ عـلى نصها وروحها طبقا للاوامر التى تلقيتها من وزارة الدفاع ٠

وجاء هذا الكتاب الى الامير فقرأه على مسامع أعضاء مجلسه وقال لهم : ان وراء الاكمة ما وراءها ويظهر لى أن هذا الكتاب ظاهره حق وباطنه باطل ، وأنه يخفى من النيات غير الحسنة الكثير ، ولا يسعنا الا أن نكون حذرين ، ونعامل القائد الفرنسى بما يستحقه حتى نقضى على اخراج آخر فرنسى من أراضينا ٠

وقرر الامير أن يكلف أناسا لهم خبرة بخبايا الامور ، أن يذهبوا الى الجزائر من أجل الاطلاع على ما يفكر فيه الفرنسيون ، وأوغر الى الجاسوس اليهودى بن دران بان يعمل ما فى وسعه من أجل اعطائه جميع المعلومات عن تحركات الفرنسيين .

والعجيب ان الامير لم يسحب ثقته من اليهودى ابن دران بالرغم من انه كان اطلع على الاعيبه كما اطلع على انه كان طابورا خامسا استعمله بيجو لصالح فرنسا .

وبعد ذلك بعث الامير رسالة الى فالى يشكره فيها على تنازله وقبوله كازامانى وكيلا عنه فى الجزائر وجاء فى هذه الرسالة ما يلى :

«سيادة القائد العام .. لقد تلقيت بمزيد السرور كتابكم الذى هو تعبير عن موافقتكم لتعيين كازامانى كوكيل عنى لدى القيادة العامة ، وبذلك لا يسعنى الا أن أشكركم على هذا التجاوب تنفيذا لما جاء فى معاهدة بيجو التى أقمناها من أجل الرخاء والازدهار للشعبين الجزائرى والفرنسى » .

غير أن الماريشال فالى بالرغم من موافقته على تعيين مسيو كازامانى كوكيل عن الامير فانه بعث بتقرير الى وزارة الدفاع مفاده : « انى عملا بتوصياتكم أقبل أن يعين مسيو كازامانى ليقوم بشؤون الجزائر لدى القيادة العامة ، وساجهد نفسى من أجل أن الجىء الامير الى نقض هذه المعاهدة حتى نتمكن من متابعة زحفنا على ايالة الجزائر ووهران اللتين أصبحتا تحت سيطرة نفوذ الامير ، وبهذه المناسبة أكرر لكم أن بيجو قد أخطاه التوفيق ، حيث كبل القيادة الفرنسية بقيود متينة مما جعلها تحت رحمة الامير وسيطرته .

وبمجرد أن وصل هذا التقرير وزارة الدفاع قام الوزير فارعد وأبرق وقال : ان ما يدعيه فالى هو عين الصواب وأن بيجو لم يقدر المسؤولية حق قدرها ، ولم يدافع عن مصالحنا فى الجزائر بحيث تساهل مع الامير فأعطاه كل الفرص ليكيل لجنودنا الضربة تلو الاخرى ، وبعث الوزير رسالة الى بيجو الذى بقى بوهران كقائد لها ووبخه فيها على عقد هذه المعاهدة وطلب منه أن يسعى بقدر الاستطاعة أن يخفف من وطاة هذه المعاهدة قبل مغادرته الجزائر .

ولقد أدرك بيجو أن اللوم الذى تلقاه من وزارة الدفاع جاء نتيجة لما وسوس به الماريشال فالى وجاء الى بيجو فى الوقت نفسه كتاب من أحد زملائه بوزارة الدفاع أثبت له فيه أن فالى يرسل كل يوم تقريرا ضده ، وأرفق مع هذا الكتاب صورة من التقرير

الذى كان قد بعثه قالى ، فاحتار بيجو فى أمره ، وبعد تفكير عميق تبين له أن أحسن طريقة هو أن يكاتب الامير من أجل السماح لجنود فرنسا بالمرور من أرزيو الى مستغانم وهذا نص الكتاب الذى بعث به بيجو الى الامير :

« حضرة الامير المحترم » .

تحية طيبة وبعد ... فلقد سبق لى أن كنت اتفقت معكم شفويا على الا تتعرضوا لمرور جيشنا من أرزيو الى مستغانم ووافقتم على ذلك ، وبما أنه ليس لدى ما يثبت ذلك كتابة فأرجوكم ان تتنازلوا فلا تثيروا مشكلة من أجل هذا ، وانتظر الـرد من الامير فلم يصله ، واستنتج بيجو بأن عدم الرد معناه القبول ، وأمر الجيش بالمسـير من أرزيو الى مستغانم .

ولما علم الامير بمسير الجيش الفرنسى بعث برسالة الى بيجو يقول فيها : ان مسير جيشكم فى الاراضى المعينة لنا عن طريق البر مخالف للاصول التى قامت عليها المعاهدة وتقرر عليها الصلح ، ففعلكم هــذا محض تعد على حقوقنا ، وان خفى عليكم الامـر وادعيت انك غير متعمد بفعلك هذا فراجع الشروط وامعن النظر فيها فانك تجد أنه لا حق لكم فى المرور على طريق البر الى مستغانم ، ولتعلم أن فعلك يخالف منطـوق العبارة المقررة فى صك المعاهدة وهو حائد عن الصواب ، هذا ان قلت أنك بنيت أمرك على ما فهمته من العبارة أو أولته .

ولقد وصل هذا الكتاب الى بيجو فبهت وأصبح بين أمرين : تعنت الامير ، وسخط وزارة الدفاع عنه ، فلم يسعه الا السكوت والرضا بما قدر له .

وبعث بيجو رسالة الى قالى يقول له فيها : لقد حاولت أن أدخل تعديلات عــلى المعاهدة غير أن الامير لم يوافق على ذلك وبعث اليه بالكتاب الذى تلقاه احتجاجا على مرور الجيش الفرنسى من أرزيو الى مستغانم ففرح قالى بما جاء فى كتاب بيجو ، وقال لاركان حربه ان بيجو لعاجز حيث انه لم يفكر فى هذا الامر قبل ، وأكبر دليل عــلى عجزه أنه يحـاول الآن بطرق ملتوية أن ينال تنازلات من الامير ، ويجهــل أن الامـير لا يرضخ الا للقوة وانى ساستعمل ما لدى من الخبرة لارغام الامير على قبول ما نريده نحن معشر الفرنسيين فى هذا البلد الذى أصبح ملكـا لنا ، ولا يمكن لعبد القـادر وأمثاله أن يتعرض لمشيئتنا ، وأخبرهم بأنهم سيسمعون غدا ما قرر أن يقوم به من أجل ايقاف الامير عند حده .

وكان أول بادرة صدرت من فالى بعد استيلاء دانرمون على قسنطينة هو أن يطلق يده على المسافة الطويلة بين الجزائر وقسنطينة وأن يسير بجيش قوى على الطريق المؤدى الى قسنطينة ، وان يمر على الاراضى المعينة للامير فى المعاهدة المبرمة بينه وبين بيجو غير مكترث باحتجاج الامير ٠

وما ان بلغ الامير هذا الاجراء من فالى حتى بعث اليه بالرسالة التالية :

بالامس تجرأ بيجو على أن يمر بجنوده من أرزيو الى مستغانم دون مراعاة لما جاء فى المعاهدة التى تربطنى به ، وقد قدمت احتجاجا شديدا من أجل ذلك ، واليوم سمحت لكم نفسكم بأن تمروا من الجزائر الى قسنطينة بفرقة كاملة وتحديتمونى ٠ فسكت فالى اثر هذا الاحتجاج لانه يعلم أن جميع المزاعم التى يتقدم بها لن تغنيه فتيلا فكرر الامير الاحتجاج وأرغم فالى على أن يجيبه بما يلى :

« ان فرنسا قد وهبتك جميع اقليم وهران وجميع اقليم تيطرى ومن الجزائر جميع ما هو غربى نهر الشفة ولا حق لك فى شرقه ، واما اقليم قسنطينة فانه خارج عن النزاع ولا كلام عليه فى المعاهدة لانه كان فى وقت انعقادها تحت ولاية أحمد باى » ٠

ولما قرأ الامير رسالة فالى اقشعر جلده وزأر كالاسد قائلا : ان ادعاء فالى بأن فرنسا وهبتنى كلام من سقط المتاع لان فرنسا اعتادت أن تاخذ ولا تعطى ، أما كونها تهب شيئا دون مقابل فهذا لم نسمع به فى التاريخ ٠ واستدعى كاتبه وأملى عليه ما يلى : « اما اقليم قسنطينة فهو خارج عن محل البحث ، واما اقليم الجزائر فالواجب عليكم ان تتذكروا ما جرى بيننا عليه من المراجعات الكثيرة حين المخابرة فى انعقاد المعاهدة حيث كان مرادى أن أجعل حدودكم محصورة فى ضواحى مدينة الجزائر ، ولما الح على الجنرال بيجو فى توسعة الحدود وامتدادها جعلت وادى القدرة حدا لكم فى الجهة الشرقية والى البليدة غربا فكان من الواجب عليكم الا تتجاوزوا وادى القدرة الذى جعلته لكم حدا ونهاية لغاية ما أبحته لكم من البلاد ، على أن المسافة التى بين وادى القدرة وبين قسنطينة لا علاقة لها بما جرى بيننا فى المعاهدة مما استوليتم عليه ٠ وان ما استوليتم عليه فى الشرق محصور فيما بين قسنطينة وبونة » ٠

وبالجملة فان تجاوزكم لحد وادى القدرة خارج عن جادة العدل ، بعيد عن خط الصواب لا سيما وأهل تلك الناحية لم يحل فى أعينهم فعلكم بل رأوه تعديا سافرا على حقوق المسلمين ، ودولة مثل دولة فرنسا لا ينبغى لها ان تتعدى الحدود ٠

وبالجملة فتعريجكم على تأويل الانفاظ لا يليق بكم ، بل يجب عليكم وعلينا أن نحافظ على النصوص الصريحة ونجرى أمورنا على موجبها .

فذهل مرشال قالى عندما تلقى هذا الخطاب ، وكتب اليه بما مفاده : « ان مراجعاتى لسموكم مبنية على ملاحظة كلمة فوق المذكورة فى التحديد الشرقى ، فأرجو أن تلاحظوها » . فلم يقبل الامير هذا التفسير الخاطىء واعترض عليه بقوله : « ان جوابى الاول وما بعده ومراجعاتى كلها مؤسسة على ملاحظة سائر ما ذكرناه فى التحديد كلمة ، كلمة وهو الصواب المطابق للغة العرب وما فهمتوه أنتم من كلمة فوق غير مطابق بالمرة . ولديكم من علماء اللغـــة العربية من يحقق لكم ، بانكم مخطئون فيما اقدمتم عليه .

ولقد استمرت هذه المراجعات ، ونشأ خلاف فى الوقت نفسه بين بيجو وقالى : فادعى بيجو أن الاستيلاء عى قسنطينة يرجع الفضل فيه اليه وعارضه ذلك قالى ، وبلغ الامر الى الحكومة المركزية فى باريس فاحتارت وزارة الدفاع فيما تفعله ، وقررت الحكومة المركزية فى باريس المحافظة على المعاهدة ، وايفاد موظف كبير للاشراف على تنفيذ اتفاقية الصلح فحاول الحاكم العام أن يكون الموظف من اتباعه كما حاول بيجو أن يكون هذا الموظف من الموالين له .

وأخيرا تمكن الجنرال بيجو من تعيين ضابط من الذين يميلون له غير أنه ارضـاء للحاكم العام فالى رضى بأن يكون الترجمان من رجال الحاكم العام .

ان هذا الخلاف بين بيجو وقالى فتح الباب على مصراعيه للامير ، بأن يقوم بتوجيه جيشه الى قسنطينة ، فاستولى على مجانة والزيبان وجبال البربر الشمالية وما عليها بحيث ان ما كسبه الامير يفوق بكثير ما كسبته فرنسا ، حيث انها استولت عـــلى مدينتى قسنطينة وبونة لا غير .

وبلغ الماريشال قالى أن الامير اكتسح وأدخل تحت نفوذه بلادا شاسعة ، فاغتاظ وكتب الى الامير يقول له : « ان ما آتيتموه يعد تحديا سافرا للقوات الفرنسية ، وانكم تنكرتم لما جاء فى المعاهدة التى أبرمت بيننا » . فأجابه الامير : « انكم استوليتم على قسنطينةوالخط الممتد بينها وبين مرسى بونة لا غير ، فان ادعيتم أن جميع ما كان تحت سلطة أحمد باى لا حق بذلك فهو محل نظر ، واما ما استولينا عليه فانه بعيد عـن دعواكم ولا حق لكم فيه ، اذ لا يعد من أعمال قسنطينة التابعة لحكومة أحمد باى ، ولا

كان فى طاعته ، بل كان حكام هذه البلاد من أهلها لا تعلق لهم به ولا يد له عليهم منذ ان انقرضت الحكومة من الجزائر وبناء على ذلك ليس لكم أى حـق فى البـــلاد التى استولينا عليها » .

ولم يقف الامـير عند هذا الحـــد لعلمه بان الماريشال قالى لن يسكت عـن هذه الانتصارات ، بل انه سيطلب نجدات من حكومته ليغتنم أول فرصة ليستأنف القتال على أشده ولهذا لابد من اتخاذ العدة للمعارك الآتية ، فبعث الى خليفته محمد بن علال - خليفة مليانة - أن يقبض من قبيلة الاعراش الاعانة المفروضة عليها لمجابهة العدو ، كما أمره بان يطالبهم بمبالغ الزكاة التى تأخروا عن دفعها منذ خمس سنين ، ولـــم يقصر الخليفة فى أداء واجبه ولقى من هؤلاء المواطنين كل عون بحيث أن كثيرا منهم دفع أكثر مما أوجبه عليه الخليفة لانهم ادركوا أن القضية قضية حياة أو موت وان الامـير لا يمكنه أن يواصل الكفاح اذا لم تتوفر لديه الاموال الكافية .

على أن خليفة الامير وان كان قد وجد التجاوب مع جميع القبائل التى زارها الا أن قبيلة تاشته عارضت مدعية أنها لا تقبل دفع الزكاة وبخاصة أن هذه القبيلة كانت معروفة بانفصالها عن المجموعة الجزائرية علاوة على أنها تفرض ارادتها على القبائـــل الموالية ، وتخطف النساء وتستولى على الحيوانات وتلجأ الى كهف حصين بقربها ، وقد حاولت الحكومة الجزائرية فى عهد الاتراك أن تردها الى رشدها فلم توفق .

ان هذه القبيلة بدلا من أن تنصاع لاوامر الخليفة فقد حدثتها نفسها ، أن تتحداه وتتحدى الامير الذى بايعــه الجزائريون مـن أقصاهم الى أدناهم وذهب بهـا الى أن استدعت قبائل أخرى لتسند ظهرها وجاء أناس كثيرون لتدعيم هذه القبيلة ، ولمـا فاوضهم الخليفة رجعوا من حيث أتوا وبقى أعضاء هذه القبيلة لا يسمعون لاحد ممـا دفع الخليفة الى أن يدهمهم فى عقر دارهم ، وكبدهم الخسائر الفادحة وأرغمهم على رد الاموال التى اغتصبوها فامتثلوا بعد معركة حامية رأوا فيها الهزيمة كل الهزيمة .

وبلغ قالى هذا الانتصار الذى أحرزه خليفة الامير ، كما بلغه مبادرة الناس لدفع المعونة والزكاة فضاقت به الارض بما رحبت وتيقن أن الامير لن يسكت، وأنه سيفاجئه باستئناف القتال ان لم يكن اليوم فغدا، فاستدعى أركان حربه وتباحثوا فيما آلت اليه الجزائر وما سيؤول اليه الجيش ان لم يقاوم الامير وجيش الامير . وتكلم أحد الضباط العظام فى المجلس، فقال : ان الحرب خدعة ويجب ان تتفتق اذهاننا عن فكرة تسمح لنا

بأن تحطم الامير ، فقال الجميع هات ما عندك فقال : يظهر لى والرأى للجميع أن نطلب من الامير أن يرسل وفدا الى باريس من أجل توطيد العلاقات والاتفاق بصفة نهائية على الخلافات التى بيننا ، ولربما ستؤدى هذه الفكرة الفوائد المرجوة منها ، فارتاحوا لفركته هذه وطلبوا من قالى أن يكاتب الامير فى هذا الشأن ، فوافق الجميع وبعث قالى كتابا الى الامير ملخصه :

ان التأويلات لبنود المعاهدة لا فائدة منها وأنا أرى أن الاحسن للجميع أن ترسل وفدا من طرفك الى باريس ليقابل ملكها ويعلمه بانه جاء لتوطيد العلاقات الطيبة بين الشعبين ليتسنى لنا جميعا أن نعيش فى رغد وهناء .

وبمجرد أن وصل هذا الكتاب للامير أستحضر أعضاء المجلس ، وقرأ على مسامعهم نص الكتاب ، فمنهم من رأى أن الفكرة حسنة ومنهم من ارتاب ، ومنهم من صرح بأن قالى له هدف أما الكثرة من الحاضرين فقد رأوا أن ارسال وفد الى باريس تتوافر فيه الشروط ان لم يؤد نفعا لن يجلب صرا ، غير أنهم أشاروا على الامير بأن يطلب من سلطان المغرب رأيه فى القضية، فوافق الامير وفى اليوم التالى أرسل أخاه محمد السعيد ومعه وفد الى سلطان المغرب الاقصى وهدية وكتاب ذكر له فيه : « ان قالى طلب منه أن يرسل وفدا الى باريس من أجل التعرف مع المسؤولين هنالك ومقابلة ملك فرنسا لتوطيد العلاقات بين البلدين ، كما أخبره بان ما تكبده من خسائر فى أمواله وما لحقه من متاعب منذ أن تولى الامارة اثر فيه ، وأصبح يميل الى التخلى عن القيادة ليسندها الشعب الجزائرى لاحد الكفاة علهم يواصلون الكفاح » .

وأضاف قائلا : كان بودى أن أتابع القتال حتى آخر قطرة من دمى ، غير أن بعض الجزائريين يتعاملون مع الفرنسيين ويقومون بأعمال التجسس علينا بحيث وقفوا حجر عثرة فى طريق الجزائر لمقاومة الفرنسيين الى أقصى حد .

ولقد وصل وفد الامير الى المغرب الاقصى فاستقبله بحفاوة الشعب المغربى الذى كان يرى فى الجزائريين الرجال الاقوياء الذين وقفوا فى وجه فرنسا وردوا كيدها فى نحرها بالرغم من أنها أشاعت الرعب فى أوروبا كلها ، وأصبح الاوروبيون كلهم يودون أن تبقى فرنسا بالجزائر.

أما سلطان المغرب فقد أعد للوفد قصرا ، وابتهج بمجيئه وأكرم وفادته وقال لهم ان المهمة التى جئتم من أجلها ساكاتب الامير فى الموضوع وأشرح له القضية تفصيلا ،

كما شكرهم على هدية الامير التى تدل على ما يكنه له من محبة صادقة واخلاص كامل.
وكتب الى الامير الرسالة التالية :

رسالة سلطان المغرب

« بعد الحمد لله محل ولدنا الذى نظم به شمل الامة وجلى بنور صدقه الشدائد المدلهمة حامى حمى الاسلام والمسلمين الامير المجاهد السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين أيدك الله بنور توفيقه ورعايته وجعلنا جميعا من أهل قربه وعنايته آمين ،
وسلام الله الاتم ورضوانه الاعم يتواليان على حضرتكم ظعنا ومقاما ويرفعان لكم عند الله مقاما، ورحمة الله وبركاته ما دام الفلك وحركاته، وبعد، فقد وافى حضرتنا الوفد الذى أشخصتموه من بابكم ووجهتموه من جنابكم صحبة أخيكم البر الرشيد السيد محمد السعيد نائبا عنكم فى الزيارة ، فأدى الينا كتابكم الذى تفتقت عن أزهار روض طيب معانيه ، وأفاد بطالع مسراته من خبر هناء تلك الاقطار وبلوغ المسلمين بانتظام الكلمة الامانى والاوطار . أبقاء الله للاعلام رافعا وعن حوزته مدافعا ولا عدمت من اللـه معونة وتاييدا وهداية وتسديدا ، هذا وقد وافتنا الهدية التى وجهتم صحبة الوفد الذى أشخصتموه بجميل الآثار مكسوة بحلل البر والايثار ، فقابلنا وجه نظركم بالقبول وتلقينا حديث صلتكم بالبر الموصول كثر اللـه امدادكم ووفر عددكم واعدادكم ، وما اقتضت المصلحة من توجيه سفير من قبلكم لارض فرنسا . فانت والحمد لله من دينك على بصيرة ومن سياستك على أقوم سيرة ، فقد مارست أحوال العدل سلما وحربا وأطلعت على بعض دسائسه شهودا وغيبا ، فأمره كلـه تمويه وتدليس ، وشانه كله خداع وتلبيس ، فكن من مكائده على بال ومن أمر غدره علـى بصـيرة واحتيال وفيما فعل بالاندلس وأهلها أعدل شاهد وبرهان ، وليس الخبـر كالعيان ، فقد كانوا شروطها عليه نيفا وسبعين شرطا لم يوف لهم منها بواحد وضربوا معه فيها فى حديد بارد .

لا يغرنك ما ترى من خضوع . ان بين الضلوع داء دفينا ، فاظهر التـودد منها الخ .. قال اللـه تعالى : « **يـا أيها الذين آمنـوا خذوا حـذركم** » وقال سبحانه : «**ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم** » . وأى خير يحب عدو الدين لجماعة المسلمين ، فالحازم اليقظ من لسلمه لا يستقيم ولا يبرح عن سوء الظن ولا يديم ، والله سبحانه يجزيك من معونته على عوائده ويعيد على الكافر شؤوم مكائده .

وكيف يسوغ لك التخلي عن الكفاح وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الاسلام وارغم بك أنف الكفر وأحزابه ورد كيده على أعقابه ، حتى صار العدو يخفض لـك الجناح ، ولولا وجودك وجدك لتصرف أشيـاع تلك القبائل الاسلامية شـذر مـذر ، ولافترست كلاب الروم أهله وعمرت عبدة الصليب حزنه وسهله ، ولكن الله سبحانه تداركه باقامتك وسد ثغوره بحمايتك ولن تعدم من الله عونا ومددا ومن صالحـي المؤمنين عدة وعددا ٠

ونسأل الله ان يجدد بك الآثار والاعلام ويجعلك من الائمة المهتدين ، ويصلـح بك وعلى يدك آمين ٠

واذا أردت توجيه سفيرالماريشال قالى فاختره من أهل الدين المتين الذى يمكنه ان يضع الامر فى نصابه ويجعل الكافر يعلم انك ذو قوة وان الشعب كل الشعب معـك لا عليك ولتكن فى اختيارك لمن ينوب عنك من هو فى المستوى ، وعلى نائبك ان يقوم بما يفهم منه العدو بانك ذو قوة ولك جنود لا يخافون فى الله لومة لائم ، واسع ولا تنس أن تحبب للناس الجهاد أكثر ، والحذر الحذر بان الاوضاع تغيرت ولا تأمن الكثير من البشر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ٠ والله تعالى يشد أزرك ويديم نصرك آمين ٠

من المولى عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد بن المولى عبد الله ابن المولى اسمـاعيـل ٠

حرر فى أواخر ذى القعدة سنة أربع وخمسين ومائتين بعد الالف ٠

ولما رجع الوفد طلب منه الامير أن يعطيه صورة واضحة عما لقيه من تشجيع ، لا من السلطان فحسب بل من الشعب ، فاشاد الجميع بتأييد المغرب لكفاح الجـزائر فقرر الامير حينئذ أن يرسل وفدا الى باريس تحت رئاسة وزير خارجيته بن عراش ٠

زيارة وفد الامير الى باريس

وبطبيعة الحال فقد زار وزير الخارجية الماريشال فالى فى الجزائر وسلمه رسالة من الامير فحواها :

« لقد عملت بنصحيتك ووجهت وفدا الى باريس تحت رعاية وزير خارجيتى ، وأرجو ان تشملهم بعطفك حتى يتمكنوا من القيام بالمأمورية المكلفين بها وهى ازالة ما بيننا من الخلافات وايجاد روابط ودية متينة ، فشكر الماريشال فالى وزير خارجية الامير على هذه الرسالة اللطيفة ، وطلب منه ان يوافق على تذييل لمعاهدة بيجو ، لان تلك المعاهدة اقامها بيجو دون ان يراعى فيها مصالح فرنسا .

غير ان ابن عراش ادرك سوء نية الماريشال فالى وتبين له ان السفارة التى كلفه بها الامير لم تسفر على فائدة ، وذلك ابن عراش قال لفالى ان مسالة التذييل سابقة لأوانها، ويمكن تأخير التفاوض فيها بعد رجوعه من باريس .

فلم يقتنع فالى بهذه الفكرة وبعث برسالة الى وزير الدفاع بباريس يطلب فيها منه ان يكلف من يتجسس على وزير خارجية الامير لانه جاء بنية الاطاحة بالقيادة الفرنسية بالجزائر .

ولقد تلقى وزير الدفاع هذه الرسالة وبعث بصورة منها الى وزير الخارجية بباريس وطلب منه الا يوافق مبعوث الامير فيما يطلب والا يسمع لما يقوله عن الماريشال فالى ، وذلك ان القيادة فى الجزائر لم يسبق لها ان قامت بواجبها من أجل مراعاة مصالح فرنسا الا فى عهد فالى الذى أصبحنا نعلق عليه كل الامال فى تقوية معنويات الجيش هنالك .

وجاء مبعوث الامير ، وكانت أول زيارة له لوزير الخارجية الفرنسي فشكره على هذه الزيارة كما شكر الامير على نياته الحسنة ، وحدد له موعدا لمقابلة الملك •

وفي اليوم المحدد توجه وزير خارجية فرنسا بمعية وزير خارجية الجزائر الذي سلمه الهدايا التي بعثها الامير للملك ، وسأل الملك مبعوث الامير عن الوضع في الجزائر ، بعد ما اشاد بالامير وعده من اصدقائه وسلمه هدايا للامير وله •

على ان وزير خارجية الجزائر قد فرح بهذه الحفاوة من طرف الحكومة الفرنسية ، وظن ان الفرصة مواتية ليطلب من الملك أن يأمر فالي بعدم اثارة هذا الموضوع لان ما جاء في معاهدة بيجو لا يحتاج الى تأويل فأجابه الملك : « ان المسالة يمكن ان تبحث في الجزائر مع الماريشال فالي لانه ادرى بالامور منا ، ومن غير شك فان فالي الذي اشتهر بالاستقامة سيجد حلا لهذه المعضلة •

وفعلا فان فالي بما له من الدهاء تمكن من حلها حلا يتجاوب مع رغبات الفرنسيين وقدم لوزير خارجية الجزائر معاهدة ثانية جاءت مخالفة نصا وروحا للمعاهدة الاولى ، وسماها ظلما وعدوانا « تذييلا » وهي في الحقيقة مسخا جذريا لمعاهدة بيجو •

وهناك نص ما حرره في ذلك التذليل :

« ان الماريشال فالي حاكم الجزائر ومعتمد الامير عبد القادر الحاج المولود بن عراس اتفقا على توضيح الكلمات المبهمة في صك « معاهدة بيجو » التي تقرر فيها العمل على ما يأتي :

أولا : ان يكون الحد في جهة الشرق من الجزائر ممتدا من مجرى نهر القدرة الى منبعه في جبل طيارين ومنه الى يسر فوق جسر بني هني ، وعليه فيكون التحديد الحالي فيما بين وطن فليسه ووطن بني جعد وما بعد يسر الى البيبان وطريق الجزائر الى قسنطينة ، بحيث ان يكون برج حمزة وجميع الارض الكائنة في شمال وشرق الحدود المذكورة الى البحر تابعة لفرنسا وان باقي أرض بني جعد وونوغا جنوبا وغربا من هذه الحدود تبقى تابعة للامير ، وفي ايالة وهران يسوغ لدولة فرنسا ان تمر بجنودها من أرزيو الى أرض مستغانم •

واذا رأت مناسبا لها أن تصلح قسما من الطريق الكائن في شرق المقطع فلها ذلك دون تعد على أرض الامير •

ثانيا : ان ما تعين الامير أن يدفعه للجنود الفرنسيين من الحنطة والشعير في مدة ثلاثة أشهر والى الآن لم يدفعه ، يـــلزم أن يكون تقديمه منجما على عشرين سنة بحيث انه يقدم في أول كانون الثاني من كل سنة قسطا من كل صنف من الصنفين المذكورين وان يكون الدفع في مدينة وهران ٠

ثالثا : ان جميع ما يحتاج اليه الامير من الادوات الحربية والذخائر يطلبه من الحاكم وهو يحضره ويسلمه الى وكيله في الجزائر بأثمانه الاصلية التي اشترى بها ، فعلى هذه الوجوه يكون الاجراء دون تغيير ولا تبديل ، وباقي الشروط المذكورة في صك المعاهدة يبقى معمولا بها ٠

وقرر فالي ان يجبر مبعوث الامير ابن حراش بان يوافق على التغييرات التي ادخلها على معاهدة «بيجو» فاصفر وجهه وأجاب فالي بأنه غير ممكن أن يمضى هذا التذييل لانه كلف بان يزور الملك من أجل انهاء الخلافات، وأن هذا التذييل هو نفسه سيؤدي الى خلاف بين القيادة الفرنسية والامير، واني أعتقد بأن ما جاء فيه لا يرضى به الامير على كل وجه من الوجوه ، فتأثر فالي من هذا التصريح وقال : « ان التذييل المذكور هو نسخة طبق الاصل لما قررته فرنسا وعلى هذا فلا يمكن للامير أن يعارضه ، ففهم ابن عراس بأن فالي لن يسمح له بالرجوع الى الامارة ان لم يراوغ ٠ وحينئذ أجاب فالي : بما أن ارادة فرنسا قضت هذا فأعمل ما في وسعي لدى الامير لكي يوافق على هذا التذييل ، فلم يقتنع فالي بهذا الرد وأمره أن يكتب في هامش التذييل : انه اطلع عليه واستحسنه فتوقف ابن عراش هنيهة وكتب : اني أطلعت على هذا الملحق واستحسنته ولست مسؤولا عن مصادقة الامير عليه ٠

وبعد أن أمضاه رخص فالي لابن عراش في الخروج من الجزائر ٠

وعندئذ أدرك ابن عرس أن فالي تمكن بفضل ما كان يدسه أن يقضى بجرة قـــلم على معاهدة بيجو ، وأصبح لزاما على الامير اما أن يوافق على هذا التذييل ويعترف للماريشال فالي بامتيازات جديدة ، واما أن يرفض الاتفاقية رفضا باتا وبذلك يعطى الماريشال فرصة بان يستأنف القتال ٠

واستدعى الامير ابن عراش بعد رجوعه من معركة التجيني ووبخه قائلا : « ان ما قمت به سيؤدي الى متاعب ، فشرح له الوضع بالتفصيل بحيث ان الامير أصبـــح

يؤمن ايمانا قويا بأن القضية دخلت فى طورها الحاسم ، وان فالى سيستعمل كــل ما لديه من دهاء لكى يعكر جو الاستقرار الذى ساد مدة عام ونصف العام .

ولما رأى الامير ان المارشال يفكر فى أحداث بلبلة فى الاوساط الفرنسية بعث برسالة الى الملك يخبره فيها بما يدور فى ذهن مارشال فالى من نيات غير حسنة ، ويرجوه أن يتدارك الامر قبل فوات الاوان ، والا يسمح للمارشال فالى أن يتشبث بتنفيذ التذييل الجديد الذى فرضه فرضا على خليفته مولود بن حراش ، وذكر الامير للملك أن الاتفاقيات التى تعقد لابد أن يتقدمها اسشارات واخذ ورد ، واكبر دليل على ذلك ان الاتفاق الذى أبرم فى سنة 1837 كان يتسم بهذه الشروط أما التذييل الذى وقعه خليفته من دون استشارته ومن دون عرضه على مجلسه وعلى علماء الجزائر ، فيعد ملغى ، ولهذا ينتظر من الملك أن يرد الامـــور الى نصابها وان يصدر الاوامر للمارشال فالى بأن يقلع عن اتيان ما يسبب نقض الاتفاق .

وأضاف الامير قائلا : ان ماريشال فـــالى بدلا من أن ينفذ الشروط التى التزمها الجنرال بيجو اغفلها تماما وادعى بأنها غير موجودة بالرغم من وجود سند خطى عليــه توقيع « بيجو » .

وخلاصة القول أن الماريشال فالى يأتى أمورا تتنافى مع مصالح فرنسا والجزائر وأن بقاء الاستقرار بالوطن مرهون بالسياسة التى سينتهجها فالى فى المستقبل .

ولما وصلت هذه الرسالة الى الملك بعث بها الى الماريشال فالى لابداء رأيه وكانت الخطة التى اتبعها فالى أن بعث برسالة الى الامير بوساطة الضابط سال وشفعها بهدايا ورسالة من طرف ابن الملك « دوق دوليان » يطلب منه فيها ان يوافق على الاتفاقية التى أبرمها خليفته .وكانت مامورية هذا الضابط الشاقة أن يعمل ما فى وسعه حتى يتمكن من افهام الامير بان المصادقة على التذييل ستكون لفائدته ، وبالرغم من مساعدة هذا الضابط لم يتوصل الى الغرض الذى كان يطمح له الماريشال فالى فى تنفيذه وبعدما أقام هذا الضابط مدة طويلة عند الامير بعث الى الماريشال فـــالى فى 8 مارس 1838 الرسالة الآتية وترجمتها :

عطوفة المكونت فالى الوالى العام .

لقد شرفتمونى بان أكون رسولكم عند الامير لاسلم هدايا ابن الملك «دوق دوليان» وأطلب منه الموافقة على الاتفاقية التى أمضاها خليفته وقد انذرتمونى بان المســألة تتطلب ديبلوماسية لان الامير يرى فى الموافقة على هذه الاتفاقية تنازلا كبيرا .

لست فى حاجة أن اذكركم بأنه سبق لكم أن بعثتم للامير قبل اليوم رسائل كثيرة لحل هذا الخصام والتغلب على هذا المـــأزق ، وبالرغم من المساعى الكثيرة التى بذلتموها لم تحصلوا على طائل وخاصة أن الامير يعمل جاهدا على أن يتجاهل هــذه المسألة تماما ، والا يشير اليها من قريب أو من بعيد حتى الرسالة التى طلب فيها منكم أن ترسلوا له شخصية من لديكم للتفاهم لم يشر اليها . وقد مثلت بين يديه وتكلم الى الامير عن أشياء كثير ومن بينها الهدايا التى بعث بها الدوق دورليان ولم يتعرض بتاتا لاتفاق تافنا والتذييل الذى أمضاه خليفته فى 4 يوليو سنة 1838 .

وانى واثق بأن الامير لن يتراجع فيما عقد العزم عليه من عدم الاعتراف بما أمضاه خليفته وأكبر دليل على ذلك التقريرات التى أعلنها يوم تغلب على التجينى واستولى على قلعة عين ماضى وشتت شمل أعدائه .

وقد حضرت للمرة الثانية لدى الامير مع تيقنى بأن الخيبة ستكون حليفتى وخاصة أن مولود بن عراس الذى اجتمعت به أفادنى بأن أناسا كثيرين يعملون من أجل احباط هذه الاتفاقية، وان الامير أصبح يرى من صالحه الاطاحة بها .

وقد أفهمت الامير أن الهدايا التى بعث بها ابن الملك انما هى عربون على صداقته للامير وخاصة أن ابن الملك يرغب من الامير أن يؤيد كل التأييد سياسة فرنسا فى افريقيا ان كتب الله أن تكون تحت تصرف فرنسا ، وقد قرأ الامير هذه الرسالة ، ولما وصل الى الجملة الآتية : « افريقيا تحت سيطرة ونفوذ فرنسا » ، تغير وجهـــه وفهمت من قرائن الاحوال أنه غير راض عما جاء فى الرسالة، وان كان يدل ذلك على شىء فانه يدل على أن الامير من الذين يناهضون فرنسا ويعملون ما فى وسعهم للحيلولة بينها وبين المشروعات التى تريد اقامتها فى الجزائر ، وفى افريقيا ، وبعد قراءة الرسالة رأى من اللازم تأخير الجلسة ليوم آخر .

وفى المساء اجتمعت مع أحد أحصاء الامير وتكلم الى كثـيرا عن المعاهدات التى أبرمت بين الامير من جهة وبين قوات فرنسا من جهة أخرى ، كما أخبرنى بأن الرأى العام فى الجزائر يرى أن الاتفاقية التى ابرمها خليفة الامير مع ماريشال قالى لا يمكن أن تنفذ ، وخاصة أن الثقة التى كان يتمتع بها الخليفة تزعزعت لان العلماء يرون أن مولود بن حراش قد تعدى الحدود وسمح لماريشال قالى أن يأخذ أكثر مما له ، وعلى

هذا ان الخلافات التى نشأت بين الامير وجنرال بيجو من أجل الاتفاق المبرم فى 30 مايو سنة 1837 لا يمكن بأى وجه انهاؤها ٠

وبعد مضى أسبوعين تقريبا استدعى الامير عددا لايستهان به من العلماء والاعيان وطلب منى أن أشرح لهم سبب وجودى هنا والمهمة الرسمية التى كلفنى القيام بها الماريشال فالى فذكرت له بحضور الجميع أن المهمة المكلف بها هى فى غاية البساطة ، وهى ترمى الى ابرام المعاهدة الثانية المؤرخة فى 4 يوليـو 1838 التى جـاءت مفسرة ومتممة للمعاهدات التى ابرمت فى 30 من مايو سنة 1837 وأن المنطق يبرر الاتفاقية الثانية فاعترض الامير على ذلك وذكر أن صورة الاتفاقية باللغة العربية تختلف تماما عن صورة الاتفاقية باللغة الفرنسية وأن الاتفاقية المذكورة تنص على أن جنرال بيجو لن يكون له من محافظة الجزائر ومنطقة التيطرى الا أراض قليلة جدا ، وتكون فى الوقت نفسه محاطة بالاراضى التى أتصرف فيها وأكثر من هذا أن الدين الاسلامى لا يسمح لى أن أترك مواطنين يؤمنون بالدين الاسلامى ويعترفون لى كأمير عليهم تحت سلطة أناس يختلفون معهم فى الدين والاخلاق والادب ٠

وبالرغم من هذا كله فقد ذكر لى الامير أنه يسعى السعى الحثيث لتخفيف وطـأة الازمة وطلب منى أن أنتظر حتى يعقد مجلسا آخر بعد أيام ذاكرا أنه لا يالو جهـدا فى أن يحافظ على السلام والا يفكر فى نقض المعاهدة ٠

وقد سمحت لى الفرصة أن أجتمع بالامير مرارا دون أن تثار قضية الاتفاقية من جـــديد ٠

وبما أن الاجتماع الذى كان مقررا عقده تأجل مرارا ، رأيت لزاما على أن أكون على بينة من أمرى ، وطلبت من الامير أن يخبرنى بما قرره من أجل المهمة التى أتيت من أجلهـا ٠

وقد استدعانى وافهمنى أنه حاول بكل ما أوتى من حول وقوة أن يجد ذريعـة يعتمد عليها لحل الازمة غير أنه عجز كل العجز لان الدين الاسلامى لم ولا ولن يسمح لغير المسلمين أن يكون لهم سلطان على المسلمين ، وأفادنى أن فرنسا قد التزمت أمورا كثيرة ويا للاسف فان الشروط التى التزمت لم تنفذها الى الآن ٠

وحاولت الرد على هذا القول بأن فرنسا نفذت نصا بنص الاتفاقيات التى عقدها قوادها باسمها فعارضنى فى ذلك ووضع بين يدى رسائل ممضاة من جنرال بيجو

التزم فيها بتسليم ثلاثة آلاف بندقية وبمنع قبائل الدوائر والزمالة من التعدى على الحدود ، وبارسال مصطفى بن اسماعيل والمزارى وخمسة عشر شخصا من الدوائر والزمالة الى الاسكندرية بصفة مبعدين عن الجزائر وبعد ما أطلعت على فحوى الرسائل والالتزامات التى وعد بانجازها جنرال بيجو أجبته بانه لم يسبق لى أن احطت علما بهذا من قبل ، وبأن خليفتكم لما جاء الى الجزائر وأبرم الاتفاقية الثانية لم يتكلم عن هذه الشروط ولو علم الماريشال بروح الاتفاقية التى أبرمها الجنرال بيجو كتكملة لاتفاقية تافنا لنفذها نصا بنص ، وعلى كل فأسعمل جهدى لاحيط الماريشال فالى الوالى العام علما بهذا الالتزام من الجنرال بيجو فأجابنى الامير : ان بيجو لما ابرم

المعاهدة فى 30 مايو سنة 1837 قد أبرمها نيابة عن الملك بعد أن حصل على تفويض منه وان الشروط التى التزمها تعد فرنسا نفسها هى الملتزمة بها ، وأن شرف فرنسا يقضى بان تنفذها حتى لا تصاب سمعتها بسوء ، فكان ردى على كل هذا بأن ابن عراس الذى أوفده الامير الى الجزائر لدى الوالى العام كان يحمل تفويضا منه وان الرسالة التى جاء بها تنص بصريح العبارة على أن ما يأتيه من الاعمال ينفذ ، فلم يقتنع الامير بهذا ، ودلل كلامه بأن الاتفاقية التى أبرمها ابن عراس كان من الواجب عليه الا يمضيها قبل ان يستشيرنى وأنا بدورى لن أسمح لنفسى أن أعالج مسالة عويصة كالتى عالجها ابن حراش الا بعد أن أجمع أهل الرأى من مواطنى وأن استفتى العلماء قبل البت فى ذلك • وزاد قائلا : ر ان ابن حراش قبل سفره أوعزت له بأن المسائل الجوهرية لابد أن يحيطنى علما بها حتى ننهى مشاكلنا مع فرنسا بحكمة ، وان نحافظ على السلم والاستقرار • وأكثر من ذلك ، انه لم يخطر ببالى ان خليفتى ابن حراش تسول له نفسه أن يأتى نكرا وأن يعارض نصوص الشرع •

وفى الختام طلب منى أن أبقى عنده حتى يتسنى له أن يستدعى جميع العلماء ، وأن يستشيرهم فى الامر لعلهم يجدون مخرجا لهذه القضية التى صعب حلها •

وفعلا فقد جاء الى ديوان الامير العلماء من كل جانب وصوب ، وبقى عدد العلماء يزداد يوما بعد يوم لمدة ثلاثة أيام بحيث انى شعرت بالفشل الذريع فى انجاز مأموريتى وذلك أن العلماء حينما يجتمعون لابد انهم يقررون للامير عدم الموافقة على اتفاقية ابن حراش بدعوى انها تخالف روح الشريعة ، وان الدين الاسلامى لا ولن يسمح

لغير المسلمين ان يكونوا مستضعفين تنفيذا للآية الشريفة : « **ولن يجعل الله للكافرين على المسلمين سبيلا** » ، وتبين لى من هذا الاجتماع أن الامير يريد اضعاف نفوذ ابن حراش وغيره من مستشاريه الذين كانوا يرون أن بقاء الصلح مع فرنسا لن يكون مضمونا الا اذا أبرم الامير ملحق الاتفاقية المؤرخ فى يوليو سنة 1838 .

والشيء الذى أتخوفه هو أن الامير باستدعائه العلماء يريد الدعاية لنفسه حيث انه يبرهن للخاص والعام أن امور المسلمين لن تحل الا بعد اتفاقهم وخاصة موافقة العلماء منهم ، وان سياسته سياسة ديمقراطية تؤمن بمشاركة الشعب فى جميع الامور التى تتعلق بتقرير مصيره .

وبعد أن تفاوض الامير مع العلماء قرر عقد مجلس خاص حضرته كما حضره ترجمان وقد أفتى العلماء بشن حرب عنيفة على فرنسا لانها تنكرت لتعهداتها .

واذا نظرنا الى المعارك التى كانت تدور رحاها بين الامير والماريشال فالييه فى آخر سنة 1839 وفى سنة 1840 نجد ان هذه المعارك معارك غير ذات بال ، وان الانتصارات التى أحرزها الامير كانت أكثر من الانتصارات الهزيلة التى نالها الماريشال فالييه بالرغم من النجدات التى كانت تفد اليه من فرنسا من آونة الى أخرى ، ولقد تمكن الماريشال فالييه من أن ينتصر على الامير فى معركة الدس والمؤامرات فقط حيث انه تسنى له أن يؤلب على الامير القبائل ، وان يكسب لجانبه بعضها لتناهض الامير وسياسته .

وبعد هذا التقرير بعث فالييه الى وزير الحرب صورة من تقرير صهره « شال » وطلب منه أن يوافيه بالعتاد ليواجه الامير كما طلب منه أن يوافقه على مهاجمة الامير للاستيلاء على برج حمزة ، وبعد استيلاء الجنود الفرنسيين على البرج وما يليه من البلاد الشرقية نقول للامير : اذا عارض ـ ولا اخاله لا يعارض ـ بأن قصدنا من هذه العملية تثبيت الروابط بين الشعبين وتصحيح معاهدة بيجو .

هذا هو المنطق الفرنسى الذى يخرب البيوت ، ثم يدعون بأن المراد بذلك ، تقوية المعاهدة القديمة التى كانت تربطهم مع الجزائر .

ولقد تبين من الاخبار التى جاءت الى الامير من عيونه بالجزائر أن ما ينويه الحاكم الفرنسى فالييه هو استئناف القتال ، ولهذا رأى الامير أن يكتب الى ملك فرنسا رأسا يخبره بالحال ويطلعه على سوء تصرف حاكمه فى الجزائر وملخص كتابه :

« من المعلوم قديما وحديثا أن المسلمين من دأبهم محاربة عدو دينهم قيـــاما بما أوحته الشريعة الاسلامية عليهم من الجهاد : اما لاعلاء كلمة الله أو للدفاع والذب عن الدين والبلاد فاذا عارضتهم أمور سياسية أو ضرورات شرعية فلهم أن يجنحوا للسلم ووضع أوزار الحرب ، ونحن لما رأينا الجنرال بيجو راغبا فى الصلح ورأينا بلادنـا تحتاج الى ما به عمرانها وفيه راحتها أجبنا الجنرال الى مطلوبه وعقدنا معه الصلح ظنا منا أن دولـــة فرنسا تحافـــظ عـلى العهـــد ، واذا بعمالكـم فى الجـزائـر قـــد بادروا الى ما به خيبة الظن ، وعجلوا بما يؤدى الى الضرب والطعن فكاتبناهم فى ذلك فما سمعوا ولاطفناهم فى القول والفعل فما قنعوا ، بل جمعوا حولهم وقوتهم فيما يحملنا على الاجابة الى ما لا يجوز لنا شرعا أن نجيب الى مثله وهو التخلى عن قسم عظيم من بلادنا والتسليم فى أخواننا أهل ديننا ، وحيث انه غلب الظن أنكم لا ترضون بوقوع ما يكدر صفونا ويقطع مواصلتنا بادرنا الى ارسال هذه الرسالة الودية لتعلموا منها ما هو واقع بيننا وبين عمالكم وتتيقنوا اننا راغبون فى مسالمة فرنسا ومصافاتها ودوام معاملتها فى المتجر وغيره من أسباب العمران ٠

ولا تظن الدولة الفرنسية أن رغبتنا فيما ذكرناه لضعف اعترى قوتنا أو لقصور أخذ حدة مـــن شـــوكتنا فاننا بحول الله تعالى وقوته لم نزل ولا نزال على ما تعهده عساكركم فى عساكرنا من كونها نعطيها فى ميادين الهيجاء كيلا بكيل وتقابلها المثل بالمثل ، غير أننا لما رأينا ذلك لا يجدى نفعا رغبنا فى المعاهدة طلبا للراحة والوصول الى ما فيه عمران البلاد ، وكتبنا الى جلالتكم هذا ، اعلاما بالحال » ٠

وقد اطلع ملك فرنسا على هذه الرسالة المفصلة وأراد أن يتخذ اجراء يتفق مع مصالح فرنسا والجزائر غير أن بعض القواد الذين كانوا يؤيدون فـــالى أشاروا على الملك بأن يتريث فى الامر حتى تتمكن لجنة توفد الى الجزائر لتحقق فى الامر ، فوافق الملك على هذا الراى وأصبح يسىء الظن فى بيجو ، وعد الهزائم التى منيت بها جيوشه مردها الى الاتفاقية التى ابرمها بيجو مع الامير ٠

ان الملك الذى كان يبادل بيجو ودا بود أصبح يفكر فى التنكر له وبخاصة أن أعداء بيجو فى وزارة الدفاع كثيرين وأنهم كانوا يتحينون الفرص ليكيدوا له كيدا ، وقد اغتنموا خلافه مع الماريشال فـــالى فرصة مواتية للنيل منه ٠

وبعث الملك وفدا من كبار الجيش وخبرائه ليدرسوا الوضع ، وليقدموا تقريرا حتى يتبين لوزارة الدفاع أن تعالج المشكلة على حسب ما يتطلبه الموقف ، وجاءت اللجنة واطلعت على الحقائق ووجدت حاملة فى حقائبها المعلومات الكافية التى أدانت الماريشال فـــالى، وأظهرت بوضوح أن بيجو حينما أبرم المعاهدة كان لا يفكر الا فى أمر واحد وهو سلامة بلده وفتح أبواب الجزائر على مصراعيها للفرنسيين ليتمتعوا بخيراتها .

وبالرغم من هذا التقرير فان فـــالى بقى على اصراره وبخاصة بعد أن أرسلت اليه حكومته صورة من التقرير ، مما حمل الامير على ارسال رسالة الى الملك هذا نصها :

قد كنت بعثت لجلالتكم برسالتين ذكرت فيهما ما هو واقع بيننا وبين عمالكـــم فى الجزائر من الوحشـة ورغبنا فى زوالها من لدن جلالتكم بوجه العدل والانصاف كما أننا رغبنا أن تأمروهم بالعدول عن طريق الظلم والاعتساف ، والى الآن لم يصلنى جواب عن واحدة منهما ، فظهر لنا من ذلك ان الرسائل لم تصل اليكم لان كرم الاخلاق يأبى ان تكونوا بعد اطلاعكم عليهما تتغافلون عـن رد الجواب وبناء عليه كتبت هـذا علاوة على ما تقدم رجاء أن يصل وتطلعوا عليه ويحوز القبول .

وقصارى ما أقول أن عمالكم فى الجزائر أجهدوا أنفسهم فيما ينقص الصلح المنعقد بيننا وبينكم من غير موجب ، وانما الذى حملهم على ذلك هو ما سولته لهم أنفسهم من التعدى على حقوق عباد الله ومد اليد الى ما ليس لهم فيه وجه فالبلاد التى ذكرها الحاكم فى تذييله ، بلاد سبقنا نحن اليها ووضعنا أيدينا عليها . وهى فى حكم الموات لا تعرف حاكم لها بمقتضى الشرع وذلك منذ انقرضت الحكومة من الجزائر ، ولم تدخل قط فى تصرف أحمد باى حاكم قسنطينة الذى استوليتم عليها وأخذتموها من يد أحمد باى الذى كان حاكما عليها بالتغلب أيام دخولكم الجزائر وهب أنه كان عاملا عليها من قبل حكومة الجزائر ، فان تلك الحكومة انقرضت وبانقراضها انقرضت أحكامها وحكامها فلا سلطة شرعية لاحمد باى عليها وبقاؤه فيها ، انما كان على سبيل الدعوى لنفسه والناس لـم يقبلوه أن يكون ولى أمرهم ولا عدوه رئيسا عليهم مطلقا وتغلبــه على مدينة قسنطينة وبونة لو وجد أهل تلك النواحى من المسلمين من ياخذ بأيديهم ويدفعه عنهم لسارعوا اليه كما وقع ذلك حين توجهنا الى النواحى التى تلينا ومن جملتها الاراضى التى نازعنا فيها عمالكم بغير حق .

وبالجملة فسلوك هؤلاء العمال معنا حائد عن طرق الحق وأساليب العدل ومن العجب أنهم تعدوا على نفر من عساكرى وحبسوهم بدون سبب شرعى ولا داع قانونى وعلى

فرض أن لهم وجها فيما فعلوه كان الواجب عليهم أن يخابرونا فى أمرهم ونحن نجرى عليهم ما تقضى به الاحكام الشرعية أو القانونية على حسب ذنوبهم ، ثم انهم منعوا بيع الحديد والنحاس والرصاص فى اسواقنا وأهانوا رسلى اليها وأعرضوا عن رد أجوبة عن رسائلى التى وجهتها اليهم ، وجعلوا ضريبة على المكاتبات التى ترد من الداخلية الى الجزائر وغيرها من المدن التابعة لهم ، فينبغى والحالة هذه أن تاخذوا باعنتهم وتضربوا على أيديهم وتامروهم بالعدل على سوء التصرف معنا ، فان كمال مروءتكم مع ما شاع عنكم من مكارم الاخلاق يقضى عليكم بذلك .

وان قال هؤلاء العمال ، اننا تأخرنا عن اجراء بعض شروط المعاهدة قلنا اننا لم نؤخر ذلك الا لكون الجنرال بيجو تقاعس عن اجراء ما تعهد به ظنا منه أننى غافل عن تلك المعاهدة الموقع عليها باسمه وبخط يده ، فأنظر أيها الملك فيما ذكرته لكم واسمحوا برد الجواب والتعريف عن مقاصدكم والله يوفقكم الى ما فيه راحة العباد .

وقد انتظر الامير الرد على هذه الرسالة الثالثة دون جدوى ، وبما أن الفرنسيين بوجه خاص والاوروبيين بوجه عام يحافظون على البروتوكول ، رأى الامير ان من اللياقة أن يبعث برسالة الى وزير الخارجية وأن الوزير المذكور لما يصله كتاب الامير أو أى شخص يرى أنه من الواجب عليه أن يطلع على ذلك الحكومة المركزية لتبث فى الامر فارسل الى وزير الخارجية كتابا ملخصه :

«انى أهنىء فرنسا برجوعك الى وزارة الخارجية ، واعلم ان الاثقال المهامة التى تقضى بصرف الهمة وتوجيه الفكر الى تحسين الاحوال بيننا وبينكم تعوقكم عن ذلك وتجعلنى أنتظر منك ما أهنى به نفسى ، فانك على ما بلغنى تحب الهدوء والسكون ، وتسعى فيما يحسن العلائق بين شعبك وسائر الشعوب،ولا يخفى أن الاحوال الجارية بيننا وبين عمالكم لا يصلحها ويحسنها الا تاييد السلم المنعقد بيننا وبينكم وتوطيده ومجانبة الاعتداء بكل وجه ، وما استعمال الحيل مع الاغضاء عن اجراء شروط المعاهدة لاجل مطامع خارجة عن جادة الحق فلا جرم أن ذلك يقضى بنا وبكم الى ما لا خير فيه لنا ولكم ، وحيث أن الحق تعالى وهب لك من الاخلاق الحميدة ما أكسبك الثناء والجميل من أبناء جلدتك اذا فينبغى لك ان نستعمل تلك الشيم الكريمة وبذلك ينتشر ذكرك الحسن بين الامتين ، وتتعطر أنديتها بمدحك وكمالك ، وينتشر صيتك الطيب ، ويدوم ذكرك فى العالم ، وبالجملة فانى انتظر منك ما يسر السامع وتبتهج به المجامع من تجديد الروابط الودية بيننا وبين دولتكم » . وكان يظن الامير أن هذا الاجراء يؤثر فى الماريشال فالييه ، ويوقفه عند حده غير ان فالييه تمادى فى طغيانه ،

طغيان فالى

وعلى اثر تعيين جراردن وزيرا للدفاع كتب له الامير رسالة جاء فيها :

«بلغنى أن ملك فرنسا قلدك وزارة الحرب وقد انشرح صدرى لذلك لعلمى أنك تميل الى المسالمة وتسعى فى اسبابها ومن يكن قادرا على نظارة الحرب فلابد أن يكون قادرا على تمكين الصلح وحمايته من اعتداء المعتدين هذا وان معاملة عمال الجزائر لنا وسوء تصرفهم معنا لابد أن يكون قد شاع وذاع وتأسف له وضج منه كل فاضل ، فان هؤلاء العمال بعد أن عقدنا الصلح مع دولة فرنسا وأسسناه على شروط قبلها كل منا وجرى بها العمل قاموا يتعاطون أسباب حل ما عقدناه ونقض ما أسسناه وبنوا أمرهم على الطمع الذى يمقته كل منصف والظلم الذى يمجه كل عادل ، وحاولوا تغيير كثير من من الشروط وبحثوا فى معانى الفاظها العربية ولا أدرى هل كان ذلك منهم لجهلهم باللغة العربية أو هو على سبيل التعنت ؟ ومن العجب أنهم ارتكبوا ذلك ولم يعلموا أنه حطة فى حق دولتهم العظيمة ٠

وبالجملة فنحن نستدعى حسن التفاتك الى المطالب التى أكثروا علينا فيها ونرجو أن نفوذك القوى عند جلالة الملك يعضد مقاصدك السليمة والله تعالى يوفقك الى فعل الخير وتقريره » ٠

ان الدوائر الرسمية فى الجزائر ذكرت أن الحكومة الفرنسية على وشك انهـــاء الخلافات بين فالى والامير حيث تبين لها أن فالى قد أســـاء التصرف وزيف الحقائـق وشوهها ٠ بحيث ان تقاريره كانت ترمى فى سلة المهملات وان الخزانة أصبحت من طلباته التى لا تنقطع فى هبوط، وان رجل الشارع ينعته بالقائد المتهور،لان الشبان الذين

ذهبوا الى الجزائر لم يرجع منهم الا القليل حتى ان سكرتير الجنرال بيجو فاليوت قال ما يلي : حاكيا عن عن بعض الجنود في الجزائر قال :

« وقفت على رسالة لبعض أفراد الجنود الفرنسيين أرسلها الى والديه واخواته في فرنسا عندما شاع اتفاق المجلس الحربي على الحرب »، ونص الرسالة :

« من مدينة الجزائر في الخامس والعشرين من شهر آذار سنة احدى وأربعين ثمانمائة وألف ، الى والدي وأخوتي أخبركم أن حياتي قد صارت في خطر ، وذلك أننا في هذا الوقت متوجهون من مدينة الجزائر الى المدية ومليانة ومن دون شك أننا نصادف في طريقنا أخطارا ومهالك ولا أدري هل أرجع سالما أو ذلك آخر العهد بالحياة الدنيا ، ولا يخفى أن الموت أقرب الى السلامة ولكن يلزمنا الصبر ، واني أخبركم ان العرب فرسان مشهورون بالشجاعة والاقدام وحالنا معهم في الحرب ان رصاصهم يصب علينا كالمطر، واما نحن فلا نقابلهم الا بالكل ليبعدوا عنا وان وقع في أيديهم جندي منا فانهم يعرضون عليه الاسلام ، فان قبل وأجاب تركوه والا قتلوه ، وعندما نسير من محل الى آخر نأخذ أزوادنا معنا لانه لا يوجد في طرقنا فنادق ولا حانات ، وفراشنا وغطاؤنا ليس الا الكبوط لا غير فهذه حالنا في بلاد العرب وعلى كل فانا أودعكم وعيناي غارقتان في الدموع » .

وبطبيعة الحال فان الجنود الذين بالجزائر كانوا متأثرين من الوضع المزري الذي هم فيه بسبب طغيان قوادهم الذين لا يفكرون كالماريشال فالي الا في اراقة الدماء وتبديد الاموال ليحصلوا على الشهرة ان أمكنهم الحصول عليها .

وكلما جاءت امدادات من فرنسا للماريشال فالي ازداد نشاط الامير وأوقع بفرنسا خسائر جسيمة ، وأمسى الجنود الفرنسيون محصورين من جميع الجهات واضطرب الوطن باهله ، واشتد الهيجان في نواحيه ، وداوم الامير على الغارات وبعث البعوث والغزاة فلا يخلو يوم من هجوم جنوده .

قال بعض مؤرخي الافرنج : « قد اضطربت القبائل والفرنسيون لسرعة الامير وتعاقب ظهوره واختفائه وحضوره وغيبته مع الايام لانه جعل دأبه سرعة الحضور في سائر المقاطعات وهاجه روح الحصار في كل المحال ، فشهاب حضوره السريع جعل الفرنسيين في حالة اضطراب وخيبة ظن ، وبذلك ثارت المنازعات واشتدت الحركات حتى ان الامير في اليوم الواحد يظهر في الصباح في مكان وفي العشية يظهر في

آخر بعيد المسافة عن الاول حتى انهم سموه أبا ليلة وأبا نهار ، ومن حركاته أنــه سار فى ستة آلاف من الفرسان الى تاكدمت ومنها الى وادى الشلف فبلغه أن أولاد شعيب وهم قبيلة عظيمة كثيرة البطون والعشائر عازمة على الاتحاد مع الفرنسيين ، فعدل فى طريقه عن التوجه الى وجهته التى كان قاصدا اليها وسار اليهم ثم هجم عليهم وكانوا فى خمسة آلاف فارس ، فاخذهم أخذ عزيز مقتدر ، والقى القبض على رؤسائهم ومشائخهم ، وأخذ جميع أموالهم وماشيتهم ، وغنم ما عندهم من الاثاث والامتعة » ٠

واستاءت وزارة الحرب لهذا النبأ الذى أطاح بسمعة فالى الذى كان تقدم بتقرير مفاده أن قبائل كثيرة انضمت لفرنسا وأصبحت تهاجم جيوش الامير وأن الامير على وشك الاستسلام ٠

وفى هذا الوقت بالذات بعث الامير الى وزير الحرب رسالة بين له فيها تعـدى الماريشال فالى هذا نصها :

«لقد حاولت بقدر المستطاع أن أتفادى الحرب غير ان فالى أصر على ان يقضى على معاهدة بيجو ، وحاول اثارة مسألة الحدود ، ولما غلب على أمره نصب لى كمينا بأن دعانى ان أرسل وفدا الى فرنسا من أجل تقوية روابط المودة بين الجزائر وفرنسا ، وتجاوبت معه وكنت أظن أن القائد الذى ساعدته الظروف بأن يمارس القيادة الفرنسية بالجزائر لا يمكنه بأية حال من الاحوال أن يكون خائنا لانى أعلم ، أن الزى العسكرى يوجب على صاحبه أن يكون متحليا بالشرف ، والذى جعلنى اعتقد ذلك هو أننا معشر المسلمين اذا عاهدنا وفينا ، واذا قدرنا عفونا ولم يسجل التاريخ علينا يوما أننا انحرفنا أو عاملنا عدونا معاملة لا تتفق ومبادىء الانسانية التى جاء بها ديننا القويم ٠

وبفضل هذه الخديعة التى ستدين فرنسا الى الابد ، اعتبر مبعوثى أسير حرب ، ولم يسمح له بالخروج الا بعد أن أمضى له تذييلا يخالف المنطق والذوق ٠

وحاول فالى أن يرغمنى على الموافقة ، فلم أر بدا من استشارة الشعب الجزائرى الذى رفض هذا التذييل ٠

وبلغنى أخيرا ، أنه وسوس لكم بأنى تهيأت للحرب فبعثتم له بجيش لا أول له ولا آخر من أجل أن تساعدوه على هذه الجريمة النكراء ، وآخر ما تسمعون منى انى لن أتاخر عند رد هجومكم والسلام على من اتبع الهدى » ٠

ولقد بعث وزير الحرب للماريشال فالى الرسالة التى بعثها الامير عبد القادر له ولما اطلع عليها فالى تأثر وأدرك أن ما يقوم به من اجراءات للاطاحة بالامير لم يكن له الا نتيجة واحدة وهى أن حكومته ستضطر لعزله وابعاده عن الجزائر ٠

وكتب فالى الى وزير الحرب رسالة شرح له فيها الوضع ، وطلب منه الارشادات فيما يخص شن الحرب على الامير لان الامير ما زال متمسكا بمعاهدة تافنا التى هى فى الحقيقة بمثابة سجن رهيب لجنوده الفرنسيين ٠

ورأى وزير الحرب أنه لابد من تحاشى الحرب ولو أن نية فرنسا أصبحت تميل الى شنها ضد الامير على شرط أن يكون هو البادىء ، فبعث وزير الحرب الى الماريشال فالى ليستعد لذلك ، وكلفوا الدوق دومال ابن الملك أن يذهب الى الجزائر ، فجاء اليها واستعرض الجيش ثم قرر الماريشال فالى أن يتوجه هذا الجيش الى قسنطينة بنيـــة الاساءة الى الامير والتعدى على حقوقه حيث ان هذا الجيش من الضرورى أن يمر على الاراضى التى يحكم فيها الامير ٠

ولما دخل ابن الملك قوبل بحفاوة حتى من الجزائريين لان الجزائريين كانوا يظنون أن الخلافات التى بلغت أشدها بين الامير وفالى قد انتهت ، وجاء السلم الدائم بـــين الشعبين ولما استاء الامير من عدم لباقة الماريشال فالى باتخاذ هذه الاجراءات والمرور بابن الملك فى أماكن لا سلطان له عليها ، تألم وندم الشعب الجزائرى على سكوته على هذا الظلم الفادح ، وتنادوا فيما بينهم باشعال نار حامية على رؤوس الفرنسيين ، لانهم خالفوا قواعد الجوار ، وارتكبوا جنايه لا تغتفر، وبعد هذه الاعمال الصبيانية ظهر للامير أن سكوت الملك والوزراء الفرنسيين على رسائله له مبرره ، وأن الفرنسيين كـانوا يتهيئون للحرب ، وعلى هذا فما عليه الا أن يقابل هذا الاجراء باجراء أعنف وأقسى منه ،. فأصدر أوامر الى خلفائه فى المقاطعات ملخصها :

« ليكن فى علم سائر الخلفاء والاغوات والقواد وجميع المسلمين أهل بلادنا القائمين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا وفقهم الله للقيام بفريضة الجهاد وأعانهم بالقوة والامداد. ان الفرنسيين قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم ومروا فى بلادنا من الجزائر الى قسنطينة بدون اذن منا فتاهبوا أعانكم الله للحرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضرب ، واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم ، واجمعوا أمركم للذب عن وطنكم ، وحيث ان ما فى بيت المال من النقود لا يفى بنفقات الحـرب

ولوازمها ، فقد تعين عليكم أن تفرضوا على أنفسكم ومن يليكم اعانة جهادية وسارعوا بالحضور الى المدية فاننى أنتظركم فيها ووطدوا طريق الراحة والامن فى سائر أعمالكم على الوجه الذى أكون به مطمئن البال واعلموا أن النجاح موقوف على اخلاص النية ، فوجهوا قلوبكم الى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمة وتشييد أركان دينه بكم والسلام عليكـــم » .

فأجابه الحاضرون : لقد اجتمعنا لنداء سيدنا نـاصر الدين عبد القـادر بن محيى الدين واتفقت كلمتنا ، واتحدت آراؤنا على اعلان الجهاد ، وقد بايعنا أميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية وحررنا هذا الصك ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه ، فأجيبوا أيها المؤمنون داعى الله وانفروا خفافاوثقالا الى ما دعاكم اليه ومن تأخر منكم ، فانما اثمه على نفسه كما أن لومه فيتحمـل به من العقوبة الاميرية عليها ، ومن الله نستمد العناية وهو والى الهداية .

حرر فى اليوم السادس عشر من كانون الاول سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف فى الديوان الاميرى المنعقد فى مدينة المدية .

ثم ختم على هذا الصك الخلفاء والعلماءوقواد الجيش ورؤساء القبائل .

وفى الوقت الذى تم فيه اعلان الحرب بعث قالى اليهودى ابن دران ليطلب من الامير ارجاء اعلان الحرب لمدة وجيزة حتى يتمكن من ايجاد حل لتسوية ما بيننا من نزاع . فأجابه الامير بأن الامر أصبح بيد الشعب ، وأنه قرر الحرب ولا يمكننى أن أعصى له أمرا.

ولقد رأى الماريشال قالى حاكم الجزائر أن تدارك الامر قد فات وقته ، وعلم أنــــه لا محيد له عن الحرب فجمع أعيان مجلس قيادته بالجزائر وأطلعهم على مكتوب الامير الذى جاء به ابن دران ، وأظهر لهم الاسف على ما فاته من تدراك أمره مع الامير الذى طالما دعله الى المسالمة والبقاء على ما انعقد عليه الصلح فى معاهدة تافنا ، فلم يلتفت اليه ثم جمع قواد العسكر وفاوضهم فى أمر الحرب ، وأمرهم باختيار الجيوش وعرضها وتدريبها وأخذ الاهبة للزحف على البلاد الاسلامية وقال لهم :

ان أول ماتؤمرون به هو انكم تقصدون المدن الكبيرة ومتى حصل لكم الاستيلاء على مدينة منها وجب عليكم أن تقيموا فيها ورتب نهم طرقا ووجوها لتبليغ الاخبار الحربية اليه وكذلك الامير جمع رؤساء جيوشه المدربة والمتطوعة وأمرهم بالزحف الى الاماكن التى فيها عسكر فرنسا وأمرهم بالهجوم على الحصون واستعمال التورية فى المسير الى

الجهات وعين لهم من يبلغ أخبار كل فرقة الى الاخرى ورتب بريدا مخصوصا به يبلغه أخبار سائر الفرق .

على أنه كانت أول معركة قام بها الامير هي معركة أولاد غانم الذين باعوا أنفسهم لفرنسا، واصبحوا دعامة لها، وقد استعان الامير بسرية «حجوط» واستولى على قبيلة أولاد غانم وغنم مواشيهم ، وبدلا من أن يثوب سكان قبيلة أولاد غانم لرشدهم استغاثوا بالقبائل المتنصرة لتعينهم على الامير فلقيت القبائل المتنصرة المصير نفسه ، وتمكن قائد سرية «حجوط» من أن ياخذ معه مؤنا وأسلحة وحيوانات يعجز العد عن حصرها لكثرة عددها ، وعندما سمع الماريشال قالى بهذه الهزيمة التى سلطت على أنصاره جاء لنجدتهم بفرقة من جيشه فالتفت مع قائد جيش الامير الذى انتصر عليهم بعد ما أنزل الرعب فى قلـــوبهم .

غـــزوة متيجـــة

قرر الامير أن يهاجم الفرنسيين فى متيجة ، وصدر الامر من الخليفة بأن تحـــرق الابنية الفرنسية عن آخرها ففر من بقى منهم الى الجزائر ، وذهبوا الى الماريشال قـــالى ليحيطوه علما بذلك فلم يجدوه ، لانه دخل العاصمة لكى يعد العدة ، ويتخذ ما يمكن اتخاذه من اجراءات لرد هذا السيل الجارف .

ولقد قال المؤرخ الانجليزى تشرشل : « بعد أن وقع ما وقع فى سهل متيجة أرسل الماريشال قالى يخبر دولته بهذه الغزوة الاسلامية التى أخافت العموم ، وألجات الجيش الفرنسى الى التحصن باسوار مدينة الجزائر .

غير أن الحاكم قد جهز ثلاث فرق من الحرس وضمهم الى فرقته التى خرج بها مـــن الجزائر الى المدية ، ولما وصل الى جبال حجوط وجد جموع العرب فى الطريق فاثالوا عليه من كل جهة ، وناوشوه بالقتال ، ولما انتهى مسيره الى أول مضيق وجد فيه حامية مـــن جنوده الفرنسيين معهم مدفعان صغيران فنزل عندهم ، ثم ان الحاكم أمر الجنرال شاكرنى أن يتقدم أمامه بفرقته الى مضيق موزاية ليكتشف له الاحوال هناك ، وســار الجنرال دفيفير بفرقته فى طريق آخر غير طريقه ، وكانت جيوش الفرنسيين تســير فى تلــك الاودية الوعرة ، وحشود العرب عن اليمين وعن الشمال يمطرونهم برصاصهم المتوالى . وانتهز الجنرال الفرصة فى التخلص من ذلك المضيق بعد أن فقد من ضباطـه اربعــة وخمسين ضابطا ، فاجتمع القواد ورتبوا الجيش ، واشتعلت نار الحرب بينهم وبين العرب

وكان الحاكم العام قد انفرد ببطانته على كثيب عال على فم المضيق ليشاهد الحالة التى وصل اليها جنود فرنسا من نجا منهم من الموت عندما صدر لهم الامر بمبارحة ذلك الحصن كانوا فرحين ثم ان الحاكم راجع رأيه وعين فيه حامية من العرب الواليين له ، ولما كانت دواب النقل غير كافية اضطر الحاكم الى أخذ دواب الجزائريين الذين انضموا لــه واستعملها فى النقل ، فصعب ذلك على الناس ، وتعطلت أشغالهم ، كما أن الجيش لحقة الضجر الشديد من توالى الاسفار ، وبذلك تكدر صفو الجميع ، وصــار الجيش يجاهر قواده بالعصيان وعدم الانقياد لاوامرهم ، فقام الحاكم لذلك وقعد وتدارك الامر فى تسكين روع الاهالى وتطييب قلوب الجيش من دون فائدة لان الكثير منهم قد مات من الامراض حتى ان حامية مليانة لم يبق منها سوى اثنى عشر جنديا ، ثــم ازمع الحاكم على المسير بنفسه لتبليغ الذخيرة الى المدية ، فخرج فى فرقتين من الجيش ، وأخرج معه عددا كبيرا من الدواب وعجلات النقل مشحونة بالدخائر والمهمات ، وكان خروجه فى صورة غير منتظمة لسآمة العسكر ولكثرة ما كابدوه من المشاق المتوالية ٠

كانت المعارك تتوالى ٠٠٠ معركة أبى بهير ، معركة بوفاريك ، معركة مستغانم ، المدية ومرسى شرشال ، موزاية ومليانة ٠

الا ان أهمها كانت : معركة الزيتون ، تلك المعركة التى رأى فيها الفرنسيون من المتاعب ما لم يسمعوا به من قبل ٠

لقد باتوا تلك الليلة على أحر من الجمر لشدة ما لحقهم من الوبال ونالهم من عظيم الاهوال ، وفى غد ذلك النهار ارتحلوا على طريق المدية وجنود الامير لم تفارقهم طرفة عين الى أن انتهوا الى ساحة المدية فخرج القائد كافينياك منها ، ولما رآه الحاكم سأل عن حال جنوده فاخذ يصف له ما هم عليه وما قاسته الحامية من الضنك الشديد ، وذكر له بان المدينة لم يبق من عماراتها سوى المساجد المحكمة البنيان ، وأنه اضطر الى أن يتخذها مأوى للمرضى ، وان جموع العرب لم تترك شيئا ينتفع به الفرنسيون فى هذه المدينة ولم تتخل عن حصارها وكان من الواجب دوام ارسال الذخائر اليها ، وهذا لا يأتى الا بعد أتعاب ومشقات شتى ولا سيما أن المسافة من الجزائر الى المدية لا تنقص عن خمسة وعشرين يوما ولا يمكن السير فى طريقها الا فى فصل الصيف

ومن المعلوم أن سائر أعمال الجيش الفرنسى فى هذه المدة انحصرت فى الاستيلاء على مدينتى مليانة والمدية والغاية المقصودة من وضع الجنود فيها هى اتخاذهما مركزين عظيمين حتى يتمكن الجيش فيهما من محاربة جيش الامير فى جميع الجهات الداخلية ٠

غير ان الحاكم بعد أن أقام فى المدية أربعة أيام أمر بالاستعداد للرجوع الى الجزائر وسار على طريقه وما سرنا بمقدار بعض الكلمترات حتى ظهر لهم نحو ألف فارس من العرب شاكى السلاح وما زالوا محيطين بنا عن بعد يناوشونا بالقتال الى أن وصلنا غابة الزيتون فبتنا فيها تلك الليلة ، وبات المسلمون فى مواضعهم بالقرب منا ، وفى الغد انكشف الظلام فاذا فرقتان من الجنود المنظمة ، فانضمت للجموع السابقة وجعلوا مسيرهم فى طريق الجبل وبوجود هذه الجيوش الكثيرة التى كان الامير عبد القادر قائدا لها توقف جيش الفرنسيين عن المسير ، واشتبك الفريقان واشتد القتال ، كان نتيجة ذلك أن جرح الجنرال شانكرى فى كتفه ولم يثبت لمقاومة الجيش الفرنسى من تلك الفرق والجموع الا الفرقة النظامية التى كانت تحت قيادة الفارس الشهير بالشجاعة وهو محمد البركانى خليفة الامير فى مقاطعة تيطرى ثم خمدت نيران الحرب وأخذ الجيش الفرنسى فى المسير ٠ وفى اليوم الثانى عاد الامير الى محاربة الفرنسيين ولولا أن المطر الغزير المتوالى قد حال بيننا وبينه لآل الامر الى خسارة عظيمة ، أو ربما كانت تاتى على آخر جندى فرنسى لشدة ما لحقه فى هذه المراحل المتوالية من تعب السير ومقاومة الخصم ونقص عدده بالموت فى تلك الحروب الهائلة مع عدم تمكننا من الاقامة والراحة لاننا تورطنا فى جبال شاهقة وأودية وعرة ٠

ثم بعد مشقة كبيرة من عبور المضائق سلكنا طريقا سهلا الى متيجة ، واتصل سيرنا الى الجزائر فدخلها الجيش الفرنسى على حالة يرثى لها ٠

وأما الامير عبد القادر فانه لما هو عليه من شدة العزم وقوة الحزم لا يخطر فى أفكاره أن يقر للعدو بالتقدم أو يجعل له طريقا لذلك بل كان مستضعفا له ، عاكفا على تنفيذ أوامره متيقظا لشانه ٠ وبعد أن أخذنا قسطا من الراحة فى الجزائر أمر الحاكم العام بترميم سورها واصلاح خلله ، وان لم يتمكن الماريشال فالى من مجابهة الامير على أن ما ذكره الكتاب الفرنسيون المأجورون عن هذه المعارك وبخاصة هذه المعركة ، انما هو زور وبهتان وعليهم أن يراجعوا ما ذكره الضابط فاليوت سكرتير الجنرال بيجو فى تاريخة نقلا عن بعض القواد الذين حضروا ذلك وعاينوه ، بل ذاقوا مرارته وكابدوا

مشقته ، ولم تحملهم العداوة على كتمانه ولا دعتهم الحمية الى موافقة حاكمهم فى كذبة وبهتانه قال ما ملخصه :

اجتمعت فى الجزائر بأحد قواد جنودنا الفرنسيين ، فاخبرنى بجميع ما شاهده فى العرب قال :

« اننى مدة الشهر الاول من اقامتى فى بلاد الجزائر ، شاهدت سوء حال الفرنسيين وعاينت الشدائد التى كانت تحدث يوميا ، ورأيت ارتباك الحاكم العام فى تدبير سياسته التى بلغ فيها الى مركز صعب ، لان أمره كاد يقضى عليه بالرغم من وجود نجدات وذخائر ومهمات حربية فى المدية ومليانة ، لكن من الصعب أن تصل يده الى ذلك فى كل وقت لان الجيش الذى تحت امرته فى الجزائر أصبح يعصى أوامره ، والذخائر والمهمات التى أعدها لما هو بصدده نفذت واحضار مثلها من فرنسا أصبح متعذرا وهو لا يريد كشف الغطاء للدولة عن أموره كلها خوفا من توجيه العتاب اليه على سوء تصرفه ، فلذلك رأيناه فى حيرة دائمة وارتباك متصل فضلا عن سوء حال جنده .

ولقد ترتب على هذا العمل ، أن جاءه أمر من الحكومة المركزية بباريس بتخليه عن القيادة العامة لعدم كفاءته ، وعزلته عن ممارسة أى عمل عسكرى ، وأخبرته بأن وزارة الحرب ستعين قريبا خلفا له له خبرة بالفنون العسكرية ، وهو الجنرال بيجو الذى قلدته المارشالية ليقوم بما يتطلبه الموقف لمواجهة الامير .

وبحسبه فنستنتج من تخبط وزارة الدفاع واستبدال ماريشال بماريشال آخر قد زعزع الحكومة الفرنسية بأسرها ووزارة الدفاع وأركانها وقيادة الجيش الفرنسى بالجزائر وضباطها اثر الهزائم المتتابعة التى أنصبت على رأس جيش فرنسا من القائد الحازم عبد القادر بن محيى الدين الذى لا يعرف الخوف ، ولا يجبن فى المعارك لما أوتى من شجاعة فائقة وعبقرية عديمة النظير ، وقد قال الكاتب الانجليزى شرشل : ليس فالى بعبقرى انما العبقرى هو الامير عبد القادر ، بحيث أن فالى أفحمه الامير ، وتغلب عليه بيجو بالدس والمؤمرات .

قيادة بيجو

أجهد الماريشال فالى نفسه بأن صور الجنرال بيجو للحكومة الفرنسية بأنه ليس من قادة الجيش الذين يصمدون للامير ، وان المعاهدات التى أبرمها مع الامير كانت بمثابة ضربة قاصمة للوجود الفرنسى فى الجزائر ٠

وظن الماريشال فالى أن تقاريره ستكون محل تقدير من الحكومة المركزية ، غير أن الهزائم التى منى بها أرغمت الحكومة على ان تعد هذه التقارير من أنواع الحسد وأن بيجو أقوى بكثير من فالى ، وهذا ما دعا حكومة فرنسا الى ان تقيل فالى وتعين بدله عدوه الالد بيجو ٠

لقد فرح الجنرال بيجو بعزل الماريشال فالى وتعيينه بدلا منه ، غير أنه صرح للحكومة بأن الوضع فى الجزائر أصبح عسيرا بسبب السياسة التى اتبعها فالى ، وأنه فى وسعه أن يقوم بالاعباء التى كلف القيام بها على شرط أن يزود بالاسلحة والجنود الكثيرين ٠ فاستجابت الحكومة لرغبته وجهزت له ثمانين الف جندى ، وجعلت تحت تصرفه أسلحة ومهمات حربية كثيرة فضلا على الجيش والعتاد الذى كان بالجزائر ، وقد أحيط الامير بذلك علما ، فكتب الى الجنرال بيجو ورؤساء قواد الجنود الفرنسيين فى الجزائر ما يلى :

« السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى أما بعد فقد بلغنى أنكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما يزيد على ثمانين ألف جندى زيادة على جنودكم السابقة فيها، فاعلموا اننى بعون الله تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أهتم بقوتكم لعلمى أنكم لا تضروننى بشىء الى أن يشاء الله ، ولا يلحقنى منكم الا ما قدره الله على واننى منذ أقامنى الله فى هذا الامر وجعلنى ضدا لكم ما قاتلتكم بجنود يكون عددهم ثلث

جنودكم التي تكافحونني بها ، ومدة ملكي كما لا يخفى ثماني سنين ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين وآلاتكم الحربية قوية ، ومع هذا البون الشاسع الذي بيني وبينكم فاني اعرض عليكم أمرين فاختاروا واحدا منهما : اما أن تعطوني ما أحتاج اليه من أدوات الحرب بالشراء ، ثم أنظم جنودي ، واما أن تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها ، وابقى أنا في بلادي التي تحت حكمي ثم لا يقرب أحدنا من الآخر مدة اثنى عشرة سنة ، فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة ، وحينئذ أقاتلكم فان غلبتكم فلا عار عليكم ، اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة وان غلبتم تكونوا قد غلبتم رجلا له قوة فيحصل لكم الفخر ، واما اليوم فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول وانتصاركم علي لا يعد فخرا حيث انكم غلبتم رجلا عمر ملكه ثماني سنين ولا قوة عنده يقابلكم بها » ٠

وطلب الامير من الماريشال بيجو أن يختار بين أمرين :

اما أن يوافق على أن يتبارز مع أحد قواده ، واما ان يرضى ابن الملك أن يتبارز معه فان غلب بيجو على أمره أو غلب ابن الملك ، فستخرج الجنود الفرنسية من الجزائر كما دخلت وان غلب خليفة الامير أو الامير فستصبح الجزائر كلها لفرنسا ولها أن تتصرف فيها كما شاءت ٠

وقد اطلع بيجو على هذا الكتاب ودقق النظر فيه وحاول أن يخفيه عن قواده ، غير أن سكرتيره الخاص قد أشاع الخبر بحيث أن بيجو أصبح مرغما على أن يعلنه وأن يطلب من القواد أن يدلوا برأيهم فيه ٠

وبعد أخذ ورد اتفق الجميع على أن الامير قوي وخلفاءه لا يقلون عنه شجاعة ولا يمكن لابن الملك أو لبيجو أن يخاطرا بأرواحهما ويخاطرا في الوقت نفسه بالمكاسب التي أحرزتها فرنسا منذ أن احتلت الجزائر ، وأن أحسن طريقة لمعالجة هذه المشكلة العويصة هو عدم الرد عن هذا الكتاب ، وقرر بيجو أن يدخل في ذهن قواده وجنوده أن العرب ليسوا بشجعان وفي امكان جيوش فرنسا أن تنتصر عليهم وخطب فيهم قائلا : « أيها القواد والرؤساء الامجاد قد كنت أظن أن للامير عبد القادر جنود نظامية كافية ، ولها خبرة بفنون الحرب وأساليبه واقتدارا على مقاومة الجيوش الفرنسية ، والآن تحقق عندي أن الامير على خلاف ذلك ، وكنت أظن أن العرب ذوو ضخامة وجسامة لي الآن فتبين أنهم ليسوا كذلك ، غير أني لا أنكر قوة بأسهم وشدة شوكتهم وصلابتهم في الجلاد ومقاومة الاضداد ، لكن هذا ما داموا في أوطانهم ، وما دامت أملاكهم في

ايديهم التى عليها مداد معاشهم ، وبدى لى أن الرأى الذى نتوصل به الى تفريق كلمتهم واخضاعهم للطاعة ان عساكرنا تتصدى أولا للاستيلاء على بسائطهم التى فيها انتجاع ماشيتهم التى يرتزقون منها فان حصل هذا فلا شك فى الفوز والنجاح ، ثم نضع الحاميات الكافية والاسلحة الوافية فى الاماكن الصعبة التى نمرعليها ، ولنتمكن من اتباع آثار الفارين منهم المتوغلين فى الداخلية ، ونضع جنودا وافرة فى الحدود لمنعهم من الدخول الى الممالك المجاورة لبلاد الجزائر ، فاذا ضاق عليهم المجال واشتدت عليهم من كل جهة الفتن والاهوال أنهم يخضعون لطاعتنا » .

ومما ييسر علينا الوصول الى هذا أن أكثر رؤساء عساكرنا تعلموا اللغة العربية وصاروا ماهرين فيها عارفين بعوائد العرب وأحوالهم ورأيى أن نعين قسما من الجند للمحافظة على الاماكن المهمة فى سائر الجهات وقسما آخرا يقيم فى التخوم لمنع الوارد والصادر عن البلاد ، كما يمنع الفارين من أهلها الى الخارج عنها وباقى الجند نعده للهجوم والحرب ، واعلموا أن المحاربة بالنوع النظامى لا يجدينا نفعا ، لان الخصم لا يعرف ذلك ، وانما نقابل العرب بما يقابلوننا به ، والمقصود والاهم هو أن جنودنا تولى اهتمامها لاستعمال ما تتلاشى به قوة الامير وتزعزع اركان دولته .

ولقد نفذ قواد بيجو هذه السياسة وأصبحوا يعملون جاهدين من أجل أن يعرقلوا حركة الامير ، وأن يحولوا بينه وبين القبائل التى كانت تمده بالمال والرجال ، وبسبب هذا الدس الرخيص انفصل عن الامير عدد كبير من مؤيديه ، وأصبحوا يتعاملون مع الفرنسيين ، بل ان بعضهم ذهب بهم الغى الى أن اصبحوا جواسيس يمدون العدو بالمعلومات عن قوة الامير وتحركاته ، مما أدى الى اعلاء مركز الفرنسيين وشجعهم على أن يفكروا فى الهجوم على البلاد التى كانت خاضعة لسلطان الامير ونفوذه .

نهض الماريشال بيجو من مدينة الجزائر فى جيش كثيف الى مليانة ، ثم رجع الى الجزائر بالجيش نفسه ، ليظهر للامير قوته ، غير أن الامير لم يفته هذا ، وبادره بالقتال فانهزم بيجو بجيوشه ورجع الى مليانة وترك عددا كبيرا من القتلى والجرحى ، أما الذخائر التى أتى بها من الجزائر فغنمها المسلمون ولندع الكلام الى المؤرخ روا الكاتب الفرنسى الذى سبق له ان الف المؤلفات الكثيرة عن المعارك المتعددة التى دارت رحاها فى الجزائر قال :

« هذه أول وقعـة وقعت للماريشال بيجو فى ولايتـه على الجـزائر ورئاسته على الجنود الفرنسية ، ولاول تفويضه فى أمر الحرب مع الامير عبد القادر » ثم قال : « لما هجم الامير بالقسم الكبير من جيشه الذى كان معه على الماريشال انبهر عقله ، ولم يسعه الا الفرار فساقته جيوش المسلمين والفرق النظامية قهرا عنه الى مليانة تاركا قتلاه ومن معه من الاثقال ، وهذه الوقعة نكلت بالجنود الفرنسيين أشد النكال وأوقعتهم فى ورطة الوبال وكانت خسائرهم جسيمة ونوائبهم عظيمة » ·

انها لهزيمة كبيرة أثرت فى الماريشال بيجو وفكر فى مجابهة هذا الخطر فقسـم جيوشه على الثغور واسند قيادة الجهة الشرقية للجنرال بالكوباى ديلى ، كما أسند قيادة الأماكن القريبة من الجزائر للجنرال بالتسمى واحتفظ هو بالقسم الكبير مـن الجيش وتوجه بمعية ولدى الملك « الدوق دومال والدوق دى تيمور » على أن يهاجموا قلعة تاكرمت · وبلغ ذلك الامير فأمر السكان باخلائها ولم يبق بها الا الشىء القليل ، فدخلها بيجو مع جنوده واستولوا على ما وجدوه هنالك من أسلحة ·

وحاول الماريشال بيجو أن ينتقم من الامير فتوجه بعد ان احرز هذا النصر القليل الى عاصمة معسكر ففتحها ،وبطبيعة الحال لم يجد فيها من السكان الا ما ندر حيث ان الامير اوصى السكان بأن يخرجوا منها قبل أن يفاجئهم العدو ·

احتل بيجو عاصمة معسكر واقام فيها حرسا ثم رجع الى مستغانم ·

وعند رجوع بيجو من مستغانم اشتبكت جنوده مع جنود الامير وقتل من الفرنسيين العدد الكثير ، وقد روى ذلك الكاتب الفرنسى روا الرواية الحقيقية لهذه المعارك ومن بين ما قال : « لما وصل الجنود الفرنسيون الى مضيق عقبة خدة وجدوا فرسان المسلمين وحماتها ينتظرونهم فيه ، ونشب القتال بـين الفريقين واستمر الـرمى بالرصاص والضرب بالسيوف والحراب يأخذ كل منهما حظه من النفوس من طلوع الشمس الى غروبهـا ، وكانت خسائر الطرفـين جسيمة ، ففقد المسلمون الكثير من الجيش كما ان بيجو فقد من الجنود الفرنسيين وقوادهم عددا كثيرا، وعندما آذن الظلام باغماد سلاح الطرفين اخذ العرب يتفقدون قتلاهم وجرحاهم ، أما بيجو فقد انتهز الفرصة وتسلل بجيوشه تحت ستر الظلام على حين غفلة من المسلمين الى أن تخلص من المضايق كلها

وجد فى المسير الى أن لحق بمستغانم على أسوأ جالة وبالجملة ان هذه الواقعة تعد من الوقائع المشهورة التى شاع أمرها فى محافل فرنسا ومجامعها » .

وقد أظهر الامير فى هذه المعركة نبوغه العسكرى ، وتبين للفرنسيين وفى مقدمتهم الماريشال بيجو ــ الاسد الهرم ــ كما كان يكنيه الامير بان الجزائريين لا يمكنون جنود فرنسا بان يتغلبوا عليهم اذا لم يلجؤا الى الدس والمناورات ، وكتب الامير رسالة هذا نصهـــا :

من الامير عبد القادر الى الماريشال بيجو :

ان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الارض ما يكفى رعاياها وارسلتكم لتغتصبوا اراضينا وتبذلوا فى ذلك انفسكم وأموالكم فنحن نتخلى لها عما هو فى أيديها الآن من السواحل ونبقى معها فى حال جيران ينتفع بعضهم من بعض ، وان أبت الا ان تستولى على جميع وطننا فنحن سنبذل مافى وسعنا فى مدافعتها وحماية أرضنا منها الى أن يقضى الله بيننا وبينها بما شاء فان البلاد بلاده ، والعبيد عبيده ، ولا يخفى عليكـم أيها الحاكم ان غزوكم لبلادنا سبـب لقتـل الكثير من جنودكم واتـلاف ذخـائركم وكذلك نحن وهذا شىء لا يرضى به عاقل فضلا عن فاضل ، ودولتكم تدعى أنها أول دولة فى العالم تحب الانصاف وتفضله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به ، ففعلها هذا يكذب دعـواها ويبطل ادعاءها ، وأنتـم وجل رجالها نـراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب وتبذلون أنفسكم فى ذلك ابتغاء مرضاتها ولو كان عندكم أدنى نظر سديد ما وافقتموها على موت جنودها فى الحرب ومواسم الامراض المختلفة التى لا تذر ولا تبقى ، فياترى بـأى شىء تعوضون ما تخسره بلادكم مـن الرجال والاموال والكراع ، فان كان يرضيها منكم أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر أو من تراب الاراضى التى اغتصبتموها فافعلوا ، وانى أراك أيها الحاكم تبذل جهدك فى تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ظنا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضـوع أهل البلاد لكم ، والحال أن هذا ليس بشىء عندهم ، فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الاطعمة والاشربة مثلكم ، بل يكفيهم ما يمسكون به رمقهم ويقيم أودهم كيفما كان على أن عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة فى المطامير المعدة لها ما يكفيهم سبع سنـين آتية وما تأخذونه أنتم من ذلك فهو جزء منجملة الاجزاء ، ولا أراكم فى هذا الامر الا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا أنه ينقصه .

وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم فى طغيانكم تعمهون وفى سبيل اعتدائكم تمشون ، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها ، فنحن أهلها من المهد الى اللحد ، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها الى قانون يحصرها ، بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرفها كيفما شئنا ، واما أنتم فقد بذلتم أموالكم وأفنيتم قوى شبابكم فى تعلم طرقها ، ولا اخالكم تجهلون أنه جاء فى كتب التواريخ القديمة أن العرب يبتهجون فى معامع القتال ، فلا يخطر فى بالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم ما دامت الاقدار الآلهية مساعدة لهم فان حكمت عليهم بغير ذلك فمن المعلوم أن الارض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده ، فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى » .

ولقد اهتز المارشال بيجو لهذا الخطاب كما سبق له أن اهتز لما رأى الامير وجنوده يفتكون بالجنود الفرنسيين وقصد الجهة الجنوبية حيث انه تمكن من أن يخضع قبائل الجهة الشمالية ، وكما فعل الامير بالبلاد التى استولى عليها الفرنسيون بعد اخلائها مر سكان سعيدة جنوب معسكر ومن الخروج منها لان الفرنسيين سيدخلونها ، وفعلا فقد دخلها الفرنسيون بعد يومين وأرغموا كل القبائل التى تلى بلدة سعيدة وهى : قبائل أولاد ابراهيم وقبائل الاحساسنة وقبائل الجعافرة ان تخضع لهم وعد بيجو خضوع هذه القبائل له كانتصار وبقى يترقب هجوم الامير، غير أن الامير لم يهاجمه، واختار ان يغزو قبائل الدوائر والزمالة قرب وهران وهما القبيلتان اللتان تعد من القبائل التى لا دين لها ولا شهامة ، ولهذا قرر الامير أن يسلط عليهما كل ما يملك من قوة فاكتسحهما وقتل من القبيلتين عددا كبيرا ، ولما اتصل الخبر ببيجو تأثر لذلك ، ورجع الى مستغانم ثم الى وهران .

وبالرغم من الخلافات التى بلغت أشدها بين بيجو والامير فان الامير لم يتزعزع بل واصل الكفاح بحزم وعزم .

وفى الوقت الذى تازمت الامور فيه بين الامير وبيجو بعث الاسقف « دوبيش » كتابا الى خليفة الامير بمليانة السيد محمد بن غلال فى الحضور عنده ليتوسط له فى الاجتماع مع الامير ، فأجابه الخليفة أن الامير فى نواحى الصحراء على مسافة أيام متعددة منا فان كنت تكتفى بملاقاتى نيابة عن الامير فأنا مستعد لقبول زيارتك ، فأجاب الاسقف لذلك ، وحضر عند الخليفة فاحتفل به كما يجب ، وعندما عزم الاسقف على الرجوع

الى الجزائر قدم اليه الخليفة فرسين من جياد خيله هدية على عادة أمراء العرب مع ضيوفهم الكبار قدرا وشهرة ، وكان عنده من أسرى الفرنسيين نحو خمسمائة أسير فاحضرهم بين يدى الاسقف بسلاحهم والبستهم ثم قال له حيث : انه لم يتيسر اجتماعكم بسيدنا الامير وكنت أنا من جملة اتباعه وخدمه فعلى حسب استطاعتى ، أقوم ببعض ما يجب اجراؤه مع امثالكم وهؤلاء الاسرى من عساركركم بسلاحهم وأمتعتهم قد سمحنا باطلاقهم تكرمة لكم ، فخذهم معكم ولو ساعدكم القدر وكنتم اجتمعتم بسيدنا الامير لكنتم شاهدتم من اكرامه ما تستقلون أمامه أعمال الملوك العظام ، ففرح الاسقف بذلك فرحا شديدا ورجع بالاسرى الى الجزائر وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا .

وبدلا من أن يتأثر بيجو بهذا سولت له نفسه أن يؤلب القبائل على الامير ، وهذا نص جوابه«الى الرؤساء من جميع الحشم والشراقة والغرابة ومن جاورهم كبني شقران وبني غدو :

« انى باسم فرنسا أطلب منكم أن تنفصلوا عن الامير وأن تتحالفوا معنا وانكم سترون منا كل خير وسنعاملكم معاملة أخوية ، هذه نصيحتى لكم ، وانى فى انتظار ردكم الايجابى » .

ان القبائل التى حاول بيجو أن ينال منها منالا حتى تنصرف عن الامير وتسند ظهرها لبيجو أجابته بما يلى :

« الى النصرانى بيجو : السلام على من اتبع الهدى وثبت عليه قد وصلنا تحريرك وعلمنا ما فيه من كونك تدعونا الى الطاعة وتخبرنا أنك عازم على أن تجعل بلادنا سعيدة مباركة وأى سعادة أحب الينا من سعادة الجهاد وحماية البلاد وثباتنا أمام أعدائنا ولو بدون محاربة ولا طعان فان الله تعالى جعل لنا ثوابا عظيما اذ نحن أذقناهم مرارة الوبال ، ونكلنا بهم شديد النكال وكبدناهم أنواع المشاق ، والجأناهم الى التفريق والشتات ، واذا لم نتمكن من ذلك كله فمن بعضه فان لم يتيسر لنا فيكفى الثبات فى وجوههم وعلى قدر التعب يحصل الاجر ، وكونك تعدنا كعادتك كما وعدت غيرنا فالفخر والمجد اذ نحن أطعناك والى مطلوبك أجبناك فهذا لا نسمعه ولا نلتفت اليه بلنعده من المخازى ، واعلم ان الذين أطاعوك من اهل وطننا فانهم عندنا قوم لا دين لهم ولا أخلاق ، بل لا يعرفون من الاسلام الا اسمه ، واذا اغتروا بكلامكم فانما قادهم اليك الطمع فيما عندك فباعوا دينهم بالذهب والفضة ، وأما نحن فلا نبيع ديننا وانما نبيع أنفسنا الى

الله تعالى يشتريها منا بالجنة ومن الواجب عليك أن تنظر الى عظمة الامير كما ننظرها نحن ، فانه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة من غير كبير عدد ولا ذخائر مؤثلة ولا خزائن قائمة وافرة ، وأما انتم فلا مزية لكم لان دولتكم عمرت من الف سنة فجمعتم الاموال الطائلة ، ودربت الجيوش الجرارة على الحروب فان هى غلبت الآن فان أميرنا حديث العهد بالملك ورعيته قد انهكتها الحروب الاهلية والاجنبية من مدة طويلة ، فاى تفوق لدولتكم فى تغلبها علينا والظاهر أنك أيها الحاكم مسرور بكونك اخرجتنا من أوطاننا وأحرقت غلالنا وأرسلت لدولتك تبتهج بذلك ولو كنت من أهل النظر ما ظهر هذا منك » .

نعم لو جئتنا بجيوش تعادل جيوشنا عددا واستعدادا ، وفعلت بنا ما فعلت كان يحق لك أن تبتهج بعملك وتفتخر به ، ولكن حيث انك جلبت الينا جيوشا يزيد عددهم علينا فلا حق لك فى سرورك لان من غلب بكثرة لا فخر له وانما الفخر لمن غلب غيره وكان لهذا الغير تعادلا فى العدد والعدة ونحن والحمد لله مع قلة عددنا قد وقفنا فى صدوركم وأذقناكم نكال الحرب ومرارة الجلاد والضرب مدة اثنى عشر عاما من حين استيلائكم على مدينة الجزائر الى يومنا هذا، ولا نزال بحوله وقوته تعالى على ذلك الى أن نغلب أو نغلب ، ويهلك كبيرنا وصغيرنا ، وعلى كل حال فلا تتعب نفسك فانك لا تحصل على طائل من الفخر لتذكر به عند ملوك الارض كما هو فى بالك انما يصح لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة مؤثلة من كل شيء ، وأما دولة قليلة العدد والعدة فلا فخر بنالـه من غلبها» .

ومما يتعجب منه كل العجب أن دولتك تفتخر بالاستيلاء على الجزائر ، وهل عاقل فى العالم يفتخر بالظلم والاعتداء حاشى وكلا وانما الفخر فى تركها ، واعلموا ان جميع ما أتلفتموه من محصولاتنا فى هذه السنة لا يضرنا لوجود غيرها عندنا من مستغلاتنا المذخرة من سنين عدة فان نفذت فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب أو المشرق مفتوحة وكما أن مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالمؤن والذخائر فكذلك نحن عندنا الجمال تحمل الينا ما نحتاج اليه من القاصية ومن الواجب عليك أن تنظر فيما دخل فى يدك من الذخائر والمؤن فى هذه المدة وما خرج منها فان وجدتها ناقصة فبادر الى ارسال ما يسد نقصها من حجر معسكر وتراب غريس الى دولتك ، وبذلك تجعلك محبوبا لديها كبيرا فى عينها ، ولو أحصيت أيها الحاكم قتلاك وأسراك ثم قابلناهم بمن قتل منا وأسر لظهر لك خسرانك وتحقق عندك نقصانك والمكافاة فى

الحرب ، وان كانت لا تقضى بالتفوق لاحد الطرفين فانها تقضى لنا به نظرا لكثرتكم وقلتنا وكبر دولتكم وصغر دولتنا ٠

هذا جوابنا فاعلمه فاننا فصلناه تفصيلا مفرطا فى الاسهاب والاكثار رجاء أن تفهم حرر فى احدى وأربعين وثمانمائة وألف ٠

ولو كان للماريشال بيجو مرؤة لكفاه هذا الخطاب ولكنه من الذين لا يهمهم من الامر الا ان ينفذ خطته التى رسمها وهى الاطاحة بالامير والقضاء على جيوشه واتاحة الفرصة لفرنسا ان تكون الجزائر لها وأن تستغلها وأن تبيد الشعب ، وان لم تتمكن من الابادة فتشرده وتخرجه من أراضيه وتسلمها دون عوض الى طريدى الجنسيات من سويسريين وايطاليين ومالطيين ويهود ٠

ولهذا رأى الماريشال بيجو أن عدم انقياد قبائل بنى شجران وبنى غدو « لا يصده عن قبائل الحشم التى تعد أقوى قبيلة ، فاستعمل كل اللباقة والدهاء وبعث لها رسالة ثانية مؤرخة فى التاسع والعشرين من ربيع الثانى والعشرين من حزيران» ملخصها :

« ان فرنسا ستكون عند حسن ظنها بكم ولهذا أرجوكم أن تربطوا معها علاقات طيبة حتى تنالوا ما تصبون اليه من رخاء وازدهار » ٠

ولقد جاءه الرد من قبائل الحشم وغيرهم من القبائل المتمسكين بدينهم الاسلامى الوثيق العربى الى النصرانى بيجو : « قد وصلنا مكتوبك الذى تركته فى موضع نزولك من بساتين بنى يخلف واطلعنا عليه فوجدناك تطلب منا نفس ما طلبته سابقا غير مرة ، فتعجبنا من الحاحك واكثارك علينا فى الطلب مع أننا بذلنا وسعنا فى اقناعك فلم تسمع وأوقفناك على ما انطوت عليه بواطننا من التمسك بديننا وطاعتنا للامير فلم تفهم ولو فهمت لعدلت عن الحاحك وتتابع طلبك ، وعلى كل حال فهذا آخر جواب ياتيك من طرفنا فليكن مكتوبك المذكور آخر مكتوب ترسله الينا ، وكيف نترك ديننا الذى هو أشرف الاديان ونتخلى عن أميرنا الذى هو عندنا أعظم أمير واشرف من يطاع ، وان ادعاءك لا يقول به عاقل ولا يعلق به أفكاره آمل والذى حملك على الالحاح هو تصديقك لاولئك المتنصرين الذين يسارعون الى الدخول فى طاعتك ولو كانوا مما يعتد بهم فى الديانة ما جحدوا نعمة الله عليهم بالاسلام ، وأطاعوك ودخلوا تحت رايتك وأنت عدو دينهم ودنياهم والذى أخذ بنواصيهم وقادهم الى ذلك انما هو حب المال الذى يسرتم لهم الطمع فيه حتى تركوا دينهم ورفضوا طاعة أميرهم ، كذلك يتركون دينكم

وطاعتكم لان من كان هذا شأنه لا يوثق به وانت لغرورك بهم وثقت بحالهم ، واتبعت اشاراتهم وآراءهم .

والجملة نحن فى وطن واسع الاطراف ممتد السعة لا نزال نتنقل فيه غربا وشرقا وجنوبا وشمالا وأنتم تتبعون آثارنا فلا تدركون شأونا ، وغاية ما هنالك أن عساكركم تفنى جوعا ومرضا ،وذخائركم تنفد ، وكل ذلك من غير طائل ، فالاولى لكم أن تعمروا بلادكم التى نشأتم فيها منذ اجيال ، واما بلادنا فليس لكم فى الاستيلاء عليها بالقوة ، وهب أنكم استوليتم عليها واقمتم فيها ثلثمائة سنة مثل الاتراك الذين ملكوها قبلكم فانكم لابد أن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسون كأمس الذاهب ، والدهر هكذا وعاظ وناهب ، والظاهر انه يخطر فى بالكم أنكم اذا استوليت على وطننا تجعلك فرنسا ملكا تدين بطاعتك ، فهيهات انما أنت عسكرى ، تعيش عسكريا وتموت عسكريا ولن تستفيد شيئا ولن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا والذين استهووك وغروك من العرب بطاعتهم لا يعبأ بهم اذا حضروا ولا يسأل عنهم اذا غابوا ، فاقوالهم ومواعيدهم انما هى كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، وغاية أمرهم أن الذى يأملونه منكم لا يصلون اليه ، وانما يموتون كفارا تحت رايتكم فنسأل الله العافية والحماية من ذلك .

ومن العجب أنكم تعلمون أننا كنا خاضعين لأميرنا فاننا ما طلبنا الصلح معكم الا قهرا وامتثالا لامره فكيف الآن نميل اليكم ونرغب فى طاعتكم ، ثم لا يخفى أن بلادنا تمتد غربا الى حدود المغرب الاقصى وشرقا الى حدود افريقية وشمالا وجنوبا من البحر الى القفر وجميعها مع اتساع اقطارها فى غاية الامن بالنسبة الينا ، فلا تظنوا أنه يلحقنا ضرر منكم أو يرهبنا وضع عسكركم فى معسكر ومليانة والمدية ، فان الضرر والخسارة وأمثالهما فى الحقيقة لا تعود الا على أولئك الجنود الذين لا نراهم الا أسرى فى بلادنا اذ لا يأتيهم ما يقتاتون به الا بمشاق وتعب .

وملخص ما نقول : اننا واياكم عبيد الله تعالى والارض أرضه والبلاد بلاده وهو الذى وطن فيها آباءنا فان أبقانا فيها فله الفضل والطول ، وان أخرجنا منها وجعلها فى ملككم وقبضة تصرفكم فهو مختار فى فعله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وبالرغم من الخلافات التى دامت بين الامير وبيجو فان الامير بقدر ما كان عنيفا فى المعارك كان رحيما بالضعفاء ، ولهذا كان متسامحا مع الاسرى ، وكثيرا ما أطلق عددا لا يستهان به من العجزة والنساء لاعتقاده بأن وجود هؤلاء فى قبضة يد جيش الامير يرجع قبل كل شيء لغطرسة قواد فرنسا الذين كانوا يرغمونهم على خوض المعارك ، وأكبر دليل على ما كان يمتاز به الامير من احسان لهؤلاء الاسرى ما عامل به أسقف الجزائر حينما بعث للامير برسالة يسأله اطلاق أسير من أقاربه وقال فى كتابه :

« ليس لى مال أفديه به بل أقابلك بالدعاء والثناء والراحمون يرحمهم الله » فأجابه الامير الى مطلوبه وأطلق له أسيره وكتب اليه : « انك زعمت انك مشفق على أسيرك فكان ينبغى لك أن تعم باشفاقك سائر الاسرى فتطلب اطلاق سراحهم » .

وقال فاليوت فى تاريخه : « ان الامير كان فى صورة عدو كريم الاخلاق بحيث ان من اسر فى قبضة يده من الفرنسيين قد اثنى عليه الثناء الجميل ، وكان يأمر باعفائهم من الخدمة يوم الاحد ملاحظا فى ذلك الديانة المسيحية » .

كما أطلق سراح ضباط آخرين ذهبوا الى بلادهم وأثنوا على الامير ، غير أن بيجو لم يعد هذا العمل عملا حسنا بل أوله تأويلا غير لائق » .

ولما سمع الامير بذلك استاء ولم ير بدا من أن يكتب الى الحكومة المركزية ليطلعها على اعمال بيجو التى تزيف الحقائق وتمسخ الشعارات .

وبعث الامير برسالة الى ملك فرنسا نصها :

« الحمد لله وحده ... من ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين الى جلالة ملك فرنسا لويس فيليب احسن الله مقاصده فى كل ما يؤول الى سعادته وجعله من الذين يتبعون سواء السبيل والمعروض لجلالتكم أننى كنت مستعدا لقبول شروط الصلح وطالما تعاطيت أسباب تقريره وسعيت وراءها ، فلم يجد ذلك نفعا لشدة ما انطوت عليه بواطن ولاة الجزائر من الفساد والعناد ، وتشبثهم بما يلقيه اليهم المنافقون من العرب والبربر الذين تورطوا فى مهاوى غيهم فباءوا بمكر الله تعالى وغضبه عليهم ، وقد كتبت اليكم عدة مكاتبات فلم يأتنى جواب منكم فقويت البواعث الردية فى الجزائر على استمرار الى الآن ، وفى أثناء المعارك بيننا وبين عساكركم كان يقع فى أيدينا أسرى كثيرة منكم فتفدى بها أسرانا الذين فى أيديكم ، وفى السنة الماضية كتبت لنوابكم بمبادلة الاسرى ، فلم يردوا لى جوابا فراجعتهم مرارا ، فما

أفادت المراجعة شيئا ، بل سجنوا رسلى وأهانوهم وهذا أعظم دليل عند العرب بين المتحاربين الذى يؤدى الى نقض المعاهدة حيث ان الرسل من شأنها ان تعاد الى مرسلها بلا اهانة ولا ايذاء ، وبعد ذلك شاع أن الفرنسيين عازمون على انقاذ أسراهم جبرا من أيدى العرب ثم فشا بين الناس أن سلطان مراكش عازم على انقاذهم من يد خليفتنا بالرغم عنه فكـــان ســـوء سلوك نوابكم سببا لما وقع بالاسرى من غير اذن منا ، ولا علم لنا به ، والآن قد أطلقنا سراح عشرة ضباط مع الرئيس كورلى دو كوفرى وهم يعلمون ما أجريناه من الوسائل والتدبيرات لسائر الاسرى الذين وقعوا فى أيدينا ويعرفون أن عدم رد جواب نوابكم عن رسائلنا فى هذا الامر هو الذى عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم وأوجب ما أوجب مما كان من غير اختيار ولا قصد » .

وبعث ملك فرنسا صورة من كتاب الاميرلبيجو فتـأثرمنـه ووقعت اثر ذلك بينه وبين الامير معارك فى جبل زواوة ، وبالرغم من قلة جنود الامير وعدته ، فقد ادخل على جنود بيجو الهزيمة النكراء ، ودارت بينهما معركة حامية فى الغزوات ، وقد تمكن الامير من أن يجرد جنود بيجو من أسلحتهم ويقتل منهم العدد الكبير ولم ينج منهم الا من فر » .

والعجيب أن بيجو بدلا من أن يعترف بهزيمته كتب الى رؤسائه تقريرا مفاده : انه انتصر فى معركة الغزوات .

وحدثته نفسه بأن يتابع الكفاح ، فاهتدى لفكرة جهنمية وهى ايجاد عداوة متينة بين المغرب والجزائر ، فنجح فى مسعاه ورمى عصفورين بحجر فاستولى على معسكر الامير المعروف بالزمالة الصحراوية وكبد المغرب خسائر لن ننساها نحن مواطنى شمال افريقيا من ليبيا الى المغرب .

وابتدأ عمله الغيرالانسانى بغزو المغرب حتى يضعفه ويرغمه على التسليم والخضوع والقصد من هذا أن يكبل المغرب بقيود حديدية حتى لا يحرك ساكنا ولا يفكـــر فى مساندة الامير فى كفاحه ضد الاستعمار الغاشم . وقد انذر المغرب بانه يغزوه وقـد حدد وقتا لهذا الغزو ولقلة مروءته غزى المغرب قبل الوقت المحدد ، وهـذا الاجـــراء من بيجو أملى على الامـير ان يستأنف القتـال .

استئناف الامير لقتال قادة فرنسا

لم تكن فرنسا مرتاحة للنهضة الصناعية الكبرى التى شرعت تضع لها الاسس العريضة حكومة الامير عبد القادر . فقررت نقض الهدنة حتى تعرقل هذا التطور الخطير الذى يهدد مطالبها الاستعمارية ويقضى على أمالها التوسعية .

وقد قوبلت نية هذا النقض من طرف الشعب الجزائـــرى وحكومته الوطنيـــة بالاستنكار الشديد .

وعلى كل فليست هذه أول مرة تضرب بها فرنسا بتعهداتها وشرفها وناموسها عرض الحائط . فتاريخها الاسود دليل على خيانتها وعدم احترامها للمواثيق الدوليـــة والمعاهدات الرسمية .

ولن نعجب . ففرنسا التى ما اجتاحت الجزائر الا للاستعمار وكبت الحريات ونهب خيرات الشعب وسحق ديانته لا تريد ان تترك لهذا الشعب فرصة كافية لجمـــع صفوفه وتقوية جيشه حتى لا يقف حجر عثرة امام اطماعها الاستعمارية فى المغرب العربى والقارة السودا .

ولهذا السبب رأيناها تامر بيجو بالسير الى مستغانم عن طريق البر . وفى هذا الاجراء ما يخالف نص المادة الثانية من معاهدة تافنا واحتج الامير على هـــذا الخـــرق الفاضح لاتفاقية الهدنة ولم يلبث أن ارسل وزير خارجيته الميلود بن حراش الى باريس كآخر محاولة سلمية للابقاء على الهدنة .

واستقبل وزير خارجية فرنسا الوزير الجزائرى وتوجه معه الى قصر الملك حيث جرت مباحثات لم تات بنتيجة تذكر .

وانتقلت المباحثات من باريس الى الجزائر بين ابن حراش والحاكم الفرنسي الجنرال (فـــالى) واشد ما كانت دهشة الوزير عندما طلب منه الحاكم تعديلا جذريا فى معاهدة تافنـــا ٠

وقد رفض كل من مجلس الوزراء الجزائرى ومجلس الشورى هذه الاقتراحات لمساسها المجحف بسيادة الدولة الجزائرية ، وعبر المجلسان عن رغبتهما الملحة فى استئناف الحرب اذا لم تحترم فرنسا نصوص الهدنة ٠

ولكن لامير رغب فى المحافظة على السلم ولو لمدة قصيرة ، ريثما تبدأ المصانـــع الحديثة اعطاء ثمراتها ٠ فكاتب شخصيا ملك فرنسا وابدى له رغبته فى الابقـــاء على السلم حقنا لدماء رعايا الدولتين ٠ غير ان الملك واعضاء حكومته الاستعماريـــة أبوا الا ان يشنوا حربا شعواء على الشعب الجزائرى حربا لا تبقى ولا تذر ٠

وتنفيذا لخطة فرنسا الاستعمارية سار الدوق دورليان ولى عهد فرنسا على رأس قسم كبير من الجيش الفرنسى الى قسنطينة ٠ وفى طريقه اليها اجتاز الحدود المقررة للفرنسيين وخرق حرمة الهدنة ٠

آنذاك نفذ كل صبر للامير وارسل الى الحاكم الفرنسى فى مدينة الجزائر رسالة جاء فيها ان القصد من فعلكم هذا هو اظهار التعدى على حقوقنا حتى نثار لذلك ٠ وينتهى الامر بنقض المعاهدة ٠ والحال ان عملكم هذا هو نفسه ناقض للمعاهدة مبطل لها ٠ ولذلك اعلن لكم اننا عزمنا على استئناف الحرب ٠ وبالله المستعان ٠

وفى الحال اصدرت الاوامر الى الخلفاء وقادة الجيش بامتشاق الحسام والذود عن حياض الدين والوطن ٠

وعادت نيران الحرب تندلع من جديد فى 20 نوفمبر عام 1839 بين الحق والباطل ، بين الاحرار والمستعمرين ٠

وذلك بعد ان يئس الامير من الاتفاق مع قادة فرنسا واضطر الى ان يتخذ موقفا حازما ويبعث الى جنوده وكافة الجزائريين بتوصيات حارة ان اشهروا سيوفكم للطعن والضرب ، واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم ، وسارعوا بالحضور الى المدية ، فانني انتظركم فيها ، ووحدوا طريق الراحة والامن فى سائر أعمالكم على الوجه الذى أكون به مطمئن البال ٠٠ وأعلموا ان النجاح موقوف على اخلاص النية فوجهوا قلوبكـم الى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمتكم وتشييد أركان دينه » ٠

وعقد مجلس الشورى ، وتشاور مع الاعضاء فى موقف الفرنسيين الشائن . ووصلته فى هذه الآونة سفارة من قبل الماريشال برئاسة ابن دران اليهودى ، تخبره بان مرور دوق دورليان على أراضيه لم يكن مظاهرة عسكرية ، ولا تحديا ، وانما هو من قبيل النزهة ، ولكن مجلس شورى الامير قرر اعلان الحرب على الفرنسيين واصدر فى ذلك بيانا عاما هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... الحمد لله الذى انزل فى كتابه المبين : « **وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما** » ، والصلاة والسلام على نبيه القائل : « الجنة تحت ظلال السيوف » ،وعلى آله واصحابه واتباعه الذين قاتلوا فى سبيل الله ألوفا بعد ألوف ... أما بعد : فان الفرنسيين المعتدين على البلاد الاسلامية بعد ما عاهدناهم وسالمناهم ، نكثوا وجالوا فى بلادنا وعاثوا فيها فسادا ومن نكث فانما ينكث على نفسه فلذلك قد اجتمعنا فى مجلسنا هذا ... واتفقت كلمتنا واتحدت آراؤنا على اعلان الجهاد والقيام بواجبه على أكمل استعداد ... وقد بايعنا حضرة اميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية ، وعقدنا على الصدق فى ذلك النية ، وحررنا هذا الصك ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه فاجيبوا أيها المؤمنون داعى الله ، وانفروا خفافا وثقالا الى ما دعاكم اليه ، ومن تاخر منكم فانما اثمه على نفسه ، كما ان لومه فيما يحل عليه من العقوبة الاميرية عليها ...

وأرسل الامير عبد القادر رسالة الى ماريشال فرنسا فالى يخبره ان أعمال الفرنسيين كانت نقضا لمعاهدة تافنا ، ويضع مسؤولية تجدد القتال على السياسة الفرنسية . وبذلك تجددت الحرب بين الامير والفرنسيين ، بعد صلح دام 17 شهرا من (حزيران سنة 1837 ـ كانون الاول سنة 1839) ، ووضع الامير خطة عامة هى مهاجمة الفرنسيين فى مراكزهم الساحلية ، واجبارهم على الابحار منها عائدين الى فرنسا ، أو الاستسلام ؛ بينما كانت خطة الفرنسيين العامة هى مهاجمة المدن الجزائرية الداخلية واحتلالها والتحصن فيها ، واتخاذها مراكز للتموين وللجند ، ولارسال الحملات الى قلب الصحراء ، والقضاء على كل مقاومة ممكنة لاتباع الامير .

وقد دامت المناوشات بين الفريقين شهرين كاملين دون ان تحدث فيهما معركة كبرى ، وكانت فرنسا ترسل النجدات تلو النجدات لتعزيز مراكز حامياتها فى

الساحل ، وعاد دوق دورليان مع أخيه دوق دومال ليشرفا بانفسهما على شؤون القتال ، ويحرضا الجنود على الاستبسال ، لان الحكومة الفرنسية رأت ان أمر الجزائر طـال ، وان سمعة فرنسا وشرفها العسكرى اصبح فى كفتى الميزان ، فاما انتصار وتقوية مركز فرنسا فى أعين الدول الاوروبية ، واما تراجع وخزى ٠

ورات فرنسا تقوية لمركزها الحربى فى الجزائر ان تنتدب الماريشال بيجو ثانية الذى كان وقع معاهدة تافنا ، واعطته صلاحيات مطلقة وكلفته ان يبذل ما فى وسعه ، لاسكات المقاومة الوطنية ، وامدته بنجدات جديدة بلغت ثمانين الف مقاتل ، واعلن بيجو يوم وصوله الى شمال افريقيا برنامجه فى قوله : « ان العلم الفرنسى هو العلم الوحيد الذى يجب ان يخفق فوق أرض افريقيا » أى انه عقد العزم على قتال الجزائريين والمسير من الجزائر لاخضاع بقية المناطق الافريقية ٠٠٠ وذكر بيجو فى امر يومى اصدره الى جنده قوله : « أيها الجنود البواسل ! لقد تغلبتم مـرارا على العـرب وستتغلبون عليهم مرة أخرى لكن لا يكفى التغلب عليهم ، وانما يجب اخضاعهم » ٠

وبينما كان عزم بيجو على مواصلة القتال الى النهاية واخضاع المقاومة العربية ، كانت نية الامير عبد القادر متجهة الى ناحية أخرى السلم والصلح ، اذ بعث الى بيجو رسالة مطولة ، يخبره فيها بانه لا يهاب كثرة اعدائه الفرنسيين ، ولا تنوع آلاتهم الحربية ، ولكن يفضل ان يحل الامن بين الطرفين باسلوب آخر اقترحه الامـير فى رسالته ، ولكن بيجو لم يجب الامير على هذه الرسالة ، وتابع استعداداته العسكرية وبدأ عملياته الحربية فى نيسان سنة 1841 ، بان احتل مليانة ومستغانم ، وهاجـم مدينة معسكر عاصمة الامير فوجدها خالية من الحامية ، ثم دخل تلمسان وتوجه منها جنوبا الى الاقليم الصحراوى ، والامير فى هذه الاثناء مشغول باخضاع قبيلتى الدوائر والزمالة فى ولاية وهران لانهما كانتا مواليتين للفرنسيين ، ولم تستطع قواته الاخرى ان تدافع عن جميع هذه المنطقة العامرة التى احتلتها جنود بيجو دون كبير عناء ٠

وشعر الامير برجحان كفة اعدائه عليه ، وبان قواته لن تستطيع الصمود كثيرا أمام النجدات الفرنسية المتواصلة ، وان كان أنشا مركزه الجديد بالزمالة الا انه كان يعلم بأن نهاية المقاومة قربت ، وفاجاه بيجو بسطو تمكن بفضله أن يهزم الزمالة ٠

سقوط معسكر الامير الاخير

لقد احتلت القيادة الفرنسية جل المناطق بحيث لم يستطع الامير أن يدافع دفاعه المعهود ضد بيجو ٠

وشعر الامير برجحان كفة اعدائه عليه ، وأن قواته لن تستطيع الصمود كثيرا أمام النجدات الفرنسية المتواصلة ، فانشأ مركزا جديدا له في قلب الصحراء يشبه المدن الصحراوية وكان هذا المركز الجديد مؤلفا من ثلاثة أقسام :

ـ **الزمالة** : فيها مقام الامير وآل بيته وحاشيته ٠

ـ **الدوائر** :وفيها المدنيون من شعبه والنساء والاطفال والباعة والصناع ٠

ـ **المحلة** : وهي معسكر الجند المحارب ، ومضارب صنع السلاح ، ومستودعات الذخائر والمؤن ، وبها مكان فسيح لاجتماع المجلس العام ٠

واتخذ مسجدا ورتب مضارب للباعة وأهل السوق تضرب بعيدة عن الزمالة والدائرة والمحلة ٠ فكانت تستحضر اليها الذخائر وما يلزم الانسان من صنوف البضائع وما تدعو الضرورة اليه لجميع الحرف ، وبالجملة فقد كانت الزمالة ومتعلقاتها على اتم ما يكون من الانتظام والالتئام المدني ، وكان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كأنها مدينة حافلة ذات قصور مشيدة وابنية جليلة ٠

وتعد مركزا حربيا ومقرا مدنيا بها مائتا ألف نفس وكان الامير يبث من هذه المدينة الرحالة عيونه وبعوثه ومنها يستعد للحرب ، وكانت الجيوش الفرنسية تتقيها وتحذرها ولم تزل تزداد قوة واتساعا وتنسيقا حتى أصبحت ملجأ عظيما وحصنا منيعا، وقد عين لحراستها وحماية حوزها أربع قبائل من العرب وفرقة من العسكر النظامي ، ومن اطلع على هذه المدينة وترتيبها عرف ما كان عليه الامير من الآراء الثقافية والتدابير

العجيبة التى انفرد بها فى وقته ، فلم يسمع فيما مضى لملك اتخذ عاصمة ملأت النجود والاغوار تتردد بين الحلول والارتحال والاقامة والانتقال .

ولم يثن احجام تركيا عن مد المساعدة للجزائريين من عزم الامير عبد القادر ، بل أخذ ينظم صفوفه ، ويهيىء وسائل المقاومة ويغير على القوات الفرنسية ، ويغنم منها ، ويتقوى بما يغنمه من سلاح وذخيرة ومؤن .

ولقد كان الماريشال بيجو قد وضع خطة لاحتلال عاصمة الامير الصحراوية الجديدة، فأسس جيشا كبيرا قسمه ثلاث فرق :

فرقة بقيادة الدوق دومال الابن الرابع لملك فرنسا .

وفرقة بقيادة الجنرال لاموريسيار .

وفرقة بقيادته هو .

واخذ يلاحق الامير ويحاول أن يحصره فى مكان محدود من الصحراء حتى يجبره على الاستسلام وأرسل بيجو فى الوقت نفسه فرقة خاصة بقيادة والى العهـــد دوق أورليان ، وجعل لباسها شبيها بلباس المناضلين الجزائريين ، وأدخل فيها كثيرا من الخونة المؤيدين للحكم الفرنسى والمناوئين للامير عبد القادر ، واتبعت هذه القوة الخاصة طريقا صحراويا للتفتيش عن عاصمة الامير الجديدة أو المدينة المتنقلة ــ كما كانوا يسمونها ــ للقضاء عليها ، لان معلومات أكيدة وصلتهم بان جميع قوى الامير وتموينااته فى هذه العاصمة الجديدة ، اذ جمع الامير فيها كل ما يمكن جمعه من أموال وذخـيرة ، فاصبح فيها نحو 200 ألف شخص ما بين محارب وغير محارب .

وفى صباح 15 من مارس 1848 ، أطلت حملة دوق أورليان على العاصمة الجزائرية فاشتبشر الدوق خيرا ، وخاطب أركان حربه مفتخرا بقوله :

« اننى من نسل أولئك الابطال الذين لم يعرفوا الانهزام قط » ، على حين كان أهل الزمالة وقوة الامير الخاصة يستقبلون الوافدين بالتهليل والتكبير والحفاوة ، وتهيء مكـــان اقامتهم لانهم رأوا عن بعد هذا الجيش بلباسه العربى ، وخيالته الجزائريين ، فظنوا أنها نجدة وطنية أتت لمساعدتهم ، وتقدمت لتنضم الى صفوفهم ، ولكن ما كادوا يخرجون من خيامهم دون سلاح لاستقبال هذا الصديق حتى فوجئوا بوابل من الرصاص ينهمر عليهم ، فتفرقوا دون وعى وفر بعضهم لا يلوى على شىء ، وتمكن بعضهم الآخر مـــن

حمل سلاحه والمقاومة ولكن كانت المقاومة غير مجدية ، وسقط عشرات منهم صرعى الخديعة والغدر ، وذعرت النسائم ، وتشردت السوائم ، وأحاط الفرنسيون بالمدينة جميعا ، وأسروا ثلاثة آلاف ممن لم يستطيعوا أن ينجوا بانفسهم ، ودخلوا الزمالة ووضعوا أيديهم على أثاث الامير وتحفه ونفائسه ومكتبته الخاصة وأسلحته وأمواله الخاصة والعامة ، التى يدفع منها رواتب أتباعه ، وكانت هذه المعركة المعروفة عنـــد الفرنسيين بمعركة الزمالة من أعظم انتصاراتهم ، وكانت بدءا لنهاية الامير ورجالـه ، والمقاومة العربية فى الجزائر ، وكان لها صدى عظيم لدى جميع سكان الجزائر وفى فرنسا، حتى ان الويس فيليب،عندما وصلته الاخبار صاح ، وما الزمالة ؟ فأجيب انها الآمال الكبار التى كانت الجيوش تنتظرها ، ولما فهم أنها مدينة الامير الخاصة وأمواله وخزائنه ، صاح من الفرح وظهرت عليه امارات الحب الابوى ، وأخذ يطرى ببطولة ابنه ، وبلغ الخبر الامير وكان بعيدا عن عاصمة الصحراء فى 1500 رجل من خيالته ، ولاحظ امارات الغضب والالم ، والذعر على نفوس أصحابه فخرج الى أصحابه الذين تجمعوا وهم جزعون على مصير أسرهم وعيالهم ونسائهم وأموالهم فاخذ يهدىء مـن روعهم ، ويسكن من اضطرابهم ، ويحثهم على الصبر والمقاومة ويبين لهم أن ذلــك ليس بهزيمة بل هو للفائدة العامة ومما قاله لهم فى هذا الصدد : « سبحان الله فقدنا كل شيء كنا نحبه وتعلقت أفكارنا به ، وكان يعوق حركاتنا ويقف فى صدورنا عن الوصول الى مطلوبنا ، وصرنا الآن أحرارا لا شغل لنا الا مقاومة الاعداء ومصارعتهم » وهكذا اتخذ الامير من الهزيمة سبيلا للعمل الحربى المجدى ، وان كانت الاحداث المقبلة برهنت على أن خسارة الزمالة فتتت من عضد اتباعه · ولكنه جدد عزمه وســدد ضرباته وشدد هجومه ، ووقف حيال هذا كله صامدا يقارع أعداءه ، وهاجـم مدينة معسكر عاصمته القديمة ليستخلصها من الفرنسيين ، فلم يفلح ولاحقه القائد العسكرى الجنرال لاموريسيار ، وبعد معارك طويلة تقهقر الامير صوب حدود مراكش ، فتبعه لاموريسيار ، يريد صده عن اجتياز الحدود المراكشية ولكن الامير تمكن من أن يوغل ويتحصن بمكان يقال له « عين زوره » ويرسل رسالة خاصة الى مولاى عبد الرحمن سلطان المغرب يطلب فيها حمايته فأجابه السلطان بانه يرغب الاشتراك فى الجهـاد مع الامير لكنه مشغول باخماد فتنة داخلية تمنعه من ذلك ، فما كان من الامير عبد القادر الا أن هاجم القبائل الثائرة فى حدود مراكش ·

ولما رأى الامير أن الاعانة من الجيران الطبيعيين أصبحت مفقودة تماما ، اغتنم فرصة سانحة وهى أنه حدث بين دولتى فرنسا وانجلترا نزاع فى قضية تتعلق بمدينة « ارثاهية » احدى مدن الاوقيانوس ، فارسل الى انجلترا معتمدا من طرفه ليفاوضها فى أمره ، ويلتمس منها أن تشغل عنه الفرنسيين حتى يتمكن من مدافعتهم عن الوطن فاحس الفرنسيون بذلك فاتفقوا مع الانجليز ٠

على أن الامير كتب الى الدولة العثمانية يستنجدها ويخبرها بما وصلت اليه حال الوطن الذى هو جزء من ممالكها فلم ترد له جوابا ٠

وبلغ بيجو ما يقوم به الامير من أعمال ليسدد له الضربات فاتخذ هو بدوره اجراء آخر وهو : أن حاول منع المغاربة الذين كانوا يؤيدون الامير ويدفعون له الزكاة والضريبة بالرغم من معارضة السلطان عبد الرحمن لهم فى ذلك ، وبخاصة أن بيجو بلغه أن هذه القبائل تريد خلع السلطان وتنصيب الامير سلطانا عليها ، فخاف كثيرا من نيات هذه القبائل وكتب لها ما ملخصه : « من ماريشال بيجو والى مملكة الجزائر وسائر عمالتها الى جمع بنى يزناس وأهل أنكاد والاحلاف والمهاية والمكالسة وبنى بديحى واقليعة وجميع النواحى الغربية بين الجزائر والايالة الغربية ٠

اعلموا أنى اتكلم معكم بكلام يدل على الخير والمحبة البالغة ، ولولا المحبة لم أذكره وما كنت أفعل ما رمته فانصتوا لمقالتنا وتأملوا لانها نصيحة وارشاد وهى انكم منذ أربع سنين وأنتم جادون فى فعل الشر معنا ومع هذا سامحناكم وبما انه كثر التعدى كما هو محقق لديكم وبعد الهمنا الله للسداد والرشاد وكان أول الشروط التى وقعت بيننا وبين سلطانكم الا يبقى الامير عبد القادر بين ايالتكم وايالتنا والا تقبلوه فى أرضكم، فلما ضاق عليه المجال فى أرضنا فر ونجا منها الى بلادكم فقبلتموه فكان فعلكم هذا سبب الفساد الذى وقع بيننا وبين المعظم الارفع محبنا وصديق دولتنا صاحب السياسة والرياسة مولاى عبد الرحمن بن هشام أعزه الله فانتبهوا من غفلتكم وفرقوا بين ضركم ونفعكم واعلموا بأن الامير عبد القادر كالحية الرقطاء لمسها لين وهى قاتلة سما ٠ ونحن عينا الحدود وسويناها ولا يمكن أن يعادى بعضنا بعضا » ٠

واثر هذا الدس الرخيص من بيجو جاء وفد من هذه القبائل للامير وسلموا اليه الرسالة فأخذه العجب من هذه الدسائس، وتبين له أن الامر أصبح لا يطاق، ولا سيما أن الجزائريين

خوفا من الكل من الحرب ومصاعبها وكان يشاهد انتصارات فرنسا ولا يشاهد نفسه مغلوبا لهم، وبعظيم حكمته وكمال فطنته استمال قلوب الكثير من القبائل رغبة ورهبة فانضموا اليه وصاروا فى جيوشه وقال شرشل : «لما رأى الفرنسيون ما أجراه الامير فى نواحى شرشال من أرض متيجة مما كان سببا فى رجوع القبائل الى طاعته وشاهدوا انقياد الناس اليه وبذل نفوسهم دونه فى أقرب مدة بادروا بارسال الذهب والفضة رشوة لاكابر القبائل كى يستميلوا بذلك قلوبهم ويردوهم الى ما كانوا عليه من الانقياد اليهم وتارة يهددونهم فلم يجدهم ذلك نفعا ولم يصغ لهم أحد بل عكفوا على طاعة أميرهم وحافظوا على أموالهم وأوطانهم » . ولم تزل غزوات الامير متتابعة وفرسانه الى قهر الاعداء متسابقة الى أول أيار ثم رجع بقوته الى الجهة الغربية محاولا ان ينشط الهمم وأن يطالب مواطنيه أن يساعدوه بقدر الامكان غير أن صرخته ذهبت فى واد .

وفى الوقت الذى كان ينتظر من القبائل التأييد اذا بالقيادة الفرنسية العامة بالجزائر تقرر متابعة القتال وتأمر قوادها بان يعيثوا فى الجزائر فسادا ، وأن يحدثوا بين الامير ومواطنيه خلافات ، وأن يفتكوا بالشعب حتى يتخلى عن الامير . وقد نفذ القواد التعليمات حرفا بحرف كما يؤخذ ذلك من تقارير لجان رسمية أو من خطابات مكتوبة بخط قادة أو ضباط يشهدون بأنفسهم فيها على صحتها وهم يتحدثون الى زوجاتهم أو ذوى قرابهم .

فقد جاء مثلا فى أحد التقارير الرسمية :

« بناء على تعليمات القيادة الفرنسية خرجت قوة من الجنود فى المدينة وانقضت قبل الفجر على أفراد القبيلة وهم نيام تحت خيامهم فذبحتهم جميعا دون أن يستطيع أحد الدفاع عن نفسه ، وقد لقى الجميع حتفهم بغير تمييز بين رجل وامرأة وقد عاد الفرنسيون من هذه الحملة وهم يحملون رؤوس القتلى على السنة الرماح » .

كما جاء فى تقرير رسمى : « أن كل الماشية قد بيعت الى قنصل الدانمارك وعرض باقى الغنيمة فى سوق باب عزون فى عاصمة الجزائر نفسها ووزع ثمنها على ذابحى أصحابها وفى ليل ذلك اليوم أصدر البوليس أوامره الى أهل المدينة باضاءة الانوار فى حوانيتهم علامة على الابتهاج » .

وقالت احدى اللجان الرسمية الفرنسية فى تقرير لها كتبته بعد تحقيق أجرته اثر بعض هذه المذابح ·

« لقد ذبحنا أناسا كانوا يحملون تراخيص بالتنقل كما قضينا على مناطق بأكملها اتضح فيما بعد ان ضحايانا فيها أبرياء ، رجال عرفوا بالقداسة بين عشيرتهم وآخرون لا تنقصهم صفة الاحترام بين ذوى قرابتهم لمجرد أنهم مثلوا أمامنا سائلين الرحمة بزملائهم ، وقد وجدنا قضاة ليحكموا عليهم ورجالا متمرنين ليشنقوهم » ·

وقد كتب الماريشال سانت أرنو الى أهله يقول : « ان بلاد بنى منصر بديعة ، وهى من أجمل ما رأيت فى افريقيا ، فقراها متقاربة وأهلها متحابون ، لقد احرقنا فيها كل شىء ودمرنا كل شىء » ، وقال لزوجته فى خطاب آخر : « انى أفكر فيكم جميعا وأكتب اليكم ويحيط بى أفق من النيران والدخان ، لقد ذهبت الى أفراد قبيلة البراز فاحرقتهم جميعا ونشرت حولهم الخراب وأنا الآن عند السنجاد ، أعيد فيهم الشىء نفسه ولكن على نطاق أوسع » ·

وكتب موتنياك فى كتاب له اسماه : « رسائل جندى » يقول : « لقد كانت مذبحة شنيعة حقا ، كانت المساكن والخيام فى الميادين والشوارع والافنية التى انتثرت عليها الجثث فى كل مكان وقد أحصينا فى جو هادىء بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والاطفال فالفيناهم الفين وثلثمائة ·

أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب يسير هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة » ·

ولقد اشمأز من هذه الجرائم التى تذهل قساة القلوب ، بعض الذين شاركوا فيها، أو أمروا بتنفيذها ، مثل القائد الفرنسى الكونت هيربسيون الذى قال : « فظائع لا مثيل لها ، أوامر بالشنق تصدر من نفوس كالصخر ، يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر ، بالرمى بالرصاص أحيانا ، وباستعمال السيف أحيانا أخــرى فى اناس مساكين كل ذنبهم أنهم لا يستطيعون ارشادنا الى ما نطلب منهم ان يرشدونا اليــه » ·

ومع ذلك فان الميل الى سفك الدماء ، وحب التعذيب بازهاق الارواح جملــة ، وبابادة القرى والقبائل ، واحراق البيوت والتمثيل بالموتى ، والاجهاز على الجرحى ، والفتك بالاطفال والشيوخ والنساء ، والاتجار باعضائهم المبتورة ، وحليهم ومتاعهم الغارق فى دمائهم · هذا الميل لم يجد فى كل الذى رويت لك طرفا منه ـ ما يشبعــه

أو يرضيه ، فاخذ الفرنسيون يتفننون فى ابتكار وسائل أخرى لم يسمع بها تاريخ البشرية على كثرة ما امتلأ به هذا التاريخ من الفضائح والاثام ، فهدتهم أخيرا غريزة التدمير والتخريب النامية عندهم الى طريقة أسموها أنفسهم « بجهنم » ٠

وخلاصة هذه الطريقة ، أن يسد الجنود الفرنسيون باب الكهف أو المغارة التى يلجا اليها الجزائريون بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم فرارا من الموت والقتل والاحراق ثم يشعلوا فى بابها نارا حامية ، فيختنق القطيع البشرى داخل المغارة مع قطعان الماشية التى صاحبته الى جوفها ، فاذا انبلج نور الصباح ذهب الفرنسيون ليروا آثار ما قدمت أيديهم ٠ واليك وصف ما رأوه فى احد الكهوف :

« فى مدخل الكهف انتشرت هياكل ثيران وحمير وخرفان حدت بها الغريزة صوب مخرج الكهف بحثا عن الهواء الذى انعدم فى الداخل ، وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها جثث رجال ونساء وأطفال » ، وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه وقد امسكت يداه قرن ثور محترق وبجواره امرأة ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت ، مما يدل على أن هذا الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله اللذين اختنقا أيضا اثر هجوم الثور عليهما ٠

ويكفى الغزو الفرنسى أن تكون هذه اللوحة البشعة النكراء أحد آثاره ، ليقوم كل عضو من أعضاء هذه الانسانية فى وجه هذه الوحشية لاستئصالها من جذورها وليصموا آذانهم عن كلمة يحاول أن يقولها المدافعون عن هذه الجريمة الكبرى التى ارتكبتها حكومات فرنسا ٠ ويمكننا أن نقول أن سقوط الزمالة تعتبر السبب الرئيسى لتسليم الامير فى كفاحه البطولى ، وان سقوط الزمالة اتاح الفرصة للقيادة الفرنسية ان تصوب طعنتها للمغرب فتهزمه شر هزيمة ٠

هزيمة المغرب

ان سبب انتصار فرنسا على المغرب مرده لعدم سماع سلطان المغـــرب لنصيحة الامير وعدم ثقته به ، ولو كان السلطان من الذين يفكرون في الذود عن بلاد المغرب العربي لطلب من الامير أن يساعده · وبطبيعة الحال لو فكر في هذا لم تكن فرنســا لتتمكن من الحاق الهزيمة بالجيش المعربي ولـستتمكن في الوقت نفسه من ارغام الامير على أن يستسلم ويدع الفرصة لفرنسا لتبتز الاموال وتستغل الخيرات وتعثــو في أرض الجزائر فسادا ·

لقد عجز كل العجز بيجو عن ان ينال من الامير في مدة أربعة عشر عاما متوالية ، وأخيرا بسبب تواطىء سلطان المغرب معه تمكن ان يرهق الامير بالدس والكيد ·

ان سلطان المغرب قد انهار أمام بيجو لاول وهلة ، وارغمه بيجو ان يوجه نداء لرعاياه يامرهم فيه بان يتخلوا عن الامير ، وان يخرجوه من ديارهم ، ولم يكتف بيجو باعطاء الامر للسلطان فحسب بل تعدى هذا الحد وحرر الكتاب الموجه لرعايا السلطان وصاغ واختار ألفاظه ورتب معانيه وبعثه للسلطان ليمضيه وبطبيعة الحال وافق السلطان فلم ير بدا من مخالفة أمر سيده بيجو فختمه بختمه واليكم صورة من كتاب سلطان المغرب لرعاياه:

« الحمد لله وحده · خدامنا بني يزناسن وأهل انكاد وفقكم الله وارشدكـــم ، وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ··· فقد بلغنا ان الامير عبد القادر نهض في قومه ومن انضم اليه من اخوانكم الذين استفزهم وخدعهم بتمويهه حتى نزل بجامع الغزوات على ما بها من النصارى وغشهم وأوقع فيهم وقتل جلهم ولم ينج منهم الا من فر بنفسه ، وما مراده الا اثارة الفساد وجلب الشر والفتنة للمسلمين كما جلبها لايالة

الجزائر وغيرها حتى أوقعهم فى الكفر والعياذ بالله وانقادوا بسببه لاستيلاء الكفار واسلموا انفسهم لاعدائهم وعاد عليهم شؤم فعله بما لا يرضاه مسلم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . وقد خدعكم باظهار الدين واحوال الصالحين وما فى ضميره الا الفساد وايقاد الفتنة بين العباد ومن يتبعه على ذلك يكون من الخاسرين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ونحن لا نكره الجهاد بشروطه ونكره ما يعود بالضرر والغلبة لجانب الاسلام ، ولكن هذا المشؤوم أراد نقض ما أسسناه من الصلح الشرعي واضرام الفتنة بعد اطفائها سعيا فى هضم جانب عزكم وافساد دينكم ودنياكم وتكدير خاطرنا وانتم لا تشعرون . وقد أمرنا خالنا الشيخ بريان بالقيام على ساق الجد فى اخراجه من ايالتنا السعيدة طوعا أو كرها وحسما لفتنتهم واضلالهم فكونوا معه يدا واحدة وشدوا عضده على ذلك مقاطعته ونبذ متابعته ومن فعل ذلك فقد احاط نفسه ودينه ، ومن تبع الامير وشد عضده وكثر سواده فقد تعرض لسخط الله ورسوله وسخطنا ولا ينجح له زرع ولا ضرع ، وقد اعذر من انذر اللهم اشهد وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وما عقدناه من الصلح مع العدو الكافر اسسناه على قواعد الشرع العزيز وبنيناه واقتدينا فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح كفار قريش صلح الحديبية حين صدوه عن البيت الحرام .

اشهار حرب سلطان المغرب على الامير

ضاق الامير لهذا الاجراء ذرعا ولم يجد بدا من ان يحمى حوزته ويدوخ النواحي التى هو مقيم فيها فانذر وأعذر وأوعد وحذر المتواطئين مع فرنسا ثم بطش باهل الفساد ومهد ما قرب منه من البلاد ومد يده الى اقامة الاحكام الشرعية فيهم واخذهم بالرهبة وبالغ فى ذلك حتى لاذوا الى الطاعة وتذرعوا بالخضوع فزال بذلك عن المهاجرين ما أهمهم وغمهم وادركوا من رخاء العيش وبعد الصيت ما حرك من سلطان مراكش وأوقعه فى الخوف على ملكه لما بلغه أن أهل فاس قاعدة مملكته وغيرهم من أهل القاصية بعثوا الى الامير يدعونه الى الاستيلاء على بلادهم واخذهم بنصرته فازداد غضبا وجهز قائده الشهير بالاحمر فى عسكر كثيف لقتال الامير واخراجه من البلاد وكان فى تلك المدة وصل الى حضرة الامير عبد الرحمن بن سليمان سلطان المغرب الاقصى السابق ، ليكون من جملة

قواده. ولما بلغ الامير خبر القائد الاحمر استعد للدفاع عن حماه وكان وقتئذ مخيما بين أرضي بني توزين ومطالسة من قبائل الريف ، ولم يزل القائد الاحمر يطوى المراحل الى ان خيم بتافرسيت على مسافة مرحلة من الدائرة ، ثم بعث بعض الرؤساء فى شرذمة من الجيش يستكشف احوال الدائرة واخبارها وركب بعض فرسان الأمير اليه فلما رأى الخيل قد اقبلت عليه امتلأ قلبه رعبا ورجعوا الى معسكرهم لا يلوى احدهم على الآخر وقبض على عدة رجال منهم ثم ان الامير بعث الى القائد يدعوه الى المسالمة لبعد المسافة ويظهر له سلامة صدره ويؤكد له أنه لم يخطر بباله ما بلغ السلطان عنه وانه لا يريد الى العافية واقامة المهاجرين تحت انظار السلطان فلم يجده ذلك نفعا وابى القائد الا الخروج أو القتال ٠

حينئذ أخذ الامير حذره منه واستعد للدفاع عن الاهل والاولاد ثم بدا له فى مراجعة القائد ثانية فبعث له يقسم بالله العظيم انه ما اضمر للسلطان شرا قط ولا سعى فى افساد القلوب عليه ثم حذره من قتال المسلمين المهاجرين فى أرض لا تنالها الاحكام منذ احقاب فأبى الا اجراء ما جاء لاجله وأمر بتنفيذه فلما رأى الامير انه لا محيد له عن الدفاع بادر الى الاخذ بالاحتياط ثم اختار من فرسانه مائة فارس وسار بهم مهاجما العدو وهو فى تافرسيت فصبحه واستولى على معسكره بما فيه وهجم بعض رؤسائه على القائد فقتله واجتز رأسه وجيء بحريمه وأولاده الى الدائرة ٠

وبعد مدة عين الامير لهم حرسا وارسله معهم فأوصلهم الى فاس وقد قدر ما كان فى المعسكر من المتاع والخيام والكراع والمهمات الحربية بألوف من الليرات وكان من بين تلك الامتعة البسة فاخرة جاء بها القائد ليفرقها على رؤساء القبائل اذا اعانوه على الامير وقاموا بنصرته فسقط فى يده وخاب أمله واهتز المغرب الاقصى لهذه الواقعة وخطأ الشعب سلطانه ونقموا عليه حيث بعث جيوشه لقتال المسلمين المهاجرين الذين التحقوا ببلاده طالبين حمايته لهم من عدوه وعدوهم ٠

ثم بعث الامير الى علماء المشرق والمغرب ليفتوه فيما قام به سلطان المغرب وكتب خطابا الى علماء مصر شارحا لهم الوضع نصه :

« الحمد لله حمدا يوافى نعمه اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله وارض اللهم عن اصحابه اجمعين وعن الائمة الراشدين ٠ من خديم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر بن محيى الدين الى سادتنا العلماء الابرار الافاضل الاخيار رضى

الله عنكم وارضاكم وجعل الجنة منزلكم ومثواكم . نرجو الاجابة عما فعله بنا سلطان المغرب من المنكراتاللاشرعية التى لا تتوقع من مطلق الناس فضلا عن اعيانهم نظركم فيها شافيا واجيبونا جوابا كافيا خاليا من الخلاف ليخلو قلب سامعه عن الاعتساف ، وذلك انه لما استولى اعداء الله الفرنسيون على الجزائر وخلت الايالة من المنقذ وانقطعت السبل وعطلت الاسباب وطالت شوكة الكافر اجتمع ذوو الرأى وتفاوضوا على ان يقدموا رجلا منهم يؤمن السبل ويكف المظالم ويجمع المسلمين للجهاد لئلا يبقى الكافر فى راحة فتمتد يده فاختاروا رجلا منهم وقدموه لذلك فتقدم وعمل جهده فيما قدموه له فتأمنت السبل بحمد الله وتيسرت الاسباب بعونه وجاهد فى سبيله وذلك من سنة 1830 الى سنة 1847 ، ولم يزل كذلك ان شاء الله فاذا بسلطان المغرب قام بالافعال التى تقوى حزب الكافر على الاسلام وتضعفنا واضر بنا الضرر الكثير ، ولم يلتفت الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه » والى قوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » والى قوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم » الى غير ذلك من الاحاديث الشريفة .

فاول ما فعل بنا اننا لما كنا حاصرنا العدو الكافر فى جميع ثغوره نحو ثلاث سنين وقطعنا عليه السبل ومادة البر من الحب والحيوان وغيرهما تضييقا عليه وتضعيفا له خصوصا من جهة الحيوان لان قانون عسكره انهم اذا لم يأكلوا اللحم يومين أو ثلاثة يفرون عن طاغيتهم ولا يقاتلون ، فاذا بالسلطان المذكور يمدهم فى مدة الضيق الشديد بالوف من البقر وغيرها .

الثانى : انه غصب من عاملنا الفا وخمسمائة بندقية انجليزية .

الثالث : انه غصب من وكيلنا أربعمائة كوة جوخ اعددناها للمجاهدين .

الرابع : ان بعض المحبين فى الله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين به المجاهدين فاذا بالسلطان المذكور يزجره وينزعها منه ويقول له انا احق بها والحال أنه لم يجاهد .

الخامس : ان بعض القبائل من رعيته عزموا على اعانتنا بانفسهم فى سبيــل الله فمنعهم من ذلك وأعاننا آخرون من رعيته بسيوف فى سبيل الله فحبسهم الى الآن زجرا وردعا لغيرهم ٠

السادس : انه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيين اياما قلائل ثم تصالحا واشترط عليه الفرنسيين الا يتم الصلح بينهما الا اذا حل أمر هذه العصابة المحمدية المجاهدين وقبض على رئيسهم فاما ان يحبسه طول عمره واما ان يقتله واما ان يمكن يد الفرنسيين منه أو يجليه من المغرب٠ اجابهم السلطان الى ذلك كله، ثم أمرنى بترك الجهاد فابيت لانه ليس له على ولايه ، ولا أنا من رعيته ، ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعا من لم يجد صبرا واسقط من المجاهدين ركنا ثم أخذ يسعى فى القبض على فحفظنى الله منه ولو ظفر بى لقتلنى أو لفعل بى ما اشترطه عليه الفرنسيون ثم أمر بعض القبائل من رعيته ان يقتلوا ويأخذوا أموالنا وكأنه استحل ذلــك فأبوا جزاهم الله خيرا ٠ ولقد سفه جميع المغاربة افعال سلطان المغرب ٠

أجاب العلامة الحجة الشيخ محمد عليه مفتى المالكية بالديار المصرية بقوله :

« الحمد لله رب العالمين ٠ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين ٠

نعم يحرم على السلطان المذكور اصلح الله أحواله جميع الذى ذكرتم وحرمتــه معلومة بالضرورة لا يشك فيها من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ، وما كان يخطر ببالنا ان يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الامور مع مثلكم فانا لله وانا اليه راجعون أن ما قدره الله سبحانه وتعالى لابد ان يكون » ٠

ولما بلغ الشعب المغربى الامر الذى قام به السلطان ادرك ان أوامر السلطـــان غير مقبولة ، وان لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولهذا فان عددا كبيرا من المغاربة الذين كانوا متاخمين للجزائر انضموا للامير بأسلحتهم واصبحوا يناضلون معـــه العدو ، وبعض منهم أصبح يعينه بالاموال وجاءت رسائل كثيرة من المغاربة تطلب من الامير الا يكف عن الجهاد لان فرنسا قررت ان تفتك بالمسلمين لا فى الجزائر فحسب بل فى المغرب حين تقضى على المقاومة الجزائرية ، ففرح الامير بهذا التشجيع ، وأصبح لا يترك فرصة لمتابعة الجهاد وادى هذا التشجيع الى ان تاثرت منه القوات الفرنسية

فكبدها خسائر كثيرة وبعث قواد فرنسا الى بيجو رسائل مفادها ان الامير يتلقى كل عون من المغرب ٠

حينئذ ضاقت الارض بما رحبت على السلطان عبد الرحمن وبعث الى الامير يأمره بالخروج من الحدود ويذكر له انه لا سبيل الى خلاصك الا بأحد أمرين : اما ان تسلم نفسك الينا ، واما ان تخرج من الحدود فان ابيت ان تجرى احدهما طوعا فنحن نجريه كرها ثم دس الى القبائل القريبة من الدوائر فى التضييق عليها وقطع المسيرة عنها والتجافى عن مواصلتها بكل ما يعود بالنفع عليها فوجم الامير لهذا الامر ، وكتب الى السلطان ما نصه :

« اما بعد فانى كاتبتكم أولا والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة وتعديها على من تبعنى وسوء معاملتهم لهم لانهم كلهم على شريعة واحدة فلم يأتنى جواب عن ذلك ولم يحصل ردع منكم ومع هذا كله انا صابر ومتحمل سفك الدماء منذ ستة أشهر طمعا فى رجوعهم عن البغى والطغيان الى العدل والاحسان مع قدرتى عليهم فى كل آن فان لم تردعهم الآن عن افعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم فانى التزم المحاماة عن حقوقى والمحافظة على شرف اتباعى ولذا بادرت باخباركم والسلام عليكم » ٠

على ان الامير قد علم بالانذار الذى وجهه بيجو الى سلطان المغرب فازداد نشاطا على نشاط ، وتلقت الجنود الفرنسية الهزائم اثر الهزائم ولم تنج من نشاط الامير القبائل المتنصرة ٠

ولما رأى بيجو أعمال الامير وتوالى غزواته على الوطن علم انهم ان تغافلوا عنه وبقى مستمرا على ما هو عليه لابد ان ترجع اليه قوته الاصلية فجمع أعوانه وأهل مجلسه وقال لهم : « قد تعين علينا ان ننظر الى احوال الامير عبد القادر وما هو بصدده الآن فانه اقلق أهل البلاد بتوالى غزواته عليهم من سائر الجهات ولا يخفى ما انطوت عليه قلوب المغاربة المراكشية من المحبة والتشجيع له حتى انهم تمنوا ان يكونوا تحت طاعته وارادته لما رأوا من اتباعه للشريعة الاسلامية وشاهدوه من حسن سياسته معهم التى تركت قوافلهم تسافر من فاس ومراكش الى الاقطار الجنوبية والشرقية فى غاية الامن والاستقرار بعد ان كانت قبل لا تسلم من الاذى ، والذى زادهم رغبة فى طاعته ما كانوا يسمعونه عنه من حسن سيرته مع رعاياه فانه كان لا يقرر عليهم ضريبة ولا يجعل عليهم خراجا وانما كان يأخذ من أموالهم ما أمرت به شريعتهم الاسلامية » ٠

فاجابه أهل المجلس لابد من الاستئذان من الدولة فكتب الى دولته وبعث الى سلطان مراكش وعرفه ما يلزم اجراؤه فى هذا الشأن ليجمد حركات الامير ·

فاجاب السلطان ان بلاد الريف قد خرجت من يده ودخلت فى طاعة الامير عبد القادر فلا يمكننى أى اجراء مما أمرتمونى به ·

وما ان وصل كتاب سلطان المغرب الى الجنرال بيجو حتى تبين له ان السلطان اصبح فى حالة لا يمكنه ان يجاهر الامير بالعداوة ، ولهذا يتحتم عليه ان يسير بجنوده الى الحدود المراكشية ·

ولقد نفذ بيجو فكرته هذه حين انه أمر الجنرالين سبير وبيـــدو بأن يتوجها الى الحدود الجزائرية المغربية قريبا من بلدة لالا مغنية شمال تلمسان ، وان يبعثا برسالة تهديد الى السلطان يأمرانه فيها باسم بيجو ان يكف عن مساعدة الامير ، وحينما وصل السلطان هذا الانذار أصبح بين نارين اما ان يستجيب لطلب الفرنسيين وهذا بالنسبة اليه أمر صعب لان الامير قوى ومعه جنود كثيرة ولا يقدر على منازلته ؛ واما ان يجيب الفرنسيين بعنف وقوة وتكون الخاتمة الحرب مع فرنسا وهو أيضا لا يمكنه ان يصمد للجنود الفرنسيين المدربين ، ولم ير مخرجا من هذا المأزق الا ان يكتب لوالى وجـدة يأمره بأن يدخل فى مفاوضات مع الفرنسيين ، ويطلب منهم ان يرحلوا عن الحدود ، فبعث والى وجدة برسوله لقواد فرنسا وأمرهم بالنزوح عن الحدود فقابل الفرنسيون الرسول بالسخرية والاستهزاء وقرر والى وجدة بعد الاهانة التى الحقها قواد فرنسا برسوله ان يدخل معهم فى حرب ان لم يغيروا سياستهم فكان جوابهم اننا هنا ولن نرجع حتى يأتينا الامر من القائد العام الماريشال بيجو ·

غير ان والى وجدة قد تحير لهذا الامر وفى الوقت الذى قرر فيه ان ينهى الى السلطان تفاصيل القضية جاءته نجدة من الجنود المراكشية ، فرأى من اللازم ان يهاجم الفرنسيين واشتبك الفريقان وكانت العاقبة وخيمة على الجنود المغربية وتمكن الفرنسيون من أن يغنموا جميع المؤن والذخائر التى جاء بها المراكشيون وقتلوا العدد الكثير مـــن الجنود والباقى أصبح طريحا فوق الارض أو أسيرا فى أيدى الفرنسيين ·

ولما سمع بيجو بنتيجة المعركة فرح كثيرا وبعث برسالة تاييد الى ضباطه شاكرا لهم ما قاموا به من أجل الاطاحة بالجيش المغربى الذى كان يكن كل محبة وصداقـة لجيش الامير ·

وفي الوقت الذى كان الجنرالان لاموريسيار وبيدو يعملان فى الحدود المغربية الجزائرية كان بيجو يستعمل كل قوته ونفوذه فى القضاء على القبائل فى جبال زواوة بحيث ان هذه القبائل التى كان يقودها الزعيم ابن زاموم قد خضعت تحت ضغط جيوش الماريشال بيجو ٠

ويقول بعض المؤرخين ان زعيم جبال زواوة كان متفوقا على جيوش الماريشال بيجو وان اخضاعه كان بسبب الامدادات التى كانت لا تنقطع عن بيجو ٠

ولقد رأى بيجو ان يعاقب هـذه القبائل على تعنتها وتمسكها بحريتها وتاييدها للامير فاحرق اربعين قرية من دون ان يراعى الحيوانات والشيوخ والنساء والاولاد ، واذ يفعل بيجو ذلك فانما يتبع الطريقة التى كان يسلكها غيره من القواد ، ولم يسع زعيم جبال زواوة ابن زاموم الا ان يرتفع بما بقى من جنود الى الجبل ٠

وبعد ما اخضع الماريشال بيجو لارادته قبائل زواوة توجـه فورا الى الحـدود الجـزائرية المغـربية ، وعند وصوله بعـث بكتاب الى والى وجـدة يطلـب فيـه اللجوء للتفاوض فيما يرجع على الشعبين المغربى والفرنسى بالخير فاستجاب له والى وجـدة وعين الجنرال بيرو للقيام بهذه المامورية فبعث هذا الاخير برسالة لوالى وجدة يرجوه فيها ان يعين المكان والزمان فبعث الوالى المذكور كتابا ذاكرا فيه انه فى انتظاره فى الوقت الذى يختاره هو ، وبعد يومين اجتمعا وفى الوقت الذى كانا يتفاوضان اعتدى احد جنود المغاربة على الحاشية التى جاءت مع الجنرال بيرو فلم يرض عن هذا الاجراء واعتبره اعلانا للحرب ، ووقعت بينهم معارك كانت نتيجتها هزيمة حاكم وجدة واستيلاء الفرنسيين على وجدة بتمامها ٠

وبعد ان استولى بـيرو عـلى وجدة فكر فيما يجب اتخـاذه هـل يسكت حـتى تتحرك الجيوش المغربية أو يكتب الى والى وجدة يستفزه مثل الاستفزازات التى ادت الى هذه المعارك واخيرا قرر ان يبعث برسالة الى الوالى المذكور فى غاية العنف والقسوة ذاكرا له انه لا يخرج من وجدة لانها أصبحت أرضا فرنسية اثر الانتصار الذى احرزه جيشـه ٠

وخاف والى وجدة من حيث انه اشتبك مـع الفرنسيين ، قبل ان يستأذن وأدى لابـادة القرى والقبائل ، واحراق البيوت والتمثيل بالموتى ، والاجهاز على الجـرحى ، الى الجنرال بيجو مقدما له العذر على ما ارتكبه جنديه من التعدى السافر على حاشيـة

الجنرال بيرو راغبا منه ان يعد هذا الحدث كانه لم يكن راجيا ان يامر الجنود الفرنسية بأن تخرج من وجدة ٠

واطلع بيجو على كتاب والى وجدة اجابه فورا بأن فى وسعه ان يتغاضى عن هـــذا الاعتداء ومخافة ان يتجدد يطلب منه ان يعين لجنة مغربية لتجتمع مع لجنة فرنسية من أجل تحديد الحدود بين الجزائر والمغرب كما طلب منه ان يلتزم بعدم السماح للامـير عبد القادر بالاقامة فى المغرب وبعدم مساعدته وان شعرت فرنسا بان الامير يتلـقى معونة أو مساعدة من المغرب فانها تعامل المغاربة بالمثل ٠

وأخيرا قررت فرنسا ان تطلب من المغرب ان يسعى بكل ما لديه من جيوش لتشتيت شمل الامير وان عجز عن ذلك فلابد من اخراجه الى الجنوب الغربى وان تمنع منعا باتا جميع الجزائريين من دخول المغرب ٠

واذا رضيت المغرب بهذه الشروط الاساسية يمكننا ان نعد ما وقع بيننا كانه لم يقع ونسعى لايجاد روابط صداقة ومودة بيننا وان لم يفعل المغرب ما طلب منه فليعد الفرنسيين من الآن اعداء له وليعلم انهم لن يتاخروا عن القيام بما يتمشى مع مصالحهم ٠

وقد عد والى وجدة هذا الجواب كانذار لا يقبل ، ولهذا سكت ولـــم يجب بيجو بالايجاب أو السلب ، ورأى بيجو ان عدم الرد معناه عدم الموافقة على الشروط ، وان الاحسن له ان يهاجم المغرب فأستولى على وجدة تماما واخرج أهلها منها واستولى على كل ما وجده فى هذه القاعدة وأمر المراكب الفرنسية ان تقصف بمدافعها البـــلاد المغربية ، فتثار الشعب المغربى من هذا الاعتداء الغاشم وطلب من السلطان ان يرد ضربة بضربة فجند جيشه وكان يربوعلىعشرين الف جندى واسند قيادته الى ولى عهده محمد ، وتوجه الى اماكن الفرنسيين ولما بلغ الامير عبد القادر ان السلطان يريـــد الدخول فى حرب مع الفرنسيين بعث اليه يرجوه الا يقدم على أمر كهذا لان الفرنسيين اقوى منه فلم يستجب لنصيحة الامير عبد القادر معتمدا على العدد والعدة فاشتبك الفريقان المغربى والفرنسى على النهر وكانت الهزيمة من نصيب المغاربة واستولى بعد ذلك الجنود الفرنسيون على جميع المؤن والذخيرة التى كانت مع الجيش الذى قاده ولى العهد ، ومن تبقى من الجنود المغربية جرد من سلاحه وسيق بهم الى المعتقلات كاسرى وكان ما غنمه الفرنسيون كثيرا وكثيرا جدا ٠

ان فرنسا قد عدت هـــذه المعركة فاصلة بينها وبين الامـير لانـــها ستمكنها من فرض الشروط على المغرب حتى لا يكون فى جانب الامير وعدت هذا الانتصـار انتصارا لبيجو وسمت النهر الذى وقعت فيه المعركة بنهر اسلى وهو الاسم الذى اعطى للماريشال بيجو حيث عينته دوق اسلى ٠

وبطبيعة الحال أصبح المغرب خائر القوى اثر الهزيمتين التى لحقتا بوالى وجـــدة وولى العهد ، ومخافة ان تستمر الحرب بين المغرب وفرنسا فاتح السلطان الماريشال بيجو من أجل عقد صلح بين البلدين فرضى بيجو بذلك وهذا ما كان ينتظره ووافـق على ابرام معاهدة صلح على الشروط الآتية :

اولا : سرعة ارتحال العساكر المغربية من وجدة وما اليها فى الحدود ٠

ثانيا : اجراء القصاص على الذين تعدوا الحدود الفرنسية ٠

ثالثا : اخراج الامير عبد القادر من البلاد وان بقى فيها فلا تساعده حكومة مراكش٠

رابعا : ان يـقام تعيين حدود فاصلة بين حكومة فرنسا وحكومة مراكش ٠

وخاف سلطان مراكش من الحالة الراهنة حيث انه أصبح مرغما على الموافقة عـلى الصلح من دون تاخير لان فرنسا كانت مصممة على ان تستولى على المغرب لكى ترغم الامير بدوره على ان يستسلم وما ان اطلع السلطان على الشروط حتى اجاب بيجـو فورا بموافقته على ما قدمه وابرم بينهما الصلح ، وكأن السلطان ينتظر رد الفعل من الشعـب ٠

ولما انسحب الفرنسيون من الاراضى المغربية طبقا للاتفاق استولى السخط عـلى الشعب ، وعد هذا الاجراء من السلطان كتهاون فى واجبه ، وأصبح القواد المغربيون فى وضع سخيف لانهم لم يدافعوا عن البلاد بمثل الشجاعة التى دافع بها الامـير ، وقرر الشعب ان ينضم بأسره الى الامير ليسانده فى معركة التحرير التى يقوم بها فى الجزائر وبعثوا له بوفد من أكابر العلماء يعرضون عليه ان يكون ملكا عليهم بدلا من السلطان الذى خيب رجاءهم وكان جواب الامير : « انى دخلت بلد السلطان لا لاكون ضده أو ناخذ منه ملكه فهذا مما لا يقوم به عاقل » !

ولقد تعرض المؤرخ الانجليزى لهذا الحادث فقال : « من هنا يتبين ان الامير كان مقصوده فيما يعانيه من قتال الفرنسيين مقصورا على الذب عن الدين والوطن لا من أجل

الملك ولو كان كذلك لقبل من رعايا سلطان المغرب ما ندبوه اليه ولظفر به فى اقرب وقت من غير كلفة ٠

وقال آخر : «ما كان الامير فى جميع ما تكبده من المشاق ومعانات الحروب الا من أجل نصرة الدين وانقاذ وطنه من يد الاعداء ولم يبذل ماله ونفسه وحوله وقوته ولم يصبر على تلك الاحوال التى يعجز عنها اكبر سلطان فى العالم الا لاعلاء كلمة الله وانقاذ وطنه» ٠

وبلغ سلطان المغرب ان الشعب المغربى يريد ان يسند الملك للامير وان الامير امتنع بدعوى انه لم يقصد المغرب برغبة استيلائه على الملك وانما الضرورة هى التى الجاته الى دخول المغرب فذكر السلطان لجلسائه ان رفض الامير للسطنة دليـل عـلى نبلـه ويجب ان ندعوه لنقوم بواجب الضيافة جزاء على شهامته وفعلا فقد بعث السلطان الى الامير يدعوه للضيافة فرد الامير بأن الجيش الجزائرى تعرض لسفره ولهذا يشكر جلالة السلطان على كرمه ٠

وسمع بنو عامر بالخلافات التى دارت بين السلطان والامير وكانت قبائل بنى عامر قد فرت من ظلم الفرنسيين من الجزائر الى المغرب ، فطلبوا من السلطان ان يسمح لهم بالخروج من بلاده لينضموا الى أميرهم فامتنع ووقعت بين هذه القبائل والجيش المغربى معارك كثيرة ادت الى قتل كثير من أمراء القبائل لكثرة الجيوش المغربية ومن نجا من الموت بيع فى الاسواق بابخس ثمن وهذه الاعمال ما زالت الاجيال تتداولها جيلا بعد جيل لتروى بيع جزائريين أحرارا فى الاسواق ٠

ان الاجيال فى الجزائر أرض الاحرار ما زالت تذكر ان تمادى الاستعمار الفرنسى فى طغيانه مرده لسلطان المغرب لانه هو الذى طعن الجزائر بخنجر حينما تواطأ مـع بيجو وارغم الامير على ان يسلم نفسه وان يترك المعركة التى كادت تقضى على جيش الغزو الفرنسى ٠

ولقد ادرك بيجو ان ايجاد خلافات بين المغرب والجزائر سيؤدى حتما الى اضعافهما والتهامهما القطر بعد الآخر على ان الامير قد تنبه لهذا الخطر الداهم فسد الباب فى وجه بيجو وذلك انه عرض عليه عروضا سخية ولما يئس بيجو من الامير غير وجهته نحو سلطان المغرب ٠ فاستولى على مشاعره واصبح السلطان لا حول ولا قوة له ، يسير اينما سار بيجو يأمره فيأتمر ، وينهاه فينتهى مما أدى الى خضوع الجزائـــر

المجاهدة لبيجو وقواده الذين لم يسعدهم الحظ بأن ينتصروا بسبب اتفاق سلطان المغرب مع بيجو وارغام شعبه على التنكر للامير بعد ان كانوا سنده القوى ٠

ولقد سجل التاريخ بأن هزيمة الجزائر كانت بداية عهد الاستعمار الاوروبى ، ولو تضامن مواطنو الشمالى الافريقى ما كتب لفرنسا ان تعمر طويلا وليس من شك فان فرنسا حينما ارغمت الامير على ان يترك لها الجزائر مضغة سائغة سنة 1849 كانت قد رسمت الخطة بالاتفاق مع دول جنوبى أوروبا اللاتينية : اسبانيا ايطاليا وفرنسا على ان يقتسموا المغرب العربى فتدخل الجزائر والجزء الكبير من المغرب وتونس الخضراء تحت النفوذ الفرنسى ، وتدخل القطعة المغربية المقابلة لاسبانيا تحت النفوذ الاسبانى، وتدخل ليبيا تحت النفوذ الايطالى ٠

وعلى ضوء ما ذكر نستنتج ان فرنسا التى عمرت 132 سنة فى الجزائر كان لها ذلك بسبب انهيار سلطان المغرب ٠

كما ان المغرب الذى فتحته فرنسا ابتداء من عام 1901 واتمت فتحه فى الفترة بين 1907 ـ 1912 جاء نتيجة حتمية لتقلص الشخصية المغربية وانهيار ملوكها ، وانصياغهم لدسائس بيجو ٠

دسائس بيجو

ظن الفرنسيون انهم قد قضوا على شوكة الامير ، بعد اتفاقهم مع سلطان مراكش وان الجزائر اصبحت تحت سيطرتهم ، فاخذوا ينظمون أمورهم ويصلحون ما خربته الحروب ، ولكن ما عتموا ان فوجئوا في خريف سنة 1847 بهجوم جديد من قبل الامير، بعد ان وجد العون من احدى المناطق المراكشية ، ونظم صفوفه من جديد فادركوا ان هذا الرجل الذى بدأ يلمع اسمه كقائد شديد المراس لن تلين قناته بالسهولة التى ظنوها ، واضطرت فرنسا الى اعادة الماريشال بيجو حاكما عاما على الجزائر ، لانها كانت استدعته الى فرنسا ، ظنا منها ان مهمته انتهت بلجوء الامير الى مراكش ، وبتوقيع المعاهدة مع سلطان مراكش . وارسلت الحكومة الفرنسية نجدات جديدة وبعض قوادها المشهورين ، ومن جملتهم الجنرال كافنياك فلم يدخروا وسعا ولم يتركوا وسيلة من وسائل البطش والتهديد الا استعملوها لان ذلك من عاداتهم ، ومن المحال ان يتخلوا عنهـا .

وفي الوقت الذى ضاقت الارض بما رحبت بالامير وانقطعت اخبار خلفائه ، تلقى رسالة من خليفته احمد بن سالم من جبال جرجرة نصها :

« الحمد لله وحده . بعد الثناء والدعاء وأداء واجب الاعظام والافخام ، فاننا معاشر عبيدكم متعطشون الى مكاتبتكم ، ومن المعلوم ان ما تسطره يدكـم الشريفة يحيى النفوس منا والآمال ، وقد اشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف ، واشاعوا ان والدتكم تصدر المكاتبات والتحارير اللازمـة بأسمكم ، وقد بلغني ان الفرنسيين عازمون على الزحف الى بلادنا ، وليس عندى ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادها الى كلمتى وان كان تاخركم لاعتقادكم ان الخليفـة

السيد محمد البركاني يساعدني وينجدني فهو على ما هو عليه من مصادمة العدو ومن المستعبد أن يساعدني ويقوم بناصري، كما انني لا قدرة عندي على مظاهرته، وعلى كل حال فانا اسألكم بالله تعالى ان تردوا لي الجواب عن المكتوب بخط يدكم الشريفة ، فأجابه الامير بخطه :

اطلعت على مكتوبكم فاعلم ان الموت لا مفر منه ولا محيد عنه ، اذ هو من قضاء الله الذي لا يرد واني احمد الله اذ لم تأت ساعتي بعد ولا زال عندي من القوة والاقتدار ما ارجو به مهاجمة اعداء ديننا فكن في راحة ساكن البال صبورا ومتى استقر الامر لنا هنا نتوجه الى نواحيكم » ·

وقد فرح بذلك الامير ونسى كل عناء لانه اطمأن على حياة خليفته ، غير ان الامير قال لجلسائه : « لقد دبر امرنا بليل ، وسنصمد للاحداث ، غير ان صمودنا هذا لن يكون له اثر بالمرة على ما عقدت العزم عليه فرنسا من دحرنا وسومنا العذاب وصدقت نبوءة الامير حيث استعملت فرنسا ثقلها في الحيلولة بين الامير وسلطان المغرب والحيلولة أيضا بين الشعب الجزائري والشعب المغربي لانها ادركت ان الصلة بين الامير وسلطان المغرب كانت وثيقة وان السلطان كثيرا ما كان يساند الثورة الجزائرية ، وانه كان قد اتفق مع الامير على ان يكون اتحاد ثم وحدة بين الجزائر والمغرب حتى يتمكنا من احياء الوحدة الشاملة التي كان يتمتع بها البلدان ·

كما شاهد قواد فرنسا سنة 1846 ان المغاربة كانوا يأتون بحيواناتهم بقصد الرعي في الاراضي المتاخمة للجزائر وكان الرعاة يجدون كل عطف وكثيرا ما كانوا يهاجمون القوات الفرنسية بايعاز من الامير ونوابه ، ولقد سبق للجنود الفرنسيين ان تعرض لهم المغاربة دون ما سبب وان هذا التعدي كان لا يجهله المسؤولون في المغرب وقد صرح السلطان بان تمادي رعاياه في مساعدة الجزائر سيجر حتما الى ما لا تحمد عقباه ، ويجب الحذر ، بالرغم من هذا كله فان المؤن الحربية لم تنقطع عن جنود الامير ، وبهذا تمكن من ان يصمد للاحداث ، وان يكبد جنود العدو الخسائر الفادحة ·

ويستفاد من التقارير الفرنسية الكثيرة ان المؤن الحربية التي ترسل للامير لا يدفع ثمنها وانما كانت اعانة من الشعب المغربي ·

ولقد تمكن قواد فرنسا من حجز رسائل كثيرة معنونة باسم الامير مكتوبة من خلفاء السلطان فيها من الاسرار ما يثبت ثبوتا قطعيا بان المغرب يعمل جاهدا من أجل

ضعاف الفرنسيين ، وتأييد الامير فى جميع الميادين ، ولا شك ان الحكومة الفرنسية لم تتمكن من منع السلطان من مؤازرة الامير ، وقد ذكر القائد الفرنسى أنه من السهل علينا ان اقمنا العيون فى الاماكن التى تربط المغرب بعمالة وهران وخاصة تلمسان نتمكن من عرقلة العلاقات بينهما ٠ وبذلك تكون شوكة الامير قد خفت من حدتهـا أو ربما يضطر الى ان يطالب بعقد صلح يكون لصالحنا وبطول المدة سنتمكن مـن السيطرة على الامير واقصائه من عمالة وهران ، ومن الاراضى الجزائرية كلها ، وان وصلنا الى هذا الحد اتيحت لنا الفرصة بان ننفذ سياستنا فى الجزائر بوجه خاص وفى شمال افريقية بوجه عام ٠

ولكى تصل فرنسا الى هدفها من ارغام الامير على الاستسلام ، فرضت سياسـة جهنمية على المغرب وشهرت ضده.السلاح وكبدته الخسائر الفادحة فارغمته على ان يتخلى عن المعركة وعن مؤازرة الامير وعدم السماح له باللجوء الى أراضيه عند ما يكون فى حاجة الى ذلك ٠

اما فى تونس فقد حشدت قواتها على الحدود الفاصلة بين الجزائر وبينها بحيث اصبحت معونتها لا تسمن ولا تغنى ٠

واما الشرق فكانت الجزائر لا تعتمد عليه للظروف القاسية التى كانت تمـر بـه وللاوضاع السخيفة التى كانت تفرض عليه من الاستعمار الغربى ٠

على انه لم يبق للامير الا باب واحد يمكن ان يطرقه ويستنجد باصحابه وهو الباب العالى ، وكان موقف الباب العالى غير مطمئن لان الغرب كان يعمل من أجل الاطاحـة به ، وفعلا فقد اجتمع ساسة الغرب ودهاتها وقرروا فيما بينهم ان الوقت قد حان لتتغير الاوضاع رأسا على عقب فى الشرق ويدك الباب العالى دكا ، ويؤخذ منه عنوة جميع ما غنمه من بلدان حتى لا يكون خطرا على الغرب ، وهذا الاتفاق الذى ابرم فى فينيا عام 1808 كان بمثابة طعنة للباب العالى وللشرق ٠

وفعلا فان السياسة المرسومة فى هذا المؤتمر ، أصبحت سارية المفعول بحيث ان فرنسا لما قدمت على احتلالها للجزائر وغزو أراضيها كانت تعتمد على هذا الاتفاق بحيث انها قبل هذا الغزو بيومين اخبرت الباب العالى بأن الجزائر لا صلة لها به وان الصلة الدينية لا تكفى فى العرف الدبلوماسى ، وانها لن تعترف بها كدولة مركزية ، وان كل احتجاج يبعث به الباب العالى لن يلتفت اليه !

وكان عدم استجابة الباب العالى للامير ومده بالمعونة جناية كبيرة وان الجزائر ـ وان كانت مستقلة استقلالا ذاتيا ـ كانت خاضعة للحكومة التركية واكبر دليل على ذلك ان الاسطول الجزائرى جند جميع قواه ليؤيد الاتراك فى حربهم ضد اليونان وان اسطوله كله ضاع فى معركة نفارين التى دارت رحاها بين اليونان وجميع الدول الاوروبية من جهة وبين الاتراك والمصريين والجزائريين من جهة أخرى ، وان اثارة هذه المعركة بالذات بين اليونان والاتراك والمصريين والجزائريين ، كان القصد منها اضعاف تركيا ومصر فى الشرق واضعاف الجزائر فى الغرب •

وبالرغم من هذا كله فان الجزائر تمشيا مع حركتها العربية الاسلامية شهرت الحرب على فرنسا فى 1827 لما هاجم بونابرت مصر •

ولقد سمع بيجو بما يقوم به الامير من محاولات لايقاف الزحف الفرنسى على الجزائر فقال : « ان حروب الصليبيين لم تنته ، ولابد ان نثار لجيوشنا التى هزمها فى حطين صلاح الدين » •

غير ان الامير عندما سمع ذلك تاثر وقرر ألا يموت حتى يحرر الجزائر ولكنه لم تكتب له هذه السعادة حيث ان الضربات التى كانت تاتيه من كل صوب وجانب زلزلت الثرى تحت اقدامه •

لقد قال بيجو لاحد خواصه : ان الامير قد انتصر عليه فى المرة الاولى وانه سيحاول ان ينتقم منه فان نجح فذاك ، وان فشل فسينتحر لانه لا يسمح لنفسه ان يعيش بعد ان تسقط سمعته كرجل عسكرى وتغلب جنود فرنسا فى أرض الجزائر التى يعلق عليها الشعب الفرنسى كل الآمال •

ولهذا فقد استعمل كل ما فى وسعه من دهاء للوصول الى القضاء على المعاهدة التى كان سببا فى ابرامها •

وحاول بعد ذلك ان يطلب من الامير ان يقلل من حدة التوتر فيما يخص حرية التجارة فأجاب : اننا لما عقدنا هذه المعاهدة دققنا شروطها وكل منا تقدم باقتراح وبعد التمحيص اتفقنا على البنود المعينة بنص المعاهدة ، وعليه لا يمكن باى حال من الاحوال ان نغيرها أو نبدلها لان أى تغيير يقضى على جوهر المعاهدة •

ولقد تاثر الامير بالاجراءات التى كانت تقوم بها فرنسا داخل البلاد الجزائرية وخارجها لان الدسائس كانت قوية من جهة فرنسا • وان بعض الجزائريين اما خوفا

منّ يطش العدو او ضعفا فى الايمان اصبحوا يهادنون الفرنسيين أو يتعاملون معهم فبعث الامير رسالة الى جلالة سلطان المغرب يخبره فيها : بأنه تمكن من ان يطلع على المناورات الفرنسية التى تريد ان تفصل بين الجزائر والمغرب وانه يعتمد كل الاعتماد على الله وعليه فيما يخص متابعة القتال كالماضى ، ويشكره فى الوقت نفسه على ما اسداه من خدمات له وعلى معونته السخية التى وعده بها ، وكان الامير ينتظر جواب السلطان على طلب النجدة الذى تقدم به الامير حيث ان سلطان المغرب تغافل عن الرد ، واصبح يأمر الشعب ان يقطع صلته تماما مع الامير ، اذ كان الشعب المغربى قد ايد الحركة الجزائرية وساهم مساهمة فعالة لكن السلطان أنذر من لم يراع أوامره بالعقاب .

ان الشعوب على دين ملوكهم ، ولهذا فان الشعب المغربى الذى ايد فى مبدا الامر حركة المقاومة الجزائرية اصبح يفتك بالرجال ويستحى النساء لان السلطان أمر بذلك وان عدم نجاح المقاومة لها سببان : الاول عدم قيام الجزائريين بدفع الزكاة وخوفهم من العدو والتعامل معه ، والآخر العداوة التى يكنها السلطان للامير وان هذا السلطان كان يعمل ما فى وسعه من أجل القضاء على الامير ويرجع ذلك لامور كثيرة منها خوفه من فرنسا لانه حاول ان يقاتلها كما قاتلها الامير فهزم شر هزيمة هو وجنوده هذا من جهـــــة .

ومن جهة أخرى ان الشعب المغربى كان يتمنى وكان يتحفز لخلعه من السلطنة ، وان السلطان خوفا من ضياع ملكه رأى من الحكمة ان يسند ظهره لفرنسا حتى تمده بقوة من لدنها وان فرنسا لا تغتر بالالفاظ وان الشىء الذى يهمها هو ان يترجـــم السلطان عبارات الولاء باعمال ظاهرة ، والاعمال التى كانت تنتظرها مـــن هـــذا السلطان هى : ان يشهر حربا لا هوادة فيها على الامير ولا يسمح للجزائريين ان يخرجوا من الجزائر لينضموا للامير الذى كان بالمغرب .

ولقد نفذ السلطان عبد الرحمن كل ما كلف القيام به وبدلا من ان يعين الامـــير بالاسلحة وبالاموال ، وبدلا من ان يحث الشعب على اعانته ومساندته اعانه بكيفيـــة اخرى وهى : ارغامه على التسليم ، وقد صدق الامير حيث قال فى غدره وخيانته :

ولقـــد نصـــرت الـــدين لولا انهـــا   غـــدرت بنـــا فـــاس بغـــير مـــراء
قطعـــوا يـــد الاســـلام بنواحيلـــه   بـــاءوا باقبـــح خـــزية شنعـــاء

حسدوا على النصر المبين سفاهة ... اخوانهم فغدوا مع الاعداء
والله يجزى كل باغ فى غد ... عما جنى شر جزاء
عشرا من السنوات قد قاربتهم ... مع ستة والنصر تحت لوائى
ما غزوة لى فيهم الا وقد ... رمت الشهادة فيها من مولائى
هذى جرائدهم وهذى كتبهم ... تنبيك عن قتلى بهم وبلائى
ومن العجائب ما بجسمى منهم ... جرح ولا من طعنة شلاء
ما للجبان وعيشة قد عاشها ... خل الجبان رهين ذاك الداء
ولقد قتلت من الاعادى « مائتى » ... الف كما شهدت بذا أعدائى

تسليم الامير

حل القضاء وكثرت المصائب وأصبح الامير يشكو من أنصاره الذين انقضوا من حوله الا ما ندر ، ومن الفرنسيين الذين استعملوا كل ما لديهم من الدسائس والمؤامرات ، وأتوا من فرنسا بكل قواهم ومن المغاربة الذين سند لهم ظهره على أن يحملوه فسلطوا عليه نيران مدافعهم حينما لم تنجح دسائسهم تفكر مليا وأنشد قول الشاعر :

كنت في كربتي أفر اليهم　　فهم كربتي فاين المفر

وبعد ما تنهد الصعداء قال :

أن يسلب القوم العدا　　ملكي وتسلمني الجموع

فالقلب بين ضلوعه　　لم تسلم القلب الضلوع

أجلي تأخر لم يكن　　بهواه ذلي والخضوع

وما سرت قط الى القتال　　وكان من املي الرجوع

شيم الاولى انا منهم　　والاصل تتبعه الفروع

ان الزفرة التي خرجت من فؤاد الامير كان لها ما يبررها ، وقد فوجيء أميرنا بالامر الواقع في الوقت الذي كان يفكر في أن شعوب المغرب العربي سينضمون لقوته ويؤيدون جيشه ويحققون ما جاء في المثل : أنا وابن عمي على العدو .

ولما تبين له خلاف ذلك استغفر الله وفوض أمره اليه وكتب الى الجنرال « لاموريسار » يخبره بأنه يسلم نفسه بشروط ، فاهتز لذلك الجنرال لاموريسيار سرورا ، وبعث بسيفه الى الامير مع ورقة ختمها بخمته على بياض ليشترط الامير ما يريد وكتب الى ملكه :

انني في هذه الدقيقة ممتط جوادي للذهاب لدائرة الامير عبد القادر ، وليس عندي فرصة لابعث لكم بفحوى طلبه ، واحيطك علما بانه قرر ان يرحل عن الجزائر ليستقر بعكا أو اسكندرية ٠

وبعث لاموريسيار البريد الى الدوق دومال ابن الملك ، فارتاح لذلك وركب من حينه ، وأخبره بأنه موافق على ما اشترطه الامير ، وبعد يومين حضر ابن الملك الدوق دومال ورضى بشروط الامير وهي :

« أن يحمل متاعه وأسرته الى عكا أو الاسكندرية بحسب ما يراه هو ، ولا تتعرض فرنسا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر أو الى الذي يبقى بالوطن من الجزائريين يكون آمنا على نفسه وماله » ٠

فشكره ابن الملك الدوق دومال على موقفه ، وقدم له هدية ٠ فاجابه الامير قائلا : ان بودي أن لاتخذلكم فرنسا وتخذل لاموريسيار فيما التزمتما به ، اما فيما يخصني أنا فان ما عقدت العزم عليه من ايقاف الحرب انما هو قراري الاخير واني أقدم لكم السيف الذي كنت أدافع به وهذا الاجراء مني يعتبر شرفا لبلادكم ٠

وهكذا انقضى جهاد هذا البطل العبقري لاسباب أهمها (1) : خذلان الاشرار له(2) وانقسامات مواطنيه (3) وانضمام بعضهم لفرنسا بعد ما أقسموا له باغلظ الايمان بانهم يؤيدونه ٠

لكن ما أن وصلت الباخرة التي كانت تحمله ومن معه من حاشيته الى مرسى طولون حتى جاء حاكمها ، وأخبر الامير بانه سينزل هنا ببلدة طولون ، وان مكثه هنا يدوم ما دامت المخابرة مع الدولة العثمانية ، وهي لم تتم بعد فيما يخص توجهه اليها ، فتالم الامير وعد ذلك اهانة له ولمن معه من الحاشية وقال لحاكم البلاد :

ويا للعجب في الوقت الذي كنت أنتظر فيه بفارغ الصبر اقلاع البارجة من طولون الى الشرق حسب الاتفاقيات المعقودة بيني وبين حاكم الجزائر وأنزل هنا بالرغم مني ٠

ثم كتب بعد ذلك لابن الملك الدوق دومال يخبره بما ارتكبته دولته من عدم الوفاء بالعهد وانجازه ٠

ومما جاء في الرسالة :

« ان من أكبر العار على فرنسا غدرها بمن سلمها نفسه على أن هذا مخالف للمروءة ومخالف للدين ، ثم أردف قائلا :

« لو كنا نعلم أن الحال تؤول الى ما آلت اليه ما كنا أوقفنا القتال حتى تنقضى منـــا الآجـــال » ٠

وبدلا من أن حكومة فرنسا تثوب لرشدها وتعالج المشكلة بروح انسانية عرضت عليه أن يقيم حيث شاء فى أرض فرنسا فقال : « انى لا أقبل هذا ولو فرشت لى سهول فرنسا ومسالكها بالديباج » ٠ واضطر الامير أن يبقى فى فرنسا حتى عام 1852 واتصل خلال ذلك بالعلماء ، وعكف على المطالعة والدرس ٠ وعينت الحكومة الفرنسية للامـير الكولونيل دوماس مرافقا له وكان هذا الكولونيل وكيل فرنسا لدى الامير ٠

دخل دوماس ذات يوم على الامير وهو يضحك قائلا : ان احد القساوسة يريـــد مقابلتك ليعرض عليك الدين المسيحى ، وهو متيقن ان هذه العملية تكون من أسهل ما يكون فأجابه الامير ان هذا الرجل من ذوى النيات الحسنة وانى آذن له بالزيارة حتى أتمكن من هديه للدين القويم ، وسيحصل لى الشرف ان أقنع رئيس ديانة مسيحية باعتناق الاسلام عن رغبة لان قواعد الاسلام يسر وهى توافق المنطق والعقل ٠

وبعد أيام بلغه أن قضيته رفعت الى مجلس الامة للبحث فيها ، فحصل بين الاعضاء خلاف فقال بعضهم : ان الامير قد خرج عن الطرق المرعية بين المتحاربين بقتله الاسرى صبرا ، فلا عهد له عندنا يجب علينا الوفاء به ، فاعرض أهل المجلس عنه ٠

وفى ستة من فبراير سنة ثمان وأربعين تكلم وزير الخارجية فى مجلس الامة فقال : لو فرضنا اننا لا نتمكن من ارسال الامير الى عكا لكون الـدولة العثمانية لا تعترف باستيلائنا على بلاد الجزائر فاننا نتمكن من ارساله الى الاسكندرية فأجابه كبير الوزراء : ان المخابرة جارية بيننا وبين محمد على باشا صاحب مصر ، وقد طلبنا منه الكفالات اللازمة لذلك ، فلما اتصلت هذه الاخبار بالامير سكن روعه وارتاح فكره ، ثم جـــاء الجواب من محمد على باشا بعدم قبول اقامة الامير فى القطر المصرى ٠

وكان سبب رفض محمد على من السماح للامير بالاقامة فى مصر هو ايعاز من فرنسا لانها كانت تخاف أن وجود الامير بمصر يسبب لها مشاكل ٠

ان فرنسا كانت تعلم بالصلة المتينة التى كانت تربط الجزائر بالمشرق العربى وان هذه الصلات كانت قوية قبل الفتح العربى وقد توطدت هذه العلاقات بعد الفتح العربى وفى وقت الفاطميين بالذات ٠

وقد زادت هذه العلاقات توطدا يوم قرر المسلمون القضاء على الصليبيين ولقد جاء وقتئذ من الجزائر بالذات عدد لايستهان به من الجنود المنظمة وشاركوا مشاركة فعالة فى قصم ظهور الصليبيين واقصائهم من ثالث الحرمين ٠

والتاريخ يقول لنا : ان فرنسا قبل أن تغزو الجزائر عرضت على محمد على باشا أن يقوم باسم مصر بغزو الجزائر ، وبطبيعة الحال حينما يغزوها محمد على تصبح تحت تصرفه ثم بطول الامر تصبح الجزائر ومصر مستعمرة فرنسية ٠

ولقد كانت فرنسا باشارتها على محمد على ليحتل الجزائر تهدف الى شيئين :

الاول : أن تبين فرنسا للرأى العام العالمى أن العرب الذين كانوا بالامس القريب يكونون وحدة ويخضعون لرئيس واحد فى الشرق العربى وغربه ، وتجمعهم كلمة الاسلام أصبحت كلمتهم الآن متفرقة ولا يهمهم ان اعتدى احدهم على الآخر ٠

الثانى : باتخاذ فرنسا اجراءات كهذه كانت تشير على المسيحيين بأن يتحدوا ، ولا يظلم أحدهم الآخر لكى لا يقعوا فى الهفوات التى وقع فيه المسلمون وصاروا يغزون بعضهم بعضا ٠

وعلى كل فان (محمد على) كان لا يهمه جمع كلمة العرب لان سياسته كانت تهدف الى اهانتهم كما لا يهمه توحيد المسلمين ، واعلاء كلمة الاسلام حيث انه كجميع أسرته كانوا يتاجرون باسم الدين ٠

وخلاصة القول ان سبب عدم موافقته فرنسا على غزو الجزائر كان يرجع الى شىء واحد ، هو المحافظة على مركزه فى مصر العربية الى حين ٠

ان الملك الذى عرض على (محمد على) هذه المجازفة قد أطاح به حزب الجمهور طالبا ازالة الملكية وابدالها بالجمهورية واضطرمت نار الفتنة فى سائر بلاد فرنسا ، ولما رأى نابليون الثالث تفاقم الامر خرج من باريس مختفيا ولحق بلندن عاصمة الانجليز وانتصر حزب الجمهوريين ونشرت الجمهورية رايتها فى سائر مدن فرنسا وأمصارها ، وحدث للامير من سوء معاملة الحكومة ما اثار حزنه وهيج كربه لانهم نظروا فى أمر الامير فخافوا أن ينصب لهم حزب الملكيين مكيدة به فيحملونه الى الجزائر ، وبذلك يمسون

فى ارتباك عظيم من أمرهم فبينما الامير ورفقاؤه ينتظرون ما يراد بهم ، اذ جاء المولكلون بهم وحملوهم من البرج الى قلعة طولون والجنود تحيط بهم واظهروا لهم غاية الوحشية وسوء المعاملة والامير يظهر التجلد ، ثم دخل عليه الكولونيل دوماس وأخذ يسليه ويلاطفه ويخفف عنه فقال له : نحن لا نحتاج الى هذا . وانظر الى سلطانكم فانه كان ذا قوة وسطوة كم أمر ونهى وعزل وولى وأقام وأقعد وعاقد وعاهد وها هو ذا الآن قد سقط عن عرشه ، ونحن ما بذلنا أنفسنا وأموالنا طلبا للدنيا ولكن من أجل الدين والوطن .

وبعد أخذ ورد قرر ان يكتب لمجلس النواب « الحمد لله الواحد الاحد الذى لا يزول ملكه مدى الابد الى أركان المشيخة المستولين على زمام الحكم فى فرنسا أما بعد : فقد حضر عندى رسولكم الكولونيل أوليفيان واخبرنى بان الفرنسيين اتفقت كلمتهم على ابطال الملكية وتعويضها بحكومة جمهورية شورية فسرنى هذا الخبر .

وبناء على ذلك أرجو أن تكشفوا عنى ما أنا فيه من البلاء ، فانكم بنيتم أمركم على دعائم العدل والانصاف والوفاء بالعهد والصدق فى الوعد وان انكرتم على ما جرى بينى وبينكم من الحروب التى اتصلت عدة سنين فما أظن أن أحدا ممن على وجه الارض من البشر ينكر على أو يذمنى به لاننى رجل أوجب على دينى أن أدافع عنه وعن أرض أهله المتمسكين بعروته الوثقى فقمت بذلك وبذلت وسعى فيه ما استطعت ، ولما ظهر لى انتهاء مهامى بهذه العبادة التى حزت بها ولله الحمد شرف الدنيا والآخرة ، وتلاشت الهمم وتقاعست العزائم ونفد ما كان عندى من المواد والاسباب التى كان بها القيام سلمت وقلت : ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده فهو أقامنى حيث شاء وأقعدنى حيث شاء . ثم انى طلبت من رئيس جيوشكم التى كانت تترصدنى وتتوقع وقوعى النائب عنكم فى الجهة الغربية الجنرال لاموريسيار عهدا وميثاقا على أنى ان سلمت فى أمرى الذى كنت قائما به يحملنى بالنيابة عنكم أنا ومن معى الى الاسكندرية أو الى عكا فاجاب الى ذلك وقبله وأعطانى العهد والميثاق على ذلك وحرره وامضاه بخطه وختمه كما أنى اعطيته عهدا وميثاقا على الا أرجع الى الجزائر ولا أتعرض للفرنسيين فى شيء بأى وجه .

وبعد الوثوق منه ومنى جئت بأهلى وأولادى ومن اتبعنى من خاصتى الى مرسى الغزوات ، واجتمعت بالجنرال لاموريسيار حاكم الجزائر والدوق دومال ابن الملك والجنرال كافينياك ثم حملونا فى الباخرة الحربية من مرسى الغزوات على أن يمروا بطولون لحمل لوازم الباخرة ، ثم يجدون السير بنا الى المشرق ، فلما وصلنا الى طولون

أنزلونا الى البلد وتصرفوا فينا بما شاءوا وكيف شاءوا وها نحن أولاء على ذلك ننتظر الفرج من الله تعالى فلعله يجريه على يدكم فتحوزوا به الفخر العظيم والذكر الجميل في العالم باسره اذ ان الوفاء بالعهود وانجاز الوعود من خصال أهل الكمال ونعوت ذوى الفضل والافضال ، وان أمرتم بأني اقسم لكم بالقرآن العظيم انى لا أنقض عهدا ولا اخلف لكم وعدا ولا اتعرض لكم فى شيء فلا يثقـــل عـــلى ذلك ، بل اقسم لكم بما تريدون فيما تريدون •

كتب هذا عبد القادر بن محيى الدين فى أول من ربيع الاول سنة اربع وستـين والفـين عـن الهجـرة •

فاخذ اوليفيان هذا المكتوب ورجع الى باريس وبقى الامير ينتظر الجواب بما يسره فاذا بخطابه قد احدث فى الجمهوريين زوبعة وكان جوابهم أن الجمهورية لا ترى نفسهـا مرتبطة بعهد مع الامير عبد القادر بل ترى أنه أخذ اسيرا نتركه كما تركته الحكومـة السالفة ، فاشتد كرب الامير لذلك وأخذ الكولونيل دوماس يلاطفه فى الكلام ويؤنس وحشته ، فاجابه الامير اذا طال الامر على هـذه الحـال يموت أكثرنا حزنا بلا ريب وأكون أنا السبب الوحيد فى ذلك اذ لم يستحسن المجيء للفرنسيين غيرى والذى غرني وأوقعني في يدهم دعواهم أنهـم قـوم لا ينقضون العهـد ولا يخلفون الوعـد فاذا هم لا عهد لهم ولا ميثاق بل عهدهم مكيدة وخديعة ، ولو علمت أن فى فـرنسا محكمة شرعية أو سياسية تسمع دعوى المظلوم وتنصفه من خصمه لرفعت قضيتى لها فعساها أن تأخذ بيدى فلم يكن من الكولونيل الا اظهار الاسف والتوجع •

وفي اثناء هذه المحنة تذكر الامير أخوته ، ولم يطمئن عليهم من بطش المغاربـة خوفا من أن ينتقموا منهم لان الامـير لم يرض أن يسلمهم نفسـه واختار أن يسلمها للفرنسيين وأنه لا حيلة لهم للذود عن أنفسهم •

وكان اخوا الامـير معه فى الدائرة وهما السيد مصطـفى والسيد حسين ، ولمـا اقبلت الجيـوش المراكشيـة زاحفـة اليـه استـولى عليهمـا الخـوف فانفصلا عن الامـير ، ولكن الجنـرال لاموريسيـار انتشلـهمـا من ايـد الجنـود

المغاربة وأبقاهما تحت ضمانه لينقلهما الى تاكمدت قرب وهران ووعدهما بأن يحملهما الى المشرق فارتحلا من الدائرة ولحقا بأرض الفرنسيين ، وبعد أن اجتمعا بالجنرال نقلهما الى تاكمدت قرب وهران وأما أخوهم الاكبر السيد محمد سعيد فانه لم يفارق الامير الا فى ليلة ليلاء وكان معه ابنتا الامير وهما زوجتان لولديه فشدة هول تلك الليلة حالت بينهم وبين اجتماعهم ، وبقى السيد محمد سعيد فى قرية ابن ميرة من قرى مسيردة ثم نقل الى تلمسان والحق بأخويه فى تسالمت ثم أمر الحاكم العام أن يجمعهم بأخيهم وفى الحال يحملون الى الجزائر ومنها الى طولون ٠

ولما اتصل خبرهم بالامير ازداد كربه وغمه وبعد وصولهم وصل بعض أعيان فرنسا الى طولون واجتمعوا بالامير وكان الكولونيل دوماس حاضرا فتكلم الامير معهما فى شأن اخوته وقال :

ان حضور اخواتى الى هنا ليكونوا أسرى معى قد زادنى غما لانهم لم يحاربوا جيوش فرنسا ولا شاركونى فى الوقائع فلا يستوجبوا هذا ولا داعى للحكومة أن تبقيهم هنا وربما ان تدخلتم فى الموضوع فان الحكومة تترك سبيلهم من الاسر فلا سبيل للكلام فى شأنهم مع الحكومة فافعلوا خيرا لتحملهم الى الاسكندرية فوعدوه بذلك وفى الوقت الذى كانت تحدثه بان وضعه ووضع جميع من معه لا يستحسن واذا جاء الامير بعزل من بمعية الامير واخوته وخليفته السيد مصطفى بن أحمد التهامى والسيد قدور بن علال وبعض الاتباع وان المبعدين الى سانت ما كريت وهو موضع اقامة الاسرى وجاء الموكلون بتنفيذ هذا الامر بشرذمة من العساكر الى القلعة وعزلوا نحو مائة وخمسين رجلا ثم ساقوهم الى الباخرة المعدة لحملهم ، فعظم الكرب لهذا الامر الفظيع الذى اتخذته الحكومة٠

قال بعض مؤرخيهم ان الباعث على ذلك هو أن وزراء الحكومة لما اتفقت كلمتهم على نقل الامير من قلعة طولون الى بو وهى مدينة شهيرة وفى وسطها سراية عظيمة لاحد ملوكهم فى تخوم فرنسا مما يلى بلاد الاسبان خامرهم الشك بان الامير ربما يخرج من السراية بالقوة لكثرة رجاله ويلحق ببلاد اسبانيا فقصدوا بما فعلوه اضعاف قوته وقلة عدده ومن العجيب أنهم يخافونه حتى فى بلادهم بالرغم مما لهم من القوة ٠

ولا عجب من هذا الاجراء لان الفرنسيين استولى عليهم الرعب وخافوا من الامير وساورهم الشك بانه يرجع للجزائر للانتقام منهم لانهم ان وعدوا لم يفوا وان اقتدروا لم يرحموا ·

وقد كانت فرنسا تخاف فرار الامير عن طريق اسبانيا كما كانت تخاف أن يفر من مصر أن سمحت له بالاقامة بها ولا نراها تتوانى فى اتخاذ جميع الاجراءات حتى لا تفاجىء بخروجه من قبضتها ·

ولهذا كانت لاتفتأ فى تغيير المناهج حتى لا يتمكن الامير من ان يخرج من فرنسا حيث انها نكثت العهد فنقل من بقى معه الى سارية بو يوم العاشر من شهر أبريل 1848 ·

وكانت فرنسا غير مطمئنة للكولونيل دوماس المرافق للامير فاستبدلته بخليفته القبطان بواسونى ·

وبقى الامير ستة أشهر فى هذا القصر ينتظر الفرج من الله حيث أن فرنسا كانت تستعمل كل طرق الخديعة للتنصل من تعهداتها واذا بالمخابرات الفرنسية تحيط وزارة الدفاع علما بأنه بريطانيا تعمل ما فى وسعها من أجل ان تسمح للامير عبد القادر بان يتوجه الى بلادها كلاجىء سياسى ، لانه سبق له فى سنة 1847 أن طلب منها التحالف لكى يزحزح فرنسا من الجزائر ·

وقد أفادت المخابرات الحربية الفرنسية وزارة الدفاع بان هناك صلات بين الامير وبريطانيا وأنهم كثيرا ما رأوا اشارات منه ومنهم من جهة المنافذ ، ولهذا ضيقوا على الامير وزادوا من عدد الحراس لانهم كثيرا ما كانوا يرون الانوار فى مكتب الامير فيظنون أنه فى انتظار اشارة من الانجليز وعندما يستأذنون فى الدخول على الامير يجدونه يرتل القرآن ترتيلا ·

وبالرغم من هذا كله لم يستقر لها قرار حتى نقلوه الى سنارية امبواز التابعة لمقاطعة أورليان وبقى بها اربع سنوات ولم يخرج منها الا بعد أن أفرج عنه ·

وقد مر الامير ببوردو حينما توجه الى امبواز هنالك استقبله اسقفها (دوبيش) الذى سبق له أن طلب مقابلة الامير بالجزائر وحيث ان ذلك تعذر لعدم وجود الامير بدار الامارة فقابل خليفته « محمد علال » واكرم مثواه ·

وقال الاسقف دو بيش : « مولاى ، ان لم تسمح لى الظروف بان أتشرف بك فى الجزائر لاسباب قاهرة فانى الآن اعد نفسى من اسعد السعداء حيث تلاقيت معك فى بلادى ، واعلم أنى لا انسى جميلك وجميل خليفتك ، وانى لن ادخر وسعا من أجل رد الجميل ، وعدنى من الآن فصاعدا صديقك » ، لما وصل الامير وحاشيته الى امبواز تنفس الضابط المرافق للامير الصعداء وقال : « الآن قد استرحت وزالت مخاوفى لانه لا تخلو عائلة من فرنسا الا ولها ثار عليك ولذلك كلما وصلنا الى بلد تحيط بك الجنود خوفا من الذين يريدون أن ينتقموا منك للاخذ بثار أقاربهم الذين لقوا حتفهم بالجزائر بسبب حروبك ٠

ولو كان رجل آخر غير الاميرلانهار، غير ان الامير لم يتاثر من هذه المعاملات غير اللائقة، بل كان يردد سبحانك ربى انى راض بكل ما لحق بى ما دمت راضيا أنت عنى، وقد سئل المؤرخ الانجليزى شرشل عندما قامت فرنسا بهذه التنقلات ما كان موقف الامير من أعمال فرنسا ؟ فاجاب : « ان الامير بقى ذا همة عالية لم تؤثر فيه شدة المشاق التى أحاطت به من كل ناحية ، ولو ألمت بغيره لاذلته اذلالا أو فقدته الصبر والتجلد ثم قال : وكان الناس يتقاطرون عليه من جميع انحاء فرنسا وغيرها لمشاهدة حالته فى أسره فكانوا يعجبون من سمو همته ، وبعده عن اظهار الضجر وتسليمه لتصاريف القضاء والقدر ولا شك أن من كان مثله فى قوة الايمان لا يبالى الشدائد مرددا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » ٠

ومن الملاحظ ان هذا المؤرخ لم تؤثر فيه النعرة الصليبية وقد سرد أحداث الجزائر فى عهد عبد القادر من دون تحيز ، ولهذا فكل من يهتم بتاريخ الجزائر فى عهد الامير يجد فى كتاب شرشل كل صدق ٠

ولم يكن شرشل وحده الذى كان يحترم الامير بل كان هناك ضباط وقواد فرنسيون اعترفوا بما للامير من شأن ورفعة وكانوا كثيرا ما يزورونه ويخرجون من عنده وهم فرحون لانه كان قوى الجأش سريع الابتسامة حتى قال أحد هؤلاء الضباط ما أكرم هذا الرجل ٠

وبما أن السياسة الفرنسية كانت فى تطور، فان الجنرال دوماس الذى كان مرافقا للامير وأبعد من منصبه هذا لعدم ثقة الحكومة به قد ارتقى الى رتبة جنرال وكتب له الاسقف

دوبيشه يهنئه بهذه الوظيفة وطلب منه أن يسمح له بزيارة الامير للمرة الثانية حيث انه أعجب به فاجابه :

«انك أيها الاسقف المحترم ذاهب لترى الامير الاسير وحقا ان سفرك هذا لا يذهب عبثا ولا يخفى أنك قد عرفت الامير عبد القادر حينما كان السعد يخدمه والعــز رفيقــه وكانت بلاد الجزائر كلها تعترف بسيادته وسطوته وستجده الآن من حيث عزة النفس وقوة الجاش أعظم وأكثر مما كان فى زمان اقباله ، وستجده أيضا لينا باشا في وجه من يزوره حازما صابرا لا يظهر الضجر ، عاذرا لاعدائه متغافلا عن اساءتهم ·

وبالجملة ستزداد علما ومعرفة به فوق ما امتازت به حياته » ·

وكان هذا الاسقف يكاتب الامير ويظهر له التودد وكان الامير كثيرا ما يستشيره فى أمور سياسية فيجيبه بما يطابق الواقع من غـير حيف ولا مكـر وقد كتب الامـير اليه ما نصه :

« من عبد القادر بن محيى الدين الى محبه الاسقف دوبيش : منذ ثلاث سنـــين كنت أحارب الفرنسيين وليس لى ان أرى نهاية حميدة لى فى هذه الحرب مع أنى كنت معتقدا انى لم أقم إلا بالواجب الدينى وحفظ بلادى وأخشى أن اتلقى شبه الملامة من قومى الذين وثقوا بى وحلفوا الا يتركونى ، وفى هذه المدة عرض الفرنسيون على مقدمات وقبل ذلك كتب لى خليفتى السيد أحمد بن سالم عند سفره الى بلاد المشرق على باخرة فرنسية بعد تسليمه الاجبارى وأكد لى أنه كتب لى من قبل الحاكم العام ،وابلغه انه اذا كره السفر على باخرة مسيحية يستاجرون سفينة أخرى وأن الخليفة أحمد بن سالم الذى دافع باخلاصى ما تجرأ على مكاتبتى للسفر على باخرة اسلامية ونفقتها على حساب فرنسا على انه كان هذا الموضوع من لجوئى الى فرنسا وذلك لعلمه بان وضعى أصبح فى حالة لا تحتمل وذكر لى بانه يشق فى فرنسا وانها تفى بما وعدتنى بهمقابل تركى الكـــفاح وكنتأتمادىفىالكفاحومقارعة فرنسا بكل ما لدىمن قوة وحلفت ان أدافع عن دينىوأحافظ علىبلادىالىحد تضعف دونه قوتىوأظن أنىلم أعمل القدر الكافى،ومع ذلك فوجئت بمقارعة المغرب لى بالدائرة أواخر سنة 1847 وتزعزع موقفى وهذا ما جعل حاكم مراكش يتحين الفرص للكيد لى لما يكن لى من حقد وضغينة وان يسعى ليستهوينى ويحاربنى بما لديه من قبائل الريف المتوحشين أكثر من الفرنسيين وان حاكم مراكش للاطاحة بى أتى بقوى تزداد يوما فيوما ومع هذا كله لم يخطر فى فكرى أن أعقد الصلح

مع الفرنسيين لكنى لما رأيت معسكر الدائرة على خطر عظيم من الجنرال أوست قررت ما يلزم أن أعمل محافظا عليهم من التعب على أنى كنت قادرا على التخلص برغم ذلك بهمة من كان حولى من الفرسان الصناديد الاشداء على الاعداء والامناء على الوفاء وان أضايق الفرنسيين مدة طويلة آويا الى قبائل الصحراء التى لا تبخل على بالقليل من الشعير والحليب وكان فى استطاعتى أن أقصد الى الاراضى المقدسة لكنى تركت ذلك حبا لراحة أهلى والجرحى وضعفاء أصحابى وكتبت الى الجنرال لاموريسيار بان الحكومة الفرنسية اذا كانت باقية على نياتهافيما طالما حدثتنى به وأنها تأذن لى اذا تركت السلاح بالذهاب الى الشرق الذى هو مطمحى » ٠

أيها الصديق الحميم انت على بينة من الاحداث التى مرت بى والادوار التى قام بها الحكام الفرنسيون ، وانى لا أخاف على نفسى بقدر ما أخاف على سمعة فرنسا التى انتم عضو منها ، وانها لطخت عرضها وفندت جميع ما تدعيه من انصاف وعدل ، وان التاريخ سيسجل عنها هذا الانحراف ٠ وختاما افوض امرى لله راجيا منكم ان تعملوا ما فى وسعكم من أجل احقاق الحق وابطال الباطل ، والسلام ٠

وقد اطلع لاموريسيار على ما كان يدور بين الامير ودوبيش من خطابات بحيث أصبح وضعه وضعا لا يحمد عليه ، كما أصبح خائفا من هجوم الامير ٠

خوف لاموريسيار من الامير حتى في فرنسا

لقد تقلد الجنرال لاموريسيار وزارة الحرب واتصل به الامير وهو في « بـو » ظنا منه انه يوفي بعهده ، فكتب اليه يهنئه ويذكره بالاتفاق الذي ابرم بينهما ومن بين ما كتبه :

«ان كثيرا ممن لا المام لهم ولا علم بما وقع بيني وبينكم يعتقدون أنك غلبتني في الحرب وأجبرتني على التسليم والقاء السلاح ، فينبغي لكم أن توضحوا لهم القضية ، وتوقفهم على ما جهلوه من امرنا ، وبذلك ستجدونهم من يسعفك ويأخذ بيدك في الوفاء بعهدك الذي هو في الحقيقة عهد دولة فرنسا ، بل الشعب كله لانك كنـت وقتئذ رئيس جيوشهم ونائب ملكهم في كل ما تجريه ، وبالجملة فان وفيتم فانكم تنالون فخـرا كبيرا بين الامم والدول ، وان نقضتم واخلفتم فلا شك أنكم ترتكبون في ذلك أمرا شنيعا » .

حرر في السابع والعشرين من يونيو سنة تسع واربعين وثمانمائة والف .

وقد عد وزير الحرب أن هذه الرسالة تمس كرامته ، فقرر أن يبعد الامير عن جميع الناس ، وأمر أصحاب السلطة هنالك الا يكون للامير ولا لاحد من رفاقه علاقة مع أحد من الخارج لا لسانية ولا قلمية ، والا يجتمع الامير بأحد من الزوار وان طلب أحدهـم مواجهته فلا تأذنوا له بدون رخصة من وزارة الحرب .

ان هذه الافعال والاقوال منافية للشرف وللانسانية من طرف قائد كـاد ينتحر لان الامير أعطاه دروسا كافية ولكن لا عجب لان الفرنسي لا ذمة ولا مروءة له ولو كان جنرالا .

ان هذا الجنرال وجه اليه اللوم والتنكيت فى مجلس النواب ، بسبب قبوله تسليم الامير ، وخطاه المجلس على ختم الشروط معللين بانه كان بالإمكان جعله أسير حرب فقال الجنرال : «ان كان هذا اللوم الشديد قد وجه الى بجنوحى الى السلم فى موضع يجب فيه الحرب بزعمكم وانا أتحقق لو أنى ركبت الخطر بالزحف على عبد القادر ما رجعت الابخيمته وسجادته وانه ليذهب الى الصحراء بحيث لا يمكننى أن أصل اليه وهذا أكبر عندى من أن يقع فى يدى لان عبد القادر ذو قوة وصلابة فى دينه مشتهر بالصدق والامانة فى وطنه شديد التمسك بمبادئه ، وهذا الامر الوحيد والسبب الاعظم الداعى لاجتماع القلوب عليه وان مبدأه الفريد هو الذى شهره فى جميع الجهات ، ولا شك أن الظفر الذى حصل للرجل الذى حاربناه فى وقائعه هو ثمرة ما قررناه ومن كان هذا شأنه وسيرته فلابد أن يحدث لنا خطرا عظيما ان ترك فى بلاده ، واظن انى ما سلكت الا جادة الصواب مع هذا فارجعوه الى محله مع القوة التى كانت معه فقط ، وامسكوه عنوة ، وأنا والحاكم العام ما قبلنا تسليمه على شروطه الا أننا اخترنا راحة فرنسا وعساكرها التى اضناها التعب وكثرة النفقات من غير طائل تحصل عليه من جهة الامير فسكتوا وانفض المجلس» .

ثم أقام الامير بامبواز وهو مستمسك بعرى الصبر متجلد لنوائب الدهر قائم بواجب العبادة وكان مطران أمبواز عند الاجتماع للوعظ فى الكنيسة يقول لهم : «الا تنظرون الى الامير عبد القادر وجماعته فى بلدتكم متمسكين بدينهم مواظبين على صلواتهم ، الا تسمعون نداء المؤذن قره محمد فى كل أوقات صلواتهم ليلا ونهارا لان السراية كانت عالية على البلد وقره محمد كان جهير الصوت ، فكان آذانه يسمع من بعيد» .

وداوم الامير فى تلك المدة على تدريس العلم وافادة الطلبة من جماعته فقرأ الصغرى للسنوسى فى علم الكلام ورسالة الامام محمد بن أبى زيد القيروانى فى الفقه على مذهب الامام مالك وغيرهما من المصنفات المفيدة .

ان الكوارث مهما بلغت وان الاحداث مهما انتشرت لم تضعف قوة الامير الجبارة وهذا ما جعل المجمع العلمى بباريس يعترف له بالعلم كما أن الاساقفة قالوا له : «انك تصلح لان تكون مبشرا للدين الاسلامى ، لانك علاوة على ما أحرزته من تفوق فى دينك لك دراية كبيرة بالديانات الاخرى» .

وزاره ذات يوم بعض الافاضل مـن كتاب فرنسا ، وكانوا مختلفين فى الافضلية بين البدو والحضر ، وطلبوا منه ان يدلى برأيه وانهم يرضون بان يكون بينهم الحكم فبعد مناقشة طويلة واخذ ورد صرح بان سكنى البدو افضل من سكنى الحضر ، واعطى كلا منهم نسخة من قصيدة كان الفها ، واعترف فيها بفضـــل البدو عـــلى الحضر ، ولقيمتها الادبية رأيت لزاما أن أذكرها هنا :

يا عاذرا لامرئ قدا هام فى الحضر — وعاذلا لمحب البـدو والقفـــر
لاتذممـن بيــوتـا خـف محملها — وتمدحـن بيــوت الطـين والحجـر
لو كنت تعلـم ما فى البدو تعذرنى — لكن جهلت وكم فى الجهل من ضرر
او كنت أصبحت فى الصحراء مرتقيا — بساط رمـــل بـه الحصباء كالدرر
أو جلت فى روضة قد راق منظرها — بكل لون جميل شائـق عطـــر
تستنشق نسيـــما طـاب منتشقا — يزيد فى الروح لم يمرر على قذر
أو كنت فى صبح ليل هاج هاتنه — علوت فى مرقب أو جلت بالنظر
رأيت فى كل وجه مـن بسائطهـا — سربا من الوحش يرعى أطيب شجر
فيا لها وقفـة لم تبق مـن حـزن — فى قلب مضنى ولا ضنكا لذى ضجر
نباكر الصيـــد أحيانا فنبغتـــه — فالصيد منا مدى الاوقات فى ذعر
فكم ظلمنا ظليما مــــع نعامتـــه — وان يكن طائرا فى الجـو كالصقر
يوم الشهيل اذا شرت هوادجـنـا — شقائـــق عمها مـزن من المطـــر
فيها العذارى وفيهـا قد جعلن كوى — مرقعات باحـــداق مـــن الضرر
تمشى الحـداة لها من خلفها زجل — أشهى من الناى والسبطر والوتر
ونحن فوق جياد الخيـــل نركضها — شليلهـا زينـــة الاكفـــال والحضر
نطارد الوحش والغزلان نلحقهـــا — على البعـــاد وما تنجو مـن الضرر
نروح للحى ليـــلا بعد ما نزلـوا — منازلا ما بها لطخ مـــن الوضـــر
ترابهـا المسك بل أنقى وجاد بها — صوب الغمائم بالآصـــال والبكـر
نلقى الخيام وقد صفت بها فغـدت — مثل السماء زهت بالانجـــم الزهر

قال الاولى قد مضوا قولا يصدقه | نقل وعقل وما للحــق مــن غــير
الحسن يظهر فى بيــتى رونقــه | بيت من الشعر أو بيت من الشعر
انعامنا ان أتت عـلى العشى نخـل | أصواتها لـدوى الرعـد بالسحـر
سفائن البـر بـل أنجـى لركابها | سفائن البحر كم فيهم من الخطـر
لنا المهارى وما للريـم سرعتهـم | بها وبالخيل نلنا كـل مفتخـر
فخيلنا دائما للحــرب مسرجــة | من استغاث بـنا بشره بالظفــر
نحن الملوك لا تعــدل بنا أحــدا | وأى عيش لمن قــد بات فى خفر
لا تحمـل الضيم عمن جار نتركه | وأرضه وجميـع العز فى السفـر
فان أساء علينـا الجــار عشرتـه | نبــين عنــه بـلا ضر ولا ضرر
ثبيب نــار القـرى تبدو لطارقنا | فيها المداواة من جـوع ومن خصر
عــدونا مـــا لــه واق ولا وزر | وعندنا عاديات السبــق والظفــر
شرابها مـن حليـب ما يخالطهـا | ماء وليس حليب النوق كالبقــر
أموال أعــدائنا فى كل آونـــة | نقضى بقسمتها بالعـدل والقــدر
ما فى العداوة من عيب تذم بـه | الا المــروءة والاحســان بالبــذر
وصحة الجسم فيهـا غـير خافيــة | والعيب والـداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى | فنحن أطول خلـق الله فى العمر

فلما سمعوا فحوى القصيدة آتوا بمستشرق درس اللغة العربية دراسة وافية فاستحسنها وشكــره على بلاغته واعترف المستشرق كما اعترف الآخرون بانهم راضون بحكمه ، ولهذا فانهم جميعا أصبحوا من الذين يودون حياة البدو .

ان الخطاب الذى بعثه الامير للاسقف دوبيش كان لـه اثره ، بحيث ان الاسقف أصبح من الذين يطلبون بالحاح من الحكومة أن تفى بوعدها وهذا ما دعا حكومة الجزائر المركزية أن توسل الى حكام الجزائر ليكلفوا من فيه الكفاية أن يلحق بالامير فيؤنس وحشته ، واشترطت الحكومة المركزية على أن الشخصية الجزائرية التى ستكون بمعية الامير يجب أن تتوفر فيها جميع الشروط من علم ومروءة وقرر حكام الجزائر أن ينتدبوا الشيخ محمد الشاذلى القسنطينى ، للقيام بهذه المهمة ولما طلبوا منه أن يرضى بما أسند

اليه لم يتأخر وجيء به من الجزائر ونزل ضيفا على الامير ، فأكرم وفادته لعلمه العزيز وظهر للامير أنهذاالمبادرة خير ، وبعث الى الملك نابليون الثالث رسالة جاء فيهـــا بعـد الديباجة : « ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده فهو أقامني وأقعدني حيث شاء . ثم انى طلبت من رئيس جيوش فرنسا التى كانت تترصدنى وتتوقع وقوعى ، وهو النائب عنها فى الجهة الغربية الجنرال لاموريسيار عهدا وميثاقا على أنى ان أسلمت فى أمرى الذى كنت قائما به ، فانه بالنيابة عنها يحملنى أنا ومن معى الى الاسكندرية أو الى عكـا فوافق على ذلك وقبله ، وأعطانى العهد والميثاق ، وحـرره ووقعه بخطـه وختمه كما اننى اعطيته عهدا وميثاقا على ألا أرجع الى الجزائر ولا أتعرض للفرنسيين بـأى وجـــه .

وبعد الوثوق منه ومنى جئت باهلى وأولادى ومن اتبعنى من خاصتى الى مرسى الغزوات على أن يمروا بطولون لحمل ما يلزم الباخرة من وقود ثم يجدوا فى السير الى المشرق فلما وصلنا طولون أنزلونا الى البلد وتصرفوا فينا بما شاءوا وكيف شاءوا وها نحن أولاء على ذلك » .

وفى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1848 انعقد مجلس خصوصى للنظر فى أمر الامير وكان رئيس هذا المجلس نابليون الثالث رئيس الجمهورية والماريشال بيجو وشانكرنى من أعضاء المجلس فتكلموا فى قضية الامير ، واختلفت الآراء وأظهر نابليون الثالث ميله الى صحة العهد ووجوب الوفاء به فايده الماريشال بيجو مع جماعة الاعيان وخالفه الباقون ، وكانوا أكثر عدد فلم يسع الرئيس الا السكوت ثم استحسن بعضهم أن تكتب الحكومة الى الامير فى تغيير شروطه التى اشترطها عـــلى الجنـــرال لاموريسيار وقبلها ثم أيدها حاكم الجزائر الـــدوق دومال ووافق عليها والـــده فاستحسنوا ذلك وأمروا الماريشال بيجو أن يتولى هذا الامر فكتب ما ملخصه :

الى الامير عبد القادر :

« كان مرادى التوجه الى حضرتك لافاوضك فى أمرك الذى أنت فيه ولكن منعنى اضطراب الاحوال وحيث أن الكتاب يقوم مقام كاتبه فيما يرومه فانى أقول انك قاسيت أهوالا عظيمة وبسببك احتملت بلاد الجزائر مصائب جمة ولحق فرنســـا أوفر نصيب ومن حين ألقيت بنفسك وبمن معك الى الجنود الفرنسيين وصرتم فى قبضتهم ، حدث فى فرنسا اضطراب لم يحدث فى التاريخ مثله ، فلا شك أن بلادك وبلادنا استحقتا

هذا القصاص الذى لا مفر منه ، لان الله حكم عدل ولا أحد يدرك ما يريد ، فالملك الذى سقط فى الايام الماضية كان وعدنى وعدا وثيقا باطلاق سراحك وارسالك الى مكة ثم جاءت الحكومة التى خلفته فنظرت فى أمرك وجنحت الى ما جنح اليه الملك ، ولكن اجبرها صوت الجماهير على ترك ذلك ، والآن أخبرك اخبار صديق حقيقى لك انه ربما تمضى سنون عدة ولا يتيسر لك التوجه الى الاماكن التى طلبتها ، وان منيت نفسك بالامانى الباطلة فان تلك تصيرك فى أشد الكدر ، وبناء على ذلك أشير عليك أن تكون على حسب الحال التى أبرزتها حوادث الدهر على وفق الارادة الالهية وذلك بان توطن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك فتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جيدة فى أرضها ينتج لك منها ما تعيش به كواحد من كبرائها مع مداومتك على أداء وظائفك الدينية كما تريد وبلوغ مرادك وتربية أولادك حيث انى اعلم ان أمر المعاش لا يهمك وانما يهمك مستقبل أولادك مع حقوق الجماعة الذين هم معك ، وانك تراهم يموتون كمدا ، مع أنهم لو كانوا فى أرض تحضنهم لكانت أيامهم تمضى بكل سرور ، لان حرائة الارض الذ شىء عندهم ، ويكون لهم من رؤية اشغالهم كل يوم فرح جديد •

هذا ما اشير به بحسب حقوق الانسانية وخاصة لك لما ألم بك من المصائب مع اتصافك بالصفات الحسنة التى وهبها الله لك راجيا قبول تحياتى مع الاكرام والاحترام » •

فاجابه الامير بقوله :

« لو جمعت فرنسا سائر اموالها ثم خيرتنى بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حرا فقيرا معدما لاخترت أن أكون حرا فقيرا ، فلا تراجعونى بمثل ذلك الخطاب فانه ليس عندى بعد هذا الخطاب جواب والى الله ترجع الامور وبيده كشف هذا الديجور »•

ولقد نشرت الاوساط الرسمية هذا الجواب وعدوه كرد فعل للخطاب الذى بعث به بيجو للامير مع علم بيجو بمكانة هذا الرجل وقدرته وحتى قال أحدهم : « ما كنت أتصور أن بيجو الذى درس فى مدرسة الامير وتعلم عنه أشياء كثيرة يذهب به الطيش الى مخاطبة الامير بهذا الاسلوب » •

اما المؤرخون فقد استاءوا بدورهم وقال أحدهم : « ومن العجيب أمر هذا الامير العظيم أن هذا الخطاب المرعب الذى يحمل فى طيه اليأس والقنوط لم يؤثر فيه بتاتا »•

وعلى كل فقد عد الامير هذا الكتاب كتهديد من بيجو الذى ما زال يحلم بالاطاحة بالامير وقد راى من الحكمة الا يكاتبه مرة أخرى ، وصرف همته للعلم ومطالعة فنونه وافادة الطلبة والمواظبة على الصلوات المفروضة والاهتمام بالتاليف والدفاع عن الدين الاسلامى فى فرنسا •

دفاع الامير عن الاسلام
بمقر منفاه في فرنسا

ولقد تمكن فى اثناء سجنه فى امبواز أن يؤلف رسالة سماها « المقراض الحاد لقطع الطاعن فى دين الاسلام من أهل الباطل والالحاد » .

وسبب تاليف هذه الرسالة ان أحد القساوسة قال : « ان الغدر وعدم الوفاء بـه غير قبيح وغير منهى عنه وحاجه الامير فلم يقتنع وبعث اليه بنسخة من هذه الرسالة التى جاء فيها :

« ان الشريعة الاسلامية قد حذرت كل التحذير من يخلف الوعد أو يغدر بالناس أو لا يكون متصفا بمكارم الاخلاق » الى أن قال : « فماذا يقول القائل فى شرع الاسلام الذى جرت احكامه كلها على ما يستحسنه كل عاقل ويوافق عليه كل فاضل كامل ، فليس فيه نقص كالغدر والكذب والخيانة والخديعة فان هذا من المحال » ، قال الله تعالى : « **يا يها الذين آمنوا اوفوا بالعقود** » ، والعقود هى العهود الموثقة فهذا أمر منه تعالى لعباده بالوفاء فيما يعقدون . « قال البيضاوى » البر كل فعل مرض والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية باسرها ودالـة عليها تصريحا أو ضمنا بكثرتها وتشعبها منحصرة فى ثلاثة اشياء صحة الاعتقاد حسن المعاشرة وتهذيب النفس ، ولذلك وصف المجتمع لها بالصدق نظرا لايمانه واعتقاده وبالتقوى لمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق تعالى ، واليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله ما معناه : من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان .

وقال تعالى : « **وبعهد الله اوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون** » وقال تعـالى : «**خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين**» أى لا تكافىء السفهاء بمثل قولهم أو

فعلهم بل احلم عليهم وقال تعالى : « **واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين** » .

أمر الله نبيه اذا عاهد قوما من العدو وظهرت منهم علامة نقض العهد أن يطرح لهم العهد ويخبرهم اخبارا بينا واضحا أنه نقض العهد الذى بينه وبينهم ولا يعالجهم بالحرب وهم على توهم بقاء العهد حتى يعلمهم ليأخذوا حذرهم ويستعدوا ، ومن لم يفعل هذا يكون خائنا للعهد والله لا يحب الخائنين فى العهود .

وقال تعالى : « **الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا لم يظاهروا عليكم احدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين** » . فقوله ان الله يحب المتقين تعليل وتنبيه على أن اتمام العهد من باب التقوى وقال تعالى : « **وافوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** » . وقال تعالى : « **وافوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا** » ، ولم يزل على هذا الاسلوب يردد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية أو أقوال الفقهاء وحكم الحكماء يؤسس المبانى ويوضح المعانى الى أن ختم الرسالة بما جبلت عليه الامة العربية من مكارم الاخلاق وذكر ما نالها فى مدح الوفاء والصدق وذم الغدر والكذب ثم قال وباقى الامم وان كانت تفى بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالامة العربية أكثر وأشد من جميع الامم فى ذلك ، فالعرب فى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية واخلاق مرضية وأفعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وانفة من كل خلق ذميم طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة .

وقد دهش الاسقف لما اطلع على هذه الرسالة التى عبرت عما يكنه الامير للدين الذى جاهد من أجله فقال هذا القسيس :

« انى أعجب من هذا الرجل بالرغم من الحالة التى هو عليها فانه لم يفرط فى دينه ، ولم يترك أية وسيلة للدفاع عنه » ، ولما خرج من عند الامير قصد كنيسته واجتمع بقسيسين آخرين كانوا فى انتظاره ليطلعهم على ما دار بينه وبين الامير فقال لهم : « احمد المسيح انى نجوت ولو بقيت مع الامير ولو مدة وجيزة أخرى لجعل منى مسلما يدافع عن الاسلام ويعادى النصرانية » .

ثم ادرف فقال ان وجود الامير بين ظهرانينا خطر عظيم ويجب علينا جميعا أن نجهز جميع امكانياتنا لكى يسمح له بالخروج من فرنسا ، وأن كابرت الحكومة واصرت على أن تبقيه بمنفاه فسيحل بنا ما حل بالاراضى الاسبانية يوم افتتحها العرب وعمروا فيها ثمانية قرون بأكملها .

لو بقى الامير هنا لاصبحت باريس وجميع القرى الفرنسية مواطن تقام فيها المساجد لا البيع التى تقوم اليوم ، واسمعنا فيها القرآن يفسر فى جامعاتنا لا الكتاب المقدس كما يجرى اليوم .

وقد صدق هؤلاء القسيس لان الامير تلقى أسئلة عدة من مستشرقين درسوا العربية والدين الاسلامى بقصد الانتشار فى البلاد الاسلامية من أجل التبشير للنصرانية غير أن الامير سفه آرائهم وقلم اظفارهم وجعلهم يعترفون بسديد رأيه وقوة حجته .

وعلى ما يقال ان كثيرا من هؤلاء الذين وجهوا الاسئلة للامير من أجل النيل من الاسلام قد اقتنعوا صاغرين بأن الدين الاسلامى دين قويم ، وأن الرجل السعيد الذى كتبت له السعادة هو من اعتنق الاسلام .

ومن بين الاسئلة الموجهة اليه هذه :

ان دعوة محمد دعوة اكتنفتها الغموض من جميع جوانبها ، وأن العرب بوجه عام والشرقيين بوجه خاص قد كابروا وادعوا أن دعوة محمد دعوة يقرها العقل والمنطق .

ان هذا السؤال وان كان يدل على شىء فانه يدل على تعنت هؤلاء الجهال الذين اكتفوا بالقشور وفرطوا فى اللب .

ولقد استخف الامير بآرائهم فلم يجبهم ، فركبوا رؤوسهم وكتبوا له مرة ثانية معلنين له أن عدم رده على الاسئلة معناه ان ليس بيده الحجج الكافية ليفند ادعاءاتهم ، وحدثتهم انفسهم بأن الامير لن يجاوبهم ، وان امتنع هذه المرة عن الرد فيوجهون اليه كتابا مفتوحا لينشر على أعمدة الصحف ، ولم يترك لهم الامير الفرصة وفاجأهم برد حاسم هذا نصه :

« لم تكن رسالة محمد دعوة تهويس واسفاف ولكنها دعوة اتساع الافق وشمول النظر . فاستطاعت بذلك أن تلبى حاجة البشر كافة .. من خاصة وعامة .. وذلك لانها الرسالة الوحيدة بين الرسائل التى لا مسخ فيها ولا اسفاف ولا غش ولا اجفاف وهى فوق هذا وذاك رسالة بدأت باسم الله الرحمن الرحيم وختمت بأنه رب العالمين .

وجاءت رسالة الاسلام فى وقت كان العالم كله فى تأخر من جميع الوجوه دينيا وعلميا ومدنيا وسياسيا ، فلم يمر قرن واحد حتى أوجدت للعالم كله دينا قيما ، وعلما محكما ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، فنفخت فى الانسانية روحا جديدة لا تقبل الفناء ما دامت الارض والسماء • فهى كالينبوع الذى تفجر فى أرض وفاض على غيرها ، فأحياها بعد موتها وكان ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » •

ولا تقف صفات الاسلام عند هذا الحد فى الصفات التى تتميز بها الديانات والرسالات بل كان من أهم صفاته أنه دين الهداية الى الحق والارتفاع بقيمة العقل من الانسياق وراء العميات والخوارق الغريبة عن طبيعة معدنية فى الاقتناع والتصديق •

واستمرت رسالة الاسلام تغزو الممالك والبقاع ، وأخذت راية الدين الحنيف ترفرف على البلدان والامصار وتغلغلت دعوة النبى العربى فى أوروبا وغيرها من البلاد التابعة للديانة المسيحية ••• وعز على الكنيسة أن ترى دين محمد يعلو على كل دين ويدحض كل فرية وكل دعوة تقوم على الزيف والاباطيل •

فجندوا لها ارسالياتهم التبشيرية وبعثروها فى الممالك والاصقاع ظانين انها تجدى مع رسالة من عند الله ••• وحاول مبشرو أوروبا أن يصفوا الاسلام بالنقائص فمنهم من قال ان دعوة محمد استهوت الناس حسب غرائزهم وارضاء أثرة المنافع والثروة فيهم ••• وفات هؤلاء أن الاسلام جاء لتنظيم حياة الناس •

وزعم فريق آخر منهم أن الاسلام لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان ويقصدون بذلك محمدا صلوات الله وسلامه عليه •••

وفات هؤلاء أيضا ان رسالة محمد جاءت مليئة بالرحمة والبر والحنان وان صفاتها صفات الخير والحكمة وأنها اتسمت بأهداف سامية لا تمت الى طلب السلطان والجاه •

وفريق ثالث من هؤلاء زعم بكل سخافة وحمق أن الطمع فى الاقاويل تبطل هذه الدعاوى وتنقضها •

وجلية الامر أن محمدا لم يكن كغيره يرضى بأوضاع كاذبة ، أو يسير تبعا لاعتبارات باطلة ، أو يقبل ان يتسم بأكاذيب وأباطيل زائفة ، فجاء نتيجة لذلك صوته منبعثا

من الطبيعة ذاتها ولهذا وجد أذانا مصغية وقلوبا واعية فانتشرت رسالته ، وعمت النـاس كافـة ٠

وتلك هي رسالة السماء قام بها خير رسول وخير انسان ٠

وما أن قرأوا رد الامير على سؤالهم الذى أملته عليهم عصبيتهم العمياء حتى ساورهم الشك فى معتقداتهم ، وتبين لهم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الليل ، ولولا خوف مواطنيهم لاسلم كل هؤلاء المتعجرفين ، على انهم بدءوا يتهامسون فيما بينهم هل يوجهون للامير سؤالا آخر أم يكتفوا بالاسئلة الاولى فظنوا أن الصحف التى نشرت للامير كل ما يكتبه لن تنشر هذه المرة سؤالهم، وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما نشر السؤال مفصلا وأضيف اليه من رؤساء التحرير تعليقات زادت رد الامير روعة وأصبح رجل الشارع يعطى أهمية لاسئلة المستشرقين الفرنسيين وردود الامير عنها وقـرر حينئذ هؤلاء المتعنتون أن يوجهوا سؤالا آخر للامير هو : لماذا يحفظ العرب القرآن ؟ مع أن هذه الطريقة تؤثر كثيرا على عقول الناس وبخاصة الصغار منهم وهذا الاجـراء سيكون أثره السيء على النشء الجديد ٠

فاجابه الامير : ان هذا السؤال الغريب ، ويتسم بالعصبية ، وانى لافهم الاسباب التى تؤديكم الى هذا النوع من التفكير ، ولو كنتم واجهتم الحقيقة كما يجب أن تواجه لأدركتم أن حفظ القرآن له مميزاته ٠

ومما لا شك فيه أن الحفظ من أهم الاسباب لاستدعاء الفهم ، فان طلب الفهم والادراك انما يكون عند ظهور الحاجة اليه ، وعند الاحساس بعدم الفهم ، وحينئذ يلجأ الحافظ الى السؤال عن معنى ما سمع أو ما حفظ من الدين يظن أنهم يعرفون ذلك الذى خفى عليه ٠ وعلى ذلك يكون حفظ آيات القرآن من أعظم الدواعى الى دراستها وطلب معرفتها ٠

وكثير من العلماء الاعلام الذين حفظ التاريخ آثارهم ، وجرى ذكرهم فى الخافقين ، وكانت لهم اليد الطولى فى الدرس والافادة والتاليف ، وخدمة العلم والادب ، كانوا من أولئك الذين لقنوا القرآن وهم صغار أحداث لم يبلغوا رشدهم وكانوا هم الذين فهموا كتاب الله واجتهدوا فى تأويله ، واستنبطوا منه الآداب والاحكام وأصبحوا أئمة يستضاء بنورهم ، ويهتدى بهديهم ، وقد خدم كثير منهم الدين وأحيوا علـوم اللسان ، وحذقوا كثيرا من ألوان المعارف وأصبحوا بها مضرب الامثال ٠

لقد فتح القرآن لكثير من النابهين باب النبوغ ، ولم يعطل لواحد من الذين عنوا به وأقبلوا عليه ملكية من الملكات ، بل انه هو الذى نبه فكرهم ، وشحذ عزائمهم وجعل لهم ذكرا فى العالمين ·

ولقد كان البيت المسلم يحرص أشد الحرص على ان تلقى فيه آيات القرآن يسمعها الرجال والنساء والولدان كل صباح ، لا يكاد يخلو من ذلك بيت من بيوت المسلمين وكان التنادى فى الاغراق على قراء القرآن ومحفظيه للاحداث مضرب الامثال ، كما كان الولدان أنفسهم يتنافسون فى حفظه ويتبارزون فى تلاوته ·

كان ذلك من تقاليد المسلمين حتى سرت عوامل الضعف ، وتتابعت الاحداث ووفد الاستعمار على بلاد المسلمين مختفيا وراء ما يزعم من أصول التربية الحديثة ، وكان هذه التربية شيء غريب عن الاسلام والمسلمين وكأنه لم يكن فى هذه الامة مفكرون فى أصول التربية نظروا فى أسسها، وشرحوا أهدافها ووضحوا مناهجها ، ولذلك فان هذه التربية الحديثة لا تستثقل على هؤلاء الصبيان شيئا الا اخذهم بحفظ كتاب الله ، وتنشئتهم على هداه ، وما أسرع ما استجاب ضعاف النفوس لهذه الدعوة غير ناظرين الى ما تخفى هذه الدعوة وراءها من عمل الاستعمار على المباعدة بين ناشئة هذه الامة وبين المأثور الصالح من تقاليد السلف وأصول العقيدة ولن يتمكن العرب من فهم دينهم الا اذا اهتموا بالقرآن الاهتمام التام ·

ان القرآن هو اسمى الكتب السماوية التى تبدو فيها سمات الرقى جلية ناصعة مهما سخروا أولئك السذج المتعصبون لآلية العصر ، والمتذيلون للمدنية المادية التى تقوم على أساس الغرائز ، والتى لابد أن تهوى فى العاجل القريب الى التلاشى والفناء ، بل قل : انها بدأت تسير فى طريق الانماء بخطوات واسعة لن تغيثها منه سلطة الاختراعات ولن تنجيها قوة الحديد والنار ·

حقا أن ما يحتويه القرآن بين ثناياه من امارات السمو وعلائم الكمال لهو خليق بالدرس والتامل · ولم لا ؟ السنا فى الوقت الذى نرى فيه أنصار المدنية المادية واشياع الحرية الزائفة يوغلون فى الظلم والجشع والكذب والنفاق ، نشاهد مبادىء هذا الكتاب تنتصب وسط الدائرة الجهنمية المؤلمة من الاثام والجرائم منارة عالية بها بعد الطبيعة تشع من ثناياها الانوار السماوية ، وتنبعث من خلالها الاصوات الابدية هاتفة باسم الحق ، مؤيدة كلمة الفضيلة ناطقة بقداسة الشرف واحترام العدالة والانصاف · ولا تكاد

هذه الانوار تبدو حتى تغشى عيون الآثمين ، ويخطف سنا برقها أبصار المجرمين ولا توشك تلك الاصوات أن تهتف حتى ترتجف منها قلوب الظالمين ، وترتعد لها فرائص المنافقين، ويحس أولئك وهؤلاء في أفئدتهم بالرهبة من السماء تهددهم وتنذرهم بالويل والثبور، وعندئذ يحنقون على أهل هذه التعاليم القوية الكاشفة عن تضليلهم ، والفاضحة لتغريرهم ، ويودون أن يمزقوهم شذر مذر ليزول سلطانهم ، ويتزلزل كيانهم وعندئذ لا يجدون أمامهم انجح من وسائل الدس والتفريق ولا أنجح من بث الشقاق والتمزيق ولا أحد من سيف الاغراء والاغواء ، وتملك المطامع والتزلق الى الاهواء وانشاب أظافر الاستعمار في بلادهم والهيمنة على مواقفهم والتسلط على مواردها ومصادرها حتى يستذلوا فيخفتون بهذا الاستذلال ذلك الصوت الذى يروعهم نهارا ويقض مضاجرهم ليلا . ولكن لو أن المسلمين أخلصوا لدينهم واتبعوا تعاليم كتابهم ، وتخلقوا بأخلاق نبيهم لسخروا من كل اغراء ونظروا الى المثل الاعلى المرسوم في قرآنهم ، وتطلعوا الى السمو المتمثل في كل آية، وأيقنوا أن هذا الكتاب شأنه أن يقودهم الى الحرية والسعادة ، بل الى الرفعة والسيادة ، ذلك بأنه اذا انتصرت في قلوب المؤمنين روح الخير التى تمثل الالوهية على الارض تعهدت هذه الروح العلائق بين الانسان وربه بالتقوية والانماء ، ومتى تفرقت تلك العلائق جعلت النفس المؤمنة تتلقى أوامر السماء بهيئة نقية صافية ، ثم تمليها أولا على حياتها العملية الخاصة حتى يطبق العلم على العمل فتحقق الحكمة « ومن يوت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب » .

فاذا تم للمؤمن ذلك أفاض تلك الاوامر الآلهية على بيئته ومجتمعه ، وقد تتسع هذه الدعوة حتى تعم الانسانية جمعاء واذ ذاك تصلح حالة الدنيا ويسودها السلام وتشملها العدالة ، ويحل الرضاء محل النزاع وتحل المحبة محل النزاع والبغض والحفيظة . ومن آيات ذلك أن الاوامر الآلهية كانت منذ غابر العصور ولا تزال وستظل تقود بنى الانسان الى الفلاح والكمال اذا وضعوها موضع الاحترام والعناية والتطبيق ، ولكنها تشهد دمارهم وفناءهم اذا هم سحبوا عليها ذيول الاهمال والنسيان .

فالقرآن اذن هو روح الاسلام الذى اشع ولا يزال يشع في الوجود وهو قلبه الذى ينبض بالحياة وعقله الذى به يفكر ويتامل ، والذى ضمن له ذلك الامتياز على جميع ما عرفته البشرية من اديان والذى افاض تلك المبادىء السامية الخالدة .

فالقرآن يشتمل على كل خير الانسانية وعوامل رقيها وتقدمها ، محتوى على جميع عناصر الصلاحية لكل الازمنة والامكنة والبيئات والمجتمعات على اختلاف نزعتها ،

وتباين مشاربها مما حقق لنبيه أن يكون خاتم النبئين وآخر المرسلين ، وجعل رسالته غاية الغايات ونهاية النهايات ، وأسند اليها الكلمة الفاصلة والقول الحاسم فى جميع التشريعات الفردية والعلائق الاسرية والقوانين المدنية والانظمة الدولية ، والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسلمية والحربية والمعاهدات السياسية . وبالاجمال كـــل ما يحتاج اليه الفرد أو الامة فى الحياة الخاصة أو العامة . وفى وصفه يقول :

« أن القرآن هو نظام عالمى واقعى موحى ، فهو ينظم تطبيق كل حادثة من أحداث الوجود وشرحها وتقديرها . انه بالنسبة الى جميع المؤمنين بمثابة ذاكرة قد أعدت أتم الاعداد ، أو مذكرة احصائية للمفردات اللغوية أو قاموس من القاواميس له . وهــو بالنسبة الى كثيرين أيضا كتاب للتعريفات المضمونة والقابلة للتطبيق دائما ، انــه مجموعة من اللفات للافعال العملية ، وللتأملات الباطنية التى تركز الانتباه فى البراهين على المجد الآلهى وقوة الله ، والقرآن هو الذى يقوم بدور تبسيط مشكلة منهج الحياة أمام المؤمنين ، لان هذه المجموعة من القوانين الموحاة هى التى تغذى الذاكرة وتحـل عقال العمل دون أن يكون لدى الفكر حاجة التردد ويكفينا اعترافات بعض النصارى الذين درسوا الاسلام . ويقول المستشرقون النزهاء : «حسب هذا الكتاب جلالا ومجدا أن الاربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تخفف ـ ولو بعض الشىء ـ مـن أسلوبه الذى لا يزال غضا كان عهده بالوجود أمس » .

ويقول مستشرق آخر : « ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ، فعاقهم العجز وشملتهم الخيبة وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أغلق فى وجوههم كل باب » .

ويقول مستشرق ثالث : « لقد تحدى محمد الانس والجن أن يأتوا بمثله ، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . ولم يكن الامر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية، فان محمدا كان يحتقر الشعراء ، ودمع عن نفسه أن يكون واحدا منهم » .

هذا هو مجمل آراء فريق من العلماء الذين يبتغون من بحوثهم مرضاة العلم فى ذاته، ويقصدون وجه الحقيقة حيث كانت ، فلا يخرجون عنها .

ولكن هناك فريق آخر من الباحثين الغربيين يخضعون فى بحوثهم لاهواء شخصية أو مطامع فردية أو أهداف سياسية أو تعصبات دينية تعميهم عن الحق وتضلهم عـــن الصراط السوى ، فهم حين يدرسون القرآن دراسة عميقة ، ويتأملـــون فى مبادئــه

الاساسية ، وعناصره الاولية نامـلات دقيقة يتبينـون ميزاتـه التى لا نظـير لها فى اى كتاب سماوى آخر ، نراهم بدلا من الاشادة بهذه الحقائق الناصعة يسارعون فينظرون الى بنى جلدتهم بان القرآن كتاب خطير ، لانه اشتمل على مبادىء يمكن أن تقيم الدنيا وتقعدها ، وذلك اثر اليقظات الاسلامية التى اصبحت تطل مـن الشرق والغـرب •

ولقد خاف هؤلاء ان تكون هذه اليقظات الاسلامية ، والحركات الاستقلالية التحررية، أشعة من تباشير الصباح لمستقبل العالم الاسـلامى الباسم • وحملة شعلة المعرفة ، والنور وتطبيق شريعة الله التى تكرم بنى آدم وتعلن حقـوق الانسان ، وحرياته ، وترفع شانه وتحارب تفاوت الطبقات ، وطغيان السادة والزعماء •

وبطبيعة الحال فان هذه المبادىء التى اظهرها الامير بجلاء ، ودافع عنها كما كان يدافع فى المعارك التى خاضها مع الفرنسيين آثرت بخاصة فى رجال الدين بفرنسا لانهم كانوا يتمتعون بامتيازات لا حصر لها ، وكان الشعب ينظر اليهم نظـرة اكبار واعجاب • لان مفاتيح الجنة بايديهم وهم وحدهم الذين يملكون سلطة غفران الذنوب، وكانوا يتلقون من الفاتيكان الاوامر الصارمة لتخدير أعصاب المسيحيين وعدم السماح لهم بالدخول فى نقاش مع معتنقى الديانات الاخرى ولا سيما معتنقى الديانة الاسلامية .

والسبب فى ذلك بين وهو أن الدين الاسلامى قاوم بعنف وشدة الادعاءات الخاطئة التى يؤمن بها المسيحيون واهمها التثليث •

على ان الفاتيكان قد اطلع على ما دار بين الامير عبد القادر وبين القس فى فـرنسا وانكر عليهم ما اتوه من جدل مع الامير وأمرهم بأن يقفوا عند هذا الحد مخافة أن يتسرب الشك الى اذهان عامة المسيحيين •

ولئن توقف رجال الدين عن ارسال الاسئلة الى الامير فان المستشرقين الكثيرين الذين لا يؤمنون بتعاليم المسيحية راوا متابعة مكاتبة الامير من اجل النقاش معه فى المسائل الجوهرية التى جاءت فى تعاليم الدين الاسلامى وقرروا أن يبعثوا له آخر سؤال عله يفيدهم مما أتاه الله من علم واستشاروه فى ذلك فلم ير مانعا ورغب منهم أن يكثروا من هذه الاسئلة لانها تجلى الحقائق وتميز بين الغث والسمين فشكروه على طول باعه ، وبعثوا له بهذا السؤال :

« انكم معشر المسلمين تعطون للتوكل قيمة جوهرية مع أنكم شاهدتم أن المسيحيين بالرغم من تعلقهم بدينهم لا يعطون ميزة للتوكل ، بـل يرون ان من أسباب تقهقر الامم وتأخرها الاعتماد كل الاعتماد على التوكل » ، فكان جوابه عن سخافتهم هذه ان سؤالهم يدل دلالة واضحة على عدم اطلاعهم على الدين الاسلامى والتعمق فى الدراسة عن التاريخ الاسلامى وقال لهم ردا عن ادعائهم هذا :

« يكشف لنا تاريخ الامة الاسلامية عن ظاهرة فريدة ، وهى انها تسير فى طريق التدهور والضعف عندما تحتقر من شأن العقل ، فتقدم عليه صنوفا من الجـدل أو التصوف المتطرف » . وعلى الرغم مما نعمله من العداء بين أهل الجدل وغلاة المتصوفة فقد تحالف هذا العدوان على محاربة العقل وأهله . ومتى قدر لهما النصر فى عصر ما انطفأت جذوره فى التفكير واندثر العلم ودخلت الامة فى مرحلة من مراحل تدهورها ، وهذا ما نلحظه من تخلف بعض البلاد الاسلامية فى عصرنا . ويرجع ذلك الى عوامل عديدة منها اساءة الفهم لعقيدة القضاء والقدر . فقد اتخذت هذه العقيدة ذريعة لتبرير التوكل الذى أراد أصحابه أن يلبسوه ثوبا دينيا . ولانعدم أن نجـد فى العقليـة المعاصرة رواسب من تلك الفكرة التى تنكر على الانسان كل قدرة ، والتى تكاد تنسب معاصيه الى الله سبحانه ، لان الانسان أشبه بالريشة التى تقلبها الريح كيفما تميل . وهذه هى فكرة الجبر المحض التى حاربها أصحاب التفكير العقلى فى الاسلام فى جميع عصور قوته ويقظته ، ممن رأوا أن فهم القضاء والقدر على أنه استسلام وتواكل يبعث اليأس فى القلوب ويشل الايدى عن العمل ، ولهذا جعلوا يقررون حريـة الانسان واختياره فى حدود معلومة حتى يكون للثواب والعقاب معنى .

ففكرة الجبر المحض هى التى دعى بعض المفكرين وكثيرا من العامة الى استحسان الزهد فى الدنيا والاكتفاء بالقليل الذى لا يغنى ، والقضاء على الميـول الانسانيـة المشروعة كالسعى وراء المجد والشهرة وطلب المال أو القيام بالعمل مما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع . وكأنما نسى هؤلاء وأولئك أن ديننا يدعو الى الجمع بين الدين والدنيا فهو لا ينصحهم بالتكالب على مطالب الحيـاة الراهنة على نحـو ينسون معه آخرتهم ومصيرهم وانما ينصحهم بالتوسط فى الامر .

ومن العادة أن يفسر المرء كل شىء بالقضاء والقدر الذى يساير فهمه أو بالصدفة متى جهل أسباب الاشياء أو حاول الابقاء على جهله ولكن هناك خطر على عقيدة المسلم

حقيقة اذا أدرك ما يحدث فى العالم وفى نفسه انما يقع طبقا لقواعد وقوانين ثابتة سخرها الله لتؤدى الى نتائج محددة ؟ وأنهما أسلم عقلا وأقرب الى الايمان ؟ ·

يعتقد أن ما يحدث فى الكون انما يجرى على سنن ثابتة تدل على دقة الصانع وعظيم حكمته ولا يوجد رجل يظن ان الصدفة أو الاتفاق أو الجبر المحض ، أو مثات من الاسماء ، هو قانون العالم ودستوره ؟

هذا الى أن الزهد فى الحياة لا يمنع العمل ولا يبرر اليأس ، ولا يدعو الى التواكل الذى يوصى به أهل الجبر ومن تبع سبيلهم من مفكرى الاسلام الم يكن الصحابة وكثير من أمراء المسلمين ومفكريهم فى مختلف عصورهم زاهدين ، ومع ذلك كانوا أكثر الناس عملا وأقواهم أملا فى رفع شأن دينهم وأهله ، وهؤلاء فى اعتقادنا هم المتصوفون الحقيقيون فى الاسلام ، لانهم أهل ايمان وعمل لا أهل تواكل وجدل ·

ولقد نشر هذا المقال بالصحف فكشف الخطاء عن ما كان يؤمن به بعض الناس ، وتلقى الامير اثر ذلك من اتحاد الكتاب فى قرية امبواز رسالة يعبرون له فيها عن امتنانهم للحقائق التى اظهرها ·

فقرأ الامير الكتاب على الحاشية التى كانت معه وذكر لهم أن أوروبا كلها قابلة للتبشير ، وأنه من المتحتم علينا ان نوحد كلمتنا ونقيم من بين المتنوبين منا مجموعة علمية ، وان استطعنا اقامة هذه المجموعة العلمية فيمكننا أن ندفع العدوان من كل الجوانب التى تحيق بنا وتسعى جاهدة على ان يكون لها سلطان علينا وأكثر من هذا تعمل ما فى وسعها من أجل تحطيم تعاليم ديننا ·

ومن الضرورى أن نكون حذرين وان نجمد حركتهم هذه ، وان نجند طاقتنا كلها للنيل منها والقضاء على دسائسها ·

محاولة الفرنسيين التنصيل من الاسلام

القسم الأول

اجوبة الامير عن أسئلة وجهها اليه الجنرال دوماس الفرنسى : ويعد هذا الجنرال من أكبر القواد الفرنسيين فى الجزائر الذين اشتهروا بالاقدام فى الحروب وتعلم العربية واطلع على أحوال أهل الوطن فكتب أسئلة تتعلق بدين الاسلام وبعثها الى الامير وطلب الجواب عنها ونحن نذكر كل سؤال منها مع جوابه :

الســـؤال الاول :

قد رأينا المسلمين يتزوجون من غير أن ينظر أحدهم الى مـن يريد أن يتزوج بها وربما عند الاجتماع يجد كل منهما فى الآخر ما ينفره منه وذلك يؤدى الى سوء المعاشرة مدة حياتهما أو الى الفراق لا محالة ٠

الجـــواب :

ان المسلمين لا يتزوج أحدهم الا بعد النظر الى من يريدها من النساء أو يرسـل امرأة عاقلة عارفة بما يستحسنه المخاطب ويستقبحه من صفات النساء وأحوالهن فتنظرها ثم تخبره بما رأته من صفاتها وأحوالها على أن شريعة الاسلام لا تمنع من النظر بـل يجوز للرجل اذا أراد أن يتزوج بامرأة أن ينظر الى وجهها ويديها ورجليها كما يجوز للمرأة أن تنظر الى الرجل الذى تريد أن تتزوج به وقد ورد فى الحديث الشريف أن النبىء (ص) قال : « اذا أراد أحدكم أن يتزوج بامرأة فلينظرها فانه أحرى أن تـدوم الالفة والمحبة بينهما » ومن كلام العرب فى هذا المعنى كل نكاح وقع من غير رؤيـة فعاقبته هم وغم . ومن كلام العرب كذلك أربعة لا تقدم عليها حتى تسأل الخبير بها عنها :

المرأة لا تخطبها حتى تسأل عن منصبها وخلقها ، والطريق لا تسلكها حتى تعرف انها مأمونة ، والبلد لا تستوطنها حتى تطلع عن سيرة سلطانها وأخلاق أهلها ، والسوق لا تقصدها حتى تعلم نافقها من كاسدها ٠

ومن كلامهم الندامات ثلاثة : ندامة يوم وندامة سنة وندامة العمر ؛ فندامة اليوم أن يخرج الرجل قبل الغذاء وندامة السنة بترك الزراعة فى وقتها وندامة العمر أن يتزوج من غير نظر ولا سؤال خبير ٠

السـؤال الثـانى :

ان المسلمين يتزوجون من غير أن يأخذوا من الزوجات مالا والزوج هو الذى يدفع للمرأة الصداق وبذلك تكون ملكه أو بمثابة الاشياء التى تشترى ؟

الجـواب :

ان المرأة اذا كان لها مال فان شرع الاسلام يلزمها أن تأتى منه معها بقدر صداقها الذى دفعه الزوج لها فان لم يكن لها مال فلا يلزمها شىء ولا يتزوج المرأة لاجل مالها الا اخساء الناس ويقبح على الرجل الكريم أن يخطب امـرأة ويسأل عن مالها ٠ ومـن كلام العرب اذا خطب الرجل المرأة وسأل عن مالها فهو سارق لص ، وقالوا هذا فعل يشبه التجارة فاذا كان الحامل للرجل والباعث له على تزويج المرأة مالها فقط فلا شك أنها لا تدوم الالفة بينهما لان المال عرض زائل فاذا زال المال زالت الالفة ٠

ومن كلامهم يلزم أن يكون الرجل فوق المرأة بثلاثة أشياء المـال ، والسـن ، والشرف ٠ ومن كلامهم اياك أن تتزوج المرأة التى تنظر لما فى يديها وأعلم أن العرب كانوا يحبون النساء حبا شديدا لذلك كانوا لا يسألون عن مالهن ولو دفـع الرجل العربى للمرأة قناطير من الذهب والفضة لا يحسبها ملكه ولا يجعلها بمثابة الشىء المشترى كما زعمت وانما فى سفر التكوين قال الله لحواء تكونين تحت سلطان الرجل وهو يتسلط عليك فاذا خالف الرجل هذا وصار تحت قهر المرأة فقد خالف حكمة الله واستحق الغضب من الـله وكانت النساء العرب يعلمن بناتهن عند الزفاف كيف يختبرن أزواجهن فتقول الام لابنتها : يا بنتى اختبرى زوجك قبل الاقدام والجرأة عليه فانزعى غلاف رمحه فان سكت فاقطعى اللحم على ترسه فان سكت فكسرى العظـام بسيفه فان سكت فاجعلى البرذعة على ظهره وأركبيه فانه حمارك ٠

السـؤال الثـالث :

من عادة المسلمين أنهم يتزوجون أربعة من النساء ويتخذون ما يقدرون عليه من الجوارى ونحن نعجب لهذا فكيف تعيش الحرة مع الجارية ولربما تكون هذه العـادة سببا فى فساد العشرة ونزاع الورثه وقوة الغيرة وبغض ومباغضة الاولاد بعضهم البعض وينبغى للرجل ألا يحب امرأة أكثر من الاخرى فكيف يعمل اذا فسدت العشـرة وبماذا يصلح فسادها وما الذى عنده فى الشرع حين تقع المنازعة بين النساء أعنى ما الذى يفعله الرجل فى الصلح بينهن ؟

الجـواب :

ان الله تعالى خلق النساء لانجاب الاولاد ومن أراد تكثير الغلة فعليه بكثرة المزارع والله تعالى ما افترض على الرجل تزويج اربع نسوة وانما افترض عليه سلامة الدين والكف عن الزنا فمن كانت سلامته فى واحدة فهو أفضل ومن لم يسلم دينه بواحدة له أن يتزوج بأكثر من واحدة ومن كلام العرب : ذهبت اللذات الا من ثلاث الخلـوة بالنساء وشم البنين وملاقاة الاخوان وقولكم يتخذون ما يقدرون عليه من الجـوارى كذلك هو حلال فى الشرع الاسلام وفى الشرائع القديمة وفعله الانبياء عليهم الصلاة والسلام والعرب يحبون الجوارى ويقولون ليس قوم أكيس من أولاد الجوارى لانهـم يجمعون بين عز العرب وعلوهم وبين دهاء العجم وكمال عقولهم . ومن كلامهم اذا كانت المرأة لا تلد واتخذ زوجها جارية فانها تلد بسبب الغيرة . وقولكم ونحن نتعجب من الحرة كيف تعيش مع الجارية لان الجارية لا تصل فى المقام والمنزلة الى مقام الحرة ومنزلتها بل دائما تكون فى قبضتها وتحت أمرها تخدمها ولا تخرج عن طاعتها وأمرها ونهيها ولا تحدثها نفسها أنها تساوى سيدتها ولا يمكن أن يقربها سيدها الا سرا ولذلك تسمى سرية أخذ من السر وقولكم ينقلب الامر وتفسد العشرة الخ ، هو حق ولكن فى حـق الفقير وأما اذا كان الرجل غنيا يجعل لكل امرأة دارا ويعطيها ما تطلبه لا يحصـل كبير ضرر وقولكم : ينبغى للرجل أن يحب امرأة أكثر من الاخرى وهل يقدر على ذلك ؟ ان التسوية بين الزوجات فى المحبة ليس باللازم فى الشرع لان الحب لا اختيار للانسان فيه حتى يقدر على فعله وتركه بل هو أمر ضرورى لا قدرة له على دفعه أو الزيادة فيـه ولا النقص منه بل هو على حسب ما يضعه الله فى قلبه وللمحبة أسباب فى المحبوب ، أما جمال أو احسان والقلوب مجبولة مقهورة على حسب الحسن والاحسان ولا يقـدر الانسان ان يبغض الوجه الحسن ولا من يحسن اليه .

ولا يقدر الرجل ان يسوى بين زوجاته فى الحب أبدا ولا يعاقبه اللـه على ذلك ولا يلزمه التسوية بينهن فى الفراش وانما تجب التسوية فى المبيت فقط وان كانت تجب عليه التسوية بينهن فى اللباس والاكل والكلام والحديث وفى كل ما يرضيهن ويطيب قلوبهن وقولكم : وما الذى عندكم فى الشرع حين تقع المنازعة بين النساء أعنى ما الذى يفعله الرجل فى الصلح بينهن ؟ أقول : انه يلزمه أن يبحث عن الظالمة مـن نسائه فيعظها ويخوفها فان تابت فذلك وان لم تتب فانه يهجرها ويترك الكـلام معها واذا نام عندها فى الفراش يوليها ظهره ويفعل معها ذلك ثلاث ليال الى عشر والى شهر فاذا تابت وطلبت العفو أجابها والا فالطلاق والفراق .

الســـؤال الرابـع :

رأيت الناس يلومون العرب على ضربهم نساءهم وعلى تكليفهن فى الخدمة فـــوق طاقتهن وعلى قلة المبالاة بهن وهم مستريحون لا يخدمون ولا يعملون شيئا ؟

الجـــــواب :

لا يضرب النساء الا أوغاد الناس والسفهاء الذين لا دين لهم ولا مروءة وأما أفاضل العرب وأهل الدين منهم فـلا يفعلون مـع النساء اذا فسد حالهن الا ما يطيب قلوبهن ويرضيهن من حسن الكلام ولين الخطاب والمداراة والتلطف حتى ان الرجل يجوز لـه أن يكذب على زوجته ويعدها ويمنيها واذا فسد حال المرأة ولم تنفع فيها المداراة ولين الجانب فانه يفعل معها ما أذن فيه الشرع من الوعظ والهجر ثم الضرب الخفيف الذى لا يغير جلدا ولا يسيل دما .

ولقد نهى الشرع الاسلام عن ضرب النساء وقال رسول الله (ص) لا يضرب النساء الا أشرار الرجال وقد جاءت الوصية بالنساء فى القرآن فى مواضع كثيرة فيلـــزم الرجل تحسين خلقه مع النساء واحتمال الاذى منهن قال رسول الله (ص) « من صبر على خلق امرأته اعطاه الله من الاجر ما أعطى أيوب على بلائه». واما خدمة النساء وتكليفهن فوق طاقتهن وعدم خدمة الرجال فهذا لا نعرفه وما رأيناه بل الذى رأيناه وعرفناه هو أن الرجل اذا كان غنيا فزوجته لا تفعل شيئا وان كان متوسطا فانها تقوم بالخدمة داخل البيت بشرط الا يحصل لها بها أدنى ضرر وان كان الرجل فقيرا فهو يخـــدم الخدمة التى تناسب الرجال كالفلاحة والتجارة والمرأة تخدم الخدمة التى تناسب النساء كالغزل والنسج والخياطة واذا كان الرجل صاحب دين ومروءة فلا يكلف زوجته بخدمة

خارجة عن البيت ولو كان فقيرا يسقى الماء ويحطب على ظهره ولا يمكن لـزوجته من الخروج من البيت ٠

السـؤال الخـامس :

بنات الاكابر من المسلمين لاهم لهم الا فى زينتهن وتبرجهن بحيث انهن لا ينظرن الى غير ذلك ولا يحسن بالمرأة أن تهمل أوقاتها وتقضيها فى البطالة فان ذلك ينشـأ عنه شرور كثيرة ؟

الجـواب :

ان المرأة عند المسلمين لا تترك الخدمة كما سبق سواء كانت من بنات الاكابر أو بنات الاصاغر فاذا كان زوجها فقيرا فهى تشتغل بالخدمة دائما واذا كان زوجها غنيا فهى تشتغل بالخدمة كذلك فى أوقات مخصوصة لا فى سائر الاوقات وما سمعنا بامرأة معرضة عن الخدمة مقبلة على اللهو والبطالة الا اذا كانت صغيرة لا تدرك ولم تصل الى حد التكليف بشؤون الخدمة ومن اخبرك بخلاف هذا فقد أخطأ وقد كان والدى من الاشراف الاغنياء وكان فى بيته نحو الستين نفسا بين خادم وخادمة ومع ذلك فـان بناته ونساءه لم يتركن الخدمة اللائقة بهن فى أوقاتها المخصوصة ولقد حكى أن امرأة من العرب كان أبوها أميرا وزوجها أميرا وهى تغزل الصوف فقيل لماذا تغزلين الصوف وأنت شريفة غنية عن الغزل ؟ فقالت انه يطرد الشيطان ويقطع حديث النفس ٠

ومن أقوال العرب : خير لعب المرأة بالغزل والابرة وأما اشتغال المـرأة بالزينة فى أوقات مخصوصة فهو مطلوب منها لان التزين من الاسباب التى تدوم بها الالفـة والمحبة بين الزوجين قال بعض العرب : ان المرأة تنال محبة زوجها بعد تمام حسـن خلقها بان تكون مداومة على الزينة عارفة بما يزيد فى حسنها من أنـواع الحـلى واختلاف الملابس وبما يستحسنه زوجها ٠

ومن كلام العرب فى الامثال : عقل المرأة فى جمالها وجمال الرجل فى عقله ويلزم الرجل أن يتزين لزوجته بما هو من زينة الرجال فان المرأة تحب ذلك حتى لا تطمح نفسها الى غير زوجها اذا رأت رجلا جميلا ٠

السـؤال السادس :

نـرى الرجل المسن من المسلمين يخطب البنت ويتزوجها ولكن هذا لا يقـع عند النصارى ، اذ لا يصح أن يتزوج شيخ هرم بنتا هى فى عمـر أولاده أو أحفـاده ؟

الجـــواب :

هذا غير مسلم به بل هو عيب كبير عند المسلمين وقليل من يفعله منهم اذ الغالب فيه عدم الالفة والمحبة اذ النساء يكرهن الشيب وينفرن منه ٠ قال بعض العرب وقد كان شيخا مسنا : رأيت امرأة جميلة فقلت لها ايتها المرأة ان كان لك زوج بارك الله لك فيه والا فاخبرينا فقالت له فى شىء لا تحبه قال قلت ما هو : قالت شيب فى رأسى وتبسمت ضاحكة من قولى فذهبت عنها فقالت لى : ارجع والله ما بلغ سنى عشرين سنة وهذا رأسى ولكن الشيب فى رأسك فاعلمتك أننا نكره منكم ما تكرهونه منـــا وقيل لامرأة من العرب ما تقولين فى ابن عشرين سنـة قالت ريحانه تشم قيل لها : فابن الثلاثين قالت قوى متين قيل لها : فابن أربعين قالت أبو بنات وبنين قيل لها : فابن خمسين وقالت : يجـوز فى جملة الخاطبين قيل لها : فابن ستين قالت صاحـب سعال وأنين ، وعندنا اذ اصبغ الرجل شيبه وتزوج امرأة وأوهمها أنه شاب فـان الشرع يعاقبه ويفسخ النكاح ويبطله وكذلك المرأة العجوز اذا تزوجت شابا صغيرا يتخذها الناس هزءا وسخرية ٠

السـؤال السابـع :

المرأة عند النصارى تحب على ما فيها من الخصال الحميدة وأما عند المسلمين فانها لا تحب الا على حسب جمالها فى الكثير وفى القليل على حسب أصلها ٠

الجـــواب :

ان المسلمين يحبون المرأة الجميلة اذا كان مع الجمال دين وصيانة وانما يرغبـون فى المرأة الجميلة لان الالفة والمحبة لا تحصلان فى الغالب الا مع الزوجة الجميلة والطبع يميـل اليه والمرأة القبيحة المنظر وأما الجمال الذى لا صيانة معه فهو مذموم وقلما توجد الاخلاق الكريمة والآداب الا تابعة للحسن لان الظاهر عنوان الباطن والبدن بما فيـه مطابق للنفس وصفاتها فحسن الخلق والخلق لا يفترقان فى الغالب . ومن أمثال العرب حسن الصورة أول السعادة والنظر الى الوجه الحسن يورث الفرح ويزيد فى نـــور البصر والنظر فى الوجه القبيح يورث العبوسة ويضر البصر وللجمال سلطان على النفوس الشريفة تخضع وتذل له وأما النفوس اللئيمة فلا فرق عندها بين جميل وقبيح وهى النفوس البهيمية ٠ والجمال الذى تحبه العرب هو أن يكون فى المرأة أربعة ســـود وأربعة بيض وأربعة حمر وأربعة كبار وأربعة صغار وأربعة واسعة وأربعة ضيقة أما

السود فشعر الرأس وشعر الحاجبين وأشفار العينين والحدقتان وأما البيض فاللون وبياض العينين والثغر والظفر وأما الحمر فالوجنتان والشفتان واللسان واللثة وأما الكبار فالثديان وموضع عفتها والركبتان والعجيزة وأما الصغار فالاذنان والفم واليدان والرجلان وأما الواسعة فالجبين والعينان وأصول الثديين والسرة وأما الضيقة فالمنخران والاذنان والخضر وكانت العرب تحب المرأة الزرقاء العينين وقولكم وعلى حسب أصلها فى القليل فاعلم أن العرب كانوا يرغبون فى الجمال والاصل معا ولما جاء الاسلام رغبوا فى المرأة ذات الدين قال رسول الله (ص) تنكح المرأة لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين أى اخترها وقربها من بين سائر النساء وقال « لا تنكحوا المرأة لمالها فلعل مالها يطغيها ولا لجمالها فلعل جمالها يرديها وانكحوا المرأة لدينها فاذا كانت المرأة جميلة متدينة ذات أصل فهى الغاية عند العرب فانها ان كانت دينة صانت وجه زوجها عن العشرة بين الناس ، وان كانت حسنة الاخلاق كان زوجها فى راحة ، وان كانت جميلة كفت نظر زوجها عن النظر الى غيرها ، وان كانت ولودا حصل منها أعظم الفوائد ٠

السـؤال الثـامن :

يقال عن العرب ان الرجل لا يحترم زوجته ولا يحسبها الا كخادمة له ولا يشاورها ولا يقربها الا عند قضاء شهوته ولا يعتد بكلامها وعندنا الامر بخلاف ذلك فنشاور المرأة فى كل شيء وهى رئيسة البيت فكيف بالعرب ينظرون الى المرأة هذه النظرة ٠

الجـواب :

الامر على خلاف ما سمعتم فان المرأة لها حرمة عظيمة عند العرب ذلك أنهم يحبون النساء كثيرا ومن لازم المحبة الاحترام ٠ قال رسول الله (ص) ما اكرم النساء الا كريم ولا أهان النساء الا لئيم وقال بعض حكماء العرب يلزم الرجل أن يفعل مع امرأته كل شيء يحببها اليه حتى يكون هو أحب الناس اليها وكان رسول الله (ص) يرفع امرأته على يديه حتى تركب على البعير وكان أمير المؤمنين معاوية يقول النساء يغلبن الكرام من الرجال ويغلبهن اللئام منهم ٠ وقولكم وزوجها لا يشاورها : اعلم أن العرب يحبون النساء محبة عظيمة ويطلقون لهن التصرف فى البيت بحيث تكون المرأة فى بيتها مثل الحاكم الذى أطلق التصرف فى الرعية ولا يخاف تعقبا فى حكمه ولابد للرجل ان يشاور زوجته فى أمور بيته ويسلم لها شؤونها لتهتم بها وتدبرها ومن عادة

العرب انهم يكرهون مشاورة المرأة فى الامور التى هى خارجة عن البيت وهى من وظائف الرجال ٠

السؤال التاسع :

الذى يظهر أن غيرة المسلمين غيرة كبيرة حتى أن نساءهم لا يخرجن الا ملتحفات ولا يظهرن لاصدقاء أزواجهن ولا لاقاربهم ولا لاقاربها وعندنا النساء يخرجن باديات الوجوه يحضرن الحفلات ولا يحجبن أنفسهن عن قريب أو بعيد ؟

الجواب :

ان غيرة المسلمين ليست كبيرة وانما هى ميزان الوسط والغيرة اذا كانت كذلك فهى ممدوحة وهى الا يتغافل الرجل عن مبادىء الامور التى يخاف عاقبتها ولا يبالغ فى اساءة الظن بزوجته ويراقب حركاتها وسكناتها أو يتجسس عليها لان ذلك مذموم وليس من مكارم الاخلاق ومن كلام العرب قولهم : لا تبالغ فى الغيرة على زوجتك فيرميها الناس بالزنا من أجلك والغيرة الممدوحة لا تكون الا فى اشراف الناس وأعلاهم لان الله تعالى جعل الغيرة فى الانسان سببا لحفظ الانساب ؟ قال الحكماء : كل أمة كانت الغيرة فى رجالها كانت الصيانة فى نسائها والغيرة فى القلب كالقوة التى فى البدن وتدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة كان الهلاك واذا ذهبت الغيرة كان الفساد ٠

وقولكم نساء المسلمين لا يخرجن الا ملتحفات اعلم ان المرأة يجوز لها فى الشرع ان تخرج لقضاء حوائجها بادية الوجه واليدين ولو كانت شابة جميلة ويجوز للرجل أن يرى من المرأة الاجنبية الوجه واليدين الا اذا قصد برويتها الشهوة واللذة فيحرم عليه ولما كثر الفساد وقلت المروءة وكثرت الفاحشة صار أشراف الناس وأهل الديانة يامرون نساءهم بتغطية وجوههن دائما ٠ وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رأى امرأة متلحفة مغطية وجهها يامرها بكشف وجهها له فان رآها جميلة قال لها غطى وجهك وان رآها قبيحة قال لها اكشفى وجهك ٠

وقولكم ولا يظهرن لاصدقاء أزواجهن ولا لاقاربهم ولا لاقاربهن ٠ اعلم ان العرب كانوا فى الجاهلية يتحدث الرجال منهم مع النساء ويجتمعون معهن حضر أزواجهن او غابوا وليس عندهم فى ذلك عيب ولا عار الى أن جاء الاسلام فمنع ذلك قال رسول الله (ص) لا تتبع النظرة فان مبدأ الزنا معاودة النظر وقال عيسى بن مريم : اياكم والنظر فانه يزرع فى القلب الشهوة ٠ واول العشق النظر واول الحريق الشرر وقال

بعض الحكماء : النظر الى المراة سهم والكلام معها سم ومعلوم ان النساء لحم يشتهيه كل رجل واذا دعا الرجل المراة الى نفسه فالغالب عليها الاجابة لا سيما اذا كان الرجل شابا جميلا صاحب مال ٠

وقولكم النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه ويحضرن المحافل مع ازواجهن اعلم ان محبة العرب للنساء شيء عظيم وما أظن ان جنسا في الدنيا يحب النساء كمحبة العرب لهن فلا يمكن أن يرى الرجل المراة الجميلة ويبقى قلبه مستريحا أبدا فاذا كان يخاف الله وصاحب مروءة فانه يبقى مع نفسه في قتال دائم ويحصل له تعب عظيم واذا كان لا يخاف الله ولا مروءة له فانه يبقى مشغولا في معاودة النظر اليها والتحدث معها والقرب منها وكيف الحيلة في الوصول الى قضاء وطره منها وربما لا تمكنه معاودة النظر اليها مرة أخرى لاسباب تمنعه من ذلك فيبقى حيراناوتضيع مصالحه كلها وفي الشرع اذا لبست المراة الثياب الجميلة ومرت على الرجال لينظروا اليها فانها زانية آثمة لانها تشوش افكار الرجال بسبب نظرهم اليها قال بعض الحكماء ليس بشيء اضر على النساء من الخروج وليس شيء خير لهن من البيوت قال رسول الله (ص) لابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها اي شيء خير للمراة فقالت : هو الا يراها الرجال ولا تراهم ولكن أنتم معشر الافرنج لما كنتم من حين ينشأ الرجل منكم الى أن يشيب يجتمع مع النساء ويجالسهن في البيوت والاسواق والطرق كذلك ضعفت محبة النساء للرجال والرجال للنساء وقلة الشهوة ٠ لان الشهوة انما تثور بقوة الاحساس بالنظر واللمس فانتم مع الاجتماع الدائم في راحة ٠

السـؤال العـاشر :

يزوج العرب بناتهم صغيرات وربما تم ذلك قبل البلوغ والمراد من التزويج الذرية والصغيرة التي لم تبلغ لا يحصل منها ذلك فهل ذلك جائز في شرعكم أم لا ؟ وربما تلد المراة وهي بنت اثنى عشر عاما أو ثلاثة عشر فلا تقدر على تربية الاولاد ولكن بناتنا يتزوجن كبيرات حتى لا تفسد صحتهن أو يـذبل شبابهن ليكون أولادهن صحاح الاجسام وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيرا ولا نـرى لهم أولادا كثيرين بخلاف غيرهم فانهم يتزوجون قليلا ومع ذلك تكثر أولادهم وبكثرتهم تكثر الرعية ٠

الجـــــواب :

اعلم أن العرب لا يزوجون بناتهم صغيرات الا لفائدة فان البنت اذا كانت ابنة أكابر اما بالشرف أو بالمال فان الرجال يرغبون فى زواجها ويتسابقون اليها فكـل واحد يخاف أن يسبقه اليها غيره فيبادرون فى احرازها ومن مقاصد الزواج وفوائده عند العرب كثرة العشيرة فان ذلك مما يحتاج اليه فى دفع الشرور • وطلب السلامـة ولهذا يقولون ذل من لا ناصر له ومن وجد من يدفع عنه المضار سلم حاله وفرغ قلبـه من العموم وتزويج المرأة الصغيرة جائز فى الشرائع القديمة ففى التوراة اذا بلغـت البنت اثنتى عشرة سنة فلم يزوجها أبوها وان اقترفت آثما فالآثم آثم الاب لانه هو السبب فى تاخير تزوجها وفوائد التزويج ليست محصورة فى طلب الذرية فقط فله فوائد كثيرة منها كثرة العشيرة بالمرأة كما تقدم ومنها ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر والمداعبة وفى ذلك كله اراحة للقلب وتقوية له على الاعمال التى تشـــق على النفس ومنها رياضة النفس ومجاهدتها برعاية الزوجة والقيام بحقوقها والصبر على اخلاقها وبنات العرب يسرع اليهن البلوغ فكثير منهن تبلغ فى سن تسع سنين ويأتيها الحيض ولنساء العرب خصوصيات تحمل المرأة العربية وهى بنت خمسين سنة وتحمل المرأة القرشية فى سن الستين ولا يوجد هذا فى غير نساء العرب ومن قريش الشيخ عبد القادر قدس الله سره ولدته أمه فاطمة وهى فى سن الستين •

وقولكم ربما تلد البنت فى اثنى عشرة عاما اعلموا ان البنت لا تتزوج صغـيرة فى الغالب الا اذا كان أبوها أو زوجها صاحب مال كثير واذا ولدت صغيرة لا تتعب فى تربية الاولاد •

وقولكم وعندنا البنات لا يتزوجن صغيرات الى آخر كلامكم هو كما قلتم ولـكن المرأة اذا تاخر تزوجها الى عشرين سنة ربما حصل منها ضرر كبير لا سيما اذا كانت تخرج وترى الرجال وتجالسهم لان الانسان سواء كان رجلا أو امـرأة اذا اجتمعت شهوته ولم يجد لوضعها محلا حلالا بالتزويج يطلب لها محلا حراما بالزنا وعـــادة العرب اذا تزوج الرجل المرأة على أنها بكر ثم وجدها غير بكر يطلقها فى الحـال واذا استحى من أهلها يبقيها ولا قلب له فيها ولا محبة تمنح اليها وقولكم وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيرا ولا نرى لهم كثرة أولاد ولا رعية اعلم ان قلة الرعية ليست لقلة ولادة نسائهم وانما ذلك من عدم استعمال الاسباب التى يكون بها بقاء أولادهم ومن عـدم

معرفتهم بحسن تربية الاولاد ومداواتهم حتى تطول أعمارهم وان كان هذا بارادة الله تعالى ٠

السؤال الحادى عشر :

ان الطلاق عند المسلمين كثير وعندنا لا يكون أبدا ونحن نلومهم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الاولاد أيضا لكونهم يقعون فى يد من لا يرحمهم كوالدتهم ٠

الجواب :

خفاء بعض عيوب الزوجين من الرجل والمرأة اما فى الخلقة أو الطبيعة فاذا ازدوج الرجل والمرأة وتعاشرا أو اطلعا على ما كان خفيا أو مغيبا ربما يظهر بعض العيوب لاحد الزوجين فجعل الله الطلاق راحة للذى يحب الفراق منهما وجعل الله الطلاق بيد الرجل لشرفه واذن الله للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها اذا حصل لها من جهته ضرر والطلاق مباح فى الاديان القديمة ٠

ففى التوراة فى الاصحاح الحادى والعشرين فى سفر الخروج ، ان استقبح سيدها زواجها فليطلقها ، ولتعلم من هذا أن الطلاق ليس خاصا بالمسلمين ، وفى الطلاق منافع ومضار ، أما المنافع فكما ذكرنا وأما الاضرار فكما ذكرتم وهو مباح اذا لم يحصل منه ايذاء للمرأة بالباطل ، وعلى كل حال فانه لا يخلو من الاذى ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش »٠ ومن أمثال العرب اذا لم يكن وفاق ففراق فالطلاق راحة للرجل ان كانت امرأته خبيثة أو معيبة والرجل اذا طلق زوجته وكان بينهما أولاد فان الشرع أوجب على الزوج أن ينفق عليها وعلى أولادها منه حتى يبلغ الولد ان كان ذكرا وحتى تتزوج البنت ويخلو بها زوجها فلا ضرر على الاولاد اذا طلقت أمهم وكان أبوهم متبعا للشرع ٠

محاولة الفرنسيين النيل من الاسلام

القسم الثاني

السؤال الثاني عشر :

ان للمسلمين لا يورثون البنت مثل الذكر فكيف ذلك والكل اولاده ؟

الجواب :

ان الله تعالى هو الذى قسم الميراث ونزل به القرآن العظيم فجعل للذكر قسمتين وللانثى قسمة واحدة وبذلك فضل الله الذكور على الاناث كما فضلهم بالقوة عليهم وفضلهم كذلك بعظائم الامور كالسلطنة والقتال والمناصب الدينية فالرجل يحارب ويدافع عن بلاده وعشيرته لذلك فهو محتاج الى زيادة القسمة ليستعين بها على ذلك ولان الرجل اذا كان فى قسمته زيادة يستطيع ان ينفق على النساء من اقاربه اذا احتجن الى ذلك بخلاف المرأة فانها لا تنفع الا نفسها فى الغالب واما غير الميراث فانه يجب على الرجل ان يسوى بين أولاد. فى العطية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » .

السؤال الثالث عشر :

ان نساءنا يدخلن المدارس ويتعلمن الكتابة ويحصلن على المعارف والآداب بخلاف نساء العرب فان العربية اذا التقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة وكثيرا ما تسقط لعدم معرفتها وجهلها باوضاع الحيلة وان كانت المرأة العربية اعرف من غيرها بآداب المحبة ؟

الجـــــواب :

اعلم ان الكتابة مثل السيف وهي من وضائف الرجال لا من لوازم النساء فالكتابة انما يحتاج اليها الرجال لضبط الخراج والقيام بالحكم والحفظ بتواريخ الامم واخبارهم وقولكم ان العربية اذا التقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة اعلم ان العربيات انما يتعلمن الآداب الذى يليق بازواجهن وتصلح به العشرة بين الفريقين وتجلب قلوب الازواج اليهن ، ومن قول العرب يجب أن تكون المرأة فوق الرجل فى ثلاثة أشياء والا احتقرها : الادب ـ والجمال ـ والصبر ، فاما الادب مع الرجال الاجانب فان نســـاء العرب لا يعرفنه وذلك لانهن لا يجتمعن بالرجال الاجانب فى الملاعب واماكن الرقص والغناء كما يفعل نساء الافرنج ولا يفعل ذلك الا غير المحتشمات وقولكم الموسمات من العرب ما أوقعهن فى الفساد الا عدم معرفتهن اعلم ان الزنا انما يقع من النساء الـلائى ينسبن الى العرب وليس بعربيات اصيلات فان نساء العرب فى الجاهلية كن لا يعرفن الزنا وانما كان يزنى عند العرب الاماء ، ولقد جاء القرآن بذم هذه الصفة فقال : «اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على الا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين » وكان عنـد العرب فى الجاهلية عفة عن الزنا رجالا ونساء لا تخون الرجل زوجته فكيف بهم فى الاسلام الذى جاء لتحريم الزنا وشدد العقاب لمرتكبه • وقولكم أن نساء العرب هن اعرف النساء بآداب المحبة اعلم ان نساء العرب فى هذا المعنى لهم حكايات عجيبة تدل على ان محبتهن قلبية روحانية كما زعمتم ولولا خوف الاطالة لذكرنا لكم أقوال العرب وحكمائهم •

السـؤال الرابع عشر :

نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة واما نساء النصارى فيدخلن الكنائس ويتعبدن مع الرجال ؟

الجـــــواب :

ان الشريعة الاسلامية لم تنه النساء عن الدخول الى المساجد ولم تنه عن الصلاة فيها وقد كانت النساء فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلين معه فى المسجـد فيجوز للنساء الدخول الى المساجد للصلاة فيها ليلا ونهارا بشروط ومنها ألا تكون المرأة متطيبة بطيب له رائحة يشمها الرجال وألا تكون لها خلاخل يسمع صوتها وكن يصلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم •

السـؤال الخامس عشر :

يقال ان المسلمين يمنعون نساءهم من الدخول الى المساجد اذا كن صغيرات وجميلات ولا يمنعونهن من السفر الى الحج ؟

الجـــواب :

لقد ذكرنا لكم انه لا يجوز منع النساء من الدخول الى المساجد فقط بالشروط التى قدمنا ذكرها واما سفرهن الى الحج فلا تسافر المرأة الى الحج الا اذا كان معها زوجها أو رجل محرم عليها أى الذى يحرم عليه ان يتزوج بها شرعا واما اذا لم يكن زوجها أو محرم فلا تحج ولا يلزمها حج ولو كان عندها مال كثير ٠

السؤال السادس عشر :

بلغنا أن بعض الناس يقولون ان النساء لا يدخلن الجنة ٠ وما يكون مصير المرأة التى تتزوج بأكثر من رجل ؟

الجـــواب :

انه من غير المعقول أن تكون الجنة من نصيب الرجال دون النساء ، لان الكتب المنزلة الاربعة الزبور والتوراة والانجيل والفرقان لا تعرق بين الرجل والمرأة ، وان دخول الجنسين الجنة راجع لما يقومان به من أعمال الخير فى الدنيا ٠

واغتنم هذه الفرصة لافيدكم بأن الكتب المنزلة كلها اعترفت بأن القرآن هو الكتاب الاخير الذى جاء مكملا للدين الحنيف ٠ ولست فى حاجة الى ان انبهك لقول الشاعر :

وما الدين الا واحـــد قـد تعـددت شرائعـه حتـى استقـــام آخـرها

وان الديانات كلها التى هى جزء لا يتجزأ من الدين الاسلامى تعترف بأن الزوجة اذا كانت متزوجة فمصيرها كمصير زوجها ، فان كان زوجها من أهل الجنة وهى من أهل الجنة فتكون مع زوجها ، وان كان زوجها من أهل النار وهى من أهل الجنة فان الله تعالى يزوجها برجل من أهل الجنة ٠

السـؤال السابع عشر :

يقال ان المسلمة اذا ماتت لا يخرج الناس فى جنازتها مثل الرجل فهل لهذا صحة أم هو محض افتراء ؟

الجــــواب :

هذا كذب من قائله فلا فرق في الخروج مع الجنازة بين جنازة الرجل وجنازة المرأة وانما الممنوع خروج النساء مع الجنازة لان النساء لا يحفرن قبرا ولا يحملن تابوتا ولا يغسلن ميتا فلا فائدة من خروجهن بل فيه تشويه لقلوب الرجال بالنظر اليهن والى محاسنهن لان القبور محل عظة يتذكر الانسان فيها كيف يفارق الاحباب وكيف يصير الى التراب وحضور النساء لا فائدة ترجى منه ٠

السؤال الثامن عشر :

ان كثيرا من المسلمين لا يانفون من تزويج المرأة الساقطة اذا تابت ولا ينقص ذلك من قدرهم بخلاف النصارى فان الذى يتزوج بالساقطة منهم يبتذل بين الناس ولا يبقى له اعتبار عندهم ؟

الجــــواب :

لا يتزوج بالمرأة الساقطة عندنا الا اخس الناس وأرذلهم وقد نص الشرع عن التزوج قال الله تعالى : « **الخبيثات للخبيثين** » أى الزانيات للزانيين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اياكم وخضراء الدمن) قالوا من خضراء الدمن ؟ قال : (المرأة الحسناء فى المنبت السوء) ومعنى هذا : ابتعدوا عن المرأة الفاسدة ولا تتزوجوها ولقد شبه المرأة الجميلة الفاسدة بالخضارة التى تنبت على المزابل ومواضع القذر ٠ ومن كلام حكماء العرب : لا تتزوجوا العاهر ولا المختلعات ولا المبارية ولا الناشز ولا الانانة ولا المنانة ولا الحنانة ولا الحداقة ، ولا البراقة ولا الشداقة واذا كانت المرأة متولدة من زنا فالشرع لا يمنع من التزوج بها ٠

السؤال التاسع عشر :

هل العرب يطلقون المرأة التى لا يربحون عليها بغير سبب أم غير ذلك ؟ ٠

الجــــواب :

كان العرب فى الجاهلية يدعون ان الربح واليمن والخسران والنحس مرده الى أمور ثلاثة : المرأة ، أو ناصية الفرس ، والمولود أو الدار وقد ابطله الاسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا طيرة ولا عدوى) فقال رجل يا رسول الله فما بال الابل تكون كالغزلان فاذا ادخلها بعير اجرب جربت فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : (ومن اعدى الاول) ولكن بقيت هذه العادة الجاهلية عند بعض الجهلة من المسلمين الذين دينهم ضعيف واما اهل الدين الصحيح القوى فانهم يعتقدون ان الله تعالى يفعل ما يريد بالعبد من ربح وخسران ومن خير وشر لا مدخل للمراة او الفرس او الولد أو الدار أو شيء آخر من المخلوقات لانه لا ينفع ولا يضر الا الله تعالى ·

السؤال العشرون :

المراة عند النصارى يسرها ما يسر الجنس ويحزنها ما يحزن الجنس وهذا التجاوب يقوى الزوج على الحرب مع بنى جنسه والدفاع عن بلاده ، واما المسلمة فقد لا تلتفت الى ذلك ؟

الجـــــواب :

ان هذا الذى ذكرتموه فى نساء النصارى هو موجود فى نساء العرب حتى ان العربيات اذا وقعت لرجالهن هزيمة او وقع قتل لا تترك الواحدة منهن دار زوجها حتى ياخذ بثاره من عدوه وكان نساء العرب لا يبكين المقتول الا بعد ان يؤخذ بثاره تحريضا للرجال على الحرب والدفاع عن بلادهم وقد قال الحارث بن عوف لخارجة ابن سنان اترانى اخطب الى احد فيردنى قال نعم قال من ذلك قال اوس بن حارثة ابن ام الطائى فقال الحارث لغلامه اركب فركبنا حتى لقينا أوسا فى بلاده ووجدناه فى فناء منزله فلما رآنى الحارث بن عوف قال مرحبا جئتك خاطبا ؟ قال ليس لك عندى ما تريد فانصرف ودخل أوس الى امراته غاضبا فقالت من الرجل الذى وقف عليك فمالك لم تستنزله قال انى استخففته قالت وكيف قال : جاءنى خاطبا قالت : افتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال بماذا ؟ قالت بان تلحقه وترده قال وكيف وقد فرط منى ما فرط قالت تقول انك لقيتنى وانا افكر فى أشياء فازجع ولك عندى ما تحب فانه سيفعل فركب اوس بن حارثة فى اثره قال خارجة فوالله انا نسير اذا حانت منى التفاتة فرأيته فاقبلت على الحارث وما يكلمنى فقلت له هذا أوس ابن حارثة فقال وما نصنع به امض فلما رآنا لا نلتفت صاح يا حارث أربع على فوقف له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسرورا فبلغنى أن أوسا لما دخل منزله قال لزوجته ادعى لى فلانة لاكبر بناته فاتته فقال : يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطبا وقد اردت ان ازوجك منه فما تقولين ؟ قالت لا تفعل ، قال لم قالت لانى

امرأة فى وجهى ردة وفى خلقى بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمى وليس بجار لك فى البلدة فيستحى منك ، ولا آمن ان يرى منى ما يكره فيطلقنى فتكون على وصمة فقال : قومى بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل ذلك أو بقريب منه ثم دعا الصغيرة فقال لها كما قال لاختيها انت وذاك وقال انى عرضت ذلك على اختيك فابتاه قالت لكنى الجميلة وجها الصناع يدا الحسيبة ابا فان طلقنى فلا اخلف الله عليه قال بارك الله عليك ثم خرج الينا فقال قد زوجتك بهية بنت أوس قال قد قبلت ثم أمر أمها ان تهيئها وتصلح من شأنها ثم أمر ببيت فضرب له فلما ادخلت اليه لبث هنيهة ثم خرج فقلت : افرغت من شأنك فقال لا والله لما مددت يدى اليها قالت له : اتتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضا يعنى بنى عبس وذبيان قلت تقولين ماذا ؟ فقالت اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى فانى لست فائتتك قلت والله انى لارى عقلا وهمة وقد قالت قولا لا يرد فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه فحملنا عنهم الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير وعاش الحارث الى أن ادرك النبىء صلى الله عليه وسلم ووفد عليه واسلم وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجلا من الانصار فى جواره يدعو قومه الى الاسلام وشعر الحارث قوله :

فان أكبر فانى لداتى   وعاقبة الاصاغر ان يشيبوا

والى هنا انتهت الاسئلة والاجوبة وقد قصدنا بذكرها ازالة اللبس الذى يخيم على افكار الافرنج المتحاملين على دين الاسلام ولقد أوضح الامير فى اجوبته ما فيه الغناء لكل سائل واظهر الحق للعقلاء الذين لا يتعصبون ويريدون الوضوح والبيان على أن الامير الذى اجاب على هذه الاسئلة بالبريد شفعها برسالة يقول فيها للجنرال دوماس : « أرجوك ان تبحث بتدقيق هذه الاجوبة وان رأيت فيها ما لا يساير المنطق والعقل فتفضل باخبارى بذلك حتى اتمكن من افهامك الحقائق التى غابت عنك ولتكن على علم باننا معشر المسلمين نسير مع الحق حيث سار دون تعنت أو مكابرة ولما وصل كتاب الامير طلب الجنرال دوماس حضور المستشرقين والقساوسة وتباحثوا جليا فيما كانوا يظنونه مخالفا للعقل فتبين لهم ان الدين براء من جميع ما يأتيه بعض المسلمين الذين لا يفقهون شيئا عن الاسلام وان هؤلاء يأتون هذه الاعمال جهلا منهم اما الذين أوتوا نصيبا من العلم فانهم لا ينحرفون وسيسعون بكل استطاعتهم ان يكونوا مع الدين •

ولقد تكلم كبير القساوسة فقال ان المسيحيه ما زالت بخـــير ولــو بــقى الامــير فى فرنسا أكثر من المدة التى أقامها بين ظهرانينا لتمكن من أن يجلب للاسلام العدد الكثير من النصارى وان المدة التى قضاها وهى لا تزيد عن خمس سنوات كانت كافية لان يصبح كل من زاره لا ينظر الى الدين الاسلامى بانه دين تعصب أو دين انانيــة وانما دين جاء للبشرية بخير الدارين واننا نحمد الله ان اطلقت الحكومة الفرنسيــة سراح هذا الرجل من الاسر الرهيب الذى كان يعانيه لانه كان مثلا اعلى للرجل المتدين وتكلم مطران امبواز فقال انى خفت خوفا من هذا الرجل ومن اتباعه وخوفا من أن يستهــوى قلــوب النصـــارى ، الا تسمعون للمؤذن قرة محمد فى كــل أوقـــات صلواتهـم ليـــلا ونهـــارا يـؤذن للصـلاة فيسمع الناس من بعيد فلقـد تعجب الحاضرون بما أدلى به هذا المطران وتكلم بعد الاسقف الذى زار الامير بنية ان يستميله الى النصرانية فقال طلبت زيارة الامير واجمعت كل ما لدى من المعلومات مـن أجـل أن يدين بدين المسيح وبقيت معه اقارعه الحجة بالحجة نصف نهار واخيرا خرجت وانا خائف من نفوذه وسطوته لانه كاد يسلبنى من نصرانيتى وسأصبح مسلما بعد ان كنت قسيسا نصرانيا وكان لزاما على الجنرال دوماس والعلماء الدينيين الذين جاءوا للمناقشة فى الاجوبة التى بعثها لهم الامير ان يحيطوا علماء باريس علما بقيمة هـذا الرجل ولقد جر هذا الحديث علماء باريس الى ذكر الامير ومؤلفاته التى وقعت بأيديهم ومواعظه التى كان يلقيها على من يجتمع به منهم واجوبته على اسئلتهم التى كانـوا يبعثونها اليه فوقع اتفاقهم على أن يثبتوا اسمه فى ديوان العلماء من كل أمة وملة من أهل القرون الماضية وكتبوا اليه يخبرونه بذلك فكتب اليهم رسالة ضمنها علوما جمة ذكر فيها « الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبئين رضى الله تعالى عن العلماء العاملين اما بعد : فانه بلغنى ان علماء باريس كتبوا اسمى فى ديوان العلماء وضمونى فى سلك العظماء فحمدت الله على ستره على » ، واشار على بعض المحبين منهم أن اكتب اليهم بعض الرسائل فكتبت هذه العجالة وسميتها ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب وفى كل باب فصل وتنبيه وخاتمة اما المقدمة ... ففى البحث على النظر وترك التقليد وذمه واما الباب الاول ففى فضل العلم والعلماء وفيه فصل فى تعريف العقل الذى به ادراك العلوم وتكملة فى القوى الاربع الـتى اذا اعتدلت فى الانسان كان انسانا كاملا وتنبيه فى فضل ادراك العقل على ادراك الحواس وفضل مداركه على مداركتها وخاتمة فى انقسام العلم الشرعى وفيه فصل فى

اثبات النبوة التى هى منبع العلوم الشرعية وفيه تنبيه فى معرفة النبىء وما يتعلق بالنبوة وخاتمة فى المكذبين للانبياء واما الباب الثالث فقد فضل الكتابة وأبان عدد كتابات الامم وفيه فصل عن كتابة الامم وواضيعها وما ينجر الى ذلك وتنبيه فى بيان حروف الكتابة العربية وخاتمة فى احتياج الناس الى التصنيف وما يتعلق به ثم شرح فى تفصيل ذلك على الترتيب بما يحتار عند سماعه كل عالم نحرير لبيب ٠

هذا هو الامير الذى لم يشرف الجزائر فحسب بل شرف الامة العربية حيث ابان لحفدة لويس التاسع ونابليون الثالث وحفدة شارل مارتل ولمؤرخى الفرنج بوجه عام ومؤرخى البلاد اللاتينية بوجه خاص ومؤرخى فرنسا بوجه اخص حقيقة الاســـلام وعرض طريقه الصحيح فوضع ايديهم على البينات ٠

ان الجنرال دوماس وان اقتنع نوعا ما بالايضاحات التى وفدت عليه من الامـــير غير انه يقصد تعجيزه وجه له سؤالا أخيرا يسال عن الخلافة فى الاسلام ، وطلب من الامير ألا يبخل عليه بجواب يكون مقنعا ، لان مسألة الخلافة تداولها رجال الفكر من مسلمين وغير مسلمين ، وان آراءهم يكتنفها الغموض من جميع جوانبها ٠ وكم يكون مسرورا ان أحاطه علما بحقيقتها ٠

قرأ الامير رسالة الجنرال دوماس وأدرك ان الحامل له ان يطرح هذه القضية هو بغضه للاسلام وللخلافة الاسلامية ، غير ان الامير وضع النقاط على الحروف وارسل له الجواب عن سؤاله عن الخلافة ٠

الخـــلافة

لقد أخطأ الذين يدعون بأن الخلافة هى مقام دينى بمثابة نيابة عن صاحب الشريعة ويقابلها هؤلاء برسالة الامبراطورية الرومانية المقدسة ·

فالخليفة باعتباره أمير المؤمنين كانت وظيفته الحربية أكثر بروزا وأما باعتبـــاره اماما فان فى استطاعته أن يكلف غيره ليؤم الناس فى صلاة الجمعة وليلقى خطبـــة الجمعة وخطبة العيدين وليشرف على صلاة الخسوف والكسوف ·

فالزعامة انما كانت زعامة سياسية وان زعامة النبىء الدينية هى زعامة جاءت عن طريق الرسالة لا غير وقد انتهت الرسالة بموته فانتهت الزعامة أيضا وما كان لاحد أن يخلفه فى زعامته الدينية ورسالته السماوية ·

أما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغيرة على الدين فالخليفة هو حامى الدين بالمعنى المألوف عند ملوك أوروبا يقوم بقمع أهل الزيغ والالحاد والمارقين ومحاربـــة البدع وتوسيع حدود دار الاسلام ·

وتوجد فئة من الناس تقول بأن الخليفة يشبه البابا عند المسيحيين وهذه الفكرة المبتكرة جديرة بأن تقوى مكانته تجاه الدول الاوروبية التى كانت قد اقتطعت أقساما كثيرة من جسم المتلكات واستحوذت على اكثرية مسلمى الاقاليم التى كان يسكنها رعايا آسيا وافريقيا ·

ان الخليفة لما رأى بأن سلطانه أصبح على كف عفريت فكر فيما فكر فى التنادى بجمع شمل المسلمين وتنظيم صفوفهم تحت شعار الجامعة الاسلامية الا أن هذا النوع من التفكير لم يكتب له النجاح ·

ان الخليفة الاول الذى تحمل جميع المسؤوليات التى كان يقوم بها النبىء صلى الله عليه وسلم ، قام بجميع الوظائف الملقاة على عاتقه ما عدا المأموريات التى كانت خاصة بالنـــبىء ٠

والعجيب أن العرب بعد موت الرسول ضاقت بهم الارض بما رحبت حـــتى ان أكثرهم لم يصدق بأن الرسول مات وكان من ضمن الذين لم يصدقوا بموته صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وتعرض لمن يذيع هذا الخبر وشهر سيفه وقال : من قـــال بأن محمدا مات ضربته بسيفى هذا ٠ وكان مسموع الكلمة لدى الشعب لما يعهدون فيه من الذكاء والفطنة ولما كثر الهرج والمرج خرج ابو بكر من الحجرة التى كان بها النبىء مسجى فى ثوبه آخر ثوب الدنيا وعلى وجهه علامات الكآبة والحزن العميق فبادره عمر بقوله أتدرى أيها الصديق بأن الناس زعموا بأن حبيبنا محمدا مات فذرفت عينا أبا بكر واشار عليه بالتربص وطلب من الحاضرين أن يكونوا واقعيين وتلى عليهم قوله تعالى : « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** » ٠

فحينئذ سقط عمر مغشيا عليه ثم قال قولته المشهورة : والذى نفسى بيـــده ان المصاب الجلل أفقدنى رشدى حتى نسيت هذه الآية تماما ٠

ان موقف أبى بكر جعل حدا فاصلا بين الذين صدقوا بموت النبىء وبين الذين لم يصدقوا بموته وبالرغم من الصلة المتينة التى تربط أبا بكر بالنبىء منذ صغرهما ٠

وبالرغم من التضحيات الجسام التى قدمها أبو بكر تأييدا للنبىء المرسل وتدعيما لرسالته الخالدة ٠

وبالرغم من ان النبىء لما خرج لغار حيراء أمره ربه بألا يخرج الا مع ابى بكر ٠

وبالرغم من أن النبىء استخلفه فى الصلاة ولم يكن استخلف غيره من قبل ٠

كل هذه الدلائل وكل هذه البراهين لم تؤثر فى بعض المشاغبين الذين كانـــوا يكيدون للدين الجديد ٠

ان موقف المشاغبين لايستغرب لان النابغة والفيلسوف الانجليزى شرشيل الذى عالج مسألة الدين الاسلامى بمنطق الدين الاسلامى السليم وبان محمدا نبىء مرسل وأن الدين الذى أتى به هو دين حقيقى لان العرب فطروا على عدم الخنوع والخضوع لغيرهم ولو كان هذا الغير اقوى الاقوياء وأن استسلامهم للنبىء وامتثالهم لاوامـــره

وتركهم اللات والعزة وهبل وغيرها من الآلهات الاخرى والاقتناع بما جاء به لا تعد خارقة من الخوارق فحسب بل هى معجزة ومن أنكر ذلك فقد حاد عن جادة الصواب .

ان انتقال النبىء الاكرم من دنيانا هذه الى الملكوت الاعلى كان السبب الرئيسى فى وجود هوة بين المسلمين وخاصة المنافقين منهم الذين لم يتوصل الايمان الى قلوبهم المريضة .

أول عقبة طرحت نفسها بنفسها على المسلمين هى من الذى تتوفر فيه الشروط ليكون خليفة للرسول فانقسم الناس وتازم الموقف وحاول الانصار أن يطالبوا بالخلافة مدعين بأن النبىء لم يجد التأييد الا منهم وأنهم كانوا ولا زالوا ولن يزالوا الدعامة الكبرى لهذا الدين القويم وأنهم هم وحدهم الذين أخذوا على عواتقهم نصرة الاسلام وجابهوا يهود بنى قريظة وبنى خيبر الذين ما فتئوا يعملون فى الخفاء من أجل القضاء على الدين الاسلامى وأنهم هم الذين خيبوا رجاء اليهود فى اقامة حلف بينهم وبين قريش مكة وبين عباد الاصنام ولم يقتصروا على ذلك بل ذكروا باسهاب جميع ما قاموا به من أجل نصرة الرسول وفى الختام ذكروا بأن المدينة هى البلد الذى منه خرج النور الى الدنيا بأسرها وأن النبىء اختار بأن يكون مقره الاخير بها وهذا يكفى بأن لا ينافس المهاجرون اخوانهم الانصار فى الخلافة لانهم أصحاب حق .

ان هذا الاتجاه من طرف الانصار فتح الباب للمنافقين الذين لم يدخلوا الاسلام عن ترو تام وايمان قوى وانما دخلوه خوفا ورهبة، واحتار المهاجرون من قريش من موقف الانصار وتقدم بعضهم ليرد عن مقال الانصار غير أن الرجل القوى عمر الفارق أوقفه فى مكانه قائلا له على رسلك وحدق فى الانصار والكل على دراية من قيمة هذا الرجل وقوته وذهب رأسا الى ابى بكر وبايعه على الخلافة وقال للجمهور أن هذا الامر أى الخلافة لن يكون فى غير القرشيين فتعالب الاصوات شاكرة عمر على عمله هذا الذى أخرج به المسلمين من المازق وفرح الناس بما قرره عمر لانه أغلق باب الخلاف الذى أوشك أن يصيب المسلمين فى الصميم وأفلتت من أيدى اليهود الفرصة الذهبية التى كانوا ينتظرونها بفارغ صبر وهى عرقلة الاسلام من أن يسير قدما الى الامام .

ان اعداء الاسلام فى الداخل والخارج ظنوا بان الدين الاسلامى عمر ما عمر وستكون نهايته كنهاية الاديان السماوية الاخرى ولا يمكن لاية شخصية منهم أن تتفادى الخطر الداهم لان هذا الدين الجديد الذى غير الاوضاع رأسا على عقب بفضل

ما كان يمتاز به محمد من قوى جبارة لن يصمد للاحداث ومن يوجد في المسلمين من يخلف محمدا ولو كان أبو بكر .

وفي الوقت الذي حدثت هؤلاء الاعداء أنفسهم بان يوجهوا الضربة النجلاء لهذا الدين الذي افسد عليهم خططهم وهدد كيانهم فاذا بالخليفة الاول أبي بكر الصديق ينذر الخاص والعام بان الدين عند الله الاسلام وأن الذين يريدون ان يطفئوا نوره بافواههم سيسحقون سحقا وان هذا الدين سائر في طريقه وأن الله لن يخذله لانه وعد بذلك وأن الله لا يخلف وعده وان الفرقان لن يعتريه ما اعترى الزبور والتوراة والانجيل وانه باق على ممر الزمن مهما كانت الاجراءات التي يلجأ اليها البعض ومهما كانت المحاولات التي يتفنن فيها الآخرون ولا يعزب على هؤلاء واولئك قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ان البرامج التي هيأها أعداء الدين الاسلامي في الداخل والخارج تبخرت واصبحت أثرا بعد عين بفضل الوقفة الجبارة التي وقفها أبو بكر بعد ان ولي أمر المسلمين .

فاول عمل قام به ان وجه الضربة القاصمة لظهر مسيلمة الكذاب وغيره من الذين ادعوا بان الوحي نزل عليهم ورموا وراء الاظهر قوله صلى الله عليه وسلم : (لا نبي بعدي) وقد كانت المشادة بين أبي بكر وهؤلاء المشعوذين حامية الوطيس وقد اسفرت عن تلاشيهم جميعا .

ان أبا بكر الصديق الذي كتب على نفسه أن يسير على المنهج الذي سار عليـــه النبيء أعلن على وجه الملأ بان من كان ينوي السوء للدين المحمدي فان عاقبته ستكون وخيمة وانه لن يدخر وسعا من أجل القضاء المبرم على من يسعى لالحاق الاذى بهذا الدين وتشويه معالمه .

وبعد الاعلان الجريء قرر بعض الاشرار عدم دفع الزكاة وجاء الى أبي بكر عمر الفاروق هذا الرجل الذي عرف عنه بانه ذو قوة متين هذا الرجل الذي كان من أعداء النبيء وكان قد عزم على ان يقتل محمدا انتقاما منه على ما الحق بآلهة قريش من سوء ولكن شاءت الاقدار ان تنقلب عداوة هذا الرجل للدين الجديد الى تأييد كامل وتفان ليس له نظير لما جاء به محمد وثاب لرشده وانتقم لرسول واصحابه واستاء من أن النبيء كان في بدا الاسلام لا يصلي صلى الله عليه وسلم مـــع أصحابه الا متستـرا خـوفا مـن أشرار

قريش فقال له يا رسول الله فلنخرج ولنطف بالكعبة على مرأى من الناس ولنجهر بديننا على مسمعهم ·

ان هذا الرجل الذى سجل اسمه فى التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز لما استشار النبىء فى الهجرة الى المدينة ليلتحق به ووافقه النبىء على ذلك ليدعم الدين فى المدينة المنورة هيا نفسه للسفر وأخبر المسلمين الذين لم تسمح لهم الظروف بان يخرجوا من مكة أن يكونوا حذرين من دسائس ومؤامرات المشركين وأن يكونوا على يقين بان الحق قد حصحص وأن الباطل قد زهق وأن الدين الاسلامى سينتصر فى آخر المطاف وامتطى جواده وتوجه الى الكعبة فطاف بها سبعا حسب التقاليد المعهودة عند قريش ونظر لاعيان قريش نظرة الاسد الذى لا يقهر قائلا : (يا قوم انكم مازلتم فى ضلالتكم تعمهون وانكم تظنون بان تحولوا بين النبىء واصحابه بمنعكم اياهم من الالتحاق به الى دار الهجرة وأنكم بعملكم هذا قد جنيتم على أنفسكم من حيث لا تشعرون، واعلموا أن عدد المهاجرين سيزداد يوما بعد يوم احببتم أم كرهتم وانى ذاهب الآن لاكون مع حبيبى محمد ومن شاء منكم أن ييتم أولاده ويرمل زوجته فليعارضنى أو يعترض طريقى·وخرج وتركهم منكسى الرؤوس خوفا من بطشه والتحق بالنبىء بالمدينة وجاهد فى سبيل الله ايمانا منه بعدالة المبادىء التى جاء بها محمد ·

لقد كان مجىء عمر حدثا كبيرا اغتبط به سكان المدينة قاطبة مهاجرين وانصار أما اليهود فاعتبروا التحاق عمر بالركب الاسلامى كداهية ستصب على رؤوسهم ·

ان اليهود لم يخطئوا حيث ادركوا أن مجىء عمر قد قوى عزيمة النبىء الذى كان يستشيره فى كل المهام ويتبع آراءه لانها آراء قلما تخطىء ·

وقد تكلم أحد اساطين اليهود بأن نهايتهم قربت وأنهم لن يفلتوا من قبضة النبىء القرشى لانه يعتمد على عمر وان عمر سينصحه باجلائهم عن اراضيهم بعد ما يفتك بهم ·

أتدرون ما قال عمر للخليفة ابى بكر الصديق الا يستعمل مع مانعى الزكاة القوة ، فقال أبو بكر له أنت الذى كنت المثل الاعلى للرجل المقدام ترهبك الآن هذه الشرذمة التى استولى على عقولهم الشغب واصبحوا يعملون على اضعاف الدين وشل حركاته وقرروا تقويض أركانه الخمسة فاجاب عمر : «ان الاسلام ما زال يحبو واننا مقدمون على خوض معركتين معركة فى الداخل ومعركة فى الخارج وأرى أن نترك كل واحد من مواطنينا حرا ومن لم يهده ايمانه ونكث العهد الذى اخذه على الرسول فان الساعة التى سيحاسب عنها آتية من دون ريب ·

فأجابه أبو بكر : والله لو منعونى عقالا لشهرت ضدهم حربا لا هوادة فيها وفعلا فان مانعى الزكاة الذين جمعوا أمرهم على مناوءة أبى بكر قد غلبوا على أمرهم واستسلموا أخيرا لحكم أبى بكر ودفعوا الزكاة بالرغم منهم وبعد انتصار ابى بكر على هؤلاء الانذال جاء عمر وطلب من الخليفة الاول أن يستغفر له الله على فكرته الخاطئة فطمنه أبو بكر بقوله : لا داعى لان استغفر لك الله لان قصدك كان قصدا حسنا وانك كنت مجتهدا والمجتهد ان أصاب له أجران وان أخطأ له أجر واحد وأن النبىء كان يعتمد عليك وأنا بدورى سأعتمد عليك لكى يعلو الدين على أعدائه ولو اعجبتهم كثرتهم .

ان المهمة التى قام بها أبو بكر كانت مهمة شاقة للغاية ووجد رضى الله عنه فى طريقه متاعب لا أول لها ولا آخر واضطر ان يوافق بين احكام غير منسقة قوامها العرف والعادة وضعت لمجتمع عربى بدائى وبين مجتمع هائل من أخلاط الملل والنحل يعيش تحت ظروف متباينة .

تلك كانت أعقد مشكلة واجهت الاسلام والقائمين على أمور الحكومة الفتية .

وأول من تصدى لهذه المسألة الخطيرة كان عمر الذى تقلد الادارة بعد ما التحق الخليفة الاول بجوار ربه أى عامين بعد وفاة النبىء المرسل صلى الله عليه وسلم .

وكان أول قرار اتخذه عمر لكى يأمن شر الطابور الخامس هو الا يسمح لغير المسلمين بأن يسكنوا الجزيرة العربية وقد شمل هذا القرار يهود خيبر الذين عقدوا حلفا مع النبىء ولنكثهم للعهد الذى أخذوه على أنفسهم قد أطردهم عمر شر طردة ما بين السنة الرابعة عشر والخامسة عشر هجرية .

وان اقصاء عمر لليهود من خيبر كان لسبب رئيسى وهو أنهم كانوا يضمرون للاسلام وللمسلمين الشر كله وأنهم كعادتهم يتربصون الفرص المواتية لينتقموا من آل محمد حيث عجزوا عن التغلب عن محمد وكانوا لا ينفكون عن اختلاق الاسرائيليات ليبثوا الفوضى بين المؤمنين ناسين قول النبىء الكريم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

وقد زحزح عمر اليهود عن المدينة هذا البلد الطيب الذى به ضريح البشير النذير وازواجه الطاهرات وأصحابه الميامين .

هذا البلد الذى به البقيع وعن البقيع حدث ولا حرج .

هذا البلد الذى هو قاب قوسين أو أدنى من بدر وما معركة بدر الخالدة بخافية عن الذين هداهم الله للطريق المستقيم .

نابليون الثالث
يصلح خطأ من سبقه في الحكم

ولئن كان لاموريسيار وابن الملك لويس العاشر والملك لويس فيليب وأعضـاء المجلس الوطنى الفرنسى وجميع المغرضين فى فرنسا تنادوا فيما بينهم ، على أن يبقى الامير الى آخر يومه سجينا فى فرنسا ، فان رجلا فرنسيا له قلب رحيم ويمتاز بنبل عديم النظير ، قد رأى الا يمكن أن يبقى الامير ولو فى قصر أنيق بفرنسا لان بقاءه بها معناه أن ما يعد به الحكام الفرنسيون وقادة الجيش انما هو حبر على ورق ٠

وقرر أن يقضى عـلى الخرافة التـى تقـول : ان فرنسـا اذا وعدت اخلفت واذا أوعدت نفذت ، ان هذا الرجل هو نابليون الثالث ٠

وحينما اعتلى نابليون الثالث الحكم كان أول ما قام به أن الان المعارضين الذيـن كانوا يدعون بأن الامير ما هو الا اسير ويجب أن يعامل كذلك فكتب اليه يقول :

« أيها الامير ، ان الانسان اذا وقع فى وحل يتعين عليه فى خلاصه منه أن يرفع رجلا بعد أخرى ، وقد أردنا أن نطلق سراح من لهم أقارب فى وطن الجزائر مـن جماعتك الذين هم معك فى امبواز ، فان رجوعهم الى وطنهم أولى وأربح لك من القيام بشؤونهم » ٠

ولما جاء الامر بسفرهم أخبر الامير بذلك فصعب عليهم فراقه وبعد سفرهم بمدة أتى أمر لسفر اخوة الامير واتباعهم فاخذوا الى مدينة الجزائر ومنها الى عنابة ٠

وبعد سفر اخوة الامير بعث اليه بكتاب نصه :

« انما فعلت ذلك لاختبر أحوال الامة الفرنسية من جهتكم فان سكتوا ولم يتعرضوا أطلق سراحكم للمشرق وان وقع منهم اعتراض لما عقدت العزم ان اقوم به أو تعرضوا

لسراحكم فأقول لهم : غريمكم والمقصود بالحكم هو نفس الامير وما زال محبوسا . ولما تبين لنا الآن رضاء الامة بما فعلناه فابشر بالفرج » .

وكانت المراسلات سرية بين الامبراطور نابليون الثالث والامير بواسطة المرافق الخاص للامير القبطان بواسينى والموكل بأمور الامير .

وسر الامير بما قام به امبراطور فرنسا وفهم من قرائن الاحوال أن الامبراطور سيتخذ جميع الوسائل للوفاء بالوعد ، وأنه سيبرهن للعالم بان حكام فرنسا غير متساوين ، منهم من يضرب بالتعهدات عرض الحائط من دون أن يكترث بما يلحق فرنسا من تدنيس لسمعتها وتشويه لتاريخها فان نابليون الثالث ليس من هذا الطراز ، وأنه هو القائل لست امبراطور فرنسا فحسب ، بل أنا امبراطور العرب ، وان بفضله تمكن الامير أن يخرج من السجن الرهيب الذى زج فيه .

ان اعمال نابليون جديرة بان تشكر ولا ينساها الجزائريون لانه هو الذى قصم ظهور القادة العسكريين فى الجزائر ، وأنه هو الذى منع المستعمرين من مصادرة الاراضى الخصبة ، وهو الذى اعترف بملكية الاراضى المشاعة للمواطنين الجزائريين دون غيرهم وقد زاد لامجاده أمجادا حيث قرر زيارة الامير فى منفاه فى أمبواز .

سنحت الفرصة لنابليون الثالث فى انجاز وعده حينما اعتزم الخروج من باريس ليتفقد أحوال البلاد ، فلما مر بمدينة تور بعث الى القبطان بواسنى يخبره بمروره على أمبواز ويامره أن يتلقاه فى موقف السكة الحديدية التى تقله ويهيأ له مركبات ليتوجه فيها الى القصر ليجتمع بالامير فلما كان اليوم المعين يوم الثلاثاء ثالث محرم سنة تسع وستين ومائتين وألف والسادس عشر من أكتوبر سنة اثنين وخمسين وثمانمائة وألف خرج نابليون من مدينة «تور» وفى معيته الماريشال سنتارنو وزير الحرب والجنرال روغو والكولونيل فلورى ولما وصل لمحطة السكة الحديدية نزل وسلم على الجمهور الذى كان ينتظره ، ومكث قليلا ثم ركب متوجها الى القصر ولما قرب منه نزل الامير عند باب القصر . فلما رآه نابليون نزل عن المركبة فتلقاه الامير وسلم عليه ثم مشى نابليون ويده فى يد الامير الى أن دخلا القصر ولما استقر بهما المجلس أقبل نابليون على الامير وسأله عن حاله وضيق صدره ومكثه بهذا المحل أربع سنوات ثم قال : « انكم استرعيتم نظرى واستلزمتم محبتى بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة وجميع ما أبرزتموه من أنواع المدافعة عن وطنكم ولا أنظر اليكم كأسير بل

كضيف محترم ، فأجابه الامير : انني كنت اسمع بمحاسن أخلاقكم وعلو جنابكم المعلومين عند الجميع فتعشقتكم عيانا ، وتولدت في قلبي لكم محبة عظيمة ، وفي هذا اليوم قد ازداد حبي وتعظيمي لما أظهرتموه من اللطف والاحسان وانني مدة اقامتي بهذا القصر قد رأيت من أهالي فرنسا المعاملة الحسنة التي لا أنساها أبدا وكنت أعامل معاملة ضيف لا معاملة أسير ، فقال نابليون الثالث : انه كان في خلدي من مدة انني لو وجدت الى خلاصك من يد من لم يكترثوا بوفاء العهد لك ما تأخرت عن ذلك ، ثم ان الله وجه قلوب الشعب الفرنساوي الى فاختاروني رئيسا لحكومتهم واني لما اسلمت مقاليد الحكم صممت على اظهار ما كان في الخيال الى الاعيان ، والآن صار وقته ، ثم أخرج من جيبه ورقة وناولها الامير وقال هذه ورقة تسريحك تعلن بوفاء عهد فرنسا لك ، فاخذها الامير مستبشرا بما سمعه منه ، ودعا له واثنى عليه ونص ما في الورقة : انني أتيت لاعلن لك بحريتك وأنك ستحمل بمن معك الى عاصمة سلطان تركيا وذلك بعد الفراغ من الترتيبات اللازمة لسفرك وستعين لك الحكومة الفرنسية مرتبا يليق بمقامك ، واعلم أن سجنك قد كدرني مدة طويلة ، وكنت أحسب أن الحكومة السابقة قد قصرت جدا حيث أنها لم تتم ارتباطاتها معك وعندي أن عدم الثقة بأمة عظيمة من جهة نقض عهدها يحط قدرها وشأنها ، وأخبرك بما اعتقده فيك وهو أنك لا تحرك ساكنا في الجزائر لعلمي أن ديانتك توجب عليك الخضوع والتسليم لاحكام القضاء والقدر ، فان استيلاء فرنسا على الجزائر ما وقع الا بارادة الله تعالى ، واعلم أن دولة فرنسا بل الامة كلها لا تتخلى عن ذلك الاستيلاء وآخرها يموت قبل أن يسلم فيه ، وان كنت عدوا لفرنسا فلا يمنعني ذلك من أن أشكر أخلاقك الكريمة وشجاعتك وصبرك على الشدائد ، ولذلك أفتخر باطلاقك واثقا ثقة تامة بقولك : حرر في السادس عشر من أكتوبر سنة اثنين وخمسين وثمانمائة ثم قال نابليون للامير انني بعد عشرة أيام أراك في باريس لتحضر الاحتفال المقرر اجراؤه ووجودكم بذلك الاحتفال يكون باعثا للافتخار ، ثم هيئت مائدة الغداء وكان الاكل على الطريقة الجزائرية ، بعد الفراغ من الاكل قام نابليون الى المنتزه المطل على البلد ونواحيها ، وعند خروجه منه قدم له الامير والدته ، فقبل نابليون يدها وسألها الدعاء ، ثم قدم له أولاده وخليفته والاتباع فحيوه تحية اعظام واكبار ، وأظهروا له السرور بما فعل مع سيدهم ومعهم فقابلهم بالقبول والبشاشة .

قال بعض المؤرخين : ولهذا القصر آثار تاريخية وهو أنه كان مقرا للكثيرين من ملوك فرنسا ، واول من اتخذه مقرا لويس الحادى عشر وشارل الثامن ولد وتوفى فيه وقلود فرانس زوجة فرانسوا الاول ولدت أكثر أولادها فيه ، وزاد له لويس نابليون الثالث شرفا عظيما حيث أعطى فيه عبد القادر الحرية وقرر اطلاق سـراحه.

وبعد مضى تسعة أيام تلقى الامير دعوة من نابليون ليكون فى باريس فى اليـوم السابع والعشرين من أكتوبر 1852 ، فتوجه الامير الى باريس بمعية مؤذن الصـلاة قرة محمد والسيد علال والقبطان بواسيني ، وكان يوم دخوله باريس يوما مشهورا .

ومن العجب العجاب أن الامير الذى كان عدوا لفرنسا أصبح محبوب الجماهير فى فرنسا ، وكان الانسان لا يسمع الا كلمات « عاش الامير عبد القادر » أما العدو الالد للامير الجنرال لاموريسيار فكان يمر فى الشوارع من دون أن يتنبه اليه أحد .

ولقد حضر الامير احتفالا بملعب باريس حضره لويس نابليون الثالث ، وقد أجلسه نابليون الى جانبه ، وبعد اتمام الاحتفال ودعه نابليون قائلا : سأخرج بعد يومين للصيد وبعد رجوعى سنجتمع فى قصر سنا كلو .

ولما رجع نابليون الثالث من الصيد اجتمع بالامير ، وبينما هو فى القصر اذ قدمت اليه نسخة من جريدة صباحية ، وبعد أن قرأها تألم وخرج ليقول للوزراء الذين كانوا معه : ان جرائد فرنسا ذكرت أن نابليون لما حضر الى امبواز اشترط على شروطا وعلق التسريح على قبولها وانه استحلفنى على الوفاء بها وانى قد قبلت تلك الشروط وحلفت له على الوجه الذى أمر به مع أن هذا لم يقع بينى وبين جلالته أصلا ، غير أنه لما كنت فى أمبواز قبل سفرى هذا عزمت على أن أجدد عهدى الذى أعطيته الجنرال لاموريسيار وأفعل ذلك باختيارى من غير أن يأمرنى به أحد ليعلم الناس انى أفعل ما أفعله واترك ما أتركه بارادتى .

وقال بالمار المؤرخ الفرنسى الذى عينته الدولة الفرنسية ليرافق الامير : ان الامير بعدما أفهم الحاضرين أنه لم يشترط عليه الامبراطور أى شرط ناولنى ورقة مكتوبة باللغة العربية فقدمتها للمترجم فترجمها ونصها :

الحمد لله وحده أطال الله بقاء سيد الملوك وأعظمهم لويس نابليون الثالث وأسعد ايامه وسدد أحكامه ، أنا المتكلم بين أيديكم فى هذا المجلس الموقر عبد القادر بن محيى الدين جئت الى حضرتكم العلية لاجل تادية شكرى لكم وثنائى الجميل على احسانكم

الى وامتنانكم على قدر طاقتى والا فلا اقدر أن أقلل صنعكم الجميل بشكر يوافيــه ولـو عشت الـدهر كلـه ، ومما يـدل على كمالكم وصـدق حرصكم وصفـاء طويتكم أنكم لما علمتم أننى لست ممن ينقض العهد ويحنث فى يمينه وثقتم بى واطلقتم سراحى ووفيتم لى بعهد لم يحله من عقده ، ولم ينقضه من أبرمه، وغدر فيه من اوثقه واحكمه ، وفعلتم ذلك من غير أن توقفوا أمرى على ذلك ، وبناء على ذلك فهاأنذا بين يديكم فى هذا المجلس اقسم بالله تعالى وصفاته انى لا أفعل شيئا يخالف ثقتكم لى ولا أنقض سابق عهدى الذى أعطيته ، ولا ارجع الى قطر الجزائر ، ولا أشوش على الفرنسيين فيها بفعل ولا قول فانى لما أقامنى الله قمت ودافعت عن دينى ووطنى على قدر ما أمكننى ، ولما اقعدنى قعدت خاضعا لاحكامه ، وتركت الملك وجئتكم ودينى وشرفى يأمرانى بوفاء العهد ، وصدق الوعد وهل يتصور عاقل فضلا عن فاضل بعد أن نلت فضلكم الذى لا ينسى وأنا عاجز عن مقابلته بالشكر والثنـاء أن أخونكم أو أفعـل شيئا ينـافى معروفكم كيف والمعروف رباط معلق باعناق أهل المروءة ٠

وتوجه الامير الى قصر سناكلو ، وكان مجيئه قبل مجيء نابليون فاستقبله الجنرال دوماس ، وأدخله القاعة الكبيرة فرأى فيها ساعة كبيرة تعرف بها الاوقات فى جميع البلدان فسأل الامير الجنرال دوماس على حلول وقت صلاة العصر فى مكة المكرمة فاجابه بان الوقت قريب ولما حان وقت الصلاة ، أعلمه بذلك الجنرال دوماس فقام وصلى العصر وهى أول صلاة اسلامية صليت فى هذا القصر ، ثم جاء نابليون ومعه وزراؤه فبش فى وجهه وعرفه بالوزراء وسلمه الامير الورقة التى ترجمها بالمار قائلا له ، ان رايتَ فيها خللا فانى مستعد لاصلاحه فشكره نابليون ، وقال للامير وهو يشير بأصبعه الى الوزراء : ان هؤلاء وعدوا وعودا لم ينجزوها وأنت تفضلت بما لم تعد به ، فشكرا لكرمك ثم قال : اعلم يا عبد القادر انى احببتك لثلاث خصال :

اولا : دفاعك عن دينك ووطنك ٠

ثانيا : لما عجزت استسلمت للقدر ، وان كانت فرنسا لم توف بعهدها فانا قد وفيت به ، وأزلت عنها ذلك العار الذى ارتكبته ٠

ثالثا : انه لما كان محجورا عليك صبرت وتحملت ، واشكر الله حيث كان محجورا عليك وأنت بين أهلك ، وأما انا فكان محجورا على فى حجرة وحدى لا أرى الشمس الا ساعة من النهار ٠ وهذا ما يجعلنى أثق بك كل الثقة ، فلا احتاج الى هـذا الصك

الذى قدمته الى باختيارك ، ومن المعلوم أنى ما طلبت منك عهدا ولا ميثاقا ولا اشترط عليك شرطا ما ·

وحيث انك تبرعت بذلك من تلقاء نفسك فهانذا قد قبلته وسررت به ، ولا شك ان صنيعك هذا يبرهن للامة الفرنسية على أنى ما أخطأت فى حسن اعتقادى فيـك وقوة ثقتى بك ·

ولما انقضى المجلس توجه الامير والامبراطور نابليون الثالث الى الاسطبل وخرجا يتمشيان ، فرأى الامير فرسا أعجبه لونها فقال له : نابليون ، انها هديتى لك ، وانى سأقيم عرضا للفروسية فى الغد احتفاء بك ، وأود أن أراك ممتطيا هذه الفرس بسرج جــزائرى ·

ولما حان وقت الصلاة استأذن الامبراطور فى أداء الصلاة فى ذلك الموضع خشية فوات الوقت فأدى الصلاة بمرأى الوزراء والوجهاء · وأدب له الامبراطور مادبة حافلة فى قصر فرساى حضرها الوجهاء والكبراء وبقى الامير يتنقل من حفل الى آخر ، وتمكن الامير فى أثناء اقامته بباريس أن يزور الاماكن الاثرية ومعالم المدنية ، وكلما مــر بشارع سمع الهتافات « عاش عبد القادر » ، وقال أحد الاعيان الذى كان برفقة الامير : أيها الامير المبجل ، انك ترى على وجوه سكان باريس علامات السرور والابتهاج · وانهم يحيونك بمرح ، ويتمنون لك طول العمر حيث ان العداوة التى كانت بيننا وبينـك زالت الى الابد ·

وقرر الامير أن يزور مطبعة الحكومة ، فى اليوم التالى ، ولما ذهب اليها قابله مديرها بالترحاب ، وسلمه صورة من الصك الذى كان أعطاه أياه نابليون ، وقد كتب مدير المطبعة فى قطعة حرير أبيض : الحمد لله وحده الشريف المعظم الحاج عبد القادر بن محيى الدين أطال الله أيامه ، شرف بزيارته المباركة دار الطباعة الحكومية الفرنسية سنة 1852 · فتعجب الامير لدقة الصنعة وعند الانصراف سأل المدير عما رآه فقال بالامس رأيت مصانع المدافع التى تهدم بها الحصون والقــلاع واليوم رأيــت الحــروف التى بفضلها يعم الوعى ويسود الاتفاق بين الشعوب على اختلاف الوانها ولهجاتها ·

ولقد طلب الامير من الامبراطور ان يأذن له بان يرجع الى قصر أمبواز حتى يتمكن من أن يتهيأ للسفر فاذن له بذلك وقال له : ان دولة فرنسا ستعين لك مرتبا شهريا يكفى

نفقاتك ويغنيك عن التناول من خزينة غيرها • وقد أمرت أن يصنع لك سيف يليق بمقامك،وبما أن عمله لم يتم قبل سفرك الى تركيا فسيسلمه لك سفير فرنسا فى الاستانة وأعلم انى أقدم لك هذا السيف وأنا على يقين من انك لا تجرده على فرنسا •

فاجابه الامير : اننى الآن ممن يستعمل القلم لا ممن يستعمل السيف ، فابتسم الامبراطور قائلا : انك سلمت سيفك قائد جيوش فرنسا ، فأحببت رد الجميل بأن تخرج من فرنسا وبيدك سيف •

وقبل أن يغادر الامير باريس بعث لوزير الخارجية كتابا مفصلا ، لم يترك فيه شاردة ولا واردة وختمه بقوله ان ما رأيت منك من لطف يدل على أنك ستعمل ما فى وسعك من أجل تحقيق رغباتى • ورجع الامير الى أمبواز وبعد أيام كتب دوران وزير الخارجية الفرنسية الى الامير ما نصه : الامير الامجد قد اتصل بيدى كتابكم الكريم واعلم اننى لو بذلت جميع ما فى وسعى للحصول على مطالبك لا أرى انى وفيت لمقامك العظيم حقه ، وعلى كل حال فانى الآن أخبركم أن الاشياء التى أشرتم بها قد أجابها الامبراطور وأمر بتنفيذها ، فاعددنا لك سائر ما يلزم سفرك من أمبواز الى مرسيليا ومنها الى بروسة،والقومندان بواسينى ومن معه سيكونون فى خدمتكم مع طبيب وترجمان وغيرهما وقد أجاز وزير الحرب أن يكونوا بمعيتكم ويستمروا فى خدمتكم الى بروسة واقاربكم الذين حضروا من طنجة الى مرسيليا ليتوجهوا معكم وهم السيد مصطفى أبو طالب والسيد الطيب بن المختار ، ومن معهم قد بعثت الى حاكم مرسيليا بان يقوم بشؤونهم الى أن يجتمعوا بكم وما أشرتم به حاز القبول ، وأمر الامبراطور أن يرتب لك الامور،وان المكاتبات التى بعثتها الى خادمكم الحاج الحبيب بن المهر المقيم الآن فى تونس قد وجهنها اليه، وأوعزت الى قنصل فرنسا هناك أن يسعفه بما يحتاج اليه ويحمله الى محل اقامتكم مجانا من غير توان وما ذكرتموه من أجل الضابط ميلى الذى خدمكم فى هذه المدة من كونه أخلص فى هذه الخدمة وصدق فيها قد بلغته وزير الحرب ، واكتسب الضابط بذلك رضاه ، ولابد أن يعامله بما تحبون له •

وأعلم ان سفيرنا فى اسطنبول قد اخبرنا ان حضرة السلطان أمر لكم بمنزل يليق بكم فى بروسة فستنرتاحون هناك أنتم ومن معكم •

وبالجملة فان مطالبكم كلهاحازت القبول وكنت أتمنى أن أراكم عند السفر واقوم بتوديعكم واجرى الوداع مشافهة،لكن كثرة اشغالى حالت دون ذلك وحيث توفرت عندى اسباب

المودة واصارحكم بانى احبكم وان مودتى لكم تستمر من دون انقطاع ولا تبرحون من خاطرى وساكون معكم بعواطفى برا وبحرا ·

وفى الاول من ربيع الاول سافر الامير باهله ومن معه من أمبواز الى الاستانة وما من بلد يمر عليها الا تلقاه أهلها بالبشر والاجلال · ولما قرب مدينة ليون الشهيرة تلقاه الجنرال « مونتوبان » ، وكان حاضرا يوم استسلام الامير وكان برتبة ضابط فقط فابدى للقائه الاحتفال الكامل واصطفت الجنود خارج البلدة ·

وفى اليوم الثانى جمع الجنرال العساكر وكانت نحو العشرين ألفا ما بين خيالة ومشاة فى سهل خارج البلد وخرج هو والامير وبعض جماعته ، وعند وصول الامير والجنرال الى مصاف العساكر سلموا عليه ، ثم باشروا فى عمل ايقاع حربى باطلاق البارود والمدافع وكانت الخيل تكر بعضها على بعض وتفر وتقبل وتدبر ودام ذلك حتى حان وقت الغروب ، ثم دخلوا البلد ، وكانت مزينة بالمصابيح والاعلام بزينة كاملة ، وكان ذلك اليوم وليلته من المواسم المعدودة ·

وفى اليوم الثالث توجه منها فى اعزاز واعظام واكبار الى أن دخل مرسيليا وقد أجمع اهلها على حسن استقباله وقام فيها الى أن تهيأ لركوب البحر مسافرا فى الباخرة الحربية التى اعدتها الدولة الفرنسية لسفره وجعلت مسيرها رهن ارادته ·

ولما وصل الى جزيرة صقلية نزل بسيسلية فتلقاه حاكمها وأجل مقامه ، وخرج معه فى جماعة الى المدينة وجال فى اوجائها ثم سار على عربة خيل الى جبل النار ، وهو أحد البراكين المشهورة قال الامير وكان السير ثلاثة ايام تارة على العربات وتارة على الخيل الى ان وصلناه ثم صعدنا الى أعلاه فرأينا النار ترمى بصخورها موقدة أمثال النحت الى أسفل ، ثم تصير ماء جاريا يلتهب نارا · وهذا من أعجب ما يرى ويسمع من آثار القدرة الباهرة ثم جعل ينظر الى نواحى الجزيرة ، وسهولها الممتدة المغطاة بشجر الليمون بانواعه واجنتها الواسعة وجبالها الشامخة المغطاة بشجر الزيتون ومناظرها الزاهية الباذخة ، فذكرنا من سكنها وعمرها من المسلمين كانهم ما برزوا فى رباها ولا تحلوا بسناها وهذه الجزيرة واسعة كثيرة المدن والقرى والحصون ، وأول من غزاها من المسلمين معاوية بن خديج والى افريقيا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ولم يفتحها ثم تتابع الغزو اليها فى أيام بنى الاغلب من أول اماراتهم الى آخرها ، واستولوا على اكثرها ، ولم يزل الفتح فيها والغزو اليها الى أن انقضت سطوة بنى الاغلب سنة مائتين وست وتسعين وألف ، كما تقدم فى أخبارهم ·

ثم تجدد الغزو اليها والفتح فى أيام الفاطميين الى أن فتحها عاملهم أحمد بن الحسين سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة والف ، واستمرت فى أيدى المسلمين الى أن استردها الافرنج واستولوا عليها وذلك حينما ضعف أمر الخلافة ·

ذكريات بعثت فى قلب الامير الاسى والحزن ان ما قاساه الامير لم يؤثر فيه وبقى هو هو لانه كما قال اعداؤه الرجل القوى ذو المواهب الخلاقة ، انه عبقرى ·

وبعد أن اجتاز صقلية قال لرفقائه وقع لهذه البلاد ما وقع للجزائر وانها أصبحت الآن فى أيدى اناس لا يرحمون ، ولا يمكن لمواطنيه ان يخرجوا فرنسا من اراضيهم الابعدان يوحدوا كلمتهم ، وأن ينبذوا وراء الاظهر الانانية وحب الذات ، ويتحتم عليهم الا يفكروا الآن الا فى شىء واحد وهو عدم السماح لفرنسا بأن تعبث بمصيرهم وادعو اللـه لى ولهـم ·

ان خسر الامير وجيشه المعركة الاولى انهم لن يتركوا الكفاح حتى يتمكنوا من احباط مساعى فرنسا وارغامها على الاستسلام لا بالدس والمؤامرات كما فعلت هى بل بمواصلة الكفاح ·

ان الشعب الجزائرى ليس بالشعب الهين وان التاريخ يشهد بانه اطاح بجميع الامبراطوريات وان امبراطورية فرنسا التى بنيت على الكذب لا يمكنها ان تعمر فى جزائر الاحرار طويلا لان عمر الكذب قصير ولان ابن الجزائر البار الامير عبد القادر اعترف له نابوليون الثالث بانه عبقرى وان هذا العبقرى أوصى حفدته بأن لا يدخـروا وسعا من أجل الانتقام له والاخذ بثاره وثار الشهداء الابرار ·

خاتمة الجزء الأول

ان جيلنا الصاعد الذى نعلق عليه الآمال الجسام مطالب بأن يشمر عن ساعد الجد لربط ماضيه المجيد بحاضره الخلاق ومستقبله الزاهر ليبعث تراث وتاريخ أوائله ٠

ان هذا الشباب العملاق بموعد مع القدر ليقول كلمته الفاصلة فيما يخص بناء وطنه حتى يصل هذا الوطن الى أوج القمة ٠

ان شبابنا من حقه ان يكون على دراية من أن اسلافه كانت لهم الصدارة وانهم لم يدخروا وسعا من أجل الاطاحة بجميع الدخلاء ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٠

ان شبابنا يجب ان يتذكر بان الجزائر فى الوجود رسالة وانها هى التى أتاحت الفرصة لجميع شعوب افريقيا ان ينالوا استقلالهم وذلك ان فرنسا التى تمشدق حكامها بان الجزائر قطعة من فرنسا الام وانها تسحب جميع قواها من مستعمراتها الافريقية لتاتى بها الى الجزائر حتى تخضع لارادتها الشعب الجزائرى ، وفعلا نفذت فكرتها لسحب قواها من جميع ممتلكاتها وشاركت هذه القوى مشاركة فعالة فى المعارك الطاحنة فى جزائر المليون ونصف مليون شهيدا ، وكانت النتيجة الحتمية أن غلبت فرنسا وهزمت هزيمة نكراء فوق أرض حفدة عقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد القادر بن محيى الدين والمقرانى وابن الحداد وغيرهم من الصناديد الذين أثبتوا وجودهم كعباقرة وكتبوا بأحرف من نار ونور تاريخ الجزائر ٠

لقد تمكنت فرنسا أن ترغم الامير على التسليم كما تمكنت ان تحطم قادة الثورات العارمة التى اشعل نارها زعماؤنا بعد ان استسلم الامير للقضاء والقدر ، وان هـذه الثورات ان لم ينل اصحابها ما كانوا يصبون اليه من انتصار فانهم توصلوا الى هدفهم الاسمى وهو خلق وعى وافهام الخاص والعام ان بلادهم استعبدت بالسلاح وان فى مقدورهم ان يخلقوا من العدم سلاحا يضاف الى سلاح الايمان بقضيتهم وعدالتها ٠

ان تاريخ الجزائر ينتظر من الكتاب الجزائريين ان يجندوا أنفسهم لازالة كل شائبة ألصقت به وان يعملوا ما فى وسعهم لاعادة كتابته من جديد حتى يضـــع المتزمتون سلاحهم المفلول ويقولون مع الزعيم الهندى الراحل جواهر نهرو بأنه لا يوجد تاريخ فى دنيانا يصل الى الدرجة التى وصل اليها تاريخ الجزائر وان الشعـــب الجزائرى العملاق استحق عن جدارة لقب أقوى الشعوب قاطبة وان ثورته لا يمكن ان تقاس بأية ثورة وان كان القرآن معجزة محمد فان ثورة الجزائر معجزة القرن العشرين ٠

ان شبابنا الذى ساهم فى معركة التحرير وهو الآن جاد فى المساهمة فى معركة البناء نطلب منه ان يقوم بواجبه على اكمل وجه حتى تخرج الجزائر من منطقة التخلف وتلتحق بالركب الحضارى ٠

كمل الجزء الاول

يليـــه الجزء الثانى بحول الله

فهرس الجزء الأول

المراجع

ـ أمين السعيد : الثورة العربية الكبرى .

ـ شارل اندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا .

ـ ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة .

ـ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى .

ـ المقرى : نفح الطيب .

ـ مصطفى الاشرف : عدة كتب عن الجزائر .

ـ يحيى بوعزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر .

ـ ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم .

ـ مبارك محمد الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث .

ـ ابن خلدون : موجز البربر والدول الاسلامية فى افريقيا .

ـ أحمد توفيق المدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا .

ـ ابن بطوطة : عجائب الاسفار .

ـ حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس .

ـ ابن الاثير : تقويم البلدان .

ـ محمد العربى الزبيرى : مذكرات أحمد باى وحمدان خوجة وبوخربة .

ـ ابن الاثير : مختصر تقويم البشير .

ـ يحيى بوعزيز : ملف ثورات الجزائر فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

ـ ابن يوسف الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة .

ـ ابن خلدون : كتاب العبر ج 4 ٠
ـ الادريسي : صفة المغرب ٠
ـ اليعقوبي : صفة بلاد المغرب ٠
ـ ابن الجوزى : مرآة الزمان ٠
ـ ابن حوقل : المسالك والممالك ٠
ـ الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ٠
ـ ابن حماد : تاريخ العبيديين ٠
ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ٠
ـ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ٠
ـ جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ٠
ـ الذهبي : سير النبلاء ٠
ـ البلاذرى : فتح البلدان ٠
ـ ابن الاثير : اللباب ٠
ـ الرازى : كتاب الاسرار ٠
ـ ابن العماد : شذرات الذهب ٠
ـ ابن العباس : اثار الاول في ترتيب الدول ٠
ـ البغدادى : ايضاح المكنون ٠
ـ هلال الصابى : تحية الامراء في تاريخ الوزراء ٠
ـ ابن بشكوان : الصلة ٠
ـ المسعودى : التنبيه ٠
ـ الضبي : بغية الملتمس ٠
ـ صاعد بن أحمد : طبقات الامم ٠
ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ٠
ـ الثعالبي : لطائف ٠
ـ البغدادى : هدية العارفين ٠
ـ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٠
ـ الزركلي : الاعلام ٠

- اليعقوبى : البلــدان ·
- مركيسر : معجم المطبوعات ·
- ابن عزارى : البيــان ·
- مخلوف : شجرة النور الزكية ·
- جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ·
- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ·
- ابن دريد : كتاب المشتاق القبائل العربية ·
- البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ·
- ابن الجوزى : نقد للعلم والعلماء ·
- جورج مارسى : جامع سيدى أبى مروان بعنابة ·
- ابن الفقيه : كتاب البلدان ·
- الادريسى : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ·
- النوالنويرى : نهاية الارب ·
- الزركشى : تاريخ الدولتين ·
- أبو يوسف : كتاب الخراج ·
- الناصرى : الاستقصا ·
- أبو الفرين بن العربى : تاريخ مختصر الدول ·
- يحيى بن خلدون · بغية الرواد ·
- البصرى : فتوح الشام ·
- الحسن بن الوزان (ليون الافريقى) وصف افريقيا ·
- البيضاوى : أنوار التناريل ·
- أبو القاسم حوقل النصيبى : المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ·
- الازرقى : اخبار مكة ·
- الشريف الادريسى : وصف شمال افريقيا والصحراء ·
- حسين هيكل : حياة محمد ·
- ياقوت الحموى · معجم البلدان ·
- السيــوطى : المــزهر ·

ـ القزويني : عجائب المخلوقات ٠
ـ البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ٠
ـ طه حسين : الادب الجاهلى ٠
ـ الادريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ٠
ـ ابن قتيبة :المعارف ٠
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ٠
ـ ابن عبد ربه : العقد ٠
ـ اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ٠
ـ المسعودى : مروين الذهب ٠
ـ ابن هشام : السيرة ٠
ـ ابن سعد : كتاب الطبقات ٠
ـ أمين الريحانى : ملوك العرب ٠
ـ الامير محمد : تحفة الزائر ٠
ـ فؤاد حمزة : جزيرة العرب ٠
ـ حافظ وهبة : جزيرة العرب ٠
ـ نزيه العظيم : نزهة فى بلاد العرب ٠
ـ حتى : تاريخ العرب ٠
ـ مبكية : تاريخ الموحدين ٠
ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الامام عبده ٠
ـ ابراهيم الجزائرى : الزعيم زغلول ٠
ـ رشيد الشرتونى : تاريخ الطائفة المرونية ٠
ـ عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ٠
ـ اسد رستم : الاحوال العربية بتاريخ سورية ٠
ـ سعد الدين : تاريخ التواريخ ٠
ـ الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ٠
ـ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ٠
ـ ابن ميسر : أخبار مصر ٠

- العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الامصار .
- ابن الخطيب : اللمحة .
- أبو الفداء : مختار الحكم ومحاسن الكلم .
- السيوطى : بغية الوعاة .
- أبو عبد الله بن العزيز : المسالك والممالك .
- دى سيلان : الجزائر .
- الجيوتى : الجزائر .
- امبارك الميلى : تاريخ الجزائر .
- المقرى : نفح الطيب .
- ابن الآبار : الحلــــة .
- ابراهيم بن سهل : الجزائر .
- الثعالبى : يتيمة الدهر .
- نشر ملك : اخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر .
- محمد بن تومرت : الجزائر .
- ابن الخطيب : الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية .
- ابن بسام : الدخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
- ابن الاثير : ادارسة مراكش .
- ليفى بروفنسا : الحضارة الاسلامية .
- الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ الاندلس .
- ابن خنكان : نبذة من أخبار فتح الاندلس .
- عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب .

كتب للمؤلف

1 ـ الامير عبد القادر

2 ـ الاستعمار الفرنسي في افريقيا

3 ـ القضاء الفرنسي في الجزائر

4 ـ شهداء القومية العربية

5 ـ مشاريع ديغول

6 ـ ثورة الجزائر

7 ـ فلسطين العربية

8 ـ انهيار خطط الاستعمار الفرنسي في الجزائر

9 ـ اضواء على الاستعمار الفرنسي في الجزائر

10 ـ الجزائر عبر الاجيال

11 ـ الجزائر الحرة

12 ـ تاريخ الجزائر